الأرض الخراب

هيثم جواد

الرسم بالكلمات للنشر

ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

الأرض الخراب

رواية

هيثم جواد

جواد ، هيثم
هيثم جواد رواية/الأرض الخراب - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع / القاهرة: ٢٠١٨
٤١٠ ص: ١٤×٢٠
تدمك: ٨-٩١-٢-٩٧٨-٩٧٧-٦٥٠
رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٥٤٩٢

دار النشـــــر:	دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـاب:	الأرض الخراب
الكاتـــــب:	هيثم جواد
تصحيح لغـوي:	عمر جوبا
تنسيق داخلـي:	ضياء فريد
تصميم الغلاف:	إسلام مجاهد
إشراف عــام:	محمد المصري

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

elrasm.blkalemaat
elrsmblklemat@yahoo.com
٠١٠٦١٤١٩٥٥٥

شكر خاص

- لؤي جواد.
- وائل جواد.
- أميرة كاظم.
- نانيس سامي.

ولكن يا صديقي
إننا لم نأت إلا بعد فوات الأوان
حقًا إن الآلهة حية ما في ذلك من شك!
ولكنها تحيا فوق رؤوسنا في عالم آخر
وهي تعمل هناك بلا انقطاع دون أن يخطر على بالها
إننا أيضًا نحيا

من قصيدة خبز ونبيذ..
فريدريش هولدرلين.

الفصل الأول

هنا.. حيث الشمس تلفح
والشجرة الميتة لا تمنح مأوى
وصرصور الليل لا يمنح راحة..
وعلى الصخر الجاف لا تلقي أثرًا لمياه
فقط.. هناك ظل تحت هذه الصخرة الحمراء
«فتعالَ تحت ظل هذه الصخرة الحمراء»
وسأريك شيئًا مختلفًا تمامًا
عن ظلك في الصباح الذي يعدو خلفك
عن ظلك في المساء الذي يهب لاستقبالك
سأريك الرعب
في حفنة من التراب

من قصيدة الأرض الخراب
ت. س. اليوت

1

- نظرة على طريق الصعود، ونظرتان على من خلفك.

ظل يكرر ذلك لنفسه همسًا، وقدماه الكبيرتان داخل الحذاء الجلدي الأسود المتهتك، تتلمسان صعودهما بحذر.

ندى الفجر المظلم جعل حصى الجبل مبللًا، لذا أي خطوة خاطئة، تعني سقوط جسده على طول المنحدر إلى الأسفل، ناهيك عن سقوطه في أعين تابعيه. هذه المرة سيكون سقوطه نهائيًا. يشتم منذ يوم النفي، شك الرجال المتزايد في قراراته، خطأ آخر ولن يلبث أن يتحول شكهم المقموع إلى تمرد كامل على سلطته.. لن يحميه أحد الآن، اسمه صار بلا معنى منذ أن أعلن الجد قراره.

- أنت وحدك يا منصور.. أنت وحدك.

يعيد عقله تذكيره كل يوم. يرى الصخرة التي أمامه، تخفي شروخًا عميقة، تنتظر ضغطة قدم غير مبالية كي تتفتت. تفاداها برشاقة، قبل أن يلتفت إلى الخلف. ما زال تابعاه وراءه، يتبعان أثر خطواته. النور الضئيل الذي ينفذ بصعوبة من غبشة الظلام، انعكس على سلاحيهما المعلقين خلف ظهورهما بحزام قماشي أخضر باهت. يملك كل منهما عشرين طلقة، أصر هو قبل أن يصعدوا أن يترك كل منهما ست عشرة طلقة داخل السيارة.. هذا يجعل كلًا منهما يحمل أربعة طلقات في خزانة سلاحه، هذا أكثر من كافٍ لتمزيقه إذا ما رغبا، لكنه كان يريد طمأنة نفسه بأي شكل.

نظرة منه إلى الصحراء السوداء المتقرحة المترامية في كل الاتجاهات بلا نهاية، أرض الموتى التي لا تشبع أبدًا.. هو نفسه أطعمها مئات المرات، ربما حان الوقت أخيرًا لتمضغه هو أيضًا.. أليس هذا هو قدر الجميع في هذا العالم الملعون!!.. لا، لن يسمح بهذا.

ـ لا زال هناك أمل.

همهم، فضيق تابعاه أعينهما ليتأكدا إن كان يتحدث، جسده الطويل القافز فوق الصخور والرمال بسرعة، لم يتح لهما أي وقت ليتأكدا. نظرا إلى بعضهما وتابعا ملاحقته.

الريح الثعبانية الباردة تتسلل تحت ملابسه، تتجاوز جلده الخشن لتنهش عظامه ذاتها. الصحراء لعنة أبدية.. الصباح جحيم مستعر،الليل بارد قاتل. لم يعد لديهما ما يكفي من الوقود للتدفئة، كل ما يملكانه بالكاد يكفي سيارتين أو ثلاث للحركة وإثارة الغبار. إن توقفت السيارات عن العمل، سيدرك كل ساكني الصحراء ضعفهم. مع فقدانه للحماية من باقي الفئران، ستفنى جماعته في ثوان. يجب على جميع المنفيين التمسك بما يأمر به، لا يهمه حتى لو ضاجعوا بعضهم طلبًا للتدفئة.. لن يسمح بتبذير الوقود لطرد البرد، كما لن يسمح لهم أيضًا أن يشعلوا النار في الأحطاب كالأعراب الملاعين.

الأعراب الملاعين... يكرههم كما لم يكره أحدًا من قبل، هو الذي يكره الجميع منذ طفولته. البدو هم من حطموه، أوصلوه إلى مشارف الموت الذي يعانيه الآن.

ارتعد جسده الأعجف، نظر بحنق إلى السماء. يتعجل الشروق طلبًا للدفء، لكن إن أتى الشروق دون أن يصل إلى القمة، فسيغادر الغريب.

كانت هناك رنة آمرة في صوت مبعوثه، وهو يطلب منه أن يأتي دون جلبة إلى ما فوق الجبل الأحمر فجرًا قبل الشروق.

ـ نحتاج حجاب الظلمة.. قال مبعوثه.

نحتاج.. كم أهانته الأيام! مبعوث الغريب يتحدث بصيغة الجمع الآن لا بد أن يظل هادئًا، قلبه يخبره بأن ما سيقوله الغريب سينقذه.

الرغبة في البقاء هي الغريزة الأقوى منذ بدء العالم، وهو ـأكثر من الجميعـ يملك تلك الغريزة، محفورة بداخل كل جزء فيه. سعيد الفأر هو جده الأكبر، أليس كذلك؟

الرجل الذي نجا من حفرة النار، ومن عصر العطش، حتى من الغرب الهالك. ذكرى جده الأكبر أعطته حماسًا متزايدًا، فتعلق بقمة نتوء صخري، أرجح جسده مرتين، قبل أن يقفز عابرًا الشق الغائر في قلب الجبل الأحمر. هذه المرة لم ينظر إلى الخلف، قلقه من تابعيه يثير إحباطه بقدر ذكريات الماضي القريب، دائمًا ما كان ينظر إلى خليل وعمران ككلبين وفيين. منذ أن اصطفاهما، وهو موقن أنهما سيظلان معه حتى النهاية، لكن الأيام السوداء تلك أثبتت أنه حتى الكلاب، لن تظل معك سوى إلى ما قبل النهاية بقليل.. النهاية ستكون بأنيابهم.

لم يعارضا قراره المتسرع بالهجوم على الأعراب في تلك الليلة اللعينة، كان من الممكن أن يقنعاه بالتوقف، بالانتظار لليلة أخرى حتى يعيد تفكيره، تركاه يلف الحبل بحمق حول رقبته.

ـ لا تخادع نفسك.

لم يكن لأحد أن يغير قرارًا اتخذه هو. رغم توجسه من خليل وعمران، لكنه لا يجب أن يلومهما على حماقته. أصدر قراره دون تفكير، كان يغلي من الغضب وقتها، أراد أن يظهر سيد ذاته، هكذا

اعتقد الرجال. عميقًا بداخله يعلم أنه فعل ما فعله بدافع العشق، المرض اللعين الذي يمزق لحمه، ويعتصر قلبه بحزام مسنن يضيق كل لحظة..

- بجانب غطرستك، هذا هو ضعفك الأساسي، هذا ما لن يجعلك أبدًا سيدًا للفئران.

كيف تحمل تلك الكلمات من عمِّه، كيف لم يقتلع قلبه بسكينه الحاد، ويلتهمه على مرأى من الجد الصامت. الجدُّ الذي لم يعد إلا دميَة ساكنة، تنطق بكلمات العم التي تفح بالخبث. كان لا بد أن يموت المسن منذ سنين عدة، ككل من جاوز سن القوة..

لن ينكسر، قلبه يخبره بأن الغريب سيعيده إلى القدرة الكاملة.. لن يرحم وقتها أيًا من كان، ستعرف كل الفئران من هو السيد الفعلي. هذا حقه بالدم، هو سيد الفئران المنفي في أرض الموتى.

القمة تلوح لعينيه الحمراوين من طول الأرق، ارتعشت شفته الرفيعة التي يخفي أثر الشق القديم فيها، شارب احترقت أطرافه وضاع سواده بتأثير عمر من العيش تحت الشمس الحارقة..

التفت إلى الخلف، وجد تابعيْه يجاهدان كي يلحقا به. هذا جيد.. ليخبرا الجميع أنه لا زال في عنفوانه، سريع كالوشق، خبيث كالطريشة، غادر كالعقرب، قاهر كالموت. تهدجت أنفاسه وهو يتسلق الحافة الحادة إلى قمة الجبل.

وجدهم بانتظاره، ثلاثة أشباح سوداء تبدو كامتداد للصخور المظلمة.. تحسس مسدسه الذي يحمل طلقاته كاملة خلف ظهره. المعدن البارد أعطاه قدر الثقة الذي يحتاجه، فتقدم منهم.

الغريب يقف وسط جنديين من المدجنين، يرتدي حلل أهل المدن الناعمة، بينما شعره الحريري طويل، يتبعثر مع نسمات الفجر

المثلجة.. ابتسم الغريب فالتمعت أسنانه كالمصابيح. أسنان بيضاء كاملة، لا كأسنانه هو ذات الجذور البنية الداكنة والقمم الصفراء، أسنانه التي أعطته شبهًا دميمًا بالأرنب، وألصقت به الشائعة الحاسدة منذ ولادته.

- مرحى... كنت متيقنًا من مجيئك، في المرات القادمة لا تتأخر أبدًا.

صوت الغريب ناعم كشعره، لهجته ممطوطة لا سريعة مليئة بالنخر ككلام الفئران. عينا الغريب بنيتان واسعتان يبدو فيهما الجذل. أحنقت ابتسامته الواسعة وأمره الواضح في جملته منصور. نخر بغضب، وتقدم بخطوة سريعة..

في لمح البصر، أشهر الجنديين سلاحيهما الفضي ذوي العلامة الزرقاء الدائرية التي تمثل نسرًا متحفزًا. تجمد منصور على الفور، في حضور المدجنين لا يملك أي فأر فرصة على الإطلاق، هذه قاعدة لا تنسى.

تراجع للخلف، في حين رفع الغريب يده اليمنى وهو يضحك:

- لا بأس، لابأس.. أعرف أنكم لا تحبون تلقي الأوامر.. لكنك ستعتاد على ذلك.

الدم يصعد إلى أذني منصور، لهاث تابعيه اللذين وصلا يأتيه من خلفه. لا بد أن يكون باردًا صلبًا.

- طلبت وجودي.. قال مبعوثك أنك تريد تقديم عرض ما لي.

- هذا صحيح.

الابتسامة اللزجة اللعينة تتسع على وجه الغريب، لا يحب منصور الغموض، ولا يحب أهل المدن الذين تملؤهم الرخاوة..

- من أنت؟

- لا يهم هذا.. ما يهم هو ماذا أحمل لك.

بادله منصور النظر في تحدٍ:

- ليكن.. ماذا تحمل لي؟

- القوة.. هذا ما تتمناه بعنف، أليس كذلك؟

الغريب يعرفه جيدًا فيما يبدو، هذا لا يشعره بالراحة، يكفيه ما يدور في عقله في الأيام الماضية.. لا يحتمل المزيد من التوجس.

- إنني أمتلك القوة بالفعل.. الرجال بالأسفل متأهبون، لا تعتقد أن مدجنيْن قادران على قتال الآلاف.

انطلق الغريب في موجة ضحك طويلة صاخبة، تهتز كتفاه النحيلتان بشدة:

- ههههههه... ألاف!! أنت كاذب فاشل، عددكم جميعًا لا يتجاوز المائتين.. بعد كل الرجال التي فقدتهم في ترحالك، أنت وتابعاك هنا.. السيارة في الأسفل فيها ثلاثة رجال بالإضافة إلى السائق، الباقون لا يستطيعون أن يبارحوا محيط عين الماء حتى لا يأتي من يأخذها منكم... بلا ذخيرة كافية، بلا وقود، بلا طعام جدّي، مطاردين من الأعراب الذين يبغون الانتقام... إنها مسألة وقت حتى ينقلب كل المنفيين على سبب بلائهم.

خفق قلب منصور بشدة.. الغريب ذو العينين الواسعتين يقف بثقة، وأشعة الشمس المتثائبة تتلمس بشرته البيضاء الوردية..

- إنك تعلم كل شيء.. أخبرني ما تريد إذن.

- أريد أن أعقد اتفاقًا مربحًا للغاية معك، اتفاق سيجعل حتى أكثر أحلامك وحشية قابلًا للتحقيق.. ذخيرة بلا عدد، طعام أكثر من كافٍ، محيط من الوقود.. سأمنحك حتى هوفركرافت مسلحة لسحق كل من تريد.

ظهر عدم الفهم في عيني منصور الضيقتين، بينما يتراقص شاربه الملتحم بلحيته بعصبية:

- هوف.. كافت؟!!

- اه.. هوكت كما تطلقون عليها، تلك التي كانت تريكم الجحيم كلما اقتربتم من المدن.

- هوكت!!.. ما الذي تتحدث عنه؟من أنت؟كيف تمتلك كل هذا إن كنت صادقًا؟

- لا يهم من أنا.. يمكنك أن تسميني بما شئت.. ملاكك، شيطانك، إلهك.. لا يهم، ما يهم هو أن عليك ألا تعصي أوامري أبدًا.

هناك ثقة غريبة في كلام ذلك الغريب، ثقة معدية.. كلماته تعبر أذن منصور لتنبت داخل عقله واحاتٍ من أحلام القوة التي طال اشتياقه لها.

- حسنًا... وما هي أوامرك التي لن أعصيها.

- ليس الآن.. لم يحن الوقت بعد، المدجنون سيوصلون لكم كل ما تحتاجونه ما إن ننزل من فوق هذا الجبل، حتى أنهم سيرونك كيف تقود الهوكت كما تسميها.. احظَ بالمرح قدر استطاعتك، كلما نفدت ذخيرتك سيأتيك المزيد، انشر

اسمك المرعب على كل هذه الصحراء التي بلا رب.. حينما يحين الوقت ستسمع مني.

عينا منصور تسطع بشهوة تفوق الشمس التي تشرق في بطء. شبح ابتسامة يزور وجهه الذي لم يبتسم منذ عهود، فظهرت التجاعيد التي خلقها التجهم الطويل حول شفتيه. تابع الغريب:

- لكن لا تنس أبدًا.. ستكون سيدًا مطلقًا على رمال الجحيم هذه، لكن إن خالفتني ولو مرة، جيش المدجنين سيأتي خلفك.. وأنت تعلم جيّدًا ما هم قادرين على فعله.

التحذير شديد الخطر في قلب منصور، بالفعل هو يعلم ما الذي يمكنهم أن يفعلوه. حفرة النار التي تشتعل في يومها المحدد من كل عام، بيان أبديٌّ مشتعل على قسوتهم التي بلا حدود.

- حقق ما تعد به ولن أخالفك.

تمتم منصور بصوت خفيض، لبقايا من هيبة يريد أن يتركها داخل رفيقيه. أومأ الغريب برأسه راضيًا. أشار إلى مدجنيْه اللذين تأهبا إلى مساعدته في النزول من الناحية الأخرى للجبل. توقف الغريب كأنما تذكر شيئًا، وقدمه داخل الحذاء الجلدي الأسود ذي الرقبه تستند على الحافة..

- لن تراني مرة أخرى، سيأتيك مبعوثي بأوامري، كل ما دار بيننا سريّ، كل ما سآمرك به سريّ، أطلق لوحشيتك التي طال كبْتها العنان، لا تخش أحدًا... سواي.

قالها ولم ينتظر ردًا من منصور، بادر بالنزول في سرعة بمساعدة مدجنيه.

وقف منصور طويلًا فوق القمة، الريح التي بدأت في السخونة بتأثير وهج الشمس تجوس بشعره الكثيف الطويل الخشن، عيناه تلتهم الأرض الصفراء التي تترامى بطول البصر، حتى تلتحم بالأفق الأحمر.

الأفق الأحمر... سيسرق هو هذا اللون ليكسو به تلك الأرض دون رحمة..

2

نصف ابتسامة بجانب فمه، تختفي وسط لحيته الكثة، وهو يسير ببطء وثقة.. خليل وعمران فقط من يدركان أنه يبتسم. الأعين المتشاغلة ظاهريًا -والتي ترمقه برهبة سرًا- للفئران لم تعلم هذا.

لا ريح في هذا الوقت، الشمس البرتقالية الكبيرة تفقد حرارتها تدريجيًا، استعدادًا كي تغفو. ظله يمتد ويستطيل حتى يصير عملاقًا، يكسو كل من وما أمامه. المرة الأولى التي يعود فيها إلى مدينة الفئران منذ أن نُفي. يتذكر آخر مرة كان فيها يمشي فوق الأرض نصف الحجرية نصف الرملية، وعيناه الحانقتان تكافحان كي لا تدمعا. كان الغضب يأكل قلبه وقتها، وهو يرى نظرات الارتياح والسخرية في الأعين التي ترهبه الآن.

الأطلال الباقية من المدينة الكبيرة التي كانت منذ مائة عام أو يزيد، يشعر بداخله أنها ترتجف لدى قدومه. بلا شك سبقته أفعاله، التي أكسبت اسمه لونًا شديد الدكنة، لهذا طلبه الجد. رسول الجد - ابن عم لمنصور - كان ينضح برائحة الخوف الممتعة..

مشهد الرجال المسلوخين على جوانب معسكره، عطن الجثث الذي يملأ الجو، اللون الأحمر للرمال المخضبة بدماء قتلاه أفزعت هذا الرسول.الكل يهابه الآن حتى خليل وعمران.

يعرف منذ أن وعي أنه أقسى من معظم الرجال، لكنه لم يكتشف حدود نفسه المشتعلة حقًا حتى نفذ الغريب وعده، وأغرقه بالسلاح والوقود. صوت الهوكت الخاصة به، والتي ميزها بعلامة تمثل جمجمة دموية، وزينها بأصبع من كل فرد قتله، هديرها يأتي للعربان وللعشائر المنافسة في كوابيسهم ليصحوا مبللين أنفسهم.

لاحت منه نظرة إلى الأطفال الذين يقفون بجوار القدور البنية الضخمة، التي تفور بما تحويه من طعام مطبوخ. هناك فزع في العيون الصغيرة المفتوحة عن آخرها... الأطفال، لعنته الأبدية وضعفه الوحيد.

الفئران لا يتزوجون، هم يخطفون الأطفال وأمهاتهم كلما أمكن. يضاجعون النساء حتى يهلكن أو يحبلن ويلدن. يحتفظون بالأطفال للخدمة، الضعيف منهم يذوي ويموت، القوي يكبر ليصبح فأرًا بالدم. هذا قانونهم القديم، منذ أن هبط سعيد الفأر وأصحابه إلى هذه الأرض القاسية هربًا من الغرب الهالك.

في الليالي الصاخبة لفتوته الأولى، اكتشف منصور المذاق المحرم لمضاجعة الأطفال. كان برفقة خليل وعمران كما كانوا دائمًا، أحدهما -لا يذكر بالتحديد- أغراه بذلك. لم يكن منصور مغرمًا بالنساء كثيرًا، هناك حاجز ما كان دائمًا موجود بينه وبينهن، في ذلك الوقت كانوا يعانون من نقص هائل في النساء استمر لفترة ليست بالقصيرة.. اختلس المتعة الممنوعة سرًا، كما فعل معظم الفئران. حينما أسروا

مجموعة جديدة من النساء، كان هو الوحيد الذي لم ينس ما فعل... اعتزلهن، لم يقربهن من لحظتها.. الصبية هم كل ما يبغيه.

حذره جده ثم عمه أكثر من مرة، لكنه لم يجد فيما يفعله ما يستوجب الزجر. فقط القبيحون هم من يكبرون ليصبحوا أقوياء كفاية لينضموا للفئران، هو لا يقرب إلا الوسيمين.

اندفع الدم حارًا في أذنيه وصور تستدعيها مخيلته من كهوف ذاكرته لكل الصبية الذين وطأهم... كان زياد أجملهم على الإطلاق.

عينان سوداوان كحيلتان، شعره ناعم يغطي حاجبيه، بشرته بيضاء ناعمة لم تنهشها الشمس بعد.. تعلق بذلك الصبي منذ أن رآه مع أبيه الذي كان يقابل عمه في مدينة الفئران.

كانت هناك مشكلة كبيرة، زياد حفيد لأحد شيوخ القبائل المهمين، والده نفسه سيد على بطن قويّ من بطون تلك القبيلة.. وهناك عهد صنع بالدم بين الجدّ الأول للفئران وبين الأعراب، يوم أنقذوه هو ورفاقه من الموت عطشًا في نهاية رحلته المهيبة من الغرب الهالك في سنوات الفوضى والمجاعة.. أقسم الجد الأكبر أنه لن يمسهم أبدًا بسوء، هم أيضًا أقسموا له بدورهم.

زياد كان شديد الجمال، وسعيد الفأر مات منذ عصور.. والفئران الآن أقوى من أيّة قبيلة تجوب الصحراء، وهو أشرس الورثة..

ظلت تلك الأفكار تدور في رأسه بلا انقطاع، وخليل وعمران يحرقان عودًا تلو الآخر من المحراش، النبات الشيطاني يلفظ دخانه الذهبي عند الاشتعال، الدخان ذو رائحة السكر المحترق، يؤلم الصدر، يريح العقل.

مع كل نفس يصل إلى رئتيه، كان يشعر منصور بقوته تزداد، وجرأته تنمو باطراد. ربما في تلك اللحظات اتخذ القرار الذي سيغير حياته إلى الأبد. لم يعد يرى سوى العينين السوداوين، وصدى لضحكة بريئة تدوي في أذنيه، مختلطًا بذبذبات قلبه السريعة العالية..

تحسس بندقيته المحشوة وقتها، نظر بثبات إلى خليل وعمران قبل أن يعلن أمره ببطء.

كان الفجر البارد يهيمن على الكون الصامت، حينما حاوطوا مضارب القبيلة دون أدنى صوت. سبب آخر لحملهم اسم الفئران، هو سرعتهم البالغة في الحركة، وأنهم لا يهاجمون إلا ليلًا. كان هو أول من أطلق رصاصه على الخيام السوداء المصنوعة من وبر الماعز.

لم يستغرق الأمر طويلًا. الأعراب كانوا يثقون أكثر من اللازم في عهد الفئران. حينما جذب زياد من من داخل خيمته، فهم أبوه أخيرًا. ذلك اللعين صرخ حتى ظن منصور أن السماء الزجاجية الزرقاء ستتشقق وتنهار.

ذبحه خليل ببساطة حينما أمر هو. لمح بعض القلق على محيا عمران لكنه لم يهتم حينها، الملمس نصف الخشن لجلباب زياد الأبيض كان كل يهتم له، هو سيد الفئران الذي لا يخشى أحدًا. استولى رجاله على الطعام والشياه والأمتعة والنساء، حطم أحدهم فخذه وهو يراهن على قدرته على ذبح أحد الابل دون أن يعقره.

هناك الكثير من المرح، الرجال يمتلئون بسعادة الآخذ قهرًا نهرًا جديدًا من الدم يقدمونه قربانًا إلى الأرض العطشى إلى الأبد.

عكس ما يتخيله الجميع كان منصور دومًا رقيقًا مع صبيته، حنونًا ودافئًا حينما يصبح وحيدًا معهم. أمضى أيّامه اللاحقة لا يغادر مكان

نومه إلا نادرًا، أصبح الفتى الناعم مدار حياته بأكملها، حتى أتاه أمر الجد بالحضور ورجاله إلى مدينة الفئران.

الأخبار ترتحل سريعًا في الصحراء، كما في أي مكان آخر. كان يعلم مغزى الاستدعاء، رغم قناع اللامبالاة الذي ارتداه أمام رجاله، إلا أنه كان يرتجف بداخله. لقد كسر القوانين تلك المرة، عبر حدودًا لم يقربها فأر منذ الأزل.

تجمع الرجال حول عرباتهم المكشوفة ذات الدفع الرباعي، التي تنتمي لعصور قديمة، تم ترقيعها مئات المرات حتى تستمر في العمل، نظر إليهم في توجس دفين قبل أن يأمر بالتحرك. ثلاثة أيام استغرقتها رحلة جماعته حتى بوابات مدينة الفئران.. حتى لا يبدي أي ضعف أمام رجاله، اصطحب زياد في عربته القائدة بجوار خليل وعمران. ثلاثة أيام ينامون تحت الشمس الحارقة، والعواصف الرملية التي تهب دون سبب أو إنذار. يتحركون ليلًا، خليل خلف المقود، بينما يتمدد هو داخل العربة يستمع إلى تنفس زياد المنتظم، يخرج عمران سلاحه من المكان المخصص في سقف العربة في حراسة وهمية، لا أحد يهاجم الفئران.

حينما لاحت لعينيه المدينة في الأفق انقبض قلبه رغمًا عنه، المباني الرماديّة المصفرة القديمة يراها متراقصة في نهاية المدى بتأثير الحرارة..

المدينة التي بلا أبواب، ولد في جزئها الشرقي حيث يقبع السادة دومًا. كانت أمه - وصمته التي لم يرها قط - جميلة فيما يقولون، أهديت إلى أبيه من رجاله بعد مهاجمتهم لواحدة من المدن المهجورة قبل تمام الإخلاء. ضاجعها أبوه كثيرًا، قبل أن يهبها للرجال حينما

اكتفى، كان منصور ينمو في أحشائها. فرح أبوه كثيرًا كما أخبروه، رغم توسط عمره إلا أنه لم تنبت بذرته في أي رحم قط. ظلت أمُّه في الجزء الشرقي حتى أنجبته وأرضعته، لم يمسسها أحد ولا أبوه نفسه.

كان الأب يحبه بشدة قبل حتى أن يولد، عند ميلاده تناثرت الهمهمات الخبيثة، منصور الطفل لا يشبه الأب في أي ملمح، ولا يشبه الأم.. ربما هذا وعدم إنجاب أبيه من قبل ما نشر الشائعة التي تدعي أن الأم انتهكت من قبل الرجال قبل أن يهبوها للأب، أو أنها كانت حبلى بالفعل وقت الأسر... لم تجرؤ تلك الهمهمات أن تغادر الشفاه في حياة الأب السعيد.

مع فطامه، رحلت الأم إلى الجانب الغربي، استهلكها الفئران حتى هلكت كباقي النسوة.. لم يكن ذلك غريبًا، لا تملك أنثى أيّة خصوصية هنا.. مدينة الفئران للذكور فقط.

مدينة الرجال، بمبانيها التي غمرت الرمال طوابقها السفلى، فصارت كأصابع نصف مبتورة تشق جلد الصحراء، والدخان الذي ينبعث بلا توقف في جزئها الجنوبي ليلًا حيث يخدم الصغار، ودويّ الرصاص وصخب المحركات التي تزمجر في الجزء الشمالي صباحًا حيث مخازن الذخيرة ومرقعي السيارات الذين تغمرهم الزيوت والشحوم. الجانب الغربي هو الأكثر صخبًا حيث يقبع معظم الفئران، بسبابهم ومشاجراتهم التي لا تنتهي.

أحب منصور منذ طفولته ذلك الجانب أكثر من بيت السادة الشرقي حيث يشعر دومًا أنه طفل صغير.. في الجانب الغربي كان إلهًا. منذ حداثة سنه والجميع هناك ينتظر منه الكثير، أبوه كان أسطوري الغزوات في حياته. حتى مماته كان قصة يحلو للفئران سردها حول

النار في الليالي الصافية.. كان الأب مع رجاله يغزون من تبقى من أهالي مدينة مهجورة كالعادة، حينما أتى المدجنون... الكل يعلم نهاية تحدي أبناء البغايا. تتشابك الخرافة مع الحقيقة في كيفية تصدي الأب للمدجنين، يقول البعض أنه قتل أحدهم وهذا لا يصدق بالطبع، يقول البعض الآخر أنه لم يقتل بل أصاب فقط مدجنين برصاصه، لا يزال ذلك أيضًا صعب التصديق.. لم يعد أي ممن وقف بجانبه حينما واجه المدجنون حيًّا ليحكي ما حدث حقًّا. كل ما يمكن قوله بصدق هو أن رجاله عادوا سالمين في معظمهم، بينما كي يغطي فرارهم سقط هو. الشجاعة والقسوة الخصلتان الأكثر تقديرًا هنا في مدينة الفئران.

منذ نعومة أظفاره علم منصور أنه لن يبلغ أبدًا شجاعة أبيه الأسطورية، لذا اختار القسوة ليلتحف بها.. القسوة ابنة الصحراء البكر، ترضع من شمسها، تنمو مع عطشها. لم يجد صعوبة في إيجاد من يشبهونه، خليل وعمران كانا أول من رافقاه. حينما بلغ السن الذي يسمح له بقيادة سرب من الفئران في الغزوات، سربه احتوى أقسى وأشرس الفئران على الإطلاق.

يخفق قلبه كلما رأت عيناه الجانب الغربي من المدينة.. لهذا لم يعد إلى المدينة أبدًا إلا من هذا الجانب. حينما أمروهم بترك أسلحتهم عند الوصول شعر بالخوف يجتاحه، لكنه كالعادة رسم ابتسامة السخرية المصطنعة على وجهه اليابس وهو يطيع أمر الجد.

لم يفارق السلاح جانبه منذ كان في التاسعة، منذ أن حطم ركبتي أحد رفاق الرماية، أطلق التعس مزحة خبيثة حول كونه ابن أبيه حقًّا، لم يعد الآن متأكدًا إن كان الفتى حقًّا يقصد الشائعات المسمومة التي بدأ يفهمها، أم أن مزحته كانت عفو الخاطر. تلك كانت أول مرة لاحظ

فيها خليل وعمران، كانا أكبر منه سنًا وأطول جسًدا، تقدما دون طلب منه ليساعداه في تعليق جسد الرفيق البدين الباكي كالشاة، قبل أن يشعل النار فيه حيًا وقتها. يتذكر غضب عمه العارم، إلا أن ذكرى والده كانت قريبة حية تحميه من كل سوء، ابتسم جده وغمغم بأنه ابن أبيه.

أبوه الذي لا يشك أن عظامه تلوت غضبًا في قبره غير المعلوم وابنه يدخل مجلس الجد المتجهم.

اشتم رائحة ما إن دخل، رأى عمه ذا القامة العملاقة واقفًا بجوار الجد الجالس. الجد المتغضن الذي يرى بالكاد، ويده السمراء المبرقشة تقبض بوهن على الدكة الخشبية المكسوة بفراء أبيض ناصع.

عيون أقاربه من الدرجات القريبة والبعيدة تبتلعه، وهو يسير ببطء وازنًا خطواته على الأرض الملاطية النخرة، التي نسي لونها الأصلي منذ عقود. انحنى ليقبل يد الجد لكن عمه منعه بيده العملاقة التي ابتلعت كتفه كله... لم يكن استدعاءً، كانت محاكمة..

كل شيوخ العربان أتوا إلى المدينة، يذكرون الجد بعهد الدم.. يطالبون بالقصاص.. عيون جد زياد حمراء كدم ابنه القاني.

لم ينكر أيًا مما سئل عنه. حينما تعالى صياح العربان اشتعل غضبًا.. كيف يمكن للمخلوقات أن تهاجم الإله، كيف تجرؤ على أن تطمع في قصاص. نظر إلى الجد في عدم فهم، انتظر منه ان يخرس تلك الألسنة.. مهما كان ما فعله، هو من نسل سعيد الفار سيد الصحراء المتقرحة..

حديث العم الغاضب باغته. ذهل في البدء فلم ينتبه إلى ما يقوله العم تمامًا. رويدًا عاد عقله إلى انتباهه والرجل الذي جاوز الخامسة

والأربعين والذي يحمل الكثير من ملامح أبيه وأقل القليل من صفاته يخبره بأنه لو لم يكن يحمل نفس دمائه لقطع قضيبه وخاطه إلى فمه.

لم يحر منصور ردًا، ربما لو انشق الجبل الأحمر وخرجت من بطنه الأفواه التي ستبتلع العالم كما يخرف الغوغاء في أقاصي الجنوب لما كان أكثر ذهولًا وهو يسمع العم.

دارت عيناه الزائغة في القاعة عارية الأرض، رأى التماعة رضا تلوح في الأعين. هم أن ينطق، لكن جده رفع يد مرتعشة ليدفن الكلمات في حلقه. لقد صدر الحكم.. صدر منذ أن غزا مخيم أولئك العربان، مجيئه إلى هنا كان لتفادي غضبة الأعراب.. لتسكين انتقامهم.

قال الجد بصوته الذي يحمل وزن أعوامه السبعين:

- لم تعد منا بعد الآن... ارحل أنت وكل من يرغب في مرافقتك دون رجعة، لم تعد فأرًا.

إهدار خفيّ لدمه، لم يسبق لأحد من نسل سعيد الفأر أن قتل من يحملون دمه، كانوا أجبن من أن يقتلوه بأنفسهم لذا أرادوا تركه للصحراء. دون حماية الفئران، دون أسلحتهم وذخيرتهم، ما هو إلا شاة شاردة في مرعى الذئاب. شل لسانه داخل حلقه، استدار ليغادر.. أمره العم بالانتظار. دفقة من أمل تنفست وهو ينظر إلى عمه متسائلًا، وئدت وبعض رجال العم يدخلون ممسكين بزياد الرقيق من كتفيه، النظرة الفزعة في العينين الواسعتين ابتلعته تمامًا.

- هو لكم.

قال العم بصوت محايد، لكن منصور ميز فيه حسم الهلاك. دون صوت تقدم جد الفتى بعباءته الرملية خلف زياد المذعور ليذبحه من الأذن إلى الأذن. شهقة طفولية ندت في فضاء القاعة الواسعة، ما لبثت

أن اختنقت والدم ينهمر ليغرق الأرض. ظل من ابتسامة متشفية على ركن شفتي العم.

تجمد قلب منصور ثم تشقق، تفتت إلى ملايين الشظايا التي التصقت بالشعر الناعم، والبشرة البيضاء، والعينين الميتتين.

أشار الجد مرة أخرى بأصبعه المتجعد إليه ليخرج. دار منصور بعينيه حوله طويلًا تلك المرة، ليحفظ في ذاكرته كل تفصيلة مما دار في هذا اليوم. لا ينسى الفأر أبدًا، وهو أقوى الفئران ذاكرة..

عاد من الذكرى وقدماه تتفاديان دون وعي منه الحفرة السوداء المغطاة بقماش متماهٍ مع لون الأرض، حتى صار من المستحيل تفريقهما. هنا يشوي ما يأكله سادة الفئران. ذكره هذا بحفرة النار في الغرب البعيد، حيث رائحة اللحم البشري المحترق لا زالت تفعم الهواء، رغم مرور أكثر من مائة عام على المجزرة..

دار بعيدًا هو في ترحاله اليائس، تعلم الكثير مما كان لا يمكنه أن يتخيله، رأى بعينيه المعنى الحقيقي للقسوة حينما ذهب إلى حيث لم يجرؤ فأر أن يذهب من قبل، شاهد حواف الغرب الهالك، حيث انتمى جده الأكبر يومًا، رأى البشر ذوي الرؤوس المشقوقة والأجساد التي بلا أطراف، يزحفون فوق الأرض المظلمة.. يشتاقون إلى اللحم بجنون، يخرجون من بطن العتمة ليلتهموا أي غافل من حيوان أو إنسان. الأفاعي الصفراء كما أطلق عليهم رجاله في بحثهم المحموم عن مكان آمن للبقاء. رجاله الذين فقد نصفهم على الأقل في تيهه، وكاد الباقون أن ينقلبوا عليه قبل ظهور الغريب.

لم يحب طوال عمره تلقي الأوامر، لكن نظرة أعدائه المذعورين الذين طاردوه منذ أن نفي من مدينة الفئران، حينما باغتهم بهجومه المميت، كانت تستحق.

التفت خلفه ليلقي نظرة على الجوال المتسخ الذي يجره عمران خلفه بتكاسل، البقع البنية الكبيرة ورائحة النتن التي تفوح من الجوال تفعم قلبه بالسلام.

وصل إلى أهم بقاع الركن الشرقي. الرجال الذين يحرسون القاعة نصف الحجرية نصف الخشبية، تتذلل عيونهم في ترحيب. لم ينطق بكلمة، ولم يعترضوه، تقدم بنفس خطواته الرتيبة.. الجد ممدد على أريكته الخشبية وقد زادت تجاعيد وجهه.

أحب هذا المسن ويجله، هو الذي رعاه وحماه منذ نعومة أظفاره.. كان لا بد وأن يترك ليموت منذ سنين عدة رغم ذلك. صوت أقدام منصور العالي، لم ينبه الجد لمجيئه، عمه الذي كان يجلس على الأرض منفردًا هو من انتفض واقفًا بتحفز.

انتشى منصور من رائحة القلق التي لامست أنفه، أخبار ما فعله وصلت هنا بلا جدال، الصحراء أيضًا تعمق الخبر وتضخمه وتعيده للأبد كصدى يتردد بلا نهاية.. أشار بأصبعه فتوقف خليل وعمران. تفحصه العم جيّدًا بعينيه، بعض الارتياح لاح في عينيه، ثلاثتهم أعزل ترك منصور رجاله وسلاحه خارج المدينة، ما لم يفهمه العم بعد أنه لم يعد في احتياج إلى سلاح هنا بعد الآن.

مد الجد يده للأمام، ترقبت أعين أعمامه وبنيهم خطوته التالية.. تحرك بهدوء، لينحني أمام الجد ويقبل يده ذات البقع البنية الكبيرة.. حينما يموت سيد الفئران، يتصارع أبناؤه على السيادة.. الكثير من

الفوضى، والعديد من الأتباع الموتى، حتى يسيطر الأقوى ويرضخ الباقون. حالة الجد لا تخالف تلك القاعدة.. كان من المنتظر أن يخلف أبوه الجد المسن. موته المفاجئ جعل عمه الأكبر يحافظ على حياة الجد أكثر مما فعل أي فأر من قبل. عمه ليس قويًا كأبيه، احتاج الوقت حتى يكتسب القوة من تحالفات وإبعاد للمنافسين، ومنصور كان أبرز المنافسين، كلاهما أدرك منذ البداية أن لا أحد منهما سيخضع أبدًا للآخر، لم يكن أحد ليعلم كيف سيئول الأمر، قبل أن يعطي هو عمّه فرصة العمر بذلك الخطأ المخزي. رأى منصور نفسه –بعد تقبيل يد الجد– في عينيي عمه السوداوين الصغيرتين.. كان انعكاسه كبيرًا.

مرت فترة من الصمت، لم يقطعها إلا تحرك العم إلى جوار أريكة الجد ليهمس في أذن المسن. المسن العزيز الذي لم يعد رجلًا منذ زمن طويل، لم يعد إلا دميّة العم الناطقة، وقد حان الوقت أخيرًا لقطع الخيوط التي تحركه.

- بلغني ما فعلت في كل العربان، والضباع الذين يقطنون الغرب.. هذا مخالف للعهد يا ولدي.

تأمله منصور لثوانٍ، الشعر البني الخفيف الذي بالكاد يغطي مقدمة رأسه، الجسد الضامر المنحني، فأر عجوز بالفعل.

- لا توجد عهود لأحفظها.. إنني لم أعد فأرًا أتذكر؟!

قالها بهدوء شديد، وعيناه تقابل العم في تحدٍ:

- لكنك لا زلت تحمل اسم سعيد الفأر.. حتى لو نسيت ذلك، لن ينساه أحد، ربما لن يستطيعوا أن يقربوك لكنهم سيتحدون مع الوقت ليأتوا لنا هنا للانتقام.

- ربما أنت على حق... لا أستطيع أن أنكر أنني أقرب لسعيد الفأر الحقيقي من أي منكم.
- حاذر.

صاح عمه في تجهم، ابتسم منصور ابتسامته التي لا يميزها سوى رفاقه. هذا ما يريده بالضبط، غضب المذعورين الذي يجتاح عمه الآن خرج صوته هادئًا وهو يحدق في عمه بثبات.

- لست أنا من يجب أن يحاذر يا عماه.. أعتقد أنك ترى هذا بالفعل، أنت تستطيع شم رائحة القوة على المبعدة..
- ومن أين لك بتلك القوة.. الشائعات عديدة كالرمال، هل تتعامل مع المدجنين كما يقال.

هز منصور كتفيه بلا مبالاة:

- ليس هذا من شأنك، لا تتحدث عنه مرة أخرى، لا يحق لأي منكم مناقشتي.. سأقبل خضوعكم كباقي أهل الصحراء.

عدم الفهم ينسال من عيون أعمامه وأبنائهم.. غمغم العم في غباء:

- خضوعنا؟. ما الذي تتحدث عنه؟
- مدينة الفئران بأسرها ملكي من الآن.. سأقبل خضوع الجميع، لن أؤذي أحدًا.. لكن أنت يا عماه، عليك أن ترحل مع من يشاء دون سلاح أو ذخيرة.. لن تحمل اسم الفأر بعد الآن، ولندع الصحراء لتقرر أستحيا أم ستموت.

تخشب العم في غضب، الذهول يغمر الجميع إلا الجد الذي يبحر في أحلام مسنة تبتلع ذهنه قليل الحضور.

- لقد تماديت كثيرًا أيُها الفتى، أجننت حتى تتخيل نفسك سيدًا لنا.. التهديد في مجلس سيد الفئران لا يحمل سوى عقوبة واحدة.. الموت، أمسكوا به!

أشار إلى الحرس الواقفين على مدخل القاعة الحجرية.. تقدم الحراس بسرعة ليحيطوا بمنصور وتابعيه.

- قيدوهم، وألقوهم في الخارج.. سيذبحون عند الفجر.

اللعاب يغمر لحية العم نصف الشائبة وهو يصيح، أبهج هذا منصور إلى أقصى حد. رفع الحراس أسلحتهم، صوبوا في الناحية العكسية..

- ما هذا بحق ال... ماذا تفعل يا عزازي. ماذا تفعلون جميعًا؟

تقدم منصور بثقة شديدة:

- لقد أعطيتكم الفرصة لتنقذوا أنفسكم.. ولقد بصقت عليها بغبائك المعهود يا عماه، الفئران ملكي.. لا أحد في المدينة بأسرها سيرفع أصبعا للدفاع عن أي منكم، أو حتى عن هذا الهرم العزيز.

ألقى عمران بجواله ذي الرائحة الكريهة أمام المجلس، انفتح الجوال ليتقيأ رؤوسًا طازجة الحز، رأس جد زياد يدور حول نفسه بلا مقلتين.. فراغان يحدقان في الفراغ بحركة من رقبة منصور، اندفع خليل وعمران وأمسكا بالعم المهتز. أعطى الحرس منصور منجلًا فضيًا مقوسًا، عكس اللون البرتقالي الداكن لشمس الغروب الحزينة.. انحنى جوار الجد الذي يهز رأسه غارقًا في تهاويمه. تحسس منصور شعر الجد الخشن بحنان. استنشق لآخر مرة العبق المميز لرائحة المسن.

همس في الأذن التي تجعدت شحمتها، وانتشر فيها الشعر الأبيض المنتصب كغابة ثلجية قاسية..

ـ جدي.. أنا منصور حفيدك.

لم يدر الجد وجهه، لكن بدا أن هناك شيئًا من الفرحة نبعت في تغضناته.

ـ منصور!!

ـ بلى يا جدي، أردت فقط أن أخبرك أني أحبك كثيرًا.

تابع منصور نفس الهمس غير المسموع، أراح الجد رأسه الكبير على كتف منصور في طمأنينة واشتياق وهو لا يزال يتمتم:

ـ منصور.

برشاقة دار المنجل حول رأس الجد، وانزلق نحو رقبته الرفيعة، دون أن تراه عيناه الكليلتان.

ـ أنت فقط من سأفتقده يا جدي.. لكني أدرك أنك تفتقد أبي، تشتاق لرؤيته.

ـ أبوك.

خرجت الكلمة من شفتي الجد اللتين فقدتا حمرتهما منذ أمد، مصحوبة بتنهيدة طويلة وإغماضة للعينين، قبضت على قلب منصور كحية عاصرة.. صمت منصور وعيناه تتسعان لتبتلعا وتحفظا كل التفاصيل الدقيقة للوجه الهرم الخرف الذي لا يزال يحبه رغم كل شيء. ابتسم بركن شفتيه، قبل أن يغوص منجله في رقبة الجد ناحية اليسار، ويشق طريقه يمينًا مطلقًا كما لا يصدق من الدم الدافئ قاتم اللون. فتح منصور حلق الجد على مصراعيه، لثوان ظل يتأمل تدفق الدماء.. قبل أن يهوي بقبلة عميقة على الجبين البارد للجد مغمض العينين.

3

نجوم الصحراء أكثر لمعانًا وبريقًا من أي مكان آخر على الأرض، عشرات العيون الفضية التي تتأمل العالم الساكن في حكمة سرمدية..

لوقت طويل كان منصور يحب الاستلقاء على الأرض الرملية الباردة، ليحدق بعينيه الصغيرتين لأعلى متحديًا عيون السماء. أخبره جده في ليلة صافية كتلك يومًا، أن العيون الفضية المشعة، هي لآلهة غامضة صامتة، تنتظر في صبر أبديّ فعلًا بطوليًا لأحد الفئران حتى تنقذه من الأرض القاسية وترفعه ليتخذ مكانه بجوارها، هناك خلف الستار المعتم الذي يحجبها عن الذين لا يستحقون رؤيتها. وقع في عشق مراقبة السماء ليلًا من وقتها.

في اليوم التالي لوفاة والده رأى نجمًا جديدًا أكثر لمعانًا من الآخرين، يتألق وسط الليل الداكن. أيقن بداخله أن تلك هي عين والده، وأن موته الأسطوري رفعه إلى ما فوق الحجاب الأسود ليجلس منتصرًا إلى الأبد. أسعده ذلك للغاية، حبس الفرحة داخله، لم يبح بها في وقتها للجد الذي أصبح وجهه جامدًا كصخر الجبل، فلم يعد يبتسم أبدًا. رغم قناع القوة الذي يرتديه طوال الوقت، إلا أن قلب منصور الطفولي شعر –والرجل يزيد من طول احتضانه له أكثر من المعتاد– أن الجد يتألم بعمق، ربما أكثر من منصور نفسه.

أراد بعد بعض الوقت أن يحكي للجد، أراد جلب بعض الفرحة إلى قلب ذلك العزيز، الذي طالما داعبه وأطعمه. إلا أن النجم الساطع ما لبث أن اختفى كما ظهر بعد بضع ليال.. أخبر عمه.

– بطل في السماء!!!... أهذا ما تظنه؟ قال العم.

- إنه يتعفن في بطن الأرض في مكان ما، كما يتعفن كل الموتى.

تابع صرفه وهو يستهزء بأفكاره المضحكة، منعه من التحدث للجد.

- يكفي ما عاناه من جنون الأب، لا يتحمل الموقف عته الحفيد أيضًا.

سأل منصور باكيًا أحد مرقعي السيارات عن النجم، أخبره الرجل بكلام لم يفهمه تمامًا عن الآلات الطائرة التي يقذفها الرجال البيض شقر الشعر في الشمال البعيد نحو السماء، والتي تستطيع أن تكتشف أماكن الأرض الصالحة للزراعة..

منذ تلك اللحظة فقد منصور إيمانه بالآلهة الصامتة، والأبطال المنتصرين.

- لا شيء حقيقي، سوى ما هو حقيقي.

طرأت تلك الذكرى على خاطره وهو يجلس على الرمال التي بدأت تفقد دفئها، أمام مجلس الجد المفتوح على مصراعيه، والرجال تعدو جيئة وذهابًا من أمامه.

يخشى الجميع النظر في عينيه، حتى خليل وعمران في صفرة عيونهم الباهتة ظلا من خوف دفين. هذا ما سعى إليه بالضبط وهو يشعل النار في جميع أفراد عائلته أحياءً، فوق صلبان حجرية نصبت حول محيط المدينة بكاملها. أمر أن يعاد صب النفط فوق الصلبان كل ثلاث ساعات لمدة أربعة أيام، لتظل الشواهد المشتعلة رمزًا لكل من يجرؤ ويتحداه، لتدفن عميقًا في ذكريات كل من يشاهدها. تعلم ذلك من حفرة النار في الشرق، التي يدكها المدجنون براجمات الصواريخ

كل ليلة محددة شتاءً في تمام العاشرة، صدى الانفجارات يبدو كنواح أبديّ لكل من وقف أمام قوة الجنرالات التي لا تقهر.

اختار لعمه – دون الجميع- مصيرًا آخر. مصيرًا ظل يحلم به ويحفره في جنبات خياله بإزميل غضبه، منذ أن خرج منفيًا من بوابات مدينة الفئران. قيّد خليل وعمران العمَّ أمام العيون المتقافزة للفئران كلهم. قطع بنفسه قضيب العم قبل أن يخيطه في فمه، تمامًا كما هدده العم أن يفعل به في ذلك اليوم. كان العمُّ رخوًا بشكل عجيب، صرخات أبنائه وأقاربه وأجسادهم المتلوية المشتعلة التي تظهر من بعيد أماتت أيَّ إرادة كان يملكها. في الواقع لم تكن مهمة خليل وعمران هي تقييد الرجل لمنعه من المقاومه بقدر ما كانت إمساكه، ليتمكن من الوقوف حتى النهاية.. للخوف سلطان عظيم على القلوب. كان العمُّ مرعوبًا، حتى أنه لم يتفوه بكلمة سوى أنين الألم طوال الخياطة..

حينما انتهى منصور، قيّده على عمود أملس عالٍ في الصحراء، غير بعيد عن الركن الشمالي. دهن جسد العم العاري بدماءِ وأمعاء أبنائه. يتراقص الهواء الساخن فيضعف الرؤية، تسفع الشمس الجسد العاري بحرارتها التي لا تطاق، ينهش العطش الحلق الجاف. حين يجن الليل، ستأتي وحوش الصحراء من كل حدب ناحية رائحة الدم، لن تستطيع تسلق العمود الأملس لتمس العم.... فقط جرذان الصحراء الرمادية هائلة الحجم هي من ستمكنها مخالبها شديدة الحدة من الوصول إليه في النهاية..

انعكس ضوء القمر الأبيض على أسنان منصور الصفراء المتسخة في تلك اللحظة، وهو يحدق في الظلمة البعيدة إلى حيث يقبع العم الآن جرذان الصحراء أكثر شراهة من أي مخلوق آخر، لكنها لا تستطيع

أن تقضم إلا ملء فمها الصغير فقط، حتمًا ستبدأ بقضم لحم الأقدام أولًا.. سيعطي هذا العم ساعاتٍ من الألم الذي لا يمكن وصفه، حتى تصل الجرذان إلى أمعائه أو إلى شريان حيوي فينزف حتى الموت أيهما أسرع.

ما أثار منصور أكثر من أي شيء آخر، هو أنه خاط فم العم جيّدًا، الصراخ يقلل من الألم، يعطي بعضًا من الراحة، الراحة التي لن يجدها العم حتى اللحظة الأخيرة..

ظن أن انتقامه هذا سيسعده، كما داعب خياله لأشهر شديدة الطول، كان مخطئًا. جزء بداخله تمزق وهو يضع الجد في مثواه الأخير. دفنه وحيدًا دون أيّة مساعدة، حفر القبر الصغير بيديه في بقعة جرداء، لن يعلمها سواه.

لم يحب أحدًا في حياته بقدر الجد، حتى أبيه، مات الأب وهو لم يتجاوز السابعة، وحتى قبل مماته كان دومًا غائبًا في هجوم ما على أناس ما. فقط الجد رغم هيبته الكاسحة في ذلك الوقت في قلوب الجميع هو من أمده بالحبِّ الكافي.

الحنان حينما يأتي من جبّار لا يرحم، يكون ساحرًا لا ينسى. فكر كثيرًا في طريق عودته النهائية إلى المدينة في الإبقاء على حياة الجد المسن، الذي صار لا يميز شيئًا. لكنه كان يعلم بأن ذلك لن يكون في مصلحته على الإطلاق. لكي تمسي القوة مطلقة، لا بد للقوي أن يكون وحيدًا، متعاليًا بلا أي ارتباط يضعفه. كفن الجسد الضئيل بتأثير الزمن، أخبر الذين لم يشاهدوا الذبح، أن الجد كان يعاني من الأكلة.. المرض الأكثر فزعًا في الصحراء، حيث يتآكل لحم الوجه ويتساقط،

قبل أن تنتشر العدوى في باقي الجسد. المرض الذي يتهيبه الجميع أكثر من الموت.

لم يعارض حتى من رأى جسد الجد معافى. كلمات القويّ في حد ذاتها دليل لا يقبل الشك. مع مرور الأيام ستتحول كذبته إلى يقين في القلوب، ستخلق هيبته بداخلهم صورة للجد المتآكل داخل ذاكرتهم الهشة، يقسمون برؤيتها بأعينهم فيما بعد.

ظهر عمران وبيده بعض عيدان المحراش، لكن منصور أشار بيده أن لا، فتراجع. صوت غناء يدّعي المرح في الركن الغربي، يعد بغزو الجميع تحت قيادته. بالنسبة له لم تكن الليلة للاحتفال بانتصاره، دون أن يظهر هذا، كانت الليلة حدادًا على الجد الذي ذبحه بيديه.

4

الريح تشتد وتخفت،الرمال الصفراء تدور بين الحين والآخر في زوابع صغيرة، كأقماع مقلوبة.. لا تلبث أن تفقد قوتها الدافعة فتسقط هامدة بجوار شقيقاتها اللاتي تكون البساط الأصفر العظيم. يدرك منصور معنىً هذا، عاصفة رملية عنيفة، ستأتي مفاجئة من لا مكان. جو الصحراء شديد التقلب والمباغتة، والفئران تعلموا التكيف معه منذ أمد بعيد. في الحقيقة هناك ارتياح في قلبه لهبوب العاصفة.. ستجعل من مهمتهم أكثر سهولة.. يستلقي هو على بطنه فوق أحد الكثبان الداكنة، لا يمكن تمييزه على المبعدة.. ثيابه الرمادية المغبرة جعلته يتماهي مع ما حوله، كحرباء بشرية مخيفة.. ينظر بعينيه حادتي الإبصار، ناحية القضبان الحديديّة القادمة من الشرق، لا أثر للقطار بعد. خلف التباب تقبع الهوكت صامتة كالموت. لن يستخدمها في

الهجوم، يحتقه هذا قليلًا، ظهورها المفاجئ دومًا يكسبه نصف المعركة قبل إطلاق أي رصاصة.. حينما ينعكس عليها نور القمر تبدو كوحش أسطوري غاضب، كفعل للطبيعة لا يمكن مقاومته كإعصار أو بركان.. يترك نصف من يراها ـ على الأقل – أسلحتهم مستسلمين، كم يعشق ذلك الشعور.

مبعوث الغريب أصر ألا يتم استخدامها في الهجوم... لا بأس، سيهاجم هو بعض المزارعين العزل، على الأرجح لن يحتاج حتى إلى إطلاق النار من سلاحه، لا داعي للقلق. فقط الغصة في حلقه هي ما تعكر صفوه. على مدى الشهور الماضية –منذ أن أصبح السيد الوحيد للفئران – نسي منصور الغريب تمامًا خمر السلطة شديدة المفعول، تجعل لتلقي الأوامر طعمًا مرًا، مؤلمًا كخنجر يمرق في الكبد.

لذا حينما ظهر مبعوث الغريب على حين غرة على عتبات مدينة الفئران شعر منصور بالكثير من الضيق، ضايقه أكثر أن المبعوث أتى دون أية حراسة، أعزل تمامًا.. الغريب العاهر يعلم أنه يملكه بالكامل الآن، لا بأس، الحياة تتغير في لحظات، ليخضع الآن ولينتظر غدًا أفضل.

أخبره المبعوث بأمر الغريب، واحدة المزارع الضخمة دخلت في طور الجفاف الدوري، العمالة بداخلها سيتم ترحيلها إلى الملاجئ القديمة، عليه انتظار قدوم المزارعين عند محطة القطار. سيوصلهم المدجنون قبل قدوم القطار بنصف ساعة ثم سيرحلون. نصف الساعة هذه هي نافذته، عليه أن يضرب بأقسى وأسرع ما يستطيع، يمكنه خطف النساء كما يحلو له، بعض الأطفال كذلك، لكن عليه ألا يمس الرجال الأصحاء بسوء قدر المستطاع. كان ذلك غريبًا على مسامع

منصور، ازداد الأمر غرابة حينما أخبره المبعوث بأن عليه أن يظهر للرجال الذين سيتم مهاجمتهم، أن الفئران ستضاجع الأطفال التي خطفتها. اشتعل حنقًا، وقد أحس بأن في كلام المبعوث تعريضًا خفيًا به. ملامح الرجل الثابتة ولهجته الرتيبة جعلته في شك من أمره. حاول الاستفسار عن سبب ذلك، لم يعطه الرجل أية إجابات. فقط سأله عن احتياجاته من الذخيرة والوقود. فهم منصور إشارته، وخفض رأسه على مضض. ما يريده الغريب يحدث دون أسئلة أو اعتراضات، هكذا هو الاتفاق.

سيواجه بعض المشاكل في إخبار الفئران بما يجب عليهم فعله، لم يهاجموا أحدًا في ضوء الشمس من قبل، اعتادوا على الانطلاق دون رادع في هجمات النهب المتعددة، الانضباط الذي يطالب به الغريب سيكون صعبًا، أول اختبار حقيقي لقوته. اتسعت عيناه وهو يدور ببصره في الأرجاء من فوق التبة العالية ليرى كل فأر في موقعه.

خليل ينام على الأرض بجوار القضبان الكهربائية المميتة، قبل قدوم القطار يظهر اهتزاز خفيف في الأرض المحيطة بالقضيب. خليل يمتلك أذن ثعلب، هو من سيخبره متى يتوقف الهجوم.

الأفق متراقص كأنثى مغرية، يدرك منصور خطورة التحديق المستمر في الأفق المهتز، النعاس، فقدان التركيز، الشرود. تحسس سلاحه للمرة الألف. رغم سيطرته المطلقة على الجميع الآن، إلا أن شعور القلق بداخله لم ينتهِ، على العكس، تضخم وتعملق وصار بثقل الجبل الأحمر ذاته. مع القوة التي بلا حدود، يأتي شك بلا حدود.. يخافه الجميع، وهو يخاف الجميع، لا يثق بأحد. وحيد هوالآن، لا عائلة يخشى أحد انتقامها. ينام بعين واحدة، وسلاح جاهز للإطلاق

دومًا. أصبح يفكر أكثر فأكثر أن يترك الركن الشرقي ومبيت الجد ذا الظلال الكئيبة، لينام في الهوكت. هذا قرار حكيم، ما يؤخره فقط هو توجسه من وقعه على الفئران. هل سيشمون رائحة قلقه الجنوني؟مهما كان قدر ولائهم الظاهر وخوفهم، هم في النهاية رجال بلا وعد. إن أدركوا أي ضعف فيه، سيذبحونه في غمضة عين، قبل أن يستديروا لينهشوا بعضهم.

أخرجه من متاهات عقله الغبار الذي يكاد أن لا يرى حتى للعين الخبيرة على المبعدة..

ـ لقد أتوا.

همس لنفسه، قبل أن يشير لرجاله إلى حيث رأى الغبار. اختبأ الجميع في ثوان، لم يعد بالمقدور رؤيتهم.

تهادت ثلاث من مركبات الهوفركرافت تتقدم موكب العربات على شكل رأس سهم. تطير فوق الرمال بما يقرب من النصف متر، مطلقة طنينًا مستمرًا مؤلمًا للآذان. لونها الفضي عاكس للضوء بجبروت مؤلم للأعين بنفس القدر. العلامة الدائرية التي ترسم النسر القاهر تتألق تحت أشعة الشمس. هذه المركبات لم تصمم لتحمل أي نوع من التمويه اللازم للصحراء، على العكس.. هي صممت تحديدًا لتبصق في أعين كل من يراها، الأصبع الأوسط للمدن الذي يشتهي أي تحدٍ بجشع.

خلف الهوفركرافت تأتي الحافلات الضخمة، بهيكلها المستطيل الطويل، ولونها الداكن الكئيب، ونوافذها المربعة الصغيرة، التي تبرز منها الأعين المتلاحقة القلقة..

انقبضت أمعاء منصور، رغم توتره من رؤية النسر الأزرق، إلا أن الوجوه المغبرة الناضحة بالعرق، التي يميزها بعينيه الضيقتين الحادتين، أيقظت نوعًا من التلظي في معدته، كذئب يسيل لعابه وهو ينصت إلى دقات قلب غزال غافل.

توقف الموكب أمام المحطة الحديديّة التي بلا ساتر يحميها من حرارة الشمس. يقال أن تلك المحطات كانت تبنى بالقرب من النهر الأسطوري الذي يحكي عنه أبناءُ الصحراء في الليالي الموحشة.. خرافات مخابيل كما يرى منصور،هذه الصحراء لم تجرِ فيها نقطة ماء منذ أن ولد، في كل من قصوا عليه حكاوي النهر البائد، لم يعرف أحدًا رأى النهر بعينيه، أوهام العطشى ولا شك.. لا شيء حقيقي إلا ما هو حقيقي.

نفض أفكاره، والمدجنون ينزلون المزارعين من حافلاتهم، ليقفوا في طوابير طويلة متساوية.. حدق منصور بعينيه، لا يملك المزارعين أي إرادة على الإطلاق، يتحركون برخاوة واستسلام كالصلصال الذي أهداه إليه جدّه يومًا في طفولته. أثاره هذا قليلًا، يشتهي كل الكائنات الضعيفة بجنون.

ما إن أتمَّ المدجنون تنظيم المزارعين، حتى عادوا إلى مركباتهم بسرعة.. بدت الحيرة في الأعين المرتعبة، لم يسبق من قبل أن ترك المدجنون أحدًا قبل وصول القطار. كما اعتادوا، لم ينطق أحد المزارعين بكلمة.. انطلقت مركبات الهوفركرافت إلى الشمال، قاذفة ذرات الرمال الدقيقة لتغمر الطوابير المتراصة الداكنة..

انتظر منصور حتى اختفى الغبار في الأفق، شعر بداخله أنه حتى لو هاجم، قبل اختفاء مركبات المدجنين، فلن يعودوا لحماية أولئك ذوي البشرة السمراء الداكنة.. الغريب قوي حقًا، أيقن منصور.

رفع قبضة مضمومة، فخرج الفئران من جحورهم التي بنوها على عجل في صفرة الصحراء. دون صراخ أو صوت، اندفعوا في سرعة لا تصدق، كقطيع جائع نحو طوابير البشر الغافلة التي تنتظر القطار.

كيف يمكن أن يثير هولًا لا يُنسى في نصف ساعة فقط؟راوده السؤال طويلًا منذ أن أخبره مبعوث الغريب بما عليه فعله. فكر كثيرًا تحت السماء السوداء، وهو يستنشق الدخان الذهبي الذي يفتح الأبواب الأكثر غورًا في قصور قسوته. الطلقات النارية لن تجدي، الموت السريع النظيف الذي تحدثه، لن يعلق بالأذهان المشوشة.. يريد أن يحفر علامته إلى الأبد في الأمخاخ، يريد مشهدًا لا يزيده الزمن إلا هولًا في حكاوي العجائز. وجد الحلَّ أخيرًا، عند إشارته، وقفت مجموعة من رجاله ببنادقهم الآلية في شبه دائرة بعيدة نوعًا عن المزارعين.

اندفع بنفسه، هو ومن اختارهم بأسلحة بيضاء لامعة، أخرج منجله المقوس شديد الحدة.. الرؤوس المقطوعة لمعارفك وعائلتك، ستطاردك حتى القبر أكثر من أي شيء آخر. بقر بطنًا ضامرة لرجل أخذته المفاجأه فتجمد في مكانه، مع ضربته الثانية لفخذ أعجف، أذهله الارتخاء الهائل لمواجهيه. اعتمدت الأغنام على رعاتها قرونًا طويلة، فنسيت حتى كيفية العدو من الذئاب الجائعة.. عمران بسيف متوسط يشق به أنثى حبلى بقوة هائلة، انفجر الدم كما لو كان من بشرة عملاقة، وهوى جنين غير مكتمل لتلعقه الصحراء المشتعلة..

كانوا خمسمائة فأر، ما بين ممسك ببندقية، وبين ذابح للمزارعين. عدد ذوي البشرة الداكنة يتجاوز الأربعة آلاف. أمسك منصور بالشعر القصير لطفل لم يتجاوز التاسعة، رفعه فوق الأرض. توقف قلبه عن النبض لحظة في انتشاء، حينما غزت أنفه رائحة الذعر الحيواني القادمة من الطفل. ابتسم في اشتهاء، وهو يلقي بذلك الطفل إلى عمران الذي تقدم بسيفه المتوسط خلف منصور. لوهلة تلاقت أعينهما في فهم، هوى عمران بمقبض سيفه على فك الطفل، فغاب عن الوعي للحظته.

تفرس منصور في العيون الزائغة المرتجفة.. زوج من الأعين انقلب من ذعر إلى غضب. صراخ قادم من قلب الغبار، الذي يدور بجنون حول محطة القطار. سمع منصور نفس الصراخ من قبل في ليلة هجومه على العربان، وسيسمعه لوقت طويل قادم. يندفع نحوه جلباب مغبر زيتي اللون، مهترئ. ذراع مشعرة تهوي بصخرة إلى حيث كانت رأسه منذ لحظات.

منصور الفار، سريع كالوشق، خبيث كالطريشة، غادر كالعقرب. رأى هجوم الأب المندفع قبل أن يحدث بوقت طويل. انحنى برشاقة، تطيش ضربة الرجل الخرقاء، غرس منجله في خصيتي الرجل، قبل أن يجذب المنجل لأعلى بقوة جبارة من عضلات ظهره النافرة.. علق المنجل في عظام القفص الصدري، فلم يستطع شق الرجل إلى النهاية.. عينا الرجل تتسعان عن آخرهما من الألم، الدم يغرق الأرض كسيل حبسته السماء لعقود. منصور الفار قاهر كالموت.

ابتسم منصور ووجهه يكاد أن يلامس وجه الرجل المحتضر، اندمجت رائحة اللحم المشوي مع رائحة الجبن والبصل الصادره من أنفاس الرجلين. تلاقت الأعين، ظن منصور أن وجهه هو آخر ما يراه

الرجل، لكن قبيل النهاية، تحركت العين السوداء التي تجمع بعض الصديد في ركنها، لتعبر خلف منصور، لتفتش قبل أن تستقر على الفتى النائم على الأرض فاقدًا للوعي. آهة أخيرة من عمق الصدر، خرجت نافثة رائحة البصل.

اليقين بأن الموت هو مصير أكثر راحة مما ينتظر فتاه، ملأ العينين بيأس مطبق. غمر هذا منصور براحة لا يمكن وصفها. هز منجله العالق في صدر الرجل، فتحرر. هناك صوت لتمزق الجلد البشري، لا تستطيع الأذن العادية تمييزه، صوت لا يشبه أي صوت آخر. تعلم منصور من صغره احترام هذا الصوت... الموسيقا الخفيضة للمحتوم.

تشنج الرجل للحظة قبل أن يتوقف جسده عن الحركة للأبد. نزع منصور منجله ليتدلى بجانبه، وقطرات من الدم الأحمر القاني تهطل منه على الأرض الصفراء اللامعة، القطرات التي سيتغير لونها إلى البني الداكن بعد بضع ساعات ما أن تتوقف خلاياها عن الحياة.. تهاوى جسد الرجل كتلة واحدة، كمبنى قديم.

أخرج منصور من انتشائه إشارة خليل على المبعدة... القطار قادم. أمسك كتف عمران، فهمه تابعه للحظتها، صرخ في الفئران ليبدأوا تراجعهم السريع. يقبض كل منهم على امرأة، بعضهم يمسك بأطفال. ثوانٍ ويختفون كأنما لم يكونوا قط.

قبل أن ينطلق منصور بدوره، استوقف عينيه مزارعٌ متوسط القامة بعيد عن مكانه، يرتدي جلبابًا كان أبيض اللون في يوم ما، تتهدج أنفاسه اللاهثة، واللون الأحمر يغرق القماش الرث فيلصقه بجسده. خلف بنيته التي حرم عليها الفقر والبؤس الشحم، يظهر رأس صغير مرتجف خائف. لم يدر منصور للوهلة الأولى لمَ استرعى الرجل انتباهه. قبل

أن يهز رأسه ليبتعد، لمح حجرًا قانيًا في يد الرجل اليسرى، وجد أحد الفئران مكفنًا بغبار المعركة.. هذا المزارع قد قاوم... الغضب الوحشي يشتعل في المقلتين الحمراوين، لكن صوت مبعوث الغريب يلكزه.

ـ لا بد ألا يراكم أحد.. غادروا قبل وصول القطار.

أشار بأصبعه بعلامة الذبح إلى الرجل، الذي أدار يده اليسرى خلف ظهره ليحمي - أو ليستمد الشجاعة - من ابنه الصغير ذي السبع سنوات.

قفزتان واختفى منصور خلف التل العالي، صوت القطار واهتزازات الأرض من تحته يملآن الصحراء الآن.

كان منصور محقًا... بعد أن اختفى الفئران بدقيقة، أتت العاصفة الترابية من اللامكان لتلف العالم تحت عباءتها.. لا فارق بين قطار متحرك، أو أحياء مرتجفين، أو موتى ساكنين.

الفصل الثاني

إنّي تركت زوجتي بلا وداع
وإن رأيتم طفلي الذي تركته على ذراعها بلا ذراع
فعلّموه الانحناء!
علّموه الانحناء!

من قصيدة كلمات سبارتاكوس الأخيرة
أمل دنقل

1

ـ اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

كبح إسماعيل ابتسامته بصعوبة بالغة، ربما لو كان الوقت نهارًا لاستطاع الشيخ الساداتي رؤية الابتسامة المقيدة، لكن الظلمة –لحسن حظ إسماعيل – كانت هائلة.. ضوء القمر شاحب طفل، لا يستطيع أن يمسَّ الأرض بأصابعه البيضاء الصغيرة.. عاد الشيخ الساداتي إلى أذكاره الخفيضة بعد دعائه العالي.

مد إسماعيل يده ليساعده على عبور الحاجز الخشبي المفرغ بأرابيسك سيئ الصنعة، تقليد بائس لما كان قديمًا، والذي يحتل أسفل باب الزاوية.. الزاوية التي يطلقون عليها مسجدًا دون سبب مقنع سوى العادة.. الشيخ كليل البصر ليلًا، لكنه حاد السمع في كل الأوقات. لذا وصلته أصوات الغناء، ودبدبات الرقص القادمة من الطرف الآخر للمزرعة..

زهرة ابنة بهلول وزينات تتزوج الليلة.. تعمد الشيخ الساداتي صباح اليوم في خطبة الجمعة لعن المعازف والقيان، اللذين حرمهما الله، ولا يرضى بهما رسوله. كان ذلك تحذيرًا مبدئيًا لبهلول الغارق في سنة من النوم، مستندًا إلى أحد عمدان الزاوية القلائل المصنوعين من حجر زال طلاؤه الأبيض وتقرح، متلمسًا بعضًا من هواء غير ساخن يداعب قطرات عرقه التي نبتت تحت تأثير رطوبة الجو الخانقة.. في تحذير ثاني، استوقف الشيخ بهلول وعبد الراضي ـ والد العريس– بعد الصلاة في حضور إسماعيل، ليكرر كلامه عن إثم الرقص والغناء.

بعد قليل أدركوا أن بهلول الموافق على كل شيء بهزات من رأسه الكبير لا يفهم معنى المعازف أوالقيان. اغتاظ الشيخ وأصرَّ على شرح المعاني باستفاضة مع الاستشهاد بالعديد من الأحاديث وفتاوى الفقهاء العظماء وبهلول يغالب نعاسه. كان نهار الجمعة لذا استمر الشيخ في شرحه دون خوف من غضب الملاحظين، الذين - واليوم عطلة - يغطون في نوم ثقيل على الأرجح. انتهى الدرس الطويل أخيرًا بعد أخذ العهود على بهلول وعبد الهادي بأن لا يكون هناك أي غناء أو رقص في هذه الليلة حتى تصبح مباركة..

بهلول يخاف امرأته، ربما أكثر مما يخاف الله الممثل في عقله البسيط بالشيخ الساداتي.. لذا ما إن صرخت فيه وهو يخبرها بعهده، حتى انطلق عدوًا إلى مبيت الملاحظين ليأخذ منهم الإذن بإقامة الفرح ليلًا. بعدما انتهى الشيخ من عقد القران عند المغيب، غادر الجمع السعيد بسرعة وسط الزغاريد إلى الطرف الآخر إلى القرية، حيث يمكنهم الفرح بحرية.. لم يغب خبث المرأة عن فطنة الشيخ بالطبع، ما إن أنهى أذكاره حتى صاح:

- ألا لعنة الله على النساء.. هن أكثر أهل النار لسبب.

عاد إسماعيل ليكافح ابتسامته بصعوبة أشد. يحب هوالشيخ الساداتي كثيرًا في الحقيقة.. أطلقوا عليه منذ طفولته «صبي الشيخ»، حيث إنه كان يقضي معظم وقته بعد انتهاء العمل داخل الزوايا يحفظ القران سمعًا... ربما لو تعلم القراءة وقتها لصار شيخًا مثلهم، كان ذلك الطريق الأقرب إلى قلبه، لكن لا شيء يشتهيه الإنسان في الدنيا ويحققه.

طوال سنوات عمره الأربعين مر عليه أكثر من ستة شيوخ لزوايا مختلفة في مزارع مختلفة، أكثرهم عصبية دون منازع هو الشيخ الساداتي، عصبيته مغلفة بخفة دم عارمة، تلقائية غير مقصودة.. لهذا يواجه إسماعيل دائمًا وقتًا عصيبًا في إظهار الجد وقت غضب الشيخ.

الجو في هذه الليلة خفيض الرطوبة بعكس الصباح، مشبوب برياح هادئة باردة.. ساعد إسماعيل الشيخ في المسير حتى أوصله إلى عتبة داره، ذات الغرفة الواحدة الواسعة، فالشيخ الذي جاوز الخامسة والستين أرمل لم ينجب. قبض الشيخ على ذراعه قبل أن يرحل إلى داره:

ـ إسماعيل يا ولدي... لا تقترب من جمع الآثمين هذا.

ابتسم إسماعيل هذه المرة دون خوف، ربتَ على الكتف المسن ذي العظام الناتئة..

ـ لا تقلق يا سيدنا... إنني لا أحب مثل هذه الأشياء.

ما قاله يحمل بعضًا من الحقيقة، بالفعل لا يحب إسماعيل جو الغناء النسائي أو مشاهدة الرقص في الأفراح، بجانب الاعتبارات الدينية، كان يرى في ذلك ابتذالًا لا يستسيغه.

ما لم يبح به للشيخ، هو أن امرأته سعاد وابنه ياسين في العرس، يشاهدان الرقص على استحياء، إلى أن يفرغ هو من صلاة العشاء، ليعود بهما إلى الدار.

سعاد مريضة للغاية منذ عام أو يزيد، شيء ما لا يدركه يسري داخل جسدها، يسرق حيويتها. الهزال يتمكن منها يومًا بعد الآخر، حتى قاربت أن تصبح جلدًا على عظم. قدرتها على العمل صارت معدومة أو كادت. اضطر إلى الإلحاح على الشيخ الساداتي حتى يذهب

معه إلى أمام بيت الملاحظين، يدخل وحيدًا ليشفع لها في تغيير عملها إلى فصل الثمار قليلة الجودة عن عالية الجودة، هذا عمل لا تقوم به إلا النساء في شهورهن الأخيرة من الحمل، لذا مضغ القلق قلبه وهو يقف محتميًا بالأشجار التي تخفي المبنى، منتظرًا عودة الشيخ الساداتي إليه بالبشرى أو الخيبة.. وفق الأشيب في مسعاه، احتضنه إسماعيل طويلًا قبل أن يقبل يده المعروقة، لم يسحب الرجل يده سريعًا، تركها قليلًا في تلذذ لم يبد واضحًا له نفسه.

حتى ذلك العمل البسيط كان كثيرًا على جسدها الواهن، ما باليد حيلة، الجلوس في المنزل بلا عمل يعني الترحيل الفوري. اكتشاف ضعفها البالغ يعني الترحيل الفوري. الترحيل.... سيف مسلط فوق الرقاب المحنية.. لا أحد بلا عمل في المزارع، القواعد صريحة وقاسية، لهذا تباطئ الشيخ الساداتي وماطل طويلًا قبل الذهاب. إسماعيل يكره الإلحاح، يكره التذلل، لكنه استجدى طويلًا دون كلل.

- إنها سعاد.

كان دائمًا ما يهدئ تبرمه الداخلي بتلك الجمله وهو يطارد الشيخ الساداتي بكلماته ورجائه. أتى الإلحاح بثماره في النهاية، الشيخ في كل الأحوال ذو كلمة مسموعة - أو هكذا يعتقد إسماعيل - عند الملاحظين.

كان من المفترض أن تشعر سعاد براحة أكبر عند تغيير عملها، لكن إجهادها - الذي تجاهد كي تخفيه - صار واضحًا أكثر فأكثر. دون أن يشعرها صار هو من يقوم بتنظيف الدار ورعاية ياسين وإطعامه. خوفه من الذهاب بسعاد إلى العيادة ذات الضوء الباهر والسمعة المقبضة، جعله يتسول أي وصفة بلدية من أقرانه ونسائهم في

أي مجلس يجمعهم. الآلاف من أوراق الزنجبيل المخلوطة باليِنسون والنعناع تلوت في الماء المغلي، بداخله يدرك عدم جدوى ما يفعله، الحاجة الإنسانية اليائسة لفعل شيء ما لمساعدة أنثاه هي ما جعلته يستمر ولا يتوقف.

شديد الصبر والحلم والتهذيب هو، منطوٍ قليلُ الكلام حتى قبل مرض سعاد. يمتلك قوة بدنية لا بأس بها، رغم عدم امتلاكه لعضلات ملفتة البروز، يمتلك العصب كما يقولون، لم يتشاجر مع أحد قط. لكن مع طول مرض سعاد واليأس الذي ينمو حثيثًا بعقله ويقاتل هو حتى لا يصل لقلبه،أمسى عصبيًا للغاية في تعامله مع ياسين، صغيره الغض الذي يحبه أكثر من الحياة.. لكن الفتى في طور الطفولة المشاغبة، وإسماعيل لا يحتمل المزيد من الأعباء.

الخميس الماضي،صرخ في وجهه كثيرًا قبل أن يصفعه. كانت الأطفال تلعب وسط الأرض الترابية الواسعة، أمام المنازل الخشبية القابلة للفك، يلقون بالحجارة على بعضهم في نزق. أصابت واحدة ظهر حسين التابعي أحد أسخف أهل المزرعة على الإطلاق. صرخ الرجل وماج، حتى أفزع ياسين فتجمد بينما هرب رفاقه. حضر إسماعيل. الطفل المرتبك المذعور أعلن وهو ينشج أنه لم يقصد، وأن الظلمة المتكاثرة أعمت تصويبه، حسين أصر على أن الصغير كاذب، وأن ما أصابه لم تكن قطعة من حجارة، بل كانت روثًا متجمّدًا. على مضض اضطر إسماعيل للاعتذار للرجل السمج.

التابعي يمتلك علاقاتٍ قوية بالملاحظين، يتردد على مبيتهم بصفة دوريّة، المزارعون في خلواتهم يتحدثون عن زيارات زوجته الليلية للمبيت أيضًا، تخرصات بسبب الحسد والحقد في الغالب،

يعرف إسماعيل ذلك، لكن في ركن ضئيل مظلم من قلبه ابتهج لتلك الأحاديث.

في العديد من المزارع التي عمل فيها، عرف إسماعيل الكثير من طراز التابعي هذا. الطراز الذي لا يمتلك أي حسٍّ أخلاقيّ، الساعي خلف مصلحته الخاصة على حساب أي إنسان. الغريب أن ذلك الطراز هو الأكثر نجاحًا على الدوام. أول من يتم اختياره للعمل في المزارع الجديدة، بينما أشباه إسماعيل يتركون تحت رحمة بندول القسمة والنصيب.

امرأة التابعي همهمت قبل تلك الحادثة بتعجبها لنقل سعاد إلى انتقاء الثمار، لا يحب إسماعيل الصدام بطبيعته، في هذه الأوقات خاصة لا يمكن المخاطرة بصدام مع حسين التابعي بالذات.

كل تلك الأفكار والضغوط انفجرت في لحظة واحدة لسوء حظ ياسين التعس، آلمته دموع الطفل التي تألقت تحت ضوء القمر الشاحب، آلمته أكثر الابتسامة المتشفية على شفتي حسين التابعي.

ربما لهذا السبب لم يعارض حينما طلبت سعاد بخجل منه الذهاب إلى الفرح الذي سيقام ليلًا. كان ياسين مختبئًا خلف الدكة القديمة متلصصًا، عندما سمع موافقة إسماعيل، اندفع في فرحة طفولية ليعانق فخذي إسماعيل الواقف بقوة.. ابتسم حينما استرجع تلك اللحظة وهو يترك عتبة الشيخ الساداتي متجهًا نحو الفرح ذي الصوت العالي.

لا توجد أضواء قوية، الملاحظون سمحوا بإضاءة ثلاثة مصابيح متوسطة الحجم فقط،استثناءً لانقطاع الكهرباء الإجباري من بعد صلاة العشاء على كل البيوت الخشبية.. هذا كرم كبير من الملاحظين، عوضًا عن النور الكهربائي الشحيح، أشعل أهل المزرعة العديد من

مصابيحهم الخاصة، التي يتم إنتاج وقودها من بقايا زيوت المحركات التي ترفع الماء من باطن الأرض والتي يتم سرقتها خلسة بكميّات ضئيلة.. يسمون هذه المصابيح كلوبات، لا يعرف إسماعيل معنى أو أصل الكلمة، قد ورثوها جميعًا كالعديد من الأشياء الأخرى دون أن يسألوا عن معناها. وسط الشقاء تأتي لحظات السعادة عزيزة للغاية واستثنائية، حتى أنها تجبر الجميع على الكرم المفرط غير المنطقي. إسماعيل نفسه ـ دائم القلق من القليل الذي يمتلكونه - سمح لسعاد أن تأتي بكلوبهم بزجاجه الرقيق ذي الشرخ الخطير الذي يسري من القمة إلى النهاية المدفونة في المعدن زيتي اللون، والذي يحتم عليهم أن يكونوا شديدي الحذر في التعامل معه.

رغم سلاطة لسان زوجة بهلول، وعدائها السريع المفاجئ لكل من يخالفها، إلا أن إسماعيل - أيضًا - ترك سعاد تأخذ بقايا الطعام الجاف الذي يتسلمونه في الوجبات الثلاث التي توزع عليهم. مرت على إسماعيل أكثر من فترة جفاف في مزرعة تلو الأخرى، عاش أحزان الرحيل إلى الملاجئ، حيث الآلاف المنتظرون بلا نهاية للعمل في مزرعة جديدة، حيث قسوة المدجنين التي بلا حدود، وقلة الطعام وندرة الماء القادم من المدن... إن أتى.

لكل تلك الأسباب كان دائمًا ما يأمر سعاد وياسين بحفظ نصف وجباتهم على الأقل ودفنها في الأرض الرملية في وعاء من الفخار، محاطًا بقماش صوفي أسود. في نهاية كل أسبوع يخرج ما بباطن الأرض ليأكلوه قبل أن يفسد، ويبدأوا في تخزين وجبات الأسبوع التالي، في مرات ترحاله السابق، كان وحيدًا بلا زوجة أو ابن، لهذا يحاول الاستعداد كي يجعل رحلتهم أسهل حينما تأتي.

تعرف سعاد كل ذلك، تعجبت كثيرًا وهو يطلب منها أن تأخذ الطعام المدفون معها إلى الفرح. لم تفهمه، وهو لم يشرح لها، كان يريد أن يخبرها أن الفرحة أكثر ندرة من الطعام في هذه الدنيا، لكنه صمت ولم يتحدث. في كثير من الأحيان يجد أن الكلمات ترف لا يمتلكه سوى الملاحظين.

ظهر لعينيه الجسد الضئيل المنكمش لسعاد وهي ممسكة بصعوبة بياسين الذي تتقافز قدميه على أنغام النقر على الأخشاب المجوفة، وصوت الغناء الذي يتشابك بين حناجر أنثوية وذكورية يداعبه. صوت النَّاي في الخلفية غير ملاحظ، لكنه أنشب نفسه في قلب إسماعيل فتخدر، الناي شيطانه الذي لم يستطع أن يغلبه قط، الصوت الذي يأتي بكل الكلام دون كلام.

ابتسم لثوانٍ... تذكر كلمات الشيخ الساداتي، حاول خنق ابتسامته بوازع من ضمير متألم، خطوات طفله الراقصة، والبهجة الشائعة في وجوه الحاضرين هزمته. حيا بهلول وعبد الراضي بهزة من رأسه وهو على مبعدة.. ربت بحنان على الكتف العظمي لسعاد، التفتت إليه بوجهها الشاحب المرهق. يراها الآن كما رآها في الملاجئ لأول مرة، زهرة رقيقة تنبت بمعجزة وسط صحراء سوداء كالهوة.. لو كان يملك الكلمات لأخبرها حقيقة كم يحبها، لأخبرها أنها وثمرة بطنها العالم بالنسبة له، لكن ترف الكلمات ـ ككل ترف آخر- لم يصبه قط. فقط اتسعت عيناه مقتنعًا أنها تفهم ما بداخله دون صوت. أراحت رأسها المتعب على كتفه لأقل من ثانية، كافية ليخفق قلبه.

- أبي.

صرخ ياسين بفرحة حينما داعب إسماعيل شعره الناعم كشعر أمه، فأخرجه من تيار النشوة الطفولية الذي كان ينعم به. عاود ياسين احتضان فخذ إسماعيل بحب، سرعان ما ينسى الأطفال الإساءة التي ينالونها من هؤلاء الذين يحبونهم. تنهد إسماعيل خفية وظلت أذنه تبحث عن صوت الناي المدفون تحت الصخب لفترة، قبل أن يعود بأسرته إلى الدار.

2

صوت الشيخ الساداتي يصرخ في النسوة النائحات، المتشحات بالسواد كغربان عملاقة.. الألم يغرس فأسًا جديدة في تربة قلب إسماعيل المجهدة بالأساس.

- النواح يؤلم الموتى.

يصيح الشيخ، النواح أمطار من ملح تسقط على الجروح المتقيحة لروحه. يفكر هو.

الغروب وقت الموت والفقد والضياع، يقف إسماعيل وعيناه مفتوحتان مثبتتان على القبر الذي صنع كيفما اتفق وسط الرمال المتكلسة خارج المزرعة، عيناه يناديهما الظلام القابع بداخل الحفرة السوداء التي أرقد فيها جثمان سعاد إلى الأبد. عيناه مفتوحتان ولا تبصران، أذناه تصغيان ولا تسمعان. ياسين وأترابه يتقاذفون الحجارة الرملية التي تتفتت ما إن تصطدم بهم، ياسين يضحك بعد بكاء الصباح، بينما الشيخ الساداتي يصر على ألا توجد علامة مميزة فوق القبر. ضحكات الصغير الفرحة تخمش ما تبقى من ثبات إسماعيل، هذا البريء الغافل لا يدري بعد ما فقده. يهتز إسماعيل يمنة ويسرة

بشكل خافت متكرر لا إرادي، والشيخ يتمتم بدعاء الميت، بينما السماء تزداد دكنة في كل لحظة..

الموت يبدو دومًا بعيدًا عن الذهن، غائرًا في غياهب الوقت، لذا حينما يأتي يكون مؤلمًا قاهرًا. رغم أن حالة سعاد كانت تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، إلا أن قلب إسماعيل ظل يتشبث بالأمل، ويستعيذ دومًا من الخواطر السوداء. جُبِلَ الإنسان على التعلق بالأمل حتى لو كان واهيًا كخيط العنكبوت أو متهاويًا كشمعة على مشارف الانطفاء.

انتهوا من ردم القبر تمامًا. عيناه تميزان حجرًا أبيض اللون كروحها يقبع بجوار القبر تمامًا... سيكون هذا كافيًا لتذكر مكانه إلى الأبد في أوهامه، ما يخشى البوح به لنفسه هو أن سنواتٍ من الغبار ستسير دون رحمة فوق قبرها ملايين المرات حتى لن يمكن تمييزه بعد ذلك أبدًا.. سعاد العزيزة ستنام وحيدة... مهجورة إلى الأبد.

ـ ألن تأتي؟!

يسأل الشيخ الساداتي، لمحة من تعجل يلمحها إسماعيل في عيون المشيعين، هناك لهفة للعودة إلى بيوتهم، في أحداقهم راحة أنهم ليسوا هو.

يهز إسماعيل رأسه ببطء.. ضمة القبر مريعة كما قيل له منذ طفولته، لن يترك زهرته خائفة في أكفانها ويرحل.

ـ وحِّدِ الله، لا دائم إلا وجهه.

مط الشيخ الساداتي شفتيه، وهو يغمغم بكلماته الرتيبة والتي فقدت معناها من كثرة تكرارها.

لو قدر للشيخ الساداتي أن يسمع أفكاره وهو يلملم جلبابه على المبعدة حتى لا يكلل بالرمال التي بدأت حركتها النشيطة مع حلول المساء لاستعاذ بالله منه شخصيًا.

أرضعته أمه الرضاء بالنصيب في كل الأحوال، والنظر الدائم لنصف الكوب الممتلئ. كلما تسائل عن شظف العيش، قيل له دومًا أن ينظر إلى أولئك الذين لا يمتلكون شيئًا على الإطلاق.

ـ حالنا أفضل من أناس كُثر.

لكن قلبه خفية تساءل، لِمَ يكون هناك بالأساس من لايمتلكون شيئا... تساءل كثيرًا. في سواد الليل الكئيب الجاثم على جسده، فوق الحشية التي بالكاد لا زالت متماسكة.. كانت عيناه المراهقتان تبحران في السماء من فوق سطح البيت هربًا من الحرارة الخانقة.. تعلم أن يقمع تساؤله، أن يغرق آماله التي لا تأتي أبدًا بالنظر إلى من هم أكثر بؤسًا. هكذا كانت تفعل أمه، وهكذا كانت تفعل أمُّها من قبلها، سلالة طويلة من الصابرات، ربما وصولًا إلى حواء نفسها. لكن الألم هذه المرة شديد الوطأة..

لم يكن إسماعيل ضعيف الايمان أو خنوعًا قط... في الواقع هو آتٍ من صلب بعض مشتعلي الإيمان... والد جده المثال الأكبر على ذلك. كان أحد الرجال الذين تجمهروا في المدينة البيضاء، ليتمردوا على حكم الجنرالات بعد خسارة الحرب الثانية في الجنوب، والتي تبعها احتضار النهر الذي كان يروي الأرض منذ الأزل. سمع إسماعيل شتى الحكايات عن الرجل منذ أن بدأ الحبو.

عينا أبيه كانتا تترقرقان كلما تحدث عنه بخفوت، دائمًا ما يذكر اسمه بخفوت. وكأنما سنوات المطاردة والبطش التي تلت ما فعله الرجل لا زالت ظلالها حيَّة في خيال الأب.

ما فعله الجنرالات بالمتمردين ساهم أيضًا في أن تعيش أسطورتهم محفوظة في القلوب، تتوارثها الأجيال حتى بعد أن نسيَ كل شيءٍ آخر.

كان ذلك قبل خلق المدجنين، حينما تراجع الجنود وظهر أن انتصار المتمردين صار واقعًا. يتنهد أبوه وهو يحكي عن العدل الذي أرادوا نشره، وعن حق الناس أن يكونوا سواسية، لم يفهم إسماعيل وقتها معنى سواسية، لكنه كان يعرف أن العدل هواسم من أسماء الله الحسنى... اسم الله والتماعة عين الأب الطيب، مزيجٌ سحريٌّ يكسو قلب إسماعيل الصغير.

تزداد التماعة عين الأب، قبل أن تتحول إلى دمعة مكبوتة لا تغادر المحجرين أبدًا. وقتها يخبره عن اللحظة التي دكت فيها الطائرات وراجمات الصواريخ المدينة البيضاء تمامًا.... مئات الآلاف قبروا في أماكنهم تحت أطنان من الحجارة المشتعلة، غيرهذا اسم المدينة إلى حفرة النار. في الليلة الأكثر قسوة وبردًا من كل شتاء، حينما تمضغ الريح الأجساد والرمال والحجارة فتتلاصق كل أسرة أمام النيران التي لا تدفئ. يشعرون برجة خفيفة، وصوت كصفير مشروخ بعيد يأتي ضعيفًا ممتزجًا بنواح الريح، يزفر الأب ليخبره أن الجنرالات يدكون حفرة النار بصواريخهم في ذكرى الجحيم الأول. يتوجه إسماعيل بعينيه الواسعتين المليئتين بكل حيرة الدنيا إلى ظلمة العالم التي تلفهم، يسأل مرتعدًا وعقله ينسج عشرات المشاهد المرعبة للبشر الذين احترقوا أحياءً؟

- ولمَ لمْ ينقذ الله من طالبوا بعدله؟!!

يتغير وجه الأب، يخبره عن الشهادة، وعن جده الأكبر الذي يهنأ بالجنة التي لن يشم ريحها الجنرالات أبدًا. تلك قسمة عادلة، الفقراء لهم الجنة في النهاية، وهي أبدية..

غادر رفاق ياسين مع أهلهم من المشيعين. تقدم الطفل بوجل بقدميه الصغيرتين العاريتين، والتي تغمر أصابعها الصغيرة الرمال الصفراء والغبار البني. لا سعاد الآن لتغسل قدميه في سرعة حتى لا يغضب إسماعيل.

جلس الصغير بجواره، هبة من نسيم بارد اخترقت جلبابه فاحتضن جسد إسماعيل طلبًا للدفء. رفع إسماعيل ذراعه اليمنى، فغرق الطفل في صدره، دافنًا رأسه في حضنه. أحاطه إسماعيل بذراعه. عليه أن يظل قويًا من أجل ذلك العزيز. الكثير من الأفكار السوداء التي تعصف برأسه، والتي يجب أن يكافحها من أجل ياسين.

مثل الخنفسة السوداء اللامعة التي رآها في صغره مع أترابه، مهما أهالوا عليها من تراب ليدفنوها، دائمًا ما كانت تحفر طريقها إلى السطح. هذا ما عليه فعله، عليه أن يحفر طريقه كي يحيا طفله.

صفير دوامات الغبار يصل إلى أذنيه من بعيد، لاحظ هو ذلك منذ فترة، يعرف معناه. سعاد كانت تحتل كل تفكيره، فنسي. لم يشكْ أحدٌ آخر في ما شكَّ فيه، ساعده ذلك على إقناع نفسه بأنه مخطئ. الآن يعلم تمامًا... سنواتُ الجفاف قد حلت!

ليست هذه أول مزرعة يعمل فيها منذ أن أتى إلى هذا العالم. هو ابن هذه الأرض، تعلم الإنصات إلى الزرع والتربة والريح، دائمًا ما

يندرون قبل مجيء الجفاف، قبل حتى أن يعلم الملاحظون بآلاتهم العجيبة..

ستغلق المزرعة لخمس سنوات قادمة، ستتفكك البيوت الخشبية وتخزن، ستنقل أشجار الزيتون إلى أرض تخلصت من جفافها.. ستغلق المزرعة وسيرحل الملاحظون إلى أماكن جديدة.. فقط هم المزارعون من سيعودون إلى الملاجئ، حيث الماء والطعام يأتي به المدجنون بكميات أكثر ضآلة من هنا... حيث أعوام من البؤس وانتظار الطلب على مزارعين لمزرعة جديدة.. كل شيء رهن بالنصيب، قد يطول انتظاره مع ياسين شهورًا أو سنين.

لا زال هو على عنفوانه، لذا حظوظه ليست بالقليلة، لكن ككل شيء في هذا العالم، لا يعتمد العمل على القدرة كما يعتمد على امتلاك المعارف.. وهو لا يمتلك أية معارف، يراهن نفسه على أن التابعي سيجد عملًا في غضون أسابيع، بينما هو من سيواجه الفاقة، هو وياسين.

ياسين.... انتبه إلى ارتعاد الصغير. برد الليل جائع، يشتهي الجسد الطفل ليمضغه. رغمًا عنه تأهبه للعودة، رفع ابنه المرتعش واحتضنه بين ذراعيه. استدار ناحية القبر الذي بدأت الرمال في العبث بملامحة..

- وداعًا يا زهرتي... لا تقلقي ياسين في عيني. غمغم دون صوت.

تخيل وجهها، رغم تجاعيد المرض ظل جميلًا، كما في أول مرة طالع عينيه. دمعة أخرى ترقرقت في عينيه، كالعادة سجنت في مقلتيه. بدأ سيره الطويل في الليل نحو المزرعة، والضوء الأبيض للقمر يفرش الأرض أمامه. بطرف عينه تأكد من نوم الصغير. ازدادت ذراعه

أحكامًا حول الجسد الهش المسترخي، كأنما يبغى إدخاله من بين ضلوعه ذاتها إن استطاع، ليحميه من كل العالم.

أطلق زفرة طويلة، قبل أن تبدأ شفتيه في التمتمة:

ـ يا لطيف.. يا لطيف.. يا لطيف.

المجربات كما تدعى، ترديد اسم من أسماء الله، الاسم الذي يناسب الموقف الذي يطلب فيه العون. الشيخ الساداتي لم يحب ذلك قط، في الواقع استاء من إسماعيل للغاية حينما عرف أنه يؤمن بتلك البدع كما يسميها. لكن ما الخيار الذي يملكه إسماعيل.

ظهرت بوابة المزرعة والأسوار الحجرية العالية بلونهم الأخضر الذي يستحم بنور القمر. مدجنان في نوبة حراسة ينظران إليه هذه النظرة التي لا تملك أي معنى أو شعور.

مع كل خطوة تبعده عن قبر سعاد، ينزف قلبه ألمًا. توقف للحظة أخيرة قبل الدخول من بوابة المزرعة.. ألقى بنظرة طويلة إلى حيث خمّن أن قبر زهرته يقع، دمدمة خفيفة من ياسين أجبرته على معاودة المسير نحو داره.

ـ يا لطيف....

3

كان صباحًا كئيبًا في المزرعة.. كل صباحات إسماعيل صارت كئيبة منذ أن راحت. الشمس مسجونة خلف غيم داكن، عاقر، يوحي بمطر لا يأتي أبدًا. حرارة الشمس الخانقة، قاهرة، تعلن عن وجودها حتى من خلف الغمام.

أعلن الملاحظون الجميع أن سنوات الجفاف قد حلت، أن الرحيل سيكون خلال أيام. البؤس الذي كانوا يلعنونه كل يوم، أهل المزرعة صاروا يعتبرونه نعيمًا هاربًا مقارنة بما هو قادم. خلق الإنسان بخوف دائم مما هو آتٍ، الحاضر مهما كانت قسوته يحمل الاعتياد المطمئن الوَّادع.

رأى إسماعيل بكاء النساء واحتضانهن لكل شيء، الخوف من المستقبل أضفى على كل الزائل سحرًا لا يقاس، حلاوة ممزوجة بمرارة الفقد الذي صار قريبًا. لن يفهم إسماعيل هذا أبدًا، الحياة لا مكان فيها للتعلق بمكان.. الحياة طواف لا ينقطع، رحلة بلا مستقر، كل الأماكن زائلة، كل الرفاق مفارقون... حتى أكثر من أحب في حياته،جسد مسجى تحت الرمال الغاضبة.. هذا هو المستقر الوحيد.. تحت الأرض. كل ما فوقها هو رحيل أبدي، مع الوقت لن يتذكر الأمكنة التي كان بها، ولن تتذكره الأمكنة..

حبّات تراب وسط رياح حائرة، تهب من الغرب تارة ومن الشرق تارة، وهو يدور مع الرياح. ينادونه للتعداد النهائي فيقف، يطلبونه لتحميل الأشجار فيكون، يلملم حاجيات الشيخ الساداتي الذي يرحل مبكرًا مع الملاحظين فالشيوخ لا تعيش في الملاجئ. يضع الكتب التي تحمل أوامر الله ونواهيه داخل الحقيبة القماشية الواسعة، ملابس المسن النظيفة تطوي في حقيبة أخرى. ساعات ويختفي كل ما يملكه الشيخ، لتصبح داره فارغة كأنه لم يكن بها قط. منذ سنين أيقن إسماعيل أن هذا هو السبب في أن الرائحة لا تعلق أبدًا بالجدران... الجدران الخشبية التي يتم تفكيكها في دقائق لتتكدس فوق بعضها،

قبل أن تحمل لتركب في مكان آخر، لشيخ آخر ربما. رائحة سعاد نفسها غادرت في اللحظة التي رفع جثمانها البارد من الدار.

يتوه مع دوامات العمل، ويده لا تفارق ياسين. الطفل ملول، يرغب في اللعب مع رفاقه الذين نسيهم أهلهم في غمرة الجلبة والحركة، لكن إسماعيل قد وعد سعاد في قبرها أنه لن يتركه أبدًا.. وهو لم يكسر لها وعدًا في حياتها، وبالقطع لن يفعل بعد رحيلها. لا يتوقف ياسين عن الأسئلة، يجيبه مرات ويتجاهله أخرى. فضول الصغير لا يرتوي ومله زاد من إلحاحه، جذب يد إسماعيل عدة مرات حتى استسلم والتفت إليه متنهدًا ليسمع سؤاله.

ـ هل تحلم الأشجار؟

رأى الصغير الشجرة اليابسة في حلمه بالأمس،أورثه إسماعيل موهبته السوداء فيما يبدو. أسئلة الصغير تأتي دائمًا لتفاجئه بما لا يعلم.

ـ لا أعلم، ربما.

قال وهو يدور بعينيه في المكان عسى أن يجد عملًا لينسى فيه أفكاره.

ـ بم يحلمون؟

إن لم يجب سيستمر السؤال طوال اليوم، الفضول لا تسكته مشاغل، لن ترويه سوى إجابة..

ـ بالحركة..

أجاب بأول ما خطر على باله. صمت ياسين ورفع عينين مبتسمتين. ابتسم هو الآخر وعقله يكمل الخلاء جوار ياسين بخيال سعاد. الإيمان يسكن قلبه بأنها حوله وتراه.. في ليلته الأولى بعدها،

تقلب على الفراش لساعات وساعات. نفس الصغير المنتظم بجواره أراحه من القلق الدائم بشأنه لبعض الوقت، القلق الذي رغم إنهاكه لعقله دونه يصبح المجال فارغًا تمامًا ليتأمل وجعه، جدران حياته القبيحة الموحشة دون طلاء.

استعاذ بالله، وأغمض عينيه.. وقتها أتت هبة من نسيم غامض من لا مكان لتداعب وجنته المشتعلة وسط الجو الحار. ربما كان نسيمًا عاديًا يأتي من قلب الصحراء المترامية الأطراف لما بعد حدود الإبصار، قلبه أصر على أنها لمسة حانية من سعاد، لم تنساه ميتة في قبرها كما لن ينساها هو حيًا في قبره. تمتمت شفتاه بالاسم الغالي لمرات عدة كالورد قبل أن تغفو عيناه.

العربات العملاقة تحمل الأشجار التي طالما رعاها منذ يومه الأول هنا. الأشجار أقرب إليه من كل الجدران والطرقات المغبرة التي يبكيها المزارعون، فهي تشبهه تمامًا، قاسيًا لحائها البني الخارجي، بداخلها النسيغ السائل الطيب، الذي دائمًا ما ينبت ثمارها في كرم. فرغ من تحميل آخر شجرة، وقف مجاهدًا الغبار الذي تثيره العربة وهي في طريقها إلى الخارج. تتجه شرقًا، فبدت وكأنها تطارد قرص الشمس المحجوب عن الأبصار في السماء المكفهرة..

لم يتبق وقت طويل على رحيلهم، الأشجار أغلى من البشر هنا. حينما يتم الاطمئنان على سفرها يبدأ التفكير في رحيلهم هم. قلل تمامًا من وجباته في الأيام الماضية، مخزنه للطعام الجاف قد امتلأ.. لكنه لا يزال يراه غير ممتلئ كفاية.. الطريق طويل، والمسير صعب. الأكثر إثارة للفكر هو كيفية التصرف في الحصول على الماء. كل شيء في المزرعة بقدر، خصوصًا الماء. كانوا يملأون أوعية متوسطة

في بداية كل أسبوع من العربات الكبيرة ذات الخزان الضخم. ومن مخزونهم يقضون حاجاتهم، ويستحمون، ويشربون. الآن هم في نهاية الأسبوع، وإسماعيل يعلم أن الملاحظين لن يأتوا بعربة الماء قبل الرحيل، لا أحد سيشغل عقله باحتياجات المزارعين. لا بد له أن يتدبر حاجة ياسين الطفل وحاجته. على الأقل ما يكفيهم طوال رحلة العودة إلى الملاجئ المغبرة..

لمعت الفكرة في عقله المرهق بعد طول تنقيب. كعادته بدأ في ترديد اسم الله الرزاق. عاد إلى دار الشيخ الساداتي، التي بدأوا في تفكيكها.. لم يكن المسن هناك. رآه إسماعيل على المبعدة، يتحرك مترنحًا تحت ثقل حقيبتيه الثقيلتين. قدما ياسين الصغيرتان لن تساعداه على الإسراع، رفع الطفل على كتفه بسرعة.. انطلق مهرولًا خلف الشيخ، محاذرًا أن يسقط ياسين من فوق كتفه بفعل العرق الذي ينضحه جسده. لحق الشيخ قبالة المسجد الذي لم يقربه أحد بعد لتفكيكه فبعث ظلًا مريحًا غمر جسد إسماعيل المهتاج.

ـ يا شيخ ساداتي.

التفت إليه العجوز متفاجئًا. رأى إسماعيل لمحة من عدم الراحة في العينين الضيقتين للشيخ، لكنه لم يتوقف كثيرًا عندها.

ـ لي طلب يا مولانا.. أرجو ألا تخذلني فيه.

ـ لكنني متعجل يا إسماعيل.. الملاحظون على وشك الرحيل.

ـ أعرف يا سيدنا.. لكن حاجتي ملحة، ولا ملجأ لي سواك.

الامتعاض يظهر من حركة اللحية البيضاء الخشنة التي تكسو وجه الشيخ كالضباب، يهتز شاربه كفأر محاصر.

ـ لا ملجأ لنا جميعًا سوى الله، ماذا تريد؟

شرح له إسماعيل بكلمات مختصرة حاجته إلى الماء، كل ما يريده هو الوصول إلى بقايا الماء الموجود في خزان الملاحظين الكبير الذي يعلو بيتهم الأبيض المربع، رشاشات مياه الأشجار أفرغت بالكامل أمس فلم يتمكن من الحصول حتى على نقطة ماء. بدا القلق على وجه الشيخ الساداتي.

ـ لا.. لا أستطيع هذا.. لا يجوز اقترابك من مبيتهم.

ـ أرجوك يا سيدنا.. ياسين غض، لن يتحمل رحلة طويلة كتلك دون ماء.

ـ لا.. لا يمكنني.

خذلان قاتل يغمر قلب إسماعيل، لم تكد تمر ساعات كافية للنسيان منذ أن ساعد الشيخ في حزم حقائبه.

ـ أرجوك يا مولانا.

الشيخ متعجل، قدمه قلقة تتأهب للحركة وترك إسماعيل. تحرك ياسين فجأة بعد أن أنزله إسماعيل على الأرض، ليمسك بجلباب الشيخ الساداتي:

ـ لم تجعل أبي حزينًا يا شيخ؟

الكلمات الطفولية النزقة، والعينان الواسعتان التي يبزغ فيهم تساؤل بريء واضح.

ـ اسكت يا ياسين.

غمغم إسماعيل، برغم كل شيء لا يمكن الحديث مع حامل كتاب الله بأسلوب لا يليق.

ابتلع الشيخ لعابه، وأشواك من ضمير تخز جنبيه، تنهد بصوت مسموع قبل أن يقول:

- الأمر لله.. تعال معي وأنا سأحادث الملاحظين،لكن لا تأمل كثيرًا.

هز إسماعيل رأسه في فرح، رفع صغيره من الأرض، احتضنه لثانية قبل أن يعيده فوق كتفه، ويعاود المسير خلف الشيخ.

الأرض غريبة للغاية، رغم الرمال والغبار وسنين الجفاف التي بلا عدد، ما إن تستشعر ولو قليلًا من الماء حتى تعاود الإنبات، حتى ولو مجرد زرع شيطاني أخضر بالكاد. تأمل إسماعيل ذلك.. وقدمه الحافية تحتك بالعشب القاس الذي ينبت بلا ترتيب ولا زراعة، كلما اقترب من مبيت الملاحظين.

الأرض أكثر نداوة هنا، جلد قدميه رغم قساوته وتحجره وشقوقه المتشابكة المتقاطعة كمتاهة بلا مخرج، نحتتها سنوات من السير بلا نهاية عاري القدمين، لا زال يميز التغيرات الطفيفة في التربة من تحته.

تشقق السحاب أخيرًا تحت وطأة الشمس التي بزغت دون أن تخفف من الجو الخانق، انزلقت في نصف القوس الغربي من دورتها الأبدية.. دقات قلب إسماعيل تزداد وتيرتها وهو يرى الهيكل الهائل لمبيت الملاحظين.. الدار المستديرة البيضاء التي بنيت من الحجارة والأسمنت والمعدن لتبقى، بأبوابها الصغيرة ونوافذها الزجاجية التي تعتم حينًا وتشف حينًا حسب رغبة من بالداخل. حولها جدار من الأشجار الخضراء التي لا تثمر، سور أخضر يخفي عن المزارعين حياة الملاحظين، ويثير الخرافات والحكايات في العقول المجهدة وسط الليل الداكن البارد.

أبطأت خطواته رغمًا عنه، هذه النقطة هي أقصى نقطة اقترب فيها من قبل من مبيت الملاحظين، كان وقتها -كما هو الآن - مضطرًا، منتظرًا الشيخ الساداتي. الشيخ لم يتوقف للحظة، بل اقترب بخطواته المسرعة المترنحة من السياج الأخضر. أجبر إسماعيل قدمه على التحرك، الحاجة أقوى من الرهبة، أقوى من الخوف. ظهر فوق السطح الناصع أطباق دائرية من كل الأحجام، وخازوق معدني كبير يكاد أن يطعن بطن السماء.. كلما اقترب اخترقت الصمت نغمات وأصوات غريبة على أذنه معدنية الصدى، وهمسات وهتافات بلغة لا يعرفها.

مسَّ ظهر الطفل المنبهر فوق كتفه ليستجمع شجاعته. إنها مخاطرة، في وقت آخر لم يكن لأي شيء أن يجعله يقترب من هذا المكان إلى هذا الحد. الخوف من الطرد من المزرعة كان هاجسًا دائمًا في قلبه، لهذا كان دومًا أول الذاهبين إلى العمل، آخر المغادرين، أول المتقدمين إلى عمل يقال له -زورًا - تطوعيًا. الآن لم يعد ذلك الهاجس منطقيًا، في كل الأحوال هو عائد إلى سكنى الجحيم رغم كل اجتهاده الذي كان.

لا يستطيع المخاطرة بجلب ياسين معه خلف الناحية الآخرى من حائط الأشجار، ولا يقدر قلبه على تركه وحيدًا هاهنا. لم يكن ذلك طبعه على الدوام.. خلق الإنسان بقدر معين من الحب -كما يعتقد - يوزعه كما يريد القلب، حينما تتناقص الأحباب يزداد حظ من تبقى في مقدار الحب الذي يغمرهم، لم يعد له الآن سوى ياسين لذا...

أنزل الطفل بعد صف الأشجار مباشرة.. أمره في حزم بالبقاء حيث هو، أمره بالانتباه إلى ما تحت قدميه على الدوام. في بدايات سكنى المزرعة، قام هو وباقي الرجال على مدي شهور بصيد ومطاردة

الثعابين والعقارب التي تجتاح أي مكان مهجور. المنطق يقول أن ما حول بيت الملاحظين يجب أن يكون أكثر أمانًا من ديار المزارعين الذين لا يساوون أي شيء. الحب لا يؤمن بالمنطق. طلب من الصغير أن يمسك بحجر متوسط الحجم -أعطاه هو له- في يده على الدوام، ليقذف أي شيء يقترب منه حتى البشر. يعلم جيدا أنه ما أن يغادر حتى يلقي ياسين ذلك الحجر من يده، ويبدأ في اللعب.. لكنه لم يكن يملك خيارًا آخر.

ترك الطفل وحيدًا، وجد في السير ليلحق بالشيخ الذي لا يلتفت خلفه، أبهر عينيه ما يرى. الأرض عشبية خضراء من غير سوء. وسطها أصص كبيرة الحجم مستطيلة، تمتلئ بأزهار متعددة الألوان، مختلفة الأحجام. تملأ الجو رائحة لم يشم ما يماثلها جمالًا في حياته التي لم يعرف فيها سوى طعم الشقاء ورائحة العرق. الريح قادمة من خلفه، من وسط الأشجار، فتخلع هناك ثيابها الرملية، وتأتي متمهلة عارية ناعمة منعشة.. ملأ الهواء جلبابه فتوقف لثوانٍ، يستحم دون مياه. هناك دائرة رخامية نحت وسطها طفلٌ عارٍ يخرج الماء من فمه، يصطدم رذاذ الماء بنور الشمس ليخلق عالما سحريًا من سبعة ألوان. كل الخيالات التي رسمها سهاده للجنة، هزمت أمام ما يراه الآن.

- إسماعيل!!

الصوت الخافت صارم. انتشله من العالم المسحور.. الشيخ الساداتي الغاضب على المبعدة يشير إليه بأن يأتي. استجمع حواسه بصعوبة، انتبه الآن للمدجنين الذين يرتدون زيهم الموحد اللامع، وهم يتحركون بنشاط نمل بني في كل الأنحاء. منهم من انحنى ليبقر أصص

الزهور من أحشاء العشب. هاله أن منهم من يطوون العشب ذاته دائريًا كالسجاد،اختفت المياه التي كانت تخرج من فم التمثال.

تحرك بسرعة ما إن انعكس الضوء على النسر الأزرق في زي المدجنين. طوال عمره وهو يخاف من النسر الأزرق دون أن يحتك بحامليه أبدًا.. حكاوي الأب عن المطاردات التي تبعت حفرة النار وهلاك الغرب لا زالت منقوشة على جدران مخه. انتزعوا ابن السلف المحترق، شابًا جديث الزواج من بين أحضان امرأته، من أمام طفله الذي لم يتجاوز العامين.. آخر من عرفوا القراءة من أجداد إسماعيل. كل من يملك صلة قربى بالمحروقين في حفرة النار قبض عليه النسر الأزرق بمخالبه شديدة الطول والحول. مئات الآلاف اختفوا كما أخبره أبوه. عاد منهم القليل.. عادوا ليواجهوا سنوات العطش التي لم تمهلهم وحصدتهم حصدًا، لم يموتوا قبل ينسجوا حكايتهم، بذروا بذرة الخوف في عقول المحظوظين الذين نجوا، البذور التي نبتت يرويها خوف كل جيل، أينعت في عقل الأب، تعملقت في ذهن إسماعيل... معتقلات ما تحت الأرض، حيث نور الشمس يبدو كحلم فاسد منسي. السقف الرمادي الواطئ، الذي تخترقه أسطوانة لا يتجاوز قطرها خمسين شبرًا، تأتي بالهواء من فوق الأرض. الجدران الكالحة المعدنية التي تعتصر الأجساد المتلاحمة وتحتفظ بالحرارة ولا تفقدها. زنازين بلا عدد فاغرة أفواهها، تبتلع الآلاف الذين يصلون عرايا منهكين مهتوكين، تخصى أحلامهم وأفكارهم قبل الولوج إلى البطن الأسمنتية الجائعة على الدوام.

العديد نفقوا كالبهائم من قلة الهواء وفساده، أو من الجو الجحيمي الذي يستمد نيرانه من لهيب الصحراء، ويستعر بالأنفاس

وحرارة الأجساد المتلاصقة المضغوطة.. صراخ المعذبين وبكاؤهم لا ينتهي، الأصوات تتلاحم حتى تصير غير مفهومة، السب يمازج الرجاء، من يناجي إلهه ومن يلعنه، من يهاجم السجان ومن يعبده. لكن قلوب الجنود وأسيادهم أقسى من الخرسانة الملتهبة التي هي قدر الجميع. مع الوقت تموت الأصوات والرغبات، الراحة الوحيدة أصبحت هي المسير تحت سيول من سياط إلى مبنى التحقيق الصغير فوق الأرض من وقت لآخر، خمسون ثانية من الألم الممض، لكنها ثوانٍ تحمل أيضًا هواءَ الصحراء الجاف الذي تتمزق له الرئتان في انتشاء. التحقيق يختتم بالموت في الغالب، والموت صار الأمل الوحيد للأجساد المنهكة..

يطول الوقت حتى يفقد مَن تحت الأرض التمييز، الساعات تصير سنواتٍ، الأيام تصبح قرونًا، السنين تمسي بطول الأبديّة وثقلها. في النهاية حينما فاق عدد المسجونين قدرة السجانين، انتقوا بعشوائية من ظنوهم أكثر خطرًا، أو أكثر نفعًا... تختلف الحكايات والتفسيرات. ما لا يمكن الشك فيه هو أن الجنود صهروا أطراف الأبواب على من بالداخل، فصارت لا يمكن فتحها ولو تكاتفوا جميعًا، حينما انتهوا أطلقوا فيضانًا من المياه... فيضانًا من المياه والجميع يعاني في كل الأنحاء من أجل قطرة.. العقاب يأتي ببذخ دائم في هذه الأرض على مر تاريخها المظلم الطويل.

قبر غال من أسمنت ابتلع الجميع. في كوابيسه رأى إسماعيل ما جرى، فرحة اندفاع الماء في اللحظات الأولى، الكل يعب منه عبًا، أتى باردًا في البدء من خزانات الضباط خارج هذا الجحيم، لم يهتم أحد بمدى قذارته، القلق يتكاثر في عقول الأذكياء وهم يرون اندفاعة الماء لا تتباطئ، ومنسوبه يعلو باستمرار، الرغبة في البقاء توحشت داخل

الصدور. الأقوياء بدأوا في الوقوف على أجساد الأضعف، المصير يلوح في الأفق. يشمل الكل. لكن المعظم اشترى بالدم بضع دقائق زائدة من هذه الحياة التعسة، نأى حلم إسماعيل بجده من أن يكون ضمن هؤلاء، لذا رسمه وهو يتسلق الأركان دون قتل، يفرد جسده النحيل على سطح ماء صار ورديًا، وهو يخلط الدماء باللعاب بالمخاط. تملكت عضلاته التشنجات التي لا بد وأنها تملكتْ عضلات الجد المرهقة وهو يتفادي ما حوله في حركته الدائمة للوصول إلى الأسطوانة التي تخترق السقف، عل الفيضان يتوقف قبلها. احتار كثيرًا فيم تكون الأفكار الأخيرة للجد في تلك اللحظات، هل تذكر أمّه أم زوجته أمْ ابنه الرضيع؟اختار أن تكون اللحظات الأخيرة تشهدًا ودعاءً لله، هكذا تصبح نهايته أكثر راحة.. أكثر عظمة.. يستمر اندفاع الماء ويزداد الاقتراب من النهاية.. وجه جده المتخيل يكافح من أجل هواء لن يأتي، بينما المسافة بين البشر والسقف الكافر تضيق باستمرار، رأى وجه الماء يحمل رؤوسًا منتفخة، وأطرافًا متشنجة، وغائطًا طافيًا، جده يصارع حتى اللحظة الأخيرة، قبل أن يهزم رأسه السقف. الماء يندفع كالحمض ليمزق الرئتين، جرح لا يحس يمزق فروة رأسه من شهقته الأخيرة اللاإرادية.. يموت مفتوح العينين.

الكوابيس... لم يعرف إسماعيل غيرها طوال حياته، الحلم خادع خطير، يجلب الاشتياق المؤلم للمستحيل، بينما الكابوس يحمل راحة حين الاستيقاظ، ينبت الشكر على الحال. تستمر حكاوي الأب، لتنشئ قانونًا في العقل الباطن لطفله، قانونًا أكثر قوة من الحرام الذي تربى على اجتنابه.

غضب سادة المدجنين ليس بأقل قوة من غضب سيّد السماء، الخوف يتجرعه الأطفال مع لبن أمهاتهم، مع أنفاسهم حتى يستطيعوا النجاة في هذا الزمان الخطر، يحكون لهم ما فعله الله بثمود وعاد وقوم لوط، يخبرونهم ما فعله الجنود بأبناء المتمردين.

الأيام تزداد دكنة، جملة لا يفتأ يكررها الأب، قبل أن يعود ليكمل حكاياته. وقتما كان الأب صغيرًا، كانت الكهرباء لا زالت تصل إلى الجميع، تنقطع كثيرًا نعم، لكنها كانت موجودة على أية حال. بعد موت الجد في المعتقل ذهب الضباط والجنود بمن اختاروهم إلى المعتقل الأكبر في العاصمة.. وسط الرحلة المهلكة في الصحراء القاسية.. هلك الغرب.

الانفجار الذي ظل والده يذكره حتى مات، الضوء المنبعث في قلب الليل كشمس هائجة، الزلزال الذي شعر به الأهل رغم أن موقع الموت ذاك كان على بعد مئات الكيلو مترات. رفاق الجد الذين عادوا حكوا كيف أن الضباط أوقفوا العربات لحظة الانفجار ليطلقوهم في تيه الرمال العظيم. خشي الضباط على أنفسهم، فألقوا حمولتهم من البشر لتصبح العربات أكثر سرعة.. بدا ذلك بشعًا لإسماعيل، الأب بحكمة الشقاء أقنعه بأن وقت الخطر جبل الإنسان على فعل أي شيء ليحيا، حتى ترك مئات العراة الحفاة في وسط الظلمة بلا دليل بدا منطقيًا لأبيه. هلك المعظم، قليل من نجا.. وحكى. الحكاوي كثيرة تمسك بذيل بعضها فلا تنتهي، تلا الانفجار هجران أهل الغرب شرقًا، يقال أن الكثبان العظيمة التي تصنع الحد الذي لا تبنى مزارع بعده أبدًا، هي شواهد قبور صنعتها الطبيعة للمهاجرين الذين لن يصلوا إلى وجهتهم أبدًا، كسوة لملايين العظام التي لم تستطع أن تبتلعها الصحراء

والتي سممت الأرض فلن تنبت هناك حتى يحيها الله لتنتقم ممن أهلكها.

ليس هذا وقتًا مناسبًا للذكريات على الإطلاق، جذب بصره من مصيدة العشب المطوي كالبساط ليقترب من الشيخ الساداتي. الرجل في قمة التوتر، نقل توتره إلى أعصاب إسماعيل المتوهجة بالأساس. العشرات يتحركون جيئة وذهابًا في سرعة من أبواب المبيت الفولاذية التي تفتح لأعلى، فبدت كرفرفة جفن لعين خالطتها ذرة من رمال تبغي طردها.

أحنى الشيخ الساداتي رأسه في خنوع وهو يهمس مناديًا أحد المسرعين. توقف الرجل وضيق عينيه التي لم تعتد النظر عارية تحت ضوء الشمس الحاد. أشار إلى الشيخ بالمجيء وهو يغمغم في نفاد صبر.

- انتظر مكانك في الحافلة الأخيرة يا ساداتي.. لا تضع حقائبك قبل أن ننتهي من وضع حقائبنا.

قبل أن يعاود الحركة مجددًا تنحنح الشيخ الساداتي:

- لكن يا باشمهندس عزيز.. أنا لي طلب ما.

نظر إليه عزيز متسائلًا، قبل أن يشير الشيخ الساداتي من طرف خفي لإسماعيل المتجمد في مكانه أن يأتي بسرعة..

- أحد المزارعين، عامل مجتهد للغاية، لم يهن لحظة في خدمة المزرعة أو مساعدتي في المسجد.. أتاني كي.. أستسمحك في بعض من فائض المياه في الخزانات، رحيلهم في الغد وطريقهم طويل، نحن في نهاية الأسبوع ولا توجد مياه لديهم.

عينا عزيز متسعة وكانما لا يفهم ما يخرج من شفتي الشيخ الساداتي، انقلبت سحنته وبدا الاشمئزاز على وجهه لدى ظهور إسماعيل. تراجع خطوة لا إرادية إلى الخلف، ملامح إسماعيل الخشنة وقذارة جلبابه، ورائحة عرقه النفاذة يقتحمونه اقتحامًا. كان مشغولًا للغاية، لا يملك وقتًا للحديث مع أيٍّ كان. تقع عليه مراجعة الأجهزة المنقولة ومتابعة المدجنين الذين يذكرونه بالروبوتات سيئة التوجيه. كاد أن يسبَّ الشيخ ويتركه، لولا معرفته بإلحاح أولئك المزارعين اللزجين، سيعدو خلفه مترجيًا، وربما يمسك بذراعه مستجديًا فتلتصق رائحة عرقه اللعينة في قميصه الكتاني السماوي الغالي. أشار متخلصًا منهم إلى المبيت الذي يوشك أن يصبح خاليًا تمامًا:

ـ هناك بعض الماء في خزانات المراحيض، ليأخذها إن أراد.

قاطع شكر الشيخ بتأفف، وأسرع مغادرًا ليتوجه إلى عربة النقل العملاقة، التي يتم تخزين الحواسيب وأطباق المناخ بها.

التفت الشيخ الساداتي إلى إسماعيل وهمس:

ـ لقد سمعت الرجل؛ لقد ساعدتك بقدر ما أستطيع.. وداعًا.

أسرع مغادرًا هو الآخر إلى مكان حافلته، شاعرًا بالراحة للخلاص من ذلك الموقف، شاكرًا الله على نهايته، يخامره مزيج من رهبة تجرؤه على الطلب من المهندس عزيز، وراحة الضمير لمساعدة إسماعيل.

تسمر إسماعيل في مكانه لدقائق وهو يرى المدجنين يدخلون ويخرجون من أبواب المبيت المعدنيّة.. في ظرف آخر لم يكن ليدخل أبدًا، أو حتى يقترب من مدجن. لكن الضرورات تبيح المحظورات. دون وعي منه بدأ في ترديد اسم الله الحافظ، ارتعش جسده ما إن ولج

المبيت، لا فقط من الرهبة، لكن أيضًا بتأثير الهواء البارد الذي يأتي من لا مكان وكل مكان.

فاغرًا فاه، منبهرًا كأعمى يرى شروق الشمس بعد عمر من العتمة، استعبدت الجدران البللورية عيناه، استراحت رئتاه للمرة الأولى من الغبار الذي يلازم الهواء منذ بدء الخليقة، انكمش في ذاته ومدجن يمر بجواره مسرعًا دون أن يلتفت إليه. المدجنون لا يتصرفون دون أوامر، تذكر ذلك فتشجع قليلًا. تحرك بضع خطوات للأمام تائهًا وهو يبحث ببصره عن المراحيض التي تحدث عنها الملاحظ. بسذاجته اعتقد أنه سيعرف مكانها فورًا اعتمادًا على حاسة شمِّه، لكن المراحيض هنا لا تنثر رائحة الخلاء التي يعرفها.

أنقذته أذنه، صوت اندفاعة الماء هز قلبه. صوت أكثر عمقًا من صوت الرشاشات السخية الأولى التي تروي أشجار الزيتون. صوت أكثر زخمًا، أكثر وفرة.. انشق ما بدا له جزءًا من الحائط البللوري المصمت، ليخرج أحد الملاحظين الشقر بتعجل وهو يعدل هندامه. توارى إسماعيل بالغريزة، لم يبد الملاحظ مهتمًا بأي شيء سوى ذاته المضيئة الناصعة.. في وجل، تقدم إسماعيل إلى حيث انغلق الباب، دفعه برفق فانفتح. عطر الزهور البرية يهب في وجهه، لم يكن هذا مرحاضًا كمراحيضهم النتنة في المدينة المهجورة في طفولته الغابرة.. حجرة كبيرة هي، كبيرة بشكل مبالغ فيه رغم أنها لن تخدم سوى فرد واحد. هناك حوض مرمري أكثر بياضًا من الحليب ينبت من الجدار البني الفاتح، فوقه صنبورًا هائلًا كحيّة معدنيّة عملاقة.. الجدران مشبعة تمامًا بالمرايا، تأمل شكله بذهول. ربما هو لم يرَ وجهه منذ سنوات.. ولم يهتم. فاجأته قذارته، وبشرته المدبوغة من نار الشمس، المخلوطة

بأمطار العرق. وجهه أعجف تبرز عظام وجنتيه في قبح، عيناه سوداوان غائرتان كقبرين، لحيته لم تكتمل قط، لسبب لا يعرفه لم ينبت الشعر قط في أجزاء من وجهه. لأول مرة منذ أن وعي اشتم رائحته الشخصية.. مر بخاطره ذلك الملاحظ الأشقر الذي كان قبله في نفس المرحاض. شعر بالضآلة، تقزم، ربما أكثر مما كان طوال حياته بأكملها.

لمسَّ الحية العملاقة بأصابعه المرتعشة ذات الأظافر الوسخة دون فائدة.. يجهد عقله المجهد بالأساس، ليعرف كيفية فتح هذا الصنبور اللامع دون نتيجة.. نظر إلى حيث يجب أن يكون خزان المرحاض، لكنه لم يجد شيئًا، الخزان وجده مدفونًا عميقًا في أسفل السيراميك الذي يكاد أن يضيء من فرط نظافته.

وقته الضيق، وخوفه على ياسين المتروك وحيدًا جعله أكثر جرأة في تعامله مع المعدن المهيب.أخذ يطرقه مرارًا دون جدوى، ضوضاء قادمة من خارج الحمام تعلو حينا فيرتجف، تنخفض حينًا فيتشجع. صوت اندفاعة الماء في ذهنه يثيره، قريب للغاية، بعيد للغاية.. أخذ يلعن غباءه وهو يميل برأسه أسفل الصنبور. لمس بلسانه المعدن البارد، قطرة ناعمة كالندي جرت على لسانه المتلهف، زاد هذا من حنقه على نفسه. في وكر الثعابين هو، لو فتح أحدهم الباب فجأة ليجده بالداخل...... هالته الفكرة، فلم يستطع حتى إتمامها. لا بد من الحصول على الماء بأي طريقة، ولا بد من فعل هذا بسرعة.. رفع جلبابه المهترئ ليحل خرجًا قديمًا مربوط بإحكام حول وسطه. فك طيته ليخرج قارورتين بلاستيكيتين متوسطتي الحجم اختلسهما منذ عامين وقد نسيهما أحد المدجنين بعد انتهاء فترة مراقبته للسور، يحافظ على القارورتين بروحه من وقتها. أراد أن يردد اسم الله الفتاح، لكنه تذكر أنه بداخل الحمام،

فاكتفى بترديد الاسم بقلبه لا بلسانه، متمنيًا أن يغفر الله له ترديد اسمه العظيم في المكان الدنس. مرَّ بخاطره أن هذا المكان الدنس أكثر نظافة بما لا يقاس من المسجد ذاته. ارتاع لفكرته، الشيطان دومًا ما ينتظر هناتٍ مثل هذه ليسخط ربه عليه.

ـ أعوذ بالله..

خرس في منتصف الجملة وهو يدرك أنه بذلك سيفعل ما كان يحذره. اكتفى بهز رأسه في غضب من ذاته الحمقاء. التمع الحل في رأسه فجأة دون مقدمات. ابتسم بفرح حقيقي كيوسف وهم يرفعونه من قلب البئر. رفع رأسه إلى السقف ذي الثقوب التي لا يعلم أنها تعمل على تنقية الهواء وتبريده، شكر الله بعينيه اللامعتين. توجه نحو المرحاض الأنيق، بحذر حرر غطاء القارورة البلاستيكي الصغير، مد يده ليملأ الغطاء المقلوب من الماء الراكد في قاع المرحاض، ثم يعود ليسكبه بحذر داخل القارورة... عملية قد تأخذ وقتًا أكثر مما يتحمل، لكن صارت هناك سكينة مريحة في قلبه.. الله أوصله إلى هذا الحد، ولن يخذله الآن.

4

طابور الجالسين يمتد طويلًا في عمق الصحراء... الفجر المتداعي يفسح المجال لنهار أصفر جحيمي دميم. كقدره الدائم يجلس إسماعيل في وسط الطابور، ليس أول الناس ولا آخرهم أبدًا. متربعًا مميلًا ظهره للوراء، مستندًا بكفيه على الرمال التي لم تبدد برودة الليل بعد. بينما ينام ياسين على حجره ورأسه الصغيرة تغرق في صدر الأب.. ياسين يحلم، يتحرك حركة خفيفة كل بضع دقائق. يبتسم إسماعيل وهو ينظر

إلى وجه صغيره. رغم الضيق الذي يأتيه كلما ضغط ياسين في حركته غير المتوقعة على الخرج الذي ربط بإحكام زائد حول بطنه. يضطر إلى التنفس بشهقات سريعة خاطفة، حتى لا تحتك الزجاجات بقوة برأس الصغير فتوقظه أو –وهو الأسوأ – تتشقق.

الضحى أحمر دام. لم يهتم به أحد سوى إسماعيل، الكل غارق في ثرثرة لانهائية.. وسْط الحزن الذي يسري مع النسيم، استطاع إسماعيل سماع بعض الضحكات الخافتة على المبعدة.. يقدر الإنسان أن يتأقلم على أي وضع، أي ألم لا يتطلب إلا الصبر، وهو الفضيلة الوحيدة التي يمتلكون الكثير منها هنا. تعلقت عيناه بالصبغة الحمراء التي تتبدى من خلف السحب البيضاء المتحركة ببطء. حينما كان صغيرًا، اعتاد على البحث عن أشكال أهله ومعارفه في هذا القطن السماوي العشوائي. من الغريب أن ابنه لم يرث منه هذه العادة، ياسين ابن أمِّه تمامًا.. آلمه قلبه وعقله يتطرق إلى ذكرى سعاد، تمتم بأن ربما هذا هو الأفضل للطفل، ألا يرث منه أي شيء، هو الذي لا يستطيع أن يعيش دون قلق. الخوف مما هو قادم دائمًا ما كان جزءًا منه، ربما لهذا هو قليل الفرح، قليل الضحك. لم يستطع شيء تغييره سوى سعاد.

حين رآها للمرة الأولى، تقف على أصابع قدميها الصغيرة، وجلة، تراقب رجال الملاجئ البائسين يتحاربون أمام خزان المياه الكبير، الذي لم يملأ المدجنون سوى ثلثه لهذا اليوم قبل أن يرحلوا. يدها الدقيقة ذات الأصابع الرقيقة تقبض على وعاء من فخار قديم، يحوي بعضًا من العدس الأصفر البارد، يدها الأخرى تمسك وعاءً أبيض نصف شفاف خاويًا، ينتظر أن يمتلئ. لم يدرِ وقتها لماذا تقدم ناحيتها، هوالذي لم يهتم سوى بذاته منذ أن توفي أبوه المسن وتبعته أمُّه في

نفس الأسبوع. حينما تراجعت في خوف ودوامة الرجال الهائجين المتشابكين تقترب منها، توقف بجسده أمامها حاجبًا العراك، غارقًا في عينيها السودواين اليائستين. ابتسم، كادت أن تمشي.. لكن شيئًا في عينيه العميقتين طالبها بالثقة، دون كلام أمسك بذلك الوعاء، أفرغ فيه ثلاث زجاجات هي كل ما استطاع ملئه في ذلك اليوم. تلامست أصابعهما وهو يعيده إليها، سرت داخله رعدة خاطفة لم يشعر بمثلها من قبل. الحيرة غالبت الشكر في تيه عينيها الساحر. لم ينطق بكلمة، تركها دون وداع، سار في طريقه وسط التراب والأحجار المكسورة، قبل أن يدور مع الطريق التفت اليها، وجدها في مكانها تحدق فيه بدهشة.. أفلت قلبه دقة، قبل أن يعاود المسير.

- سعاد.. سعاد..

الهواء تعاوده السخونة تدريجيًّا والناس غارقون في الكلام، الناس لا يتوقفون أبدًا عن الكلام. وحيد هو في قلب الزحام، صامت وسط صخب العالم.

هل أخبرها يوما كم يحبها؟لم يسأل نفسه ذلك السؤال إلا مرات قليلة للغاية طوال عمره معها، اعتقد بحمق أنه لا يحتاج إلى ذلك. الآن بعد ذهابها يمزقه أنه أضاع فرصته. كان يجب عليه أن يخبرها بذلك في كل لحظة من كل يوم، لكنه لم يستطع أن يكون من النوع المتكلم، منذ البداية الأولى. حتى حينما اعتاد مقابلتها يومًا بعد يوم بالقرب من خزان المياه المزدحم طول الوقت، كان يأخذ وعاءها في صمتٍ ويخوض وسط الأجساد المتلاحمة بقوة وخبرة أكسبته إيّاها سنواتُ الشقاء المتلاحقة ليملأ لها الماء.. مرات عدة لم يستطع فيها سوى أن يملأ وعاءها هي فقط، لم يهتم قط، حينما يعود والعرق يلتهمه،

وكدمات عديدة تنهش جسده، كان ينسى كل شيء أمام ابتسامتها الممتنة، جائزته التي يحيا لها.

عرف بيتها، وعرف عن أبيها المشلول وأمها المرهقة، وأخويها الصغيرين. كانت ضئيلة الجسد، رقيقة ككتكوت خارج لتوه من بيضته. لن يتزوجها أحد رغم جمالها الذي يخترق حنايا القلب. الكل يبحث عن المرأة ذات الجسد القوي، التي تساعد رجلها على تحمل الشقاء الذي لا ينتهي. ربما لهذا تسمرت في مكانها وهو يفاجئها، وقطرات من الماء تلوث صدره بعد عودته من حرب الخزان منتصرًا:

ـ أتتزوجينني؟

سألها دون تمهيد، فاجأها بإيجازه الصارم. عرف جوابها من عينيها الواسعتين في وجهها الصغير، قبل أن تنطق شفتاها المبهورتان. بين الأضراس الداكنة لهذا العالم المقيت، التي تمضغ البشر دون كلل، وجد نوره. لا ينسى كل تفصيلة في وجهها الصغير، لا ينسى شعرها الأسود الحريري الهارب من طرحتها مهما حاولت سجنه، لا ينسى أنفها شديد الدقة الذي ينثني بشكل مضحك حينما تضحك، فيجبره على الابتسام، لا ينسى تحديقها فيه كبطل وهو عائد إليها حاملًا القليل.. أحبَّها ربما أكثر مما أحبَّ رجل امرأة على مر التاريخ، أحبها حقًا حتى أنها جعلته يبدأ في أن يحب نفسه، نفسه التي لا يراها جميلة سوى في انعكاس مقلتيها.

أرخت رأسها على كتفه اليابس، ونور الفجر يأتي خجولًا ليتسكع في ما يمكن بكثير من التجاوز أن يطلق عليه حجرته، الأرض الملاطيّة المتشققة، والجدران الكئيبة التي تمتص الحرارة لتنفثها ليلًا دون رحمة، اللون الرمادي لكل شيء، الحشيتان المتكلستان اللتان

يستخدماهما عند الجلوس، ويتحولان عند النوم إلى وسائد. مصباح الكيروسين القديم، «جهازها» الوحيد الذي استطاعت أمُّها توفيره لعرسها، والذي يستخدمانه فقط حينما يغيب القمر وتصبح العتمة مطلقة... الكيروسين عزيز أيضًا بقدر الماء. يبدو كل ذلك بائسًا، إلا أن ذلك الجحر كان جنته، وهي حواء التي لم تمس الثمرة قط.

ـ هل لو كنت تملك قدرًا مختلفًا.. لو كنت من أهل المدن، من السادة الذين يملكون كل شيء.. أكنت تختارني؟

ـ دون شك.

إجابته قاطعة كسن محراث جديد. لم يتردد قط، كان يعرف أنها تتدلل لتخرج الكلمات الحانية من داخله، رغم عدم استفاضته كان صادقًا للغاية..

ـ دون شك!!

كم كان أحمق. لم لا ندرك مدى سذاجتنا إلا بعد ضياع الفرصة، وفوات الأوان.. لم لا نعرف ما يجب أن يقال إلا حينما لا يكون هناك ما يقال؟لا يتمنى الآن سوى أن يراها لدقائق.. لينطلق هذا اللسان الذي ألجمه الغباء حينًا، والشقاء حينًا آخر. ليحكي لها كمْ أحَبها في كل لحظة من كل يوم، كيف لا زال يحبها حتى الآن رغم الفراق المرير.

الفراق المرير.. ساعة تأتي عربات المدجنين، حينما يعبئونهم كالأجولة في الحاويات العملاقة ذات العجلات، ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي يكون فيها بقربها... ستعاود المزرعة العمل بعد سنوات سبع، سنوات سبع طويلة كالأبديّة.. من يعلم أين سيكون هو وقتها أو ياسين، هل سيكون من المختارين للعمل هنا مرة أخرى،

هل ستظل العلامات الخرقاء التي وضعها لتحديد قبرها صامدة أمام توحش الصحراء؟لا يدري.. ينقبض قلبه لأنه لا يدري، تتمزق روحه لأنه لا يدري. كل ما يعلمه أنه سيحملها معه في ترحاله، سيحفر عينيها على جدران ذاكرته، ستحوي روحه طيفها الأثيري. إن كانت الأرض القاسية صارت قبرًا لجسدها، فإن مسكن روحها الحقيقي هو قلبه. الحزن عطش قاهر والذكرى بحر شديد الملوحة، كلما اغترفت منه كلما ازددت حزنًا حتى تموت. الغبار القادم من بعيد، الأشكال المبهمة التي تراها عينه حادة الإبصار، خلف الاهتزاز المائي الخادع لمدى بصره... أتت العربات أخيرًا.

نشط المدجنون، أوقفوا المزارعين كلهم.. الطابور طويل يمتد كنملِ سليمان الخائف. خمسون عربة ذات لون أخضر فج، فغرت أفواهها الجائعة في انتظارهم ليحشروا ويدهسوا بعضهم بداخلها. أخرج المدجنون عصيانهم المعدنية ذات المقابض البلاستيكية، والرباط المطاطي الذي يلتف حول الرسغ كالقيد. رعشة لا إرادية غمرت النمل الواقف.

توقفت العربات متوازية، دون كلام انتزع المدجنون الثانيَ في الطابور ليقف بمحاذاة الأول أمام العربة الثانية وهكذا. ضربات قليلة من العصيّ وانقسم الطابور الطويل الوحيد إلى خمسين طابورًا مرتجفًا. لم يبالِ المدجنون إن تفرق الرجل وزوجته في طابورين مختلفين، العصا التي تعكس الضوء والحرارة لا تسمع، حينما تهوي على الكتف أو الظهر، تجبر من يتلقى ثقلها على الرضوخ.

كان إسماعيل يعلم أن ذلك ما يحدث في كل رحيل، لذا رغم ثقل ياسين المتزايد، وضغطه المؤلم على بطنه لم يفلت الطفل قط.

ظل يحمله على كتفه حتى لا يفترقا. عيون المدجنين سوداء وبنيّة، مرايا تعكس ما يرونه، لا تحمل ضيقًا أو فرحًا، لا تحمل شيئًا على الإطلاق. هذا أكثر ما يخيف إسماعيل منهم منذ طفولته.. الرجال الذين لا يملكون أرواحًا.

دقائق ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، توازت فيها الصفوف بدقة هندسيّة رائعة.. توقف المدجنون لحظات بالدت كالدهر،أتاهم الأمر من داخل خوذاتهم السوداء التي تصل إلى العنق. هوت العصا على أول مزارع في الصف، فانطلق مهرولًا ليدخل إلى جوف العربة المظلم.

5

الطريق طويل... طويل. مفعم بهواجس الانتظار، مكسو بوجع الفراق، موشى بقهر الحنين. الطريق طويل... طويل. مخيف باتساع الصحراء، مؤلم بعدد ذرات الرمال. الطريق طويل. رغم اكتظاظ الصحبة، إلا أنه وحيد للغاية، آدم هجره إلهه، عار في فضاء خال.

الجدران المعدنية حرارتها تزداد دون توقف. النوافذ الصغيرة لا تجلب نسيمًا كافيًا يقدر على قهر الأنفاس المضغوطة للجميع. سرعة العربة ثابتة لا تقل، يشعرون بكل نتوء صخري تطؤه العجلات المطاطية العملاقة، يرتفعون في أماكنهم لجزء من الثانية، قبل أن يهووا مرة أخرى على مؤخراتهم أو أقدامهم أو أكفهم. كان الوضع لا يطاق في نصف الساعة الأولى، تدريجيًا تعود كل منهم على ألمه البدني الخاص.

لا مساحة كافية، تهدلت مؤخرات فوق سيقان غريبة، اندست أكفٌ في طيّات أثواب لا تعرفها. انمحت الفردية مع الوقت.. صاروا كلًا واحدًا، جسدًا ممتلئًا ضخمًا، يرتطم لحمه بالمعدن الفضي الكالح

الذي يحتويه. قطرات العرق مشاع، تعدو في حريّة بطول العربة، لم يعد يهتم أحد بمسحها فانطلقت تركض فوق جميع الأجساد. حتى الحياء الفطري تلاشي هو الآخر، فتلاصقت أجساد الرجال والنساء في استسلام خانع دون شهوة..

الطريق طويل.. طويل. وياسين الرقيق يغفو منهكًا بعد تذمر يائس. الأطفال فقط هم من لم يعتادوا الاعتياد بعد. أراد إسماعيلُ ملاطفته وسط تململه السابق، لكنه كان مقيدًا بحيز مكانه. هناك فخذ يطبق على كفه الأيسر، بينما ذراعه اليمنى تلتف بأقصى قدرة لها لتمنح مزارعًا آخر مكان للالتصاق بجانبه. كل ما استطاع فعله وياسين تترقرق عيناه بدموع المحبوس، أن نقر بأصابعه على باطن قدمه العاري بحنان خفي، لم يشعر به ياسين.

تمر اللحظات كالسنين، كأنما هو هنا منذ بدء الخليقة منتظرًا قيامته. قفزة أخرى للعربة، تتلاطم الأجساد بعشوائية كأمواج بحر فقدت عقلها. استيقظ ياسين متأوهًا. أمال إسماعيل رأسه رغم ألم رقبته، ليرى العينين الصغيرتين الناعستين. ألم الرقبة أهون من عجزه أمام الصغير الذي يسحق هو الآخر بضغط الأجساد، ويشوي بالأنفاس اللاهبة..

ـ أبي.. أنا عطش.

قال ياسين، وأصابعه المنمنمة تجوس بفتحة جلباب إسماعيل الأبيض الذي ملأته البقع وردمته الأتربة، بحثا عن قارورتي الماء، التي يعلم بحقيقتها حول وسطه. بذراعه الحرة أمسك إسماعيل بيده، ارتطم كوعه بالجانب اللين للمزارع الذي بجواره، همس في أذن طفله بخفوت:

- ليس الآن.. ستشرب ما إن ننزل.

لم يكن ياسين يعارض أباه كثيرًا من قبل، منذ وفاة سعاد صار أكثرَ عنادًا. يفتقد أمه، عرف إسماعيل هذا بفطرته، فصار أكثر لينًا مع الطفل.. يحاول تعويضه عنها قدر استطاعته. رغم أن عطش الطفل يمزقه، إلا أنه يدري مدى خطورة أن يخرج زجاجتي الماء الآن الجميع عطشى، ستتخاطف الأيدي الزجاجات، وسيصبح كل ما فعله دون جدوى.. الاستجداء والمخاطرة، كل شيء سيذهب هباءً. تمتم ياسين بعصبية:

- أبي أنا عطش، أريد أن أشرب الآن!

قبض إسماعيل على كفه في شيء من القسوة ليمنعه من أن يكرر قوله، لكن الطفل صرخ في عناد:

- أبي.. أريد الماء الآن.. الآن يا أبي.

تحولت العربة إلى عيون وأذان فقط. دقات قلب إسماعيل تزداد وتيرتها، وهو يرمق الكل خلسة.. أجال بصره ليحصي الجميع. العدد فوق طاقته.. كان يتمنى أن يتحمل الطفل حتى وصولهم. لا شيء يسير حسب رغبته في هذا العالم، فلم يصبح ياسين استثناءً.

تنهد في انهزام قبل أن يهمس:

- حسنًا.. لكن اشرب بسرعة قدر استطاعتك.

هز الصغير رأسه موافقًا. شعر إسماعيل بالجسد الذي بجواره يتحفز ببطء. أدار ذراعه حتى آلمه كتفه، ليدخل يده من فتحة جلبابه. تمزق جزء من الجلباب في تلك الحركة.. عالج بيده الرباط المحكم حول الزجاجتين. أخرجهما بسرعة هائلة، قبل أن يفتح الغطاء ليسقي الصغير.

تعالت الهمهمات عند مرأى ياسين الصغير يروي عطشه بنهم. أتى الصوت من جانب إسماعيل دون أن يرى وجه المتكلم:

ـ عذرًا يا أخي... عطش أنا الآخر.

قال إسماعيل بصرامة:

ـ حينما ينتهي من الشرب.

الزجاجتان صغيرتا الحجم، فكان إسماعيل يأمل أن يشتري بعض الوقت حتى ينتهي ياسين. العيون تحدق في الزجاجتين بعمق.. الكل يدير الحسابات في رأسه، الكل عطش. ياسين الصغير يجرع الماء بجشع الأطفال، فتتساقط المياه على رقبته وصدره. للحسد رائحة فاحت من العربة.. امتدت يد مشعرة في عنف لتنتزع الزجاجة من يد الصغير.أسنان صفراء مقيتة تقبض على كف إسماعيل فيترك الزجاجة الأخرى مرغمًا. صوت أجش يهتك الآذان:

ـ يكفي هذا.

الأيدي تأتي من كل مكان، تتصارع في عمى. حرر إسماعيل ذراعه بصعوبة ليحمي وجه طفله. الأيدي ثعابين هائجة، تفتش، تقبض، تمزق كل شيء في جنون بحثًا عن قطرات الماء. الضربات تتوالى، تقرع رأس إسماعيل وجانبيه، بينما هو يدفن وجهه في مؤخرة رأس طفله المرتعد، وكفاه شبكة تستميت لتحمي الوجه الصغير.

لن ينال أحد أي شيء، يعرف إسماعيل هذا. فورة الجنون ستمزق الزجاجتين، لن تشرب سوى الأرض المعدنية الصدئة، تلك التي تحرق مؤخراتهم وأقدامهم. السباب الذي يحمل حقدًا مضطرمًا، يتحول إلى صراخ أجش لا معالم له سوى الألم البائس، قبل أن ينتهي إلى عويل ونهنهة يائسة.. الماء القليل يجري على المعدن الساخن فيسري

ويختفي. أحس إسماعيل بكراهية عارمة ممن حوله، كراهية لو تركت لها الفرصة لمزقته هو وطفله إربًا. توقع أن يغضب هو الآخر، أن يكره بالمثل. لكن سنوات الترحال والعطش، تركت في قلبه شفقة حزينة تجاه كل العطشى الذين لم يمتلكوا بصيرته.. لم يهتم لكدمات ذراعيه وألم رأسه.. هناك جراح صغيرة من خمشات لم يلحظها في وقتها، استطاعت اختراق قماش جلبابه. خيط رفيع من دم يسيل على جانب رقبته، جسده الساخن المتوتر لن يشعر بالألم الآن.. ليس بعد.

ارتجافات جسد ياسين الخائف، هي كل ما يدور بخلده في هذه اللحظة، رأى الفتى قبح العوز لأول مرة في حياته القصيرة.. معظم من في العربة هو يعرفهم بشكل ما.. لعب مع أطفالهم أحيانًا، زاروا داره أحيانًا. الآن يراهم غرباء مختلفين، الوجوه الودود المبتسمة لنزقه الطفولي راحت إلى الأبد.. العيون الحمراء المتسعة تلتهم جسده قطعة تلو الأخرى. الخوف يقبض على روحه الصغيرة المرتعشة.. صوت إسماعيل يأتي من خلف أذنه، دافئًا.. حانيًا.

- كل شيء سيكون على ما يرام.. كل شيء سيكون على ما يرام.

لطالما رأى أباه عملاقًا لا يقهر، شعور الاطمئنان يأتي غريزيًا مع صوته الخشن، الآن ظل من شك يخيم على عقله، أبوه لم يستطع حمايته، ظهر شق أسود في جدار أمان الأب العالي.

عاود إسماعيل بهدوء هدهدته والهمس في أذنه، حتى تراخى جسده المتوتر، وأغمض عينيه من الحر والقهر... دمعة صغيرة لا تلحظ، سالت من جانب الجفون المغلقة..

آدم.

«الآن أصبح أنا الموت، مدمر العوالم.».

البهاجاهادجيتا.

ـ لقد أدت دورها بشكل لا بأس به... حان الوقت كي تهجرها.

قال آدم ذلك لنفسه، وقطرات الماء البارد تصدم جبهته وشعره الحريري كسيل لا ينقطع من النيازك الصغيرة..

أغمض عينيه ليستمتع بهذا الإحساس، والبرودة تتخلل مسامه لتسري داخل جسده الساخن. الساعة الرابعة فجرًا، الغيم يتكاثف بالخارج يعلن عن قمر سجين، وينذر بشمس محظورة.. لا زالت الظلمة متعلقة بأهداب البيوت والشوارع الحجرية لبروكسل، تلك الشوارع التي يمقتها لأنها تذكره دومًا بأمستردام.

الماء ينساب عنيفًا فيغرق صدره وإبطيه، يجرف معه رائحة مارجريت العالقة في جسده. مارجريت الغارقة في غيبوبة من النشوة في غرفته التي لا تبعد عن جسده سوى بضعة أمتار، وتبعد عن روحه سنوات ضوئية.. امرأة بشهوة لا تنتهي، شهوة خدمته جيّدًا حتى الآن، أوصلته إلى حيث يريد، مفترق الطرق يلوح، وعليه أن يتركها.

لم يكن قلقًا من هذا الأمر، لقد هجر مئات النساء في حياته المتواثبة كأرنب محقون بالأسترويد. يعرف جيّدًا كيف يغادر دون مشاعر عدائية.. سواءً اعترف بذلك لنفسه أم لا، لكن أمّه تمتلك فضلًا كبيرًا على الرجل الذي أصبحه.

يده الجميلة تتخلل شعره فتنساب القشعريرة إلى فروة رأسه. هوسه بالماء شديد البرودة أثار شك المختص النفسي في طفولته. لا يشعر براحة قدر ما يشعر تحت الماء المثلج، أقنع نفسه أن حبه لبرودة الماء يرجع إلى جيناته الشرق أوسطية الحارة..

- enough.

قالها بصوت هادئ تمامًا، لا يحمل أي انفعال أو ذكرى، فتوقف الماء على الفور. اهتزت ساعته المضادة للماء. الوقت المبكر أفضل الأوقات للذهاب إلى الجيمنازيوم الصغير،الواقع في الطابق السفلي. كفَّ معظم الناس عن ممارسة الرياضة البدنية منذ زمن طويل. العقاقير الحارقة للدهون تعالج ترهل الرجال والنِّساء المتفشي في يومين، عصر الوفرة والرخاوة، عصر البشر البلاستيكيين المتطابقين كما كان يصرخ البروفيسور المجنون في الجامعة.. الجيمنازيوم الشخصي حلية زائدة في المنازل الذكية الآن هو من القلائل الذين لا زالوا يمارسون التمارين، نظر إلى جسده النحيف القوي شديد التناسق، والذي تتألق عضلاته تحت القطرات المتبقية على جلده، والتي تلهو في طريقها نزولًا ببطء.

الدرس الأول الذي تعلمه من أمِّه، كلُّ شيءٍ في هذا العالم سلعة، البائع الماهر هو من يضيف بعضًا من الخصوصية على سلعته حتى يصل بها إلى أعلى سعر ممكن... لا يهم إن كانت السلعة أكثر أو أقل جودة مما حولها، البشر أطفال تبهرهم الألوان، السلعة الأكثر تألقًا هي الأغلى دومًا. لهذا يعامل جسده بكل هذا الاهتمام.

يتعجب رفاق عمله، يتعجب جيرانه، لم يفهموا بعد أنه على حق. رائحة مارجريت اللزجة التي طرحها الاستحمام بصعوبة، دليل على أنه تعلم درس أمِّهِ جيِّدًا.

أمُّه.. عليه أن يحادثها في السابعة، الوقت الأمثل. ستكون مرهقة بعد فراغها من مراجعة حسابات العمل، ولن تكون قد بدأت في النوم بعد. إرهاقها المنتظر هو ما يبغيه، لا مزيد من الحنان الغريب الذي بدأ يتسلق صوتها مؤخرًا.

- زجاجة المياه.

قالها بصوت مسموع مرة أخرى. البيت الذكي ما هو في النهاية إلا حاسوب عملاق قادر على تمييز بصمة صوت المالك وتنفيذ أوامره حرفيًّا.

يطلق الناس على حواسيبهم أسماءً مضحكةً.. شخصية.. النمط الغالب أن يختار الرجال المطلقون أسماء أنثوية، ويفعلون خاصية الصوت الأنثوي للجهاز. النساء المطلقات يخترن العكس تمامًا.. العائلات التي لا زالت متماسكة تختار في الغالب صوتًا ذكوريًا مسنًا، بلكنة هندية أو إنجليزية قديمة، بقايا ذكريات العقل الجمعي من القرون المنصرمة.. ينزع العقل البسيط إلى التنميط دائمًا، هذا أكثر سهولة وأكثر راحة..

يعلم الكثير عن تلك الإحصائيات من سنوات عمله في درسدن وقت دراسته الجامعية.. عملٍ كفنيٍّ لمتابعة الأعطال بدوام غير كامل أثناء الدراسة لتغطية مصاريفه، لذا يعلم مع طول التعامل مع الكومبيوتر المنزلي يتحول إلى خادم فعلي في لاوعي الإنسان، قادر على فعل أي شيء، دون الخوف من بوحه بأي شيء. نفس الأمر يتكرر دائمًا،

يختار المالك آجلًا أوعاجلًا أمرًا غير مدرج في اللائحة العامة، يقوم الحاسوب بما هو مبرمج على فعله، يدخل على الإنترنت ليتعلم الأمر الجديد وكيفية تنفيذه. في حالات كثيرة يفشل الحاسوب في تنفيذ الأمر، فيقوم بفصل نفسه لحماية المالك. هنا يأتي دور آدم بحاسوبه الصغير الذي يلصقه بالذاكرة الرئيسية..

يبادره كل المالكين بنفس الجملة الافتتاحية:

- لقد تجمد فجأة.. لا.. لا أتذكر أنّي طلبت منه شيئًا محددًا قبل العطل.

لسوء حظهم، يخزن حاسوب المنزل كل أمر أُعْطِيَ إليه منذ بداية عمله، مع تقييم المالك لجودة التنفيذ.. آلية لضمان تحسين المستوى دائمًا. يدخل آدم إلى أعماق الذاكرة، يصطدم بالأوامر التي تلقاها ذلك الحاسوب. البشر شديدو القبح حينما يطمئنون إلى كونهم وحدهم. كجسد تخفيه الملابس اللامعة، حينما يتعرى تتنفس الترهلات البشعة التي لطالما أخفيت.

قيح نفسي تلو قيح نفسي، وهو بحاسوبه الصغير ووجهه الجامد الذي لا يبدي أي انفعال، يغرق وسط الصديد الحضاري، من الشيخ الذي طلب من كومبيوتر بيته أن يتحدث كفتاة ماجنة في العاشرة من العمر، إلى المرأة التي أمرت جدران المنزل -التي تنقلب إلى شاشات عرض حسب الرغبة- أن تعرض صور زنوج عراة وأن يهينها بألفاظ شديدة القذارة.. قيح نفسي تلو قيح نفسي. من الشاب الثري اللامع الذي يعشق مشاهد النيكروفيليا، إلى العجوز التي لا تبلغ ذروتها إلا وسط مناظر الغائط البشري. مجارير العقل الباطن التي طال كبتُها، وحاسوبه الصغير هو فتحة المجرور.

لم يفشل قط في أن يرسم عدم الشعور على وجهه كروبوت. بعض من زملائه خالطهم الاشمئزاز، البعض ضحك. إدواردو الأحمق حاول استغلال ما رآه، والتحرش بعميلة تعشق الإيذاء الجسدي. لهذا كان هو دومًا الخيار الأول للشركة، تقييماته دائمًا ما كانت ممتازة، أراد مديره أن يجعله يعمل بدوام كامل مع العديد من المميزات الأخرى، انبهر الرجل بجديته كما أخبره. رفض آدم بأدب.

كان مديره مخطئًا، كما يخطئ الناس دائمًا في تفسيره.. لم يكن آدم مجتهدًا بقدر ما كان يتعلم، الآبار السرية التي لا يفتحها المرء حتى لمحاميه أو قِسِّهِ كانت ملك يمينه، ولقد تعلم آدم كثيرًا.

رحلة طويلة خاضها منذ أن كان طفلًا أحمق لا يتجاوز الخامسة، يقف ببراءة بجوار الغرف الحمراء الصاخبة بغنج فراشات أُمِّه والعرق نفاذ الرائحة لعملائها. كل عام يمر كان يجرف بمعوله جزءًا من روحه الحساسة..

ـ أنت محير كالعدم.

قالت إيزابيل وهي تحضر له شطائر الصباح كعادتها في الأيام المطيرة.. عيناها رماديتان كسماء مكفهرة.. تبكي لأتفه الأسباب، لم يبكِ هو أمامها قط، تشكو من كل شيء.

أخبرته أن ذلك يدعي الحساسية، وقتها لم يكن لبقًا كما أصبح الآن، أخبرها أن ذلك يسمى غباءً مطلقًا. في عينيه كان الحبُّ حقيقيًا، في غيوم عينيها لا شيء أكيد.

في المدرسة الثانوية كانا مختلفين كالليل والنهار، هي تسعى دائمًا لتكوين الصداقات، وهو لا يريد سوى أن ينسى.

رجولته الوليدة كانت تتعرض للهزيمة في كل يوم، يقول فرويد أن الأطفال غرائز متحركة... المراهقون أكثر سوءًا. المراهقون هم حقيقة البشر دون غطاء. لا يحلمون إلا بالجنس، لا يتوقفون إلا للعراك، يمقتون من يختلف عنهم... وهو كان دائمًا مختلفًا.

أقليّة حتى بين الأقليات.. لم يكن زملاؤه يعرفون أي شيء عنه، كان غامضًا كالظل، أبوه شرق أوسطي ذو سمعة مخيفة، وأمُه.. حسنًا أمُه هي أمُه. لم يرد لأحد أن يعرف حقيقته فكان دائمًا وحيدًا.. حتى تأتي إيزابيل.

حينما يدخل جسم غريب إلى نظام مغلق، يهاجم النظام الجسم حتى يحطمه. وهو كان هدفًا سهلًا لمتنمري المدرسة، لم يهتم له أحد. مدرسوه لم ينهروا المتنمرين حينما اعتادوا ضربه بين الحصص وبعد انتهاء المدرسة..

تلك كانت آخر الأيام -ربما- التي شعر فيها بأي شيء، غضب، حزن، لم يعد يبتسم من قلبه منذ سنوات.

«دودة وحيدة في شرنقة خرسانية.. لا أعرف ما الذي ستتحول إليه، لكنه حزين للغاية..».

قالت إيزابيل، وشعرها الأشقر يبتل من الأمطار التي تنهمر مائلة فتصل إلى مخبئه أسفل مدرجات كرة القدم الخالية فتبللهما.

- هل يمكنني التحول إلى عصفور فأهرب من هذا العالم.

قال شاردًا.. ويده تتحس حرف الH الذهبي المطرز فوق مكان القلب مباشرة والذي يرمز إلى المدرسة، أحبَّ ارتداء السترة الخاصة بلاعبي كرة القدم.. لم يكن قط لاعبًا في الفريق، لكنه كان يرتديه دومًا حينما يكون وحيدًا ولا أحد بالجوار.

ابتسمت إيزابيل. علمته بأقسى الطرق أن الحب مضلل، الحب جنازة المنطق، ستار اختياري لاخفاء المحتوم. أسوأ أنواع الكذب هو الكذب على النفس، وهو كان يكذب على نفسه طوال الوقت دون أن يدري.

هناك لحظات مصيرية قليلة في حياة الإنسان، لحظات مفتاحية حيث يتغير فيها إلى الأبد، حيث يدرك أخيرًا ما سعى كثيرًا لفهمه أو لإنكاره. لحظته كانت معقدة قليلًا، عنيفة نوعًا. وهو بجسده النحيل وقتها مقيد الذراعين بالكرسي البلاستيكي الأزرق ذي القدم الأمامية اليسرى المخلخلة قليلًا، مقعده المفضل في قاعة السينما المدرسيّة في أول صف حيث لا يجلس أحد. كان يعشق الجلوس وحيدًا، رغم ألم عينيه المتكرر بعد كل عرض، وتهكم الجميع على غبائه. لا أحد يجلس في الصف الأول مختارًا، كان يفعل ذلك كي يغرق في الفيلم المعروض، يفقد أحاسيسه، يهرب من ذاته، يصبح جزءًا من تلك الحياة التي لا تتجاوز الساعتين والتي تجري لامعة على الشاشة..

قالت مافراو جيلبرت:

- المسكين يحاول الهروب.

أجابها مانيير دافيدز:

- ليهرب إلى الجحيم عليه اللعنة، عيونه العربية الواسعة تخيفني حتى العظام.. ألم تسمعي بما فعل والده؟

اعتاد على سماع تلك الحوارات أثناء مروره متخفيًا بجوار غرفة المدرسين، خوفًا من التعرض لكمين جديد من متنمري المدرسة، أكان عليه أن يفهم أن سره على وشك الافتضاح؟. ربما. أكان يتألم وقتها؟؟. ربما.. على الأرجح.. لم يعد يتذكر الآن.

في علم النفس هناك ما يطلق عليه العتبة القصوى للألم، حيث يصل الألم إلى الدرجة التي لا يمكن للجسد حتى أن يستوعبها فينهار. بعد العتبة القصوى لم يعد يتذكر العتبات الأدنى.

عتبته القصوى عبرها بعد أن تم تقييده، ضربات قلبه تدوي في صحراء صدره، جاك ومارك يبتسمان بخبث مخيف. أسوأ من الألم توقع الألم. شعورهما الشقراء الجميلة وعيونهما الزرقاء الساحرة، حرف ال H يلمع فوق صدريهما بفخر، بطلا المدرسة في كل شيء تقريبًا. مارتن ابن مافراو جيلبرت يطبق على رأسه من الخلف، أصابعه السمينة القوية تجبر جفنيه على أن يظلا مفتوحين. لعاب مارتن يسيل من فكه المربع المفتوح في ضحكة منتصرة ليغرق شعر آدم. رائحة العرق الصادر من إبط ديفيد القصير، احمرار أذنه هو.. الحرارة التي تشتعل في وجنتيه، خوفه مما هو قادم، تسارع دقات قلبه أكثر فأكثر.

- بيب.. بيب.. بيب.

أطلقت ساعته أزيزها لتعلن أن معدل ضربات قلبه تجاوز المعتاد. هبط بهدوء من فوق جهاز المتوازي، وعضلات صدره تنتشي بالألم اللذيذ. موسيقا صاخبة تنبعث من الجدران لتساعد على تدفق الأدرينالين.

تناول منشفته، مسح جبهته بهدوء. مائة عدة من تمرين الضغط، ثلاثون دقيقة فوق جهاز العدو، وتنتهي ساعة الجيمنازيوم. انتهى وقت مارجريت منذ ست ساعاتٍ تقريبًا. نومها الغني بالأحلام الآن نوع من الوقت الإضافي المجاني. بعد اجتماع اليوم لن يكون قادرًا على رؤيتها مرة أخرى. الرجل الكبير سيحاول أن يعرف مصدر معلوماته، إن

ظلا على اتصال ستقع في الكثير من المتاعب. هي تعلم ذلك. ستبكي قليلًا، ستخبره كم ستفتقده، طقوس النساء التي لا تتغير عند الوداع.

ستنساه بعد مدة، سينساها ما إن تغادر فراشه. هي تعلم هذا وهو يعلم هذا، إلا أن القليل من الوهم المسكر يساعد البعض على ابتلاع الحقيقة.. ستعود إلى زوجها البدين الرخو الرافض لحرق دهونه، ذي النكات السمجة والملايين التي لا تنتهي، راضية بالضرر الذي سببته لعمله. ستحلم بآدم لليلة أو ليلتين، وحينما يمتطيها زوجها بكرشه الذي يضغط أنفاسها، ستغمض عينيها وستتذكر صدر آدم العريض وعضلات بطنه السداسية البارزة.. ربما ستحاول الاتصال به مرة أو مرتين، قبل أن تعود إلى بار الفندق الفاخر مرة أخرى، لتبحث عن شاب يافع أخر يبادل فحولته ببعض من مال زوجها الذي لا ينضب.. دائرة مغلقة، عود على بدء.

هو الذي عليه أن يكون حذرًا، هو من يقامر. إن تمَّ مشروعه كما خطط سيعبر مخاضات النجاحات المتوسطة إلى يابسة الانتصار النهائي.

مسح عرقه بمنشفته التي طرز عليها حرف الـk. هدية من امرأة ما لم يعد يذكرها. انطفأت أنوار الجيمنازيوم ما إن غادره. سيذهب ليستحم مرة أخرى، الحاسوب سيجهز إفطاره الساخن ما إن ينتهي. وسط الإفطار سيبعث المنزل إشارة إلى السيارة، فيوقظ محركها من سباته البارد. كل شيء سيتم حسب المخطط له. قبل الدخول إلى الحمام، أعلنت ساعته بأزيزها الساعة السابعة..

ـ اتصل بأوكسانا.

تألق الجدار لثانية، قبل أن يتحول إلى شاشة بالكامل عليها صورة لأمه في شبابها وهي تدخن سيجارة وتنظر بمجون.

اختار تلك الصورة تحديدًا لتذكره دائمًا بمن هو، ظل طوال طفولته ومراهقته يهرب من ذاته. كل الغضب، والحقد، والصراخ.. كل ذلك كان بسبب هروبه من حقيقته. في ذلك اليوم في المدرسة عندما عرف الجميع كل شيء أدرك الحقيقة أخيرًا. سيظل يعاني للأبد إن لم يتقبل واقعه.. بشكل ما عليه شكر جاك ومارك، عليه شكر حتى مارتن البدين على إزالة غشاوة عينيه.

- هالو.

ظهر وجه أمه بشعرها الأشقر المصبوغ، ووجهها المشدود بعشرات عمليات التجميل المتلاحقة.. كانت تبدو حتى أصغر من صورتها السابقة، التي تم التقاطها في المنطقة الحمراء في أمستردام وهي في أواخر العشرينيات، تبدو أكثر شبابًا الآن وهي تتجاوز الخامسة والخمسين.

- هالو إيما.

يخدع وجهها الجميع إلا هو. العيون تفضح دائمًا العمر الحقيقي، والروح التي تتخفى خلفها. يراها كما هي في حقيقتها.. متعبة، مسنة، أتلفتها آلاف الليالي الشهوانية.. روح معطوبة لا أكثر.

دخان سيجارتها يتلوى أمامه وهي تبتسم، في القديم كان الأبناء يطالبون أهلهم بالامتناع عن التدخين، السرطان كان مرض العصر. الآن لا يوجد سرطان عند من يقدر على تحمل الكلفة، الكل يدخن حتى تحترق عظامه بلا عواقب.

ـ آدم،كيف حالك يا صغيري؟. لم أتوقع اتصالك الآن، لقد انتهيت لتويّ من العمل، إيديث غادرت والمؤسسة أغلقت أبوابها من عشر دقائق.. إنني أموت إرهاقًا.

تطلق على ماخورها مؤسسة، اعتاد على السخرية من تسمياتها قديمًا، بعد سنوات من كره هذه المرأة تعلَم أنها على حق. كل شيء في النهاية ليس سوى تجارة..

ـ لن أطيل عليك يا إيما، إنني أتفقد فقط إن كنتِ بخير.. لن أطيل.

ـ أوه يا صغيري... لا، إنني أريد الحديث معك، إنني فقط أصف يومي.. يا لي من بلهاء، بالطبع أريدك أن تطيل.. إنك لا تتصل كثيرًا يا صغيري آدم.

صغيري آدم!!.. بعد أن فقدت عنفوانها صارت تناديه بصغيرها، تمر على رأسه آلاف للحظات التي صرخت فيها به. كم لعنته ولعنت أباه، في لحظات غضبها أو إرهاقها.... صغيرها آدم ما هو إلا نتاج واقٍ ذكري سيئ الصنع تمزق في لحظة الذروة.. كانت تحب ترديد تلك الجملة كلما أغضبها. عرف أنها فكرت مئات المرات في الإجهاض، في إلقائه غير مكتمل النمو خارج رحمها. غباؤها ما جعلها تقرر الإبقاء عليه كما قالت له كثيرًا، لكنه يعرفها أفضل من هذا، ذكاؤها هو ما جعلها تقرر الإبقاء عليه. والده كان ثريًا، مال الدم كما أطلقت عليه الصحافة المحلية التي طاردته كثيرًا، ولافتات المظاهرات الصغيرة التي رفعت صورته ملطخة بالدماء.

كان أبوه قد قرر التواري والاختفاء في هذا المنفى حتى ينسى، لكن موت سيده الجنرال سريعًا جعله الهدف الوحيد لجماعات الحرية

الساذجة.. أبوه لم يكن قويًا قط تحت مظهره المتجهم دائمًا. ما إن لاحقته أوكسانا بما في أحشائها، حتى انهار ووافق على الزواج بها بعد تردد ضئيل، خطوة أخرى نحو القاع النهائي. التهمت هي أمواله حتى آخر يورو، من عاهرة إستونية هاربة من فقر بلادها، تحولت بفضل صغيرها آدم إلى صاحبة واحد من أكبر البيوت الحمراء في شمال أوروبا.

تمنى قديمًا لوأنها ألقته فعلًا خارج رحمها. تمزق وهو يترعرع بين مطرقة عهرها وسندان تاريخ أبيه وغضبه الدائم، غضبه الذي تحول إلى سكر أبديّ مزمن، سُكر أدى إلى نهايته الشاعرية.. النهاية التي كتب عنها أحد القلائل الذين ظلوا يذكرونه رغم كل هذه الأعوام، مقال صغير بائس في موقع إلكتروني لجريدة صغيرة، مقال على الأرجح لم يقرأه سوى آدم نفسه.

ـ حسنًا يا إيما، أنت تدرين أنّي مشغول هذه الأيام.

ـ أعرف ذلك،أنت مشغول دائمًا... تغيرت كثيرًا يا صغيري، لم تعد ذلك الطفل ذا العيون الواسعة المنبهرة بكل شيء.

ابتسم آدم في آلية، كلما ذكرت طفولته يبتسم في آلية.. يعطيها هذا شعورًا بالفرح. الذكرى شيء اختياري رغم كل الترهات التي تقال عكس ذلك، العجائز دومًا يخترن اللحظات السعيدة من الماضي ليشعرن بالحنين. إن لم تكن هناك أي سعادة في ماضيهن، سيختلق عقلهن الباطن ماضيًا متوهَمًا. الإغريق ظلوا يكتبون عن عصر ذهبي سعيد قديم لم يروه، المصريون القدماء حكوا عن وقت كانت الآلهة تسكن وتحكم الأرض فيه، الديانات الإبراهيميّة تنوء بحنين آدم وحواء

إلى جنة عدن. كل له جنة عدن المختلقة التي بناها بؤس الواقع.... هو وهي يتذكرون الماضي بشكل مختلف تمامًا.

- لقد نضجت.

عيناها تدققان من خلف العدسات الشفافة التي تخفي قصر نظرها الحديث.

- أرى أنك متعرق للغاية أيضًا، لا زلت تمارس تمارينك هاه؟. لا بد وأن كل نساء بروكسل يتصارعن للحصول على جزء من هذا الجسد.

ابتسمت بمجون لا تستطيع إخفاءه، مهما ارتدت ثوب الأمومة الحنون.

- بفضلك صرت أفهم النساء جيّدًا. هزأت أفكاره، الكلمات خرجت من بين شفتيه مختلفة..
- وأنا أيضًا أرى أنك لا زلت ترتدين عدساتك، ألم أخبرك أن تحصلي على عينين جديدتين، فريدريك في فرع أمستردام ينتظر مكالمتك.
- بلى وقد كلمته، اللون الذي اخترته ليس متوفرًا الآن، فريدريك أخبرني بأن شحنة قادمة من جنوب صربيا الأسبوع القادم ستحمل اللون الفيروزي الذي اخترته.. شكرًا يا صغيري.
- أي وقت يا إيما... في القريب أيضًا سأستطيع توفير جلد كامل جديد لك، هناك بعض العجز في مخزوننا لذا فهو غير متوافر للبيع، لكن ما فائدة أن أكون نائب مدير المبيعات في body replacment ان لم أكن قادرًا على مساعدة إيما؟

- إنِّي فخورة بك يا عزيزي.

انتهى وقت المجاملات، هذه المحادثة لا يجب أن تطول أكثر من ذلك. بشكل ما يشعر بقرب أزيز ساعته لتعلن وجوب القيام بالخطوة التالية في اليوم.

- كيف حال مريم؟

عادت عيناها لتدقق عبر الشاشة العملاقة بطول الجدار. عيناها ميكروسكوبان يحاولان رؤية أدق انفعالاته. اهتمامه المفاجئ بمريم يثير فضولها بشدة.. رغم كونها أمه إلا أن إدراكها -عكس كل رجال حياتها المزدحمة - بأنها لا تملك أي نفوذ عليه، جعلها تستفز من سؤاله مؤخرًا وبصورة دائمة عن مريم. مباراة في البوكر بين عينها الملتهفة، وبين مظهره اللامبالي. يثق بصورة عمياء في أن انفعالاته ورغباته يستحيل أن يعكسها وجهه بأيِّ شكل.

مرت الثوان طويلة وهي تتأمله، تظهر تجعيدة شديدة الضآلة فوق شفتها العليا المكتنزة جراحيًا. قديمة الطراز هي، ظلت تؤمن بحقن البوتوكس الأثرية.. قبل مشكلة نقص السلع الأخيرة كان بامكانها فقط ب٢٥٠٠٠ يورو تغيير بشرتها بالكامل بجلد مراهق شاب مشدود، أي لون تختاره.. أبيض عاجي، أسمر برونزي، وحتى الأسود الأبنوسي. يعرف هذا جيّدًا، هو من كتب الإعلانات الدعائية بنفسه.

- إنها بخير، تجهز للذهاب إلى المدرسة فيما أعتقد.

الأنثى عالم شديد التشابك والسيولة والتعقيد. رغم أنها لم تحب أباه للحظة واحدة، إلا أن علمها بحمل رافاني منه في ليلة خرقاء بائسة أثار جنونها. ليلة تعانق فيها المنشط الجنسي مع الكحول ليخلقا رغبة مبتسرة لاسترجاع رغبات الماضي الشائهة في العقل المسن، رغبة

لم تجرؤ رافاني الهندية، القادمة الجديدة من الشرق البعيد الجائع، المتأهبة للخضوع المطلق أن تعارضها.

ألقيت رافاني النحيلة المرتجفة في فضاء شوارع المقاطعة الحمراء القاسية.. لم يجرؤ أحد أن يستخدمها خوفًا من غضب أوكسانا. حتى الشائهون الذين يعشقون الحوامل عضوا نواجذهم وهم يتركونها وحيدة، لا أحد يعارض أوكسانا ملكة الشوارع الحمراء. التهم النسيان رافاني أو كاد، إلى أن عادت فجأة بعد سبعة أشهر في صحبة البوليس، ومريم الصغيرة الرضيعة ملتفة بدثار من فراء صناعي رخيص، تغفو على ذراعها. كانت فرصة عظيمة لمنافسات ملكة المقاطعة الحمراء ليلصقن طعم الإهانة المر بحلقها.

لم تجادل أوكسانا،الظهور غير الاعتيادي للشرطة لم يغب عن فطنتها. كان فخًا، فخ ذو أسنان قانونية حادة يستلقي في خبث، منتظرًا سقوط الكلبة الإستونية..

تلك أول مرة رأى فيها مريم. يناهز السابعة عشر، ينتظر بفارغ الصبر بدء الدراسة الجامعية للفرار من أمستردام.. من هولندا بأسرها. يذكر جسده النحيف وسترته الرخيصة التي طبع عليها بنفسه بالإنجليزية عبارة من الرامايانا الهندية « اذهب لملاقاة قدرك، أنت الذي هو قدر العالم.». بينما دخان سيجارة أمِّه يتسلق الهواء ليحتمي بسقف الردهة، هربًا من الريح الملتحفة بندف الثلج الداخلة من الباب المفتوح. الأضواء الحمراء القادمة من لوحة الدعاية المعلقة رأسيًا، مزيج مكلف من النيون والمعدن ليعلن: «أنت تستحق أن تكون ملكًا... ادخل فالملكات في انتظارك.».

تختفي الكلمات، ليضيء جزء مختلف من اللوحة يمثل امرأة ذات صدر ناهد، رافعة ساقها اليسري خلفها. هناك سيجارة بين شفتيها تنفث الدخان من ماسورة مقاومة للتجمد مزودة بمؤقت إلكتروني، كلف أمه مبلغًا لا بأس به. تبدو اللوحة كدعاية قديمة.. أمه خبيرة تسويق بالفطرة، زبائنها الأثرياء هم كبار السن، شيوخ يحلمون بالعودة إلى شبابهم الذي احترق تبغه في غلايين العمل المتواصل. الدعاية القديمة تدغدغ ذكرى الشباب الجامح الذي ولى دون رجعة.. لم يكن عقار التحييد قد ابتكر بعد، لذا كانت الشيخوخة لا تزال تبدو واضحة على الوجوه والأجساد.

ندف الثلج تستقر فوق شعر رافاني الرائع، وهي تحادث أمه مدعية الثبات، لكنه رأى الفزع في عينيها، لا أحد بقادر على مواجهة غضب الملكة بثبات. تستنشق رافاني الهواء من أنفها بصوت عالٍ خوفًا من أن يسيل، ليس بردًا. عرف من فوره أنها احتاجت إلى الكثير من الكوكايين بجانب المال المدفوع من أعداء الملكة لتقف أمامها. الجمود والهدوء على وجه أمه وضابط الشرطة يتكلم ويتكلم.

أمر من المحكمة لخضوع الأب لاختبار ال DNA. لم تختلج عضلة واحدة في وجه أوكسانا، وباطنها ينفجر بلافا أنثوية متأججة.. اشتهاء زوجها لإحدى فراشاتها ترك جرحًا خفيًا في نسيج كرامتها، غرورها كمحطمة للرجال منذ أن غادرت طور الطفولة – أو ربما من قبلها قليلًا – تحطم، تناثر كشظايا لمرآة قديمة..

أول معلمي آدم كانت هي ولا شك، قدرتها على ادعاء خلاف ما يدور بداخلها أسطوري حقًا. استغرق عمره بأكمله ليستطيع اختراق قناعها الزائف الدائم ليعرف دواخلها. الحقيقة أن البيت الأحمر

كله كان مدرسة أخرى له.. مدرسة أكثر أهمية، تعاليمها أكثر واقعية وارتباطا بالعالم الحق من مدرسته الصباحية.. تعلم من إيروشكا ما يثير الرجال، تعلم من سكارليت ما تشتهيه النساء، تعلم من أمه أن تترك زبائنك دائمًا في اشتياق إلى مزيد.. هكذا يعودون مهما طال الوقت.

لم يذهب أبوه إلى اختبار ال DNA، اعترف بالطفلة في المحكمة بهدوء، تلقت رافاني مبلغًا سخيًا من الملكة مع تذكرة ذهاب دون عودة إلى مكان مجهول، لم يهتم أن يعرفه. إن فكر قليلًا فسيعتقد أنها لن تستمر في أوروبا، أصابع أمه تمتد وتستطيل دون توقف عامًا بعد الآخر، على الأرجح ستذهب إلى أمريكا، هناك أيضًا يقدرون البشرة السمراء في المضاجعة.. روسيا بها الكثير من العنصرية،كما أنها ولا بد تمتلئ بالهنديات دون شك. لن تغير مهنتها، لا تتوب العاهرة أبدًا وإن ملأت العالم صراخًا عن رغبتها في التوقف. العهر كالكوكايين،لا ينتهي إلا بالموت.

طارت الفراشة الهندية بحثًا عن لهيب آخر لتحترق فيه، تركت ابنتها التي لم تمتلك اسمًا بعد، محمولة على ذراع إيروشكا الأبيض الممتلئ. أدخلتها أمه الغاضبة لحجرة والده،التي تحل محل السقيفة.. تسلل هو خلفها بهدوء ليرى كيف سيتطور الأمر. كان في بدايات تقبله لمصيره، لا يزال يحمل ضغينة مشتعلة ضد أمه.

- «ها هي ثمرة فجورك.» قالت أمه، فيما بدا له سخيفًا مليئًا بالتصنع. العيب الأساسي في البشر هو خضوعهم للنمط، يقولون ما يفترض بهم أن يقولوه، يفكرون كما يفترض بهم أن يفكروا، يشعرون كما ينتظر منهم أن يشعروا... لا شيء

أصيل في هذا العالم، كل ما يقال قد قيل من قبل، كصدى لبداية الكون يتردد على مدى العصور والأجيال.

ابتسم أبوه بسذاجة، الخمر التهمت عقله حقًا.... كان يخضع لجلسة طبيّة كل شهر لمداواة كبده الذي اهترأ من انهار الكحول. تعلقت عيناه المظلمتان بالطفلة التي تحرك يديها وأقدامها من تحت الفراء الرخيص.

ـ ستعيش معنا لتموت فضيحتك يا ابن الكلبة.. بم تريد أن تسميها؟

ظن آدم لثوان أن أوهام زجاجة «الدالمور» لا زالت تمرح في ذهنه فلن يجيب، لكن الرجل تمتم بالعربية:

ـ مريم.. لنُسَمِّها مريم.

ضيقت أمه عينيها، وهي لا تفهم ما يقوله:

ـ لتتحدث الهولندية يا ابن الكلبة..

الهولندية لغة الأدوار العليا التي تبيت فيها الأم والفراشات، الإنجليزية لغة الدور السفلي.. حيث الزبائن من طول أوروبا وعرضها. الحجرات المغلقة حيث لا أوكسانا، تتعانق كل ألسنة العالم البائس المسحوق. هناك أتقن آدم الروسية والفرنسية والتركية والبرتغالية والإسبانية.. كان مترجم المكان حينما تحتاج أمه إلى توبيخ فراشة ما.

ارتعشت شفتا الأب وهو يحاول اصطياد الكلمات التي تهرب منه في مراعي الثمالة المفتوحة، قبل أن يقول بالهولندية:

ـ مريم... أريدها أن تدعى مريم.

- ليكن يا ابن الكلبة... ستعيش عاهرتك مريم معنا، لكن كل مصروفاتها ستقتطع من خمرك الغالية، من الآن لن تشرب سوى البراندي.

بعدما التهمت أمواله كلها لتستخدمها في بناء عشها هذا، لم تتركه وحيدًا. تصرف لم يفهمه آدم في مراهقته. أسكنت الرجل المحطم في العلية وأغدقت عليه من الخمور الجيدة التي تأتيها من كل العالم. كان من الأيسر أن ترميه كالكلب في شوارع أمستردام الحجرية.. حينما كبر فهم.. رغم كل شيء، زواجها من أبيه هو أعظم نجاحاتها كأنثى. الشحاذة التي تركت نفسها لتنتهك مراراً وهي في الثالثة عشر من سائق ثمل ذي جسد لم يعرف النظافة قط، كي يوافق على وضعها في المخبأ السري لشاحنته العملاقة، التي يعبر بها كل الطريق من إستونيا إلى برلين. الفتاة التي كانت تنام متسللة فوق الأسطح الفخمة لتلتصق بالمداخن الساخنة، لتوفير ثمن التذكرة إلى أمستردام والملابس التي سترتديها هناك. الفتاة التي كانوا يعاملونها كالقيء ما إن ينتهوا منها، تزوجت في النهاية -ورغم كل ما رأته - من ذلك السيد الشرقي الذي كان يثير اهتمام العالم في وقت ما. لذلك لم تهتم بخوفه المرضي، أو جنونه، أو إدمانه للخمر أو ماضيه الملطخ بالدماء.. كان سيّدًا، وكان زوجها.

مريم... العالم مفعم بالسخرية الدفينة، العذراء الطاهرة التي تتربى داخل مستنقع الزانيات. لم يحظ معها بوقت طويل، سرعان ما غادر إلى درسدن.. أبعد جامعة استطاع الالتحاق بها، لكنه ظل يعود لأسبوعين في كل عام. جرعة دوائه السنوية حتى لا ينسى من هو وما هو راغب في فعله.

مثلما فعلن معه في طفولته، توالت الفراشات على العناية بمريم. هناك ضعف لا يمكن علاجه لدي معظم النساء حينما يأتي الأمر إلى الأطفال الصغار، خصوصًا إن كانوا بجمال مريم. مثله أيضًا جمعت الحسنيين من مظهري والديها، شعر هندي أسود حالك شديد الطول والكثافة، البشرة البرونزية اللامعة، والعينان العربيتان النفاذتان. العينان التي ظل يراقبهما عامًا تلو الآخر، هناك روح خلفهما... روح صغيرة بريئة تتحدى عفن العش المزمن. اتصالها به فاجأه، رغبتها في الهروب وأملها فيه المكسو بحب غريب له لا يعرف سببه.. ربما تراه وسط ظلمات حياتها كالنور البعيد الجالب للأمل. يحب الناس النور، لهذا يمثلون ملائكتهم المتخيلة وقديسيهم المتوهمين بهالات من النور تحيط بهم، واحد من أقدم الهلاوس الجمعية في التاريخ. النور!!.. البشر لا يكونون أنفسهم حقًا إلا حينما يجن الليل بظلمته الساترة..

- أتريد رؤيتها؟!!

دبيب من الغيرة يتمازج مع الصوت القادم من المكبرات غير المرئية المزروعة في الجدران بترتيب هندسي معقد ليأتي الصوت مجسمًا.

ابتسامته التجارية تظهر مرة أخرى:

- لا داعي، إنني أطمئن عليها فقط. هل وصلها عقار سوفتنس الجديد الذي أرسلته إليها؟

هذه المرة الغيور تتسلق الشاشة العملاقة،لتنشب مخالبها في العيون العجوز.

- نعم...

ـ إنه عقار رائع.. اجتاز لتوه الاختبارات الإضافية، سينزل الأسواق في بداية العام.. يمكنك تجربته يا إيما، أستطيع أن أبعث بالمزيد.

ـ شكرًا يا صغيري.

لا ترفض أوكسانا الهدايا أبدًا، يعلم ذلك.. لذا كان يمتلكها.

ـ سأحادث فريدريك اليوم ليتعجل عينيك الجديدتين.

الرضا هزم الغيرة في ماء عينيها، تابع هو وكأنه يتكلم عَرَضًا:

ـ هناك مدرسة داخلية جيّدة للغاية هنا في بروكسل. أعتقد أنه سيكون من الأفضل لمريم أن تدخلها.

ـ ماذا؟. لماذا؟

ـ هذا ترتيب جيّد لنا جميعًا، أنا لا أريدك أن تتذكري أي شيء من حادث أبي الأليم يا إيما.

كلمة إيما والحنين الذي يجيده خرج مع كلماته، امتزج بشعورها الخفي الدائم بالذنب في حادث زوجها فأسكتها.

ـ كما ترى يا صغيري آدم.

ابتسم حقيقة هذه المرة فتألقت أسنانه البيضاء، والنوافذ المعتمة تشف تدريجيًا آليًا لتأتي بضوء الشمس الشحيح.

ـ عليَّ أن أذهب الآن يا إيما.

ـ حسنًا يا آدم، لا تتأخر في اتصالك المرة القادمة..

وجهه الجميل يضيء:

ـ أعدك يا إيما.

ـ باي.

أغلقت المكالمة، فعاد الجدار إلى اللون الرمادي المحايد. دقت ساعته في تلك اللحظة.. عليه أن يتحضر للمقابلة، مكالمته مع أمِّه كانت ناجحة، على كل شيء أن يسير طبيعيًا وبلا أخطاء.. قفز الدرج بنشاط سعيد ليغسل عرق الجيمنازيوم.

2

ندف الثلج تتكاثر غير ملحوظة، تطلي المدينة باللون الأبيض البارد. عينا آدم تتأملان العالم من حوله بينما سيارته التي سلم مقودها القيادة الآلية متوقفة في الإشارة الحمراء الهولوجرامية.. العالم بأسره يستخدم الهولوجرام بكثرة، لذا كان رهانًا رابحًا في وقت من الأوقات المضاربة على أسهم شركات التقنية الصغيرة.. لكن كنمط الحياة الذي لا يتغير، عادل ازدياد الطلب ازدياد سريع في الشركات التي تؤدي الخدمة حتى وصلا إلى التوازن المطلوب.

عرف عنه القدرة على اختيار الرهان الرابح، يمتلك أنفًا سحريًا لا يشتم إلا الذهب كما كانوا يقولون أثناء عمله السابق كتاجر أسهم في أسواق المال. نجاح تلو نجاح، إلى أن اشتم أنفه الفرصة الأكبر. اعتقد رؤساؤه أنه قد جُنَّ أو أنه مختال وهو يخبرهم قراره بترك تجارة الأسهم نهائيًا. تناثرت الهمسات بأنه سينتقل إلى شركة منافسة.. هذا يخلق العديد من العداوات، وهو لا يكون العداوات ولا الضغائن أبدًا. اندهشوا حينما ترك محافظ عملائه السابقين هديّة منه إلى الشركة، الآن رغم مرور عامين على رحيله لا زال يحصل على كارت إلكتروني في كل كريسماس مع دعوة إلى الحفل السنوي الكبير.

إعلان هولولجرامي تتحدى ألوانه الصاخبة الستار الأبيض الذي ينسدل رويدًا بطول المسافة بين السحب والأرض الأسفلتية التي تخفي الحلقات المغناطيسية العملاقة، والتي تساعد العربات على الطفو في الهواء. يظهر رودلف هايمر بسرواله الأحمر القصير الضيق، وشعره الأشقر وهو يتجرع جعة «روبنسون كروز». تتقاطع الأشعة المكونة للهولوجرام فتتحرك شفتا رودلف:

- روبنسون كروز.. لمن لا يحتاج لأحد، مشروب الرجال الحقيقيين.

الصوت المجسم يخرج من المكبرات الموزعة خلف الألواح المائلة للمباني في جانبي الشارع لينفذ من زجاج سيارته. الصوت لهايمش أردان، صوت عميق ذكوري جذاب. يحصل رودلف على مائتي ألف يورو لخلع قميصه وارتداء هذا السروال القصير. هايمش لا يحصل سوى على خمسة وثلاثين ألف يورو. هايمش أصلع وبدين وبخيل، رفض شراء شعر مكسيكي كثيف لن يكلفه سوى تسجيل صوتي مجاني. كان اختيار مديره، بينما لم يكن آدم يفضله، سعره الرخيص جعل صوته مستهلكًا في مئات الإعلانات حتى اعتادته آذان المستمعين وذلك أسوأ ما يحدث لإعلان.. الاعتياد الملول.

- روبنسون كروز.. لمن لايحتاج لأحد، مشروب الرجال الحقيقيين.

إعلانات الكريسماس.. حين يشعر الجميع بوحدتهم، يحدقون في جدران شققهم الخراسانية الوقحة الباردة، يمضغون خواءهم حتى ينتحروا، أو يهربون فيدفنوا هذا الشعور بالخمر أو السفر أو بالذهاب إلى الأوكسانات الجشعات، المنتظرات بصبر متلهف.

- روبنسون كروز.. لمن لا يحتاج لأحد، مشروب الرجال الحقيقيين.

الرجال الحقيقيون.. رودلف هايمر قام منذ شهرين بتبديل قضيبه بقضيب إفريقي عملاق، يشتهي الجميع أن يكونوا رجالًا حقيقيين، دون أدنى فكرة عمّن هم الرجال الحقيقيون... هذا منجم ذهب فعلي.

تحولت الإشارة إلى اللون الأصفر، ظهرت أسرة صغيرة من أب وأم وطفلين، يتحركون بأحذيتهم ذات الرقبة، والمزودة بالتدفئة الذاتية ليخطون فوق البساط الثلجي الهش على الرصيف العريض دون قلق. الطفلان -ولد وبنت- يقيد معصميهما أساور الحماية التي تطلق إنذارًا عاليًا عند ابتعاد الأطفال عن أهلهم بنطاق أربعة أمتار مربعة، تطلق إنذارًا إذا زاد دفق الأدرينالين في دماء الطفل نذيرًا بانطلاقه في اللعب، تطلق إنذارا مع أي حركة مفاجئة..

- أروع ما في الاطفال هي براءتهم الساذجة واندفاعهم، فضولهم النهم لمعرفة كل شيء.. إن انتصرت شهوتنا لترويضهم، إن أجبرنا العلم على خصاء طيشهم.. ستكون نهاية العالم.

قال البروفيسور الاشتراكي الحانق في درسدن، وقت ظهور تلك الأساور للعلن للمرة الأولى. رافق كلامه موجة اعتراض هائلة من كل أطباء علم النفس والاجتماع والمثقفين الليبراليين. لكن لا يمكن مقاومة ما يجعل الحياة أكثر راحة أبدًا... ها هم الآن، عشر سنوات كاملة مرت على إطلاق تلك الأساور في الأسواق ولم يسقط العالم.

ذكرته عيون الأطفال المنكسرة بعيون وحوش البرية القابعة في الأقفاص. هدوء الأطفال وخطواتهم شبه الآلية أعطت مساحة من الحرية إلى الأبوين. تعلقت عينا الأم بالفتاة الجميلة في واجهة أحد

متاجر الملابس، وهي تخطو برشاقة وتؤدة جيئةً وذهابًا، خلف زجاج شديد الشفافية حتى أنه لا يلحظ وجوده للوهلة الأولى.

الموديلات البشرية المتحركة تعطي نتائج أكثر إيجابية من الهولوجرام، حسب الإحصائيات، وأكثر كلفة بما لا يقاس. عينا الأب تتفقد اللوحات البراقة فوق المتاجر، تقف لثوانٍ فوق دعاية خطية بالنيون لعيادة للتخسيس، فقدان الوزن في خمس عشرة دقيقة فقط. بعض الناس لا يزالون يخافون العقاقير المذيبة للدهون والتي تصل بك إلى الوزن المثالي بمائة يورو، فقط في ثلاثة أيام. ربتت يد الأب دون وعي منه على بطنه البارزة قليلًا، قبل أن يتعلق بصره بداش بيرتهارت البطل الرياضي الأسود وجسده المطلي بالزيت، ليبرز عضلاته الأبنوسية أكثر وأكثر. الصورة جانبية بينما يدير داش وجهه ويغمز بعينيه الخضراوتين التي قام بشرائهما منذ عامين. داش شاذ جنسيًا لكن عقوده الإعلانية لا تسمح له أن يعلن ذلك. اسم المنشط الجنسي الذي يدعو له داش يتألق باللون الأحمر. دائمًا اللون الأحمر، لون البهارات والحرب والدم والجنس والثورة..

الأم لا زالت تتابع الموديل الرشيقة، كتب الأب في مفكرته الذكية اسم داش بيرتهارت، فتم سحب خمسة وعشرين يورو من حسابه البنكي. مع انتهاء جولته مع أسرته قبيل الظهيرة، ستكون هناك خمس علب من المنشط تنتظره أمام باب داره.

لو كان آدم غير مشغول البال بما هو قادم لابتسم الآن، النمط الثابت وردود الأفعال المتوقعة هي ما جعلته يصل إلى ما وصل له الآن، وإلى ما يريد أن يصل إليه اعتمادًا على نجاح الاجتماع القادم. تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر فانطلقت السيارة دون إبطاء، شيئًا

فشيئًا تضاءلت الأسرة في المرآة التي تعكس صورة ما وراءه، حتى أسدل الستار عليهم تمامًا.

- روبنسون كروز.. لمن لا يحتاج لأحد، مشروب الرجال الحقيقيين.

3

- في الواقع يا سادة.. إنكم ستواجهون مشكلة عصيبة في غضون سبعة أشهر من الآن أنتم تعلمون هذا مثلي تمامًا، لذا لا داعي لأن نضيع المزيد من وقتنا ولنذهب إلى الهدف مباشرة..

صوت آدم لا زال محايدًا، يوحي متعمدًا ببعض نفاد الصبر. الأعضاء التنفيذيون لـ «eternal life» ينظرون له باهتمام الآن العاهرة الخبيرة تعرف متى يكون هناك وقت للمداعبة ومتى لا يكون، هؤلاء الرجال محنَّكين، أن يكون مباشرًا هو خياره الأمثل.

- اتفاق تقسيم النفوذ الدولي في مراحله النهائية، بضعة أيام أوساعات وسيتم التوقيع بين الاتحاد الأوروبي والاتحاد الروسي.. لا أحد يريد حربًا جديدة.. منذ عام ونصف تمت الاتفاقية مع الولايات المتحدة، الآن أمريكا اللاتينية بأسرها أصبحت باحتهم الخلفية.. إنتاجهم بالكاد يكفي سوقهم الضخم، لذا لم تستطع «body replacment» ولا استطعتم أنتم استيراد أي شحنة من هناك. الآن سيحدث المثل مع أوروبا الشرقية وحتى الهند وشرق آسيا بأسرها. الروس تجار سيئون ويحتمون باتحادهم الذي لا يحترم أحدًا.

الشحنات التي تم التعاقد عليها قبل الاتفاق ستنتهي بعد سبعة شهور من الآن.. ماذا سيترك لنا هذا؟اليونان والتشيك والبرتغال لن يكفوا حتى ربع الطلب، كما أن معدل الخصوبة فيهم ينحدر بسرعة، في خلال عقدين أو ثلاثة معدل النمو الديموغرافي سيكون متساويًا في كل دول الاتحاد، هذه هي المعضلة..

ـ شكرًا لإنارتنا بما نعرفه بالفعل مستر مملوك.

قال كاننينجهام وعيناه الخضراوان النفاذتان تجوسان في وجه آدم المتألق تحت الضوء الأبيض النظيف.

حتى بدون التحريات الموسعة التي قام بها آدم حول الأعضاء التنفيذيين، كان ليعرف بمجرد النظر من هو صاحب اليد العليا والمتحكم في كل المجلس ها هنا. رؤوسهم مزروعة الشعر متماثلة، تهتز موافقة ما إن يفتح كاننينجهام فمه، كدميَة الكلب المرقط ذي الرأس المتراقص التي وجدها في سيارة أبيه الميّت، التي نهشها الصدأ في المرآب القديم. تنقسم الكلاب ـ وكل الحيوانات ـ إلى ألفا وبيتا وأوميجا، الألفا القائد المسيطر، البيتا ينتظر فرصته في القيادة، الأوميجا لا أمل في قدرته أو رغبته في القيادة أبدًا. باستثناء كاننينجهام... كلهم أوميجا.

ـ كيف يمكن تغطية النقص المنتظر؟. هذا سؤال البليون يورو. لهذا أنا هنا، لأصنع المال لكم ولي. هناك الدورادو مخفية وأنا وحدي من أعرف طريقها السري.

الانتباه التام والتحفز يغمر وجوه الأوميجا. يكاد آدم أن يرى لعابهم يغرق الأرضيّة بين لهاثهم المتواثب. فقط الألفا هومن يقبع متشككًا. هذه مشكلته وعليه أن يحلها وإلا لن تنجح خطته.

- إنني أقدر البلاغة مستر مملوك، لكن وقتنا ضيق وغالٍ كما لا بد وأنك تعلم.

ابتسم آدم، هذه غريزة أساسية، لم يزدها التطور إلا قوة، من وحيد الخلية إلى القرد وصولًا للإنسان المنتصب لا يخطئ كائنًا أبدًا في اشتمام خطر المنافسة على المكانة..

- الصحراوات الميتة... هناك تقبع الدورادو، منجم الذهب المغلق الذي ينتظرنا.

تراجع كاننينجهام في مقعده المصنوع يدويًا، بتكلفة تضاهي ثمن حجرة الاجتماعات بأسرها. رغم أن تصميمه يماثل كل المقاعد الأخرى لزملائه، مطابق للعين غير الخبيرة.. صنع ليتماشى مع قوانين التساوي بين الأعضاء التنفيذيين، وليكسرها في نفس الوقت.. كاننينجهام هو كرسيّه.

- همم أعتقد أنك تتكلم عن مصر تحديدًا يا مستر مملوك.

وقت النزال قادم.

- بالضبط يا مستر كاننينجهام.

- إذن فلقد أضعت وقتنا دون قصد، مصر محرمة بالقانون... هي ليست الدورادو، إنها أرض خراب بلا أمل.

الترويض.. قفزة هائلة على طريق التطور لا يتوقف الكثيرون عندها، رغم أنها السبب الرئيسي في وصول الإنسان إلى مرتبة الكائن المسيطر على كوكبه. يوم استطاع الإنسان الأضعف تسخير الحيوانات الأقوى لتقوم بالعمل بدلًا منه. لطالما فتنت تلك اللحظة الضبابيّة خيال آدم. الرجل الملتحف بالفراء، ولا يملك سوى عصا خشبية ذات رأس حجري، يقف أمام الحصان الوحشي ذي النوة الخرافية ليجبره

على الخضوع، لا شيء بجعبته سوى إرادة لا يمكن كسرها، وذكاء، لهذا داوم آدم على حضور عروض السيرك بشغف لا يبلى مهما تقدم في العمر. الأسد القادم من قلب إفريقيا، ينحني أمام السوط المفرقع في يد، وقطعة اللحم في اليد الأخرى.

يزأر كانينجهام الآن مستعرضا قوته، الأوميجا يهزون ذيولهم في ترقب، وآدم سيد السيرك يواجه الاختبار... سوطه عقله، قطعة اللحم تكمن فيما سيقوله في اللحظات القادمة..

- التعاملات الاقتصادية ممنوعة قانونًا، منذ مذبحة اليونيسكو، من أكثر من ثلاثين عامًا بحكم القانون هذا حقيقي. لكن قبل أن نتطرق إلى تلك المشكلة دعوني أبدأ في استعراض تاريخي سريع ومختصر. مصر مهد حضارة قديمة، قديمة للغاية، بدأت وانتهت حول نهرها القديم النيل. الذي كان يبدأ من هضاب أثيوبيا العالية لينتهي في البحر المتوسط. نهرهم كان كل ما يملكونه في الواقع، حيث تحاصرهم الصحراء من كل الجوانب منذ بداية العالم. بدأت النهاية حينما قررت أثيوبيا بناء سدٍّ على منبع النهر التاريخي.. ككل مصدر حيوي مشترك للحياة، تنازعت الدولتان حينًا قبل أن يرضخا للأمر الواقع بتوقيع اتفاقية لم تُرض أيًا منهما.. مصر كانت من أكثر دول العالم كثافة.. في ذلك الوقت لم تكن تفاعلات الليثيوم المطور قد اكتشفت، النفط كان مصدر الطاقة الأساسي. مصر فقيرة في النفط، لكن كل جيرانها كانوا يعومون فوقه، مع قلة عدد سكان الدول المجاورة امتلكوا ثراءً فاحشًا، أمكنهم من تصدير أفكارهم وأيدولوجياتهم

إلى جارتهم المنتفخة بسكانها. بتاريخ شرقي عتيق ومزمن من الديكتاتورية، صراع الأيدولوجيات المحتم لم يجد له متنفسًا سوى في القتال والقمع المتبادل. لتفريغ الطاقة قبل انفجار كارثي، أقدمت القيادة على مغامرة عسكرية بالحشد للحرب مع أثيوبيا رغم بعد المسافة بين الدولتين، بما عرف بحرب الجنوب الأولى.

التجهيز الفاشل والمتسرع أسفر عن هزيمة مخزية، أطاحت بالديكتاتورية الخاسرة، مع توقيع عقوبات دولية ثقيلة.. الديكتاتورية الجديدة أتت بخطاب أكثر شعبوية، وقدرة أكبر على القمع والاعتقال، بشائر الليثيوم المطور كانت قد بدأت في الظهور لكن لا زال النفط سيدًا للطاقة، الطائرات الجبارة فائقة السرعة لم تكن قد اخترعت بعد. معظم النقل الثقيل بين دول العالم المتباعدة كان يقوم على النقل البحري بالسفن الضخمة.. مصر كانت تمتلك قناة تصل بين البحر المتوسط والمحيط الهندي. بمعجزة ما استطاعت مصر النجاة من الانهيار.آجلًا أوعاجلًا، لا ترى الديكتاتوريات حلًا سوى الحرب للخروج من المأزق الداخلي. هكذا بدأت حرب الجنوب الثانية.. تلك المرة الهزيمة كانت مدمرة.. الأثيوبيون المنتصرون -وبعد أن فقد العالم اهتمامه بالمنطقة في غمرة نشوة الليثيوم المطور- قاموا بتحويل مسار النهر تمامًا.

وكأنما كان النهر هو روح هذه الأمة، فقدوا تماسكهم ما إن اختفى. اندلعت شبه حرب أهلية، إلى أن تولت مجموعة من القادة العسكريين حكمًا أوتوقراطيًا مسلحًا. أبيدت كل أشكال الثورة بأقصى

قدر من الإرهاب والدموية.. وسط الفوضى انفجر المفاعل النووي الرئيسي سيئ الصنع لينثر تلوثًا ذريًا شاملًا في القطاع الغربي بأكمله.

مع غياب النهر تقدمت الصحراوات أخيرًا لتغزو الأراضي التي كانت تشتهيها منذ فجر الخليقة.. العطش أفضى إلى مجاعة هي الأقسى في التاريخ الحديث، نفق الملايين كالحيوانات. المساعدات الإنسانية الدولية كانت شحيحة، الليثيوم أنهى تمامًا الحاجة إلى النفط والقنوات البحرية.. فقدت مصر والمنطقة بأسرها مكانها في وعي العالم، وانزلقت رويدًا رويدًا في ظلام النسيان العميق. انخفض سكانها من ١٦٠ مليونًا إلى ما لا يزيد عن أربعة ملايين نسمة، احتضرت المدن واحدة تلو الأخرى، لم تنجُ سوى مدن خمس رئيسية، تقبع بجوار البحر. يسيطر على البقايا جنرال واحد لكنه لا يحكم حكمًا مطلقًا.

موت النهر أفضى إلى موجات من الجفاف تأتي في دورة كل سبع سنوات على الأراضي القابلة للزراعة.. قايض الجنرالات على الآثار المصرية القديمة التي نجت من الفوضى بمحطات تحلية للمياه للمدن الخمس.

ـ مذبحة اليونيسكو.

لا زال كانينجهام يزأر، وهو يتفحص آدم بعينيه الضيقيتين بفعل الضوء الأبيض.

ـ بالضبط. عملية نقل الآثار المعرضة للخطر كانت برعاية اليونيسكو. معظم الآثار المتبقية كانت تلتهمها الصحراء التي أطلق سراحها فتوحشت. استمرت عمليات النقل أكثر من سبعين عامًا. مصر كانت تمتلك أكثر من ثلث آثار العالم. كل الدول الغنية أرادت جزءًا من الكعكة، ولم يكن

هناك شيء غير معروض للبيع لأعلى سعر. الهرم الكبير في لندن، تمثال السفنكس في نيويورك، كلاهما أتى رأسًا من قلب الصحراء هناك.

آخر عمليات النقل والتي يذكرها مستر كاننينجهام بمذبحة اليونيسكو كانت منذ خمسةٍ وثلاثين عامًا. آخر الجنرالات الكبار اتفق على نقل معبدٍ كامل إلى موسكو، حين ثار بعض المحليين بجوار هذا المعبد وأوقفوا عمليات النقل ليومين كاملين. قامت قوات الجنرال بسحق كل الأهالي في هذه المنطقة دون استثناء... وتم النقل. خطأ الجنرال كان يكمن في اختياره للمشترين، الحملات في الاتحاد الأوروبي والإمبراطورية الأمريكية بدأت ولم تنتهِ إلا بانقلاب انتقامي أطاح بالجنرال الكبير.

- لم يتم الإطاحة به وحده على ما أتذكر.

لم يكن آدم يتوقع غير هذا، لا زال اسمه يحمل الوصمة الحمراء. كلما استمر كاننينجهام في الهجوم، كلما اقترب من فخ آدم الذي ينتظر بصبر دون تعجل.

- هذا حقيقي أيضًا.. وللمفارقة، كان الاتحاد الأوروبي هو من قبل أن يفتح أبوابه ليكون منفى الجنرال وحاشيته، ليصرفوا فيه كل الأموال التي حصلوا عليها من صفقة البيع للروس. الآن المدن الخمس تكاد أن تكون مستقلة عن بعضها، لكل مدينة شبه شرطة أو جيش مكون من الأيتام الذين يربون منذ الصغر على القواعد العسكرية واستخدام السلاح. جيش قليل العدد بالطبع، لكنه عظيم الكفاءة في حفظ النظام

حيث القلاقل والثورات قد انتهت تمامًا. جيش يملك ولاءً مطلقًا للجنرال الحاكم.

بدا الفضول في الظهور تدريجيًا في أعين بعض الأوميجا.. وآدم ينتشل لهم من عالم النسيان المظلم ـ وبأسلوبه الدرامي الذي تمرن عليه كثيرًا- أرضًا أسطورية لا يعلمون عنها سوى القليل.

- كيف يحيا المواطنون هناك؟. ما مصادر الدخل؟. كيف تصبح أرض كتلك الدورادو؟

- لا وجود لكلمة مواطن بتعريفنا هنا.. الأهالي يقطنون البقايا المهجورة بالقرب من المدن الخمس.. كل مدينة رئيسية تقوم بإعالة من حولها بالطعام والماء. مصادر الدخل الحكومية تأتي في الغالب من الأراضي التي يتم تأجيرها إلى الشركات الزراعية الكبيرة.. رغم الحظر الاتحادي للتعامل مع المدن الخمس منذ مذبحة اليونسكو، إلا أن هناك ثغرة يتم من خلالها التجارة مع المدن.. القانون يسمح بالقيام بالمشاريع الخيرية التنموية لإعالة الاماكن المنكوبة، شرط ألا يتجاوز رأس مال المشروع التنموي المائة مليون يورو. تقوم الشركات الزراعية بتأجير الأراض القابلة للزراعة من حكومات المدن وتجلب المزارعين من الأهالي. تقول الوثائق الرسمية أن الشركات تقوم بإعالة المزارعين ودفع أجورهم بالكامل مع حصولهم على نصف أرباح بيع مزروعاتهم. الواقع أن المزارعين يُجلبون سخرة، حيث لا يحصلون إلا على الطعام والماء فقط. تدفع الشركات الأجور ونسبة الربح إلى حكومات المدن، ينص التعاقد بالطبع على

أن الحكومة تقوم بتوزيع الربح على المزارعين.. الكل يعلم أن هذا لن يحدث أبدًا.

ـ وهل تدر الأرض الجافة تلك أيّة أرباح؟

ـ للعجب نعم. دائمًا ما كانت تلك البلاد مصدر ربح مهما كانت الظروف التي تعانيها. كانت سلة الحبوب للعالم القديم. الزيتون الإغريقي وزيت ميسينا غالي الثمن الذي يباع في الأسواق بضعف سعر أي منافس، ما هو إلا الزيتون المصري الذي ينقل إلى اليونان حيث يتم إعادة تعليبه مع تغيير اسم بلد المنشأ.. هناك أرباح جيدة للغاية تدر منذ عقدين على أقل تقدير.

أمسك كاننينجهام بطرف الحديث وهو يرى الاهتمام في عيون الآخرين. يعلم آدم أن لكاننينجهام خططه الخاصة بالتوسع في اليونان. زوج مارجريت هو المحامي الخاص بالشركة الروسية لتجارة الأعضاء، أتت مارجريت له بالنسخ الإلكترونية المزمع عقدها بين شركة وهمية تابعة لكاننينجهام وبين الشركة الروسية لاستيراد الأعضاء ومن ثم إعادة بيعها إلى «eternal life».

ـ حسنًا.. أعترف أنك تعلم الكثير عن تجارة الزيتون، لكننا نتحدث عن تجارة مختلفة كليًا أليس كذلك مستر مملوك؟. أربعة ملايين إنسان دون خصم الأطفال والمسنين من أرض مصابة بالإشعاع الذري، أرقامٌ ليست مشجعة بالمرة..

ـ بالطبع.. بالطبع. كان ذلك ليكون استثمارًا سيئًا.... منذ خمسة وثلاثين عامًا.

تعلقت به العيون. وقت إخراج اللحم لإغراء الوحوش قد حان.

- تعرضت تلك البلاد طوال تاريخها لحوادث مشابهة، مجاعات.. حروب طاحنة أدت إلى انخفاض مخيف في تعداد سكانها. لكن معدل خصوبة أهلها دائمًا ما كان درعًا منيعًا. التقارير القادمة من الشركات الزراعية تثبت قفز عدد سكانها إلى قرابة الخمسة عشر مليونا الآن الزيادة الهائلة للسكان أدت إلى ضغط حكومات المدن على الشركات لزيادة نسبتها من الأرباح، بداعي مواجهة النفقات المتزايدة لإعالة الأهالي. قامت الشركات الزراعية بالإحصاء بنفسها في محاولة لدحض طلبات الحكومات. النتيجة أتت مذهلة كما سترون. معدل الخصوبة -رغم الفقر- عالٍ للغاية.. أطباء الأمم المتحدة ومنظمة أطباء بلا حدود في بحثين منفصلين اكتشفا مقاومة غير طبيعية للأمراض في أجساد الأهالي. نوع من الطفرات الجينية بعد الانفجار الإشعاعي.٥٦ في المائة من ذوي الأجساد المقاومة للسرطان، الذي كان شديد الانتشار في الأربعين عامًا التالية للانفجار.٨٧ في المائة لديهم مناعة غير اعتيادية ضد الأنفلونزا والسل والدرن. لا أمراض جينية على الإطلاق، لا إيدز.

قال آدم ذلك وهو يضغط على زر الإرسال في الكومبيوتر الذكي الصغير بين يديه وتابع:

- وصل كل منكم الآن نسخة من التقارير والإحصاءات التي ذكرتها، موثقة بشهادات تسجيلية للأطباء الذين قاموا بالفحص في مقابلات على الإنترنت قمت بها شخصيًا.

مرفق أرقام هواتفهم وعناوينهم الإلكترونية في حال رغبتكم في التأكد.

اللعاب يغرق الأرض الآن في ذهن آدم. ما يعرضه شديد الإغراء بالفعل، ليس مجرد مصدر جديد وغني لسلعتهم التي على وشك الاختفاء، بل إنه أيضًا يقدم السلعة بشكل أكثر جودة مما يمكن أن يوفره الروس أو حتى أهل اليونان.

الهمهماتِ تحاوط كاننينجهام. العرض مغرٍ بشكل لم يتوقعه، حين أبلغهم آدم برغبته في مقابلتهم لم يكترث كثيرًا. مع أول بحث في سيرته الذاتية عرف أنه مغامر يسعى وراء المال دومًا. يقفز من وظيفة إلى وظيفة بنجاحات متفاوتة.. كان مطمئنًا لترتيباته القادمة مع الروس، أخذ آدم بعدم اكتراث يبدو له خطأ مريعًا الآن عليه أن يُعمل عقله بأسرع ما يستطيع ليجد ثغراتٍ في العرض المفاجئ.

- هناك العديد من المشاكل الخفيّة في عرضك يا مستر مملوك. منذ بداية عقار التحييد الناجحة، العديد من الشركات العاملة في مجال نقل الأعضاء تم إيقافها، بل والقبض على أصحابها. القواعد ثابتة ومعروفة.. لا استنساخ لأنه يؤدي دائمًا إلى طفرات جينية مؤذية تتبعها تعويضات كفيلة بإفلاس الشركة.. لا إجبار على التبرع، أفريقيا السوداء بأسرها أغلقت للأبد بسبب فضائح كتلك. عرضك رغم إغرائه إلا أنه يحمل ذات الرائحة، نحن لا نتعامل مع الحكومات الديكتاتورية، وبالقطع لسنا على أدنى استعداد لوضع انفسنا في موضع المسائلة.. في الواقع، ارتباطنا العلني بك سيجعلنا

تحت الأنظار.. لا أقصد الإساءة، لكن تاريخك الأسري لا زال هناك من يتذكره.

- «body replacment» لن تتعامل مع أي حكومة ديكتاتورية أو ديموقراطية.. مسار السلعة سيتوازى مع مصير المزروعات القادمة لكل الشركات. بلد المنشأ سيتم تغييره. وبالطبع لن يكون هناك أي إجبار على التبرع، أؤكد لكم أنه سيكون اختياريًا تمامًا. إنني أعرض عليكم ستة أشهر مجانية للاختبار. سأقوم بتسليمكم السلعة على أرض أوروبية تحمل علامة إنتاج محلية..

- هذا رائع.

أفلتت الكلمات من أحد الأعضاء، مسام وجهه الكبيرة بشكل غير اعتيادي توهجت تحت تلطيه الشهواني بأفكار الربح، فبدت تحت الضوء كتربة القمر ذات ملايين الثقوب من أثر النيازك التي لا تحصى.... نظرة كانينجهام أخرسته.

- لا زالت التساؤلات تفعمني يا مستر مملوك برغم جاذبية عرضك، كيف سيكون التبرع اختياريًا.. كيف ستنقل السلعة إلى أوروبا.. ولماذا نحن تحديدًا، إنك بالفعل تعمل مع المنافس الأساسي لنا. هناك شكوك يا مستر مملوك، هناك شكوك.

ابتسم آدم، لا يدرك كانينجهام أنه بتساؤلاته العلنية تلك يثبت الموافقة في رؤوس زملائه بدلًا من حذفها، ما إن يجيب آدم بإقناع.

- كما قلت، القوانين تسمح بالقيام بالمشروعات الخيرية بل والخدمية في الأماكن المنكوبة بشرط ألا تتجاوز المائة مليون

يورو. تتذكرون قبل اكتشاف عقار التحييد الذي يمنع رفض الجسد للأنسجة الغريبة، لم يكن هناك سوى المحاولات التي لم تنجح قط لاختراع أعضاء داخلية آليّة.. كانت هناك نسب عالية من الأمراض غير القابلة للشفاء، لذا وجدت مؤسساتُ الموت الرحيم التي يذهب إليها المريض لإنهاء حياته. بالطبع اندثر هذا المجال تمامًا مع عقار التحييد، لكنَّ هناك بعضًا من تراخيص العمل القديمة لتلك الشركات لا زال ساريًا. أمتلك الترخيص الوحيد الذي لم يتم إيقافه، وأمتلك موافقة الإدارة الصحية للاتحاد الأوروبي لبدء العمل في المدن الخمس لتقديم خدمة الموت الرحيم لهؤلاء الذين يعانون. أمَّا بالنسبة إلى نقل السلعة أنا أيضًا أمتلك الشركة الحاصلة على أحدث وآخر التراخيص بإنشاء المزارع في المدن. لا أحد يقوم بتفتيش الحاويات القادمة من هناك منذ عشرين عامًا. إنني أتحمل المخاطرة كاملة، أنتم ستستلمون السلعة داخل الأراضي الأوروبية سليمة بنسبة مائة بالمائة..

- أهل المدن مسلمون، المسلمون لا ينتحرون يا مستر مملوك.
- هم بشر يا مستر كاننينجهام، فقط ضعهم في الظروف المناسبة وسينتحرون كغيرهم... إنها مشكلتي لا مشكلتكم، وأنا أعرف جيّدًا كيف أحلَها.

الأبواب تغلق في وجه كاننينجهام، وذكاؤه لا يسعفه بصورة كافية.. ساعده أحد زملائه الذي سأل آدم بينما عقله يحسب لا إراديًا الملايين القادمة مع ارتفاع سعر الأعضاء المتوقع بعد الاتفاق الروسي.

- لماذا نحن يا مستر مملوك.. أنت لم تجب هذا السؤال.

يقبض عقل آدم على السوط الآن، سيفرقع السوط في أذهانهم بأعلى ما يستطيع.

- إن مخزونكم يكفيكم لمدة سبعة شهور، مخزونهم قد يكفيهم ثلاث سنوات. لهذا اعتقدت أنكم ستكونون أسرع في القرار. لكن إن لم نتفق فبالطبع سأقوم بالاتفاق معهم.

خرجت الكلمات بطيئة من فم كاننينجهام،وهو يطيل التحديق في آدم:

- وما هو الاتفاق الذي تبغيه يا مستر مملوك؟

- خمسة وثلاثون في المائة من الربح يا مستر كاننينجهام.

اشتعلت عينا كاننينجهام، تلك هي النسبة التي كان قد أرسلها إلى الإعضاء التنفيذيين -عن طريق أحد أتباعه- في عرضه لتوريد السلعة بعد الاتفاق الروسي.

رأى الموافقة تنتشر كالعدوى في عيون زملائه. هو من مهّد الأرض من قبل لشهور حتى يقبلوا الدخول في شراكة معه بهذه النسبة.. والآن يأتي هذا الفتى ذو البدلة الرمادية المحايدة، وعيناه البنيتان الواسعتان ليحصد ما قد زرعه هو. إن رفض دون سبب مقنع للغاية ستحوم الشكوك حوله.. الشك يهمس في أذنه بأن هذا الفتى يعلم الكثير. لقد ارتكب خطأ شنيعًا حينما استخف به.

- ما ردكم يا سادة؟

استبق كاننينجهام الجميع:

- امنحنا أسبوعين يا مستر مملوك، وسنبلغك بقرارنا.

أومأ آدم برأسه موافقًا. ضغط على زر الإغفاء لحاسوبه الصغير فنام على الفور. قام بمصافحة الجميع، متجهًا نحو كاننينجهام الذي

يقف وحيدًا على الناحية الأخرى من الطاولة.. حالما وصل إليه وضع أحد الأعضاء الآخرين يده على كتفه في مرح:

ـ هناك حفل نقيمه بعد عشرة أيام يا مستر مملوك بمناسبة نهاية العام، كبار المساهمين سيحضرونه.. فوق جبال الألب حيث يقع مقرنا الترفيهي الخاص. لا بد أن تأتي، يمكنك إحضار رفيق أيضًا، سأبعث لك ببطاقة دعوة، ستكون هناك طائرة خاصة لذهابك وعودتك. لم يغب المغزى عن ذهن آدم.. هذا رجل يتوق إلى الاتفاق.

ـ أرجوك ادعوني آدم. سأحضر بالطبع، شكرًا لك يا مستر فاندرجوتن.

ـ ادعني يول.

بعد دقائق غادر الحجرة بخطوات هادئة، بينما عقله يقوم بحساب كل الاحتمالات لما هو قادم. كلمة كاننينجهام تلتصق بأذنه كالعَلَقِ.

ـ سأنتظرك.

السكرتيرة الحسناء ذات الشعر الأحمر، تختلس النظر له في إعجاب وهي تدَّعي النظر إلى الهولوجرام المتألق أمامها. ابتسم لها برقة.. كان مشغولًا للغاية ليحدد في الحال هل يمكن أن يحتاجها في المستقبل أم لا. اكتفى بأن ينظر إليها نظرة تحمل كلًا من الاهتمام وعدمه. إحدى المهارات التي استقاها من المؤسسة الحمراء في أمستردام. غادر والفتاة تتابعه بعينيها. لاحقًا سيقرر أن يغويها، من الجيِّد دائمًا أن تحصل على عين إضافية في المكان الذي تنوي العمل معه.

الثلج لم يتوقف بعد، لكن حرارة حماسه الداخلي كانت تكفيه، أمر سيارته عبر حاسوبه أن تعود إلى المنزل. بينما مشى وحيدًا تحت الندف المتساقطة، وسط الشوارع الخالية المهجورة..

4

الصمت كامل، كأنما لا يوجد في العالم سواه. الليل مطلق، فبرغم صفاء السماء النادر إلا أن القمر الأبيض عليل، يتضائل منزويًا مبتعدًا قدر ما يستطيع عن النجوم القاسية المتناثرة فوق العد. الشرفة الفسيحة خالية إلا منه.

من فوق أعالي الألب يتهادى بصره نازلًا، فلا يرى من الأعماق السحيقة تحته سوى الأضواء شديدة الخفوت. الجدران خلفه جرانيتية سميكة، الأبواب زجاجية مزدوجة، فلا يتسرب البرد للداخل ولا الصوت للخارج. الوحدة تجذبه ولا شك، لكنه يهابها كثيرًا. وحده، لا جدوى من الادعاء الدائم، من التخمين المستمر فيما يفكر فيه من حوله، لا يكدح ذهنه لمراقبة كل التفاصيل وكل الانفعالات. يخشى ما يأتي مع تلك الراحة، حينما تترك يده المسترخية كل الأقنعة لتسقط أرضًا ليجد نفسه في مواجهة وجهه الحقيقي.

أدرك آدم الأول خطيئته حينما رأى عورته لأول مرة، هوآدم نهاية الزمان خطيئته هائلة باتساع الكون، عورته بقبح كل دنس العالم. ترتعد يده داخل القفاز الجلدي الأسود المبطن. البرد دبّ فضي أشهب يبغي تمزيقه. مع البرد يرتجف جسده ألمًا ونشوة في امتزاج كليّ. حالته تزداد سوءًا يومًا تلو الآخر. هناك جوع داخله للألم.. بقايا روحه المنسية تكافح لتخرج من الثقب الأسود داخل صدره.

عيناه تتألقان بماء الذنب. هل يتألم لمريم؟!!... لا زال بإمكانه الدخول إلى الحفل الصاخب الماجن بالداخل والعودة بها.. باستطاعته إنقاذها من ليلٍ أبديٍّ سيمضغها كما يمضغه حتى الموت. الفكرة أدت إلى رجفة ضئيلة في ساقه لا تكاد تحس، وكأنما تتأهب للتحرك نحو الباب، فقط لجزء من الثانية.. عادت ساقه إلى جمودها مرة أخرى. نفسه المراهقة تنشب مخالبها في جدران البئر السحيقة التي ألقاها بها منذ سنوات عديدة محاولة الخروج.

الضعف، الضعف... هل كان سيصل إلى ما وصل إليه الآن، إن ظل بنفس تلك النفس الخانعة الضعيفة؟البقايا المتكلسة للقواعد القديمة تحارب معركتها الأخيرة في وعيه المتخاذل بفعل قلة الأكسجين فوق الجبال. عليه أن يؤمن بما قاله نيتشه منذ قرون، إذا أردت إن تصبح إنسانٌ أعلى عليك أن تهزم أخلاق العبيد. الرحمة والشفقة ضعف يجبرك دومًا على الانحناء، مبررات اخترعتها العامة لوضع هالة من القداسة على ضعفهم. هو نفسه خبير بمصير الضعفاء ونهايتهم. مارتن البدين بن مافراوجيلبرت انحنى له بتذلل منذ سبعة أشهر حينما عاد في زيارة سرية إلى امستردام لرؤية مريم بعد اتصالها الأول المفاجئ ولشراء شقة صغيرة في الجانب شديد الرفاهية من المدينة.. مارتن ذي الذقن المتهدل، سمسار العقارات البائس، وهو آدم الأمير القادم من علياء المال. ألم يتذلل له وهو يحكي عن أمِّه ذات القلب المعطوب، التي يحتاج إلى قلب جديد شاب، قلب لا يمكنه تحمل ثمنه؟

إن لم يكن قد خلق قواعده الجديدة خلقًا ألم يكن من المرجح أن يظل في أمستردام.. قوادًا، أو مساعدًا لمارتن المنتفخ ذاته؟! لماذا

إذن يشعر بالذنب تجاه مريم، من يدري إن كان ما فعله لها سيئًا. القدر قاضٍ تقوم أحكامه على نتيجة رمي النرد كبريدوا.

تجاهد رئته مع كل نفس مثلج تستنشقه، لا يكاد يشعر بأذنيه البرد يساعده على استجماع ذاته المهتزة.. عليه ألا يفكر في الخير أو الشر فيما يفعله، لكل نجاح خسائر جانبيّة.. هذا محتوم.

الإجهاد يزيد في رئته، نقص الأكسجين يأتي بخيالات وأوهام الأضواء تنطفئ تباعًا بالأسفل السحيق. كم يا ترى من الملايين الذين يقبعون هناك، يجرون كالهامستر في حلقاتهم التي بلا معنى أو غرض كم منهم يعلم بما فوق الجبل، كم منهم يتمنى أن يرى ولو لمحة من الثراء اللامحدود الذي يسيل هاهنا، كم منهم على استعداد لأن يقتل ليصبح في مكانه الآن.. مكان الزائر الجديد.

العالم تملؤه الدمى، من في الأعلى يتحكمون بالخيوط اللامرئية المتشابكة، التي تتحكم في كل إنسان أحمق يظن أنه سيد مصيره.

قلبه يضخ الدماء المستثارة في عروقه. هذا هو ما خلق له فعلًا. لا يجب أن يوقفه ذنب، ولا خشية.. لتقابل مريم مصيرها.. ما لا يقتلك يزيدك قوة.. ربما هو من وضعها على الطريق الصحيح لتصبح مثله في نهاية الأمر، كما فعلت إيزابيل معه من قبل. إيزابيل!!!

حينما ارتطمت عيناه بإيزابيل في السوبر ماركت العملاق، عرفها من فوره. بينما هي لم تتعرفه سوى بعد حين. لسبب ما حفرت عيناها بداخل جمجمته، الاتساع والرموش غير الطويلة الحادة كسيوف سوداء مزقت أحلامه لسنوات. لم يتغير شكل عينيها الخارجي، لكنه لم يرَ فيهما نفس الأحلام القديمة.. رأى تعبًا مزمنًا، وقلقًا من المستقبل استوطنا مقلتيها إلى الأبد. حينما تأمل وجهها أدرك أنها شاخت. رغم

لها تماثله عمرًا إلا أن عينيه لم تفتهما التجاعيد الدقيقة حول الأعين وفي ركني الشفتين، بطنها المنتفخة بالحمل بينما طفلان شقيان يجذبان يدها بلا توقف. قطار العالم قد دهس رقتها حتى الموت. العذراء الحالمة التي تحب كل شيء، وتخاف كل شيء قد ذهبت بلا رجعة..

قال له أبوه في لحظة إفاقة نادرة له وهو طفل:

- نصيحتي الوحيدة لك هي ألا تحلم.. لا تحلم أبدًا. لا شيء أكثر إيلامًا من خيبة الأمل، لا شيء يضاهي الحلم تخييبًا للآمال.

كانت هي حلمه لوقت طويل، أطول مما يعترف به لنفسه. بعد ما حدث في صالة العرض السينيمائي في المدرسة، صارت تتهرب منه، لم تعد تأتيه في أي من أماكنهما السرية.. طاردها في كل الأنحاء لكنها أصبحت سرابًا صحراويًا بعيدًا تبدد تاركًا عطشًا لا يبلى.

- لا شيء يضاهي الحلم تخييبًا للآمال.

كلما ازداد عمرًا ازداد فهمًا لأبيه. حينما عرفته إيزابيل توهج الحسد في عينيها، مخلوط بشهوة مستترة.. هو الآخر تغير جدًا، الطفل النحيف كالقلم، الحزين الغاضب، ذهب بلا رجعة.. من نافذة عينيها رأى التعب والحزن وخيبة الأمل.. هامستر جديد يعدو فتدور عجلة حياته دون توقف حتى ينفجر قلبه إرهاقًا في النهاية..

هذا سبب الحزن الذي يحاربه، عينا مريم البريئتان تماثلان عيني إيزابيل القديمة، روحها طازجة بريئة لم تمس.. روح عذراء كاسمها، تنثر الفرحة حينما تبتهج، تلقي بشباك الحزن حينما تتألم. منذ الوهلة الأولى كانت سعيدة، تعلقت بذراعه وهو يستقبلها نازلة من القطار فائق

السرعة.. انبهارها وهو يدور معها في بروكسل، ابتساماتها الخجول في كل مكان تدخله، أظافر من نار تنشب في قلبه. حياته التي يراها متوسطة، كانت الجنة في عيونها الرائقة..

صغيرة، رقيقة، بسيطة النفس، قليلة الطموح. أراد التخلص منها سريعًا، هناك الكثير يدور في رأسه. ألمح لها بذكاء أن تلتحق بالسكن الداخلي للمدرسة الذي ستعيش فيه مبكرًا، لتعتادَ الحياة هناك قبل الدراسة.. أخبرته أنها تريد البقاء معه لمدة أطول. وعد إيروشكا ألا يحزنها، وهو لم يكسر وعوده لإيروشكا من قبل.

من الذي يحرك الخيوط الخفية للمصير، ما الذي كان ليحدث لو التحقت بالسكن مبكرًا، لو لم يلتقيا مصادفة بكانينجهام في المطعم الراقي بري نوفو؟ميز النظرة المشتهية الجائعة في عيون كانينجهام الضيقة منذ البداية وهو يصر على أن يجلسا على طاولته الدائمة.. اهتمامه المفرط بمريم، محاصرته إيّاها في كل حديث كان فاضحًا، ارتعش جسدها الصغير، وكانينجهام يدعي لمسها مصادفة.. نظرتها المذعورة التي تعلقت بآدم الذي خرس. عادا إلى المنزل والصمت ينسج خيوطه الأولى بينهما، دفء قربهما الذي كان، تسرب منذ أن غادرا المطعم.

في اليوم التالي تلقى اتصالًا من الذئب العجوز طالبا مقابلة خاصة.. داخل مكتبه الفخم. عرضه كان قصيرًا صريحًا، عشرة بالمائة من الأرباح دون علم باقي الأعضاء التنفيذيين... وليلة مع مريم. طوال طريق العودة ظل يفكر في الرفض وعواقبه، ليقرر في النهاية أن يلقي بالاختيار على كاهل مريم.

بعد ساعات أخبرها بهدوء بما يريده منها. نثر وعوده البراقة ـ التي لن يكسرها في الغالب ـ تحت قدمي خيالها. شقة صغيرة في بروكسل، بعيدًا عن أمستردام.. بعيدًا عن أوكسانا، حساب شخصي لها في البنك يكفيها حتى بعد تخرجها من الجامعة، التي سيدفع تكاليفها أيضًا. قدر أنها قد تثور، لذا كان اختياره لمكان المصارحة نائيًا.. لكنها لم تثر. نظرت طويلًا إلى الأرض، حينما رفعت عينيها لتخبره بأن يمهلها لتفكر، كان هناك انكسار عميق بداخلها. الثلمة الأولى لروحها أتت من مطرقته هو. ظنت أنه أخوها الضال القادم كالفارس لينتشلها من الشارع الأحمر إلى القصر الذهبي تحت الشمس، حلمت بمصير مختلف.

ـ لا شيء يضاهي الحلم تخييبًا للآمال.

وهو ينزلها من سيارته البراقة بالقرب من السكن الداخلي حتى تفكر بلا ضغوط، كان يوقن أنها ستوافق. هو خبير بجحيم أوكسانا وهو ابن بطنها.. حينما تألقت شاشة المنزل برقم الهاتف الذي أعطاه لها لم يشعر بالارتياح كما كان يقدر. جزء بداخله كان يتمنى أن ترفض، أن تهاتفه لتسبه وتلعنه، ذلك الجزء الذي لا زال يتنفس من ذاته القديمة، الجزء الذي لا زال يجادل بأن هناك خيرًا في هذا العالم..

قابله كانينجهام بابتسامة هذه المرة عند وصوله إلى الحفل. اتسعت الابتسامة وهو يلتهم في خياله مريم الغضة الواقفة جوار أخيها. الذئب المسن ذكي عنيف خبير، ككل الذئاب المسنة لا زال يشتهي اللحم الغض، يشتهيه ربما أكثر من أي شيء آخر. كانت مريم ورقته الرابحة، كانت بريئة، كانت غضة، كانت مرتجفة.. كانت أخته.

عينا مريم عربيتان واسعتان كعينيه وكعيني أبيهما من قبلهما
التفتت إليه في نظرة أخيرة وكانينجهام يمسك بيدها ليريها الطابق
العلوي كما غمغم بتهيج بعد تفاهمه الصامت مع آدم. يدها الأخرى
كانت متعلقة بذراعه هو. ضغطها محسوس خائف. يدرك أن هذا هو
اختباره النهائي ليعبر إلى الخلاص. ليتحول إلى سوبرمان نيتشه الذي
طالما تاق إلى أن يكونه. أفلتها ببطء. الانكسار في الحدقتين السوداوين
يتسع. تجمد وهو يتابع سيرها الوجل مع كانينجهام صاعدين الدرج
المرمري اللامع. الموسيقا تلف المكان بغلالة من مرح مقزز. النساء
يحمن حول الرجال الأثرياء بأقنعتهن الصغيرة السوداء والحمراء
والذهبية.. بقايا طقوس العبادات الوثنية التي لم يستطع الزمن، ولا كل
الأديان المتتالية أن تمحوها. فاندرجوتن يبتسم له على المبعدة ويغمز
قدما مريم في الحذاء الأسود المكشوف الذي يبرز دقة قدميها تغيبان
عن بصره، وقد وصلت إلى الطابق العلوي. قبلة ساخنة لزجة تعلقت
بوجنته. فتاة في الخامسة والعشرين ترتدي فستانًا عاريًا، بالكاد يغطي
صدرها الناهد تداعبه. هو الوحيد الواقف دون صحبة.. مال على أذنها
ليهمس:

ـ ليس الآن يا فتاتي.

هزت رأسها في تفهم وتركته في ثوانٍ، تلك البائسة تقوم بعملها
هي الأخرى.

الألم في قلبه كأنه هو من في الغرفة مع كانينجهام الآن يغمره.
استدار ليغادر إلى الشرفة الواسعة.. حذره فاندرجوتن حين مقدمه ألا
يطيل البقاء فيها، نقص الأكسجين خطير مع الوقت. لذا ضبط ساعته
على خمس عشرة دقيقة بعدها تعلن عن وجوب عودته إلى الداخل.

والهواء يخمش بشرته بالمخالب المثلجة، أخبر نفسه مرة أخرى أن مريم صاحبة الاختيار، كما أنها لن تتحدث أبدًا، وهو لن يتحدث أبدًا، كاننينجهام هو الآخر لن يتحدث. عقد الصمت الثلاثي هذا يمكن الثقة فيه تمامًا. هل ستتأذى الفتاة؟. ما هو المصير الآخر الذي كان ينتظرها كابنةٍ لعاهرة وربيبة قوادة.. على الأرجح سيغويها شاب من عمرها، سيكون الجنس بينهما أخرق سيؤدي إلى الحمل. بعد كثير من المعاناة غير الضرورية، ستكون رافاني أخرى. أوكسانا لن تترك فرصة سهلة كهذه لتضيع من يدها. على الأقل معه ستضمن إكمالها دراستها، وربما تجد وظيفة حقيقية معه بعد ذلك. من يدري؟..

شيئًا فشيئًا اجتاز اختباره، عاد بنظره إلى الأسفل المظلم. دائمًا ما تخيل البشر الإله ساكنًا للسماء. العلو من شروط القوة، لهذا بنى هؤلاء الأثرياء ماخورهم الراقي هاهنا. يومًا ما سيبني هو الآخر مكانًا له، مكانًا فوقهم جميعًا. فقط عليه الالتزام بما يخطط له بكل دقة.. ألم صغير في رسغه الأيسر من ساعته، يذكره بوجوب العودة إلى الداخل. ألقى بنظرة أخيرة على الظلام المحتشد، قبل أن يقفل راجعًا، بخطوات أكثر ثباتًا وثقة..

إسماعيل

1

تتكاثر الهمسات، تنقسم، تتبعثر، تتغلغل. تنسكب من فم مرتجف إلى أذن مرتعدة.. الخوف يلوح حقيقيًا، قدرًا واقعًا كقحط السماء، وجحيم الشمس، وقسوة الرمال.

ليس الناس هنا بأغبى من سائر الناس، لكن خوفهم من إقرار الواقع هو ما جعلهم يرفضون تصديق ما كان جليًا منذ الوهلة الأولى.

حينما ألقى القطار اللامبالي بحمولته البشرية الباكية على بعد كيلو ونصف من الملاجئ، كان إسماعيل قد تغلب على إنكاره. لم يكن في استقبالهم أحد. المدجنون الذين اعتادوا تنظيم العائدين من المزارع المغلقة تركت أماكنهم فارغة..

المساء الطويل قد بدأ. لا شيء سوى الظلال التي تقبع في فراغات الحجرات الأسمنتية التي بلا أبواب. تعصف بقلبها المظلم ريح الليل البارد. تعوي العتمة، فتعكس عليها كل عين أشباح الأحباب التي فارقت منذ ساعات.

تجمد الجمع وارتعش. رغم الأضواء الخافتة التي تنبت من بقايا المدينة على المبعدة لم يتحرك أحد. أغلال خفية تقبض على الأقدام، ينتظرون أوامر المدجنين برغم عدم وجودهم.

إسماعيل لم يكن أفضل حالًا. وهو بداخل عربة القطار المتوهجة بلهيب الشمس احتضن صغيره ياسين الذي ينخرط في البكاء، لم يدرِ كيف يهدئه، لا يدري كيف يهدئ نفسه. التصقت بأنفه روائح العرق والرمل والدم والقهر والموت. الارتجاجات الرتيبة اللانهائية لعجلات القطار الذي لا يأبه بهم، قامت بهدهدة ياسين المرتعش حتى نام. الدموع الصغيرة الكثيفة أخرت تجمد الدماء أعلى جلبابه، حيث يدفن ياسين وجهه الباكي. اختلطت الحمرة بجلد إسماعيل الأسمر تاركة علامة ستظل هناك إلى أمد بعيد.

علي مدى البصر تمتد تلال فضية، تزداد دكنة تدريجيًا حتى تلتحم بالسماء السوداء... لا أثر لمخلوق.. دون تدبير أو وعي تلاصق

الناس، يحتمون ببعضهم من المجهول. ازدادت ذراع إسماعيل احتضانًا لياسين الذي لا يزال ينعم بنومه العميق. خوفه على طفله والأضواء التي تراقص على المبعدة أجبرت قدميه الخائفتين على المسير. انفصل من الجمع المذعور كدجاجات بلا حظيرة..

كان مسيره مترددًا في البداية، ثبت عينيه على أشباح أبنية الملاجئ الجاثمة فوق الرمال، والتمس بيديه دفء ياسين الخامد ليستجمع شجاعته. خطوة تلو الأخرى يقترب من الأطلال النائمة..

تحرك الجمع وراءه دون أن يشعر. كتلة متلاحمة بطيئة مرتجفة.. حينما أتته الغمغمة من خلفه، التفت مرة واحدة.. الوجوه غير جلية في ظلمة الصحراء، لكنه رأى بقلبه وشعر بروحه أن الجميع مثله تمامًا. الرمال تحوطهم من كل ناحية..

تداعى إلى رأسه بنو إسرائيل وعبورهم البحر خلف موسى. بحرهم من رمال ليست بأقل قسوة من الماء المالح. ترى هل شعر موسى هو الآخر برجفته، وجسد المغبر الذي حاول اختطاف ياسين يتشنج في لحظاته الأخيرة، والحجر الذي انشطر نصفه ليستقر في الجمجمة المكسورة يفيض بالدماء؟ينقبض قلبه وعيون قائد المغيرين الوحشية تقفز من ذاكرته لتلتهمه هو وياسين قبل أن تختفي. شيء يخبره بأن هذه مجرد بداية،بداية لأيام سوداء كالهوة أتية لابتلاعهم جميعًا. استعاذ بالله من خواطره وشفتاه تتمتمان:

- يا رحيم.

2

- روي في بعض الأخبار عن موسى عليه السلام أنه قال «يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى.. إذا وليت عليكم خياركم فهو علامة رضاي وإذا وليت عليكم شراركم فهو علامة سخطي، فلا تشتغلوا بسب الملوك، وتوبوا إلى أن أعطف عليكم قلوبهم.

قال الإمام منهيًا النقاش الذي بدأ في السخونة، قبل أن يلملم جلبابه ليترك مجلسهم حول النار.

ما إن غادر مجال الرؤية حتى بصق رشوان على الأرض الترابية مغمغمًا:

- كل ما يحدث لنا في هذه الدنيا خطؤنا نحن، هذا ما يقوله ال...

منعته نظرة إسماعيل اللائمة من السباب، فأحنى بصره على مضض وأصبع قدمه الكبير المتشقق يهيل التراب على بصقته في غضب.

كانوا ستة رجال بعد ذهاب الإمام. يجلسون على الأرض المغبرة القاسية، مريحين ظهورهم على جدار متشقق تهاوى نصفه منذ عقود. الأضواء البرتقالية تترنح في قتال غير متكافئ مع البرد، الذي يزدرد نصف حرارتها فلا يترك سوى انعكاسها على الوجوه الكئيبة الصامتة.

الصمت الثقيل يلقي حملًا جديدًا على الأكتاف المنهكة.. ستة رجال لم يعرفوا بعضهم سوى منذ أسبوعين على الأكثر. رشوان في بداية الثلاثينيات، أطول من أيٍّ منهم، ربما أقوى منهم مجتمعين. في طريق عودته من مزرعة أخرى جافة هجم الفئران، فقد زوجته. نقطة

صفراء كبيرة تحتل نصف بياض عينه اليسري، تجمع دموي إثر ضربة قاسية تلقاها. شق غائر في روحه لا يندمل إثر ما عاينه.

لم يعتد إسماعيل السهر خارج بيته وترك ياسين النائم وحيدًا، لكن القلق الذي يفترسه منذ عودته يلازمه أرق بلا علاج. يلوك أحد الرجال جذعًا خشنًا من خشب. الناس جوعى على الدوام، هذه المرة أنقص المدجنون الوجبات المعتادة إلى النصف. الماء شحيح كذلك. الأبنية المهجورة منذ سنين على تخوم الصحراء امتلأت عن آخرها. وجوه كثيرة غريبة مغبرة قادمة من بعيد، كل يوم يلقي القطار بحمولة جديدة من البشر، فتتضائل المساحات وتنكمش الأرزقة..

عويل الريح مسموع يغطي على طقطقات الخشب المشتعل، بينما يرفع إسماعيل عينه كل دقيقتين إلى المبنى المواجه له، إلى أقصى نافذة في الجانب الغربي حيث ينام ياسين. يستطيع احتمال قلة الرزق، يستطيع حتى النوم جالسًا فلا تعوزه المساحة.. ما يخيفه هو إجباره على المبيت شديد القرب من الحواف الصحراوية هكذا. رشوان يصر على أن المدجنين قليلو العدد في الحراسة بشكل غير معتاد. أضواؤهم البيضاء التي تثير كلًا من الخشية والأمان في نفس الوقت، لم تعد بسطوعها السابق. لاحظ إسماعيل ذلك أيضًا وإن رفض الاعتراف به أمام رشوان.

ـ سيتركوننا لهم في لحظة ما... قلبي يخبرني بذلك.

ـ فأل الله ولا فألك يا أخي.

يتمتم إسماعيل منزعجًا فيصمت رشوان. اتضح أن العديد من المزارعين الذين كانوا معه قد رأوا معركته وسط الغبار للدفاع عن ياسين. الصخرة التي تسيل منها الدماء انتشر خبرها واتسع بطول

الملاجئ بعد ساعات من العودة.. حتى من لا يعرفونه صاروا يصمتون حين يتكلم. لم يحب هو ذلك. رغبته طوال حياته هي أن يظل خفيًا، يأكل كما يأكل الناس، يحيا كما يحيا الناس، في النهاية يموت بسلام وسط زوجته وأطفاله وأحفاده.

رشوان أيضًا قتل فأرًا في معركته الخاصة، جرح اثنين آخرين إن صحت الروايات، في النهاية خرج خاسرًا. جعله هذا مرجلًا مشتعلًا على الدوام، يبصق على الخانعين والثكالى، على استعداد لضرب من يخالفه. لحسن الحظ أنه يحمل احترامًا خاصًا لإسماعيل. احترام كفيل بكبحه حين يوشك على تجاوز الحد.

غمغم عبد الحليم الجالس بجوار رشوان بصوت خفيض خجول وهو يضع يدًا مثلجة تحت إبطه الدافئ.

ـ لا بد أن نكون مستعدين.

لم يجادل إسماعيل، رغبته في إسكات فأل رشوان كما تبدى له، بقية من عادات أمه المنسيّة التي لا تزال تسكن نفسه. إن تحدثت عن الموت سيأتي، إن تحدثت عن المرض سيأتي. أحنى رأسه محدقًا في التراب الداكن أسفل قدميه وعقله يحاصره، إنه لم يتكلم قط عن السوء، فلماذا لا يأتي غيره؟استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، لكن أفكاره لم تفارقه، الله لم يستجب فيما يبدو.

انبثق من قلب العتمة حسين التابعي بوجهه الخبيث الذي يقبض قلب إسماعيل. لم يشعروا بخطواته رغم هدوئهم، يراه إسماعيل أفعى بشرية كاملة، خطواته على الأرض غير مسموعة كأنه يمشي على الريح.

ـ السلام عليكم يا رجال.

قالها بصوته الزلق، قبل أن يتحرك دون دعوة ليجلس بجوار رشوان. نصف مخاوف رشوان تأتي من همسات حسين الذي يمازجه الورم. تتألق البقعة الحمراء في عين رشوان وحسين يضع يدًا مرحبة على ركبته ويقول:

- كيف حالك يا سيد الناس؟
- لا جديد يا حسين، الخشية تملأ قلبي من الغدر.
- أنت على حق كالعادة، إنني أسمع العديد من الكلمات.

عقد إسماعيل حاجبيه وابتدره بنفاد صبر:

- ممن؟!... ممن تسمع دائمًا تلك الكلمات؟إنني أتساءل.

عينا حسين الضيقتان تتأمله لثوانٍ في صمت. لم يستطع إسماعيل إخفاء مشاعره بسذاجة..

- من كل مكان يا إسماعيل.. إنني أتحرك بين الناس، لست ملتصقًا بطفلي كالبعض.

قبل أن يرد إسماعيل، قال رشوان:

- دعه يتكلم يا أخي، ربما في كلامه ما يفيد.

صمت إسماعيل على مضض، بالفعل يتحرك حسين كثيرًا.. كثيرًا جدًا في الواقع.

- دوريات المدجنون حول الملاجئ توقفت، الحراسة الخارجية قد خفضت إلى النصف. هناك اشاعات بأن عددهم صار غير كافٍ، يقولون بأن الملاجئ قد امتلأت عن آخرها ولا زال هناك مزيد من البشر يأتون كل يوم.
- من أين يأتي كل أولئك الناس؟تساءل إسماعيل في صوت عال. التصقت به عينا حسين وهو يجيبه:

ـ من كل المزارع في الحقيقة، شمالًا وشرقًا وجنوبًا.. نصفهم على الأقل لم يكن يتبع مدينتنا.

ـ يلقون بخرائهم علينا. قال رشوان والحنق يسيل من صوته.

ـ خرائهم؟!.. هم بؤساء مثلنا تمامًا. قال إسماعيل.

ـ بلى هم مثلنا، لكن توافدهم هذا سيأتي على حساب حمايتنا وغذائنا. خرج صوت حسين المقبض يطعن الخلاء.

تعوي الكلاب على المبعدة، فيعاود إسماعيل النظر إلى النافذة المعتمة حيث يرقد ياسين غافلًا عن الخوف الذي ينشب أظفاره في الضلوع.

ـ يقولون بأن حصة الغذاء سيتم خفضها إلى النصف من بداية الأسبوع.

كلمات حسين غربان سود، تنعب في القلب حتى بعد رحيله أحنى رشوان رأسه دون أن ينبس بكلمة.. إسماعيل هو من اعترض، دون اقتناع جدي في الواقع بل لمجرد كرهه للرجل.

ـ هذا لن يكون، أنت لا تأتي في خير أبدًا.

ابتسم حسين بسخرية مكتومة، قبل أن يربت على ركبة رشوان وهو يقف. نظر إلى السماء لثوان وغمغم:

ـ الليالي تزداد عتمة..

بصق في النار قبل أن يغادر، قال لإسماعيل بعد أن أدار له ظهره:

ـ سترى.

3

يختار إسماعيل وقفته بحكمة، يجاور المبنى الطويل نصف المتهدم الذي ـ وقد تساقط جزء من جدرانه – يكشف رؤوس الأطفال الناعسة، وسيقان النساء اللواتي ينظفن أماكن نومهن. غض بصره تلقائيًا خشية أن يرى ما لا يجب أن يراه.

توجد بقايا إفريز يتبدى من تحت بساط الغبار السميك الذي توحش، يجلس ياسين عليه داعيًا أن يتحلى الطفل بالهدوء هذا النهار. نزل هو مبكرًا من نصف الغرفة التي يقتسمها مع عائلتين أخريين. الشمس وادعة في هذا الضحى، أشعتها الناعمة تكسو الأفق الأزرق الصافي كخيوط من ذهب سائل. سبَّح الله في قلبه واللون الأزرق الناصع يهدهد عينيه المرهقتين.

ياسين لا زال خاملًا يتثائب، تأمل إسماعيل شعره الحالك الناعم كشعر سعاد –وعينيه اللوزيتين البنيتين فابتسم. عليه أن يأتي غدًا أكثر تبكيرًا، العديد من الناس يسبقونه اليوم أيضًا. أناس غارقون في ثرثرة هامسة تارة وضاحكة تارة أخرى. يحب إسماعيل سماع ثرثرة الصباح هذه، يتدثر بها ضد هواجسه التي لا تنام، لمسة من راحة تداعب قلبه المجهد. تمنى لو استطالت اللحظات، ليهرب من عقله الذي دائمًا ما يتهيأ للأسوأ.

ساعة أخرى وتستعلي الشمس في كبد السماء. تنسى وداعتها، وتهوي بسياطها على الأرض والناس. سيحميه ظل المبنى الطويل لبعض الوقت، عسى أن يكون كافيًا حتى يحين دوره ليأخذ غذاءه هو وياسين من عربة المدجنين التي نزل لها مبكرًا.

حسين على حق، لم يرَ قط كل هذا العدد من البشر في الملاجئ في وقت واحد. القليل من الوجوه التي يتذكرها، معظم الوجوه جديدة غريبة..

تنهد للحظة وهو يدرك أن لا فارق بين وجوه جديدة أو قديمة، في النهاية كلهم يمتلكون نفس البؤس الذي يشكل ملامحهم، لا يهم من أي أرض كنت أو من أي مزرعة أتيت.

لا توجد زاوية هنا، استوطن الناس كل الأماكن. لذا يصلي الفجر كيفما اتفق، في جماعة إن استطاع، وحيدًا معظم الأيام. يفتقد صوت الشيخ الساداتي، يفتقد خطبة الجمعة.. من يدعى الإمام لا يظهر إلا وقت الجنائز. يصمت إسماعيل على مضض حينما يتكلم الرجل، قراءته فيها العديد من الأخطاء. واجهه بذلك وحدهما، ثار الرجل في وجهه وتركه مغضبًا.

تتجمع الرجال خلفه في بطء. عربات الغذاء تأتي لتتوقف في الميادين السبعة التي تحتويها الملاجئ. الميادين التي يذكر في طفولته أنها كانت أقل غبارًا. حينما كان يلعب مع أترابه لعبة الحفر، دائمًا ما كان يصل إلى الأسفلت المتحجر في النهاية.. الآن تغوص أقدامه في الغبار المخلخل. هل لو عاد إلى الحفر سيصل أبدًا إلى ذلك القلب الصلب؟لا يعتقد. الغبار كالموتى، يتراكم ويتراكم، يرقد الجديد على القديم حتى يخفيه. لم تعد ذكرى سعاد تزوره كما يريد. الحياة تجذبه ليدور معها في دوامتها اللانهائية، فقط بين يوم وآخر يرى التماعة عينها في حدقتي ياسين وسط ضحكة هانئة مسروقة، فيشعر بلدغة في قلبه. يحب أن يعتقد أن الأرواح تتزاور، فتجلس سعاد مع أمه تتحدثان عن الماضي، عنه، عن ياسين الصغير الشقي.

وقت احتضار أبيه، اتسعت عينا الرجل في اللحظة الأخيرة، الألم يمضغ جسده، وإسماعيل ذو الدموع المتحجرة في المقلتين يمسك يده اليمنى، يحاول تلقينه الشهادتين. جمود وجهه جعل إسماعيل في شك من أن أبيه يسمعه. قبل النهاية تمامًا غمغم الأب:

- جدي.

شهق لثانية ثم فارقته روحه. تاركة انبساطًا أخيرًا على الوجه المتعب، راحة رآها إسماعيل في المحجرين. وسط نهنهة أمه، شعر بأن حال أبيه هكذا أفضل. في الموت تلتقي الأحباب ولا بد. وقت رحيله سيكون سعيدًا كأبيه وربما أكثر.

صوت نفير شاحنات الغذاء يملأ الأفق. تأتي الحافلات من الشمال، خلف التلال سحيقة البعد حيث تقع المدينة.. لم يرها إسماعيل قط، لكن مختلف الحكايات تنسج حول المدن في المزارع وفي أيام الهدوء الخوالي في الملاجئ. يقال أن الأبنية بيضاء عملاقة، تزري بمبيت الملاحظين في المزارع، الشوارع واسعة نظيفة لا يطؤها التراب أبدًا، حتى الذباب الصحراوي الضخم لا يقدر على الاقتراب من أهلها. يحكي عن البحر التي تستقر على شواطئه، أكثر زرقة من السماء، ضخم باتساع الصحراء ذاتها، ينزل أهل المدينة فيه فيغسل أجسادهم وأرواحهم أيضًا. يقولون بأن أهل المدن لا يعرفون الجوع ولا التعب ولا الموت. ليس إسماعيل غرًا ليصدق كل ما يسمعه، لكن الحكايات مراوغة فتانة، تنسل من الأذن إلى الخيال فتوشيه.

في القديم كان هناك قلة من المحظوظين الذين كانوا يدعون للعمل قرب البحر، في الآلة العملاقة التي تحرق الملوحة، فيسيل الماء زلالًا

عذبًا. أولئك كانوا يرجعون ويحكون، مع الوقت صارت عودتهم أقل فأقل، في النهاية ذهبوا بلا رجعة، تاركين صدى حكاياتهم يحيا للأبد.

يهتز التراب منذرًا بقرب وصول الشاحنات. يرقب إسماعيل انتظام الطابور. أشعة الشمس قليلة الميل، لم يعد يحجبها عنه ظل المبنى بعد الآن حرارتها تلسع جانبه الأيسر بكامله.. أتت الشاحنات متأخرة عن ميعادها إذن.

يدور المدجنون بالشاحنة حول نفسها، ليواجهوا أهل الملاجئ بمؤخرتها. تثور عاصفة من غبار، ترهق الأعين وتنهش الأنوف. يتضاغط الطابور فيلتصق إسماعيل بمن أمامه. لا يعرف أبدًا من بدأ الدفعة الأولى، وقف طوال حياته في شتى أنواع الطوابير. لم ير قط من يبدأ التدافع. لا بأس.. فقد اعتاد ذلك. يده اليمنى تمسك بالوعاء الخاوي، الذي مسحه بالرمل الأصفر وفركه بحجر قاس حتى صار نظيفًا لامعًا. في اليد اليسرى زجاجة بلاستيكية، أعطاه إياها رشوان، زجاجة في انتظار طابور طويل آخر بعد بضعة ساعات، عندما تأتي شاحنات المياه.

يفتح باب الشاحنة الخلفي على مصراعيه، يظهر مدجن عملاق ينظر إلى الطابور بثبات دون أي انفعال. مع صمته هدأ الناس، تعلقت به العيون. لم يخرج المدجن المغرفة المعتادة، بل أمسك بواحدة أصغر كثيرًا. صاح بصوته المعدني المحايد:

- لقد تم تخفيض حجم الوجبة إلى النصف من الآن فصاعدًا، لتتقدموا واحدًا تلو الآخر وبسرعة، قد لايكفي العدس عددكم كله.

الوجوه المتغضنة للعجائز اللواتي يسبقن إسماعيل هادئة.. أيقن أنهن لم يسمعن كلمات المدجن. دعا الله في قلبه ألا يعيد الرجل كلماته. الطابور خلفه طويل، يحافظ على تماسكه القناعة بوجود طعام كاف. أخرج المدجن رأسه من الحيز المعدني للشاحنة، وأعاد كلماته بصوت أعلى سمعه الجميع.

ـ لمَ يفعل هذا؟!

تساءل إسماعيل لجزء من الثانية، لم تمهل الأصوات الصارخة أفكاره الحيرى. تلقى ظهره دفعة غاشمة، حافظ على اتزانه بصعوبة.. الطابور ينضغط بقوة لا قبل لأحد بها. المرأة العجوز التي ابتسم لها في غبشة الفجر البارد، وهو يأتي إلى هنا حاملًا ياسين وأوعيته، فوجدها أول المنتظرين، تقبض بيدين ذواتي أصابع نحيلة مرتعشة على أسفل صندوق الشاحنة العالي الذي يبلغ صدرها، وجهها ذو التجاعيد الكثيفة بمحاذاة حذاء المدجن الأسود اللامع. رأسها مرفوع لأعلى، تصيح بما لم يسمعه إسماعيل. لا يحتاج إلى تخمين ليعرف ما تقوله، هي تطالب المدجن بملء وعائها لترحل قبل الفوضى المنتظرة، لم يسمعها المدجن على ما يبدو.

ما إن اندفع المتأخرون للأمام ليضيع الطابور ويتحول إلى كتلة دائرية متلاحمة، صرخ إسماعيل في ياسين أن يعود إلى الغرفة.. لحظات نادرة من الطاعة تزور الأطفال، كانت تلك إحداها لحسن الحظ. منذ حادث الترحيل وياسين كفَّ عن أن يكون زائد الفضول، لم ينظر حتى إلى أبيه. انطلق يعدو برشاقة، بمحاذاة الجدار الرصاصي الباهت.

هبط الكسالى من الأبنية نصف المتهدمة على إثر الصياح. ارتطم صدر العجوز بصندوق الشاحنة الساخن. انضغطت، فسقط وعاؤها

البني الخزفي ليتحطم إلى مئات القطع والشظايا التي تطأها الأقدام الحافية.. رأى إسماعيل عينيها الضيقتين وهما تجحظان، تجاهد وهي تتسول الهواء لرئتيها مع انسحاقها بين دفع الناس وبين المعدن الأصم. حجبتها الأجساد عن عينيه، هو نفسه صار يجاهد كي يتنفس فتاة في الخامسة عشر، ذات جسد ممتلئ، تتعثر في جلبابها الأخضر الزرعي فتنكفئ على وجهها. الدفع كموج مختل، يميد به يمنة ويسرى، للأمام وللخلف... لم تنهض الفتاة قط. عشرات الأيدي تتنازع كي تصل إلى الشاحنة.. وقف المدجن مادًا يده في انتظار أن يصله الوعاء الأول. يميل إسماعيل برأسه كاتمًا أنفاسه، ليعبر بين كتفين على وشك التلاصق. لا حيلة في رزق آخر سوى عدسَ المدينة.. تحرك بين الفراغات التي تظهر وتختفي مع مد البشر وجذرهم. احتاج إلى كل قوته الكامنة ليزيح بكتفه من أمامه، خطوة تلو الأخرى ويقترب. يملأ المدجن وعاءً أول ثم ثانيًا، يمد يده في الهواء لثوانٍ فتتسابق الأيدي على الاختطاف.

عندما وصل إسماعيل إلى الحذاء الجلدي الاسود، اكتشف أنه فقد زجاجة الماء الفارغة، رفع وعاءه في الهواء ليمسكه المدجن. دار بجسده كاملًا ليصارع الأكف التي تحاول خطف وعائه الذي امتلأ، أمسكه بيدين حديديتين، قبل أن تشتعل النار في مؤخرة عنقه.. صرخ من الألم، التفت قدر ما يستطيع ليواجه عينين تنضحان حقدًا لوجه لا يعرفه. أطبقت أسنان الرجل على قذاله حتى سال منه الدم. رجل لا يعرفه ولم يره من قبل، ربما هو الآخر لم يرَ إسماعيل.. لم ير سوى وعاء ممتلئ لن يحصل هو عليه. هم إسماعيل بنطحه في أنفه، لكنه غير رأيه في نفس اللحظة.. ألصق الوعاء ببطنه، وانحنى على نفسه ليشق طريقًا

جانبيًا خارج الكتلة البشرية الملتصقة.. توالت اللطمات والضربات على ظهره بينما هو يخرج رويدًا رويدًا من دوامة اللحم النازف.

4

شارف السور الحجري البدائي على الاكتمال. الشمس في طريقها إلى النوم الحالك، فانعكست أنوار نعاسها الحمراء على العالم، مريحة الرجال الغارقين في العرق من بعض صهدها اللافح. يضغط إسماعيل على فكه، وعروقه نافرة من ثقل الحجر المشذب بخراقة المبتدئين والذي يضغط على العضلة الواصلة بين الكتف والرقبة.. يعمل دون كلل منذ الصباح الباكر، رفض طلب رشوان المستاء، وتحاشى كلمات حسين اللزجة الناعمة..

ـ سأعمل كما يعمل الجميع.

كان قاطعًا، لم يترك مجالًا لنقاش. منذ حوادث شاحنات الطعام، والفوضى التي نهشت الجميع، انسحب المدجنون تمامًا. الملاجئ تغرق تحت سيل القادمين الجدد، الاشتباكات بين الناس صارت قاعدة يومية.. أنقذ إسماعيل بأعجوبة مسنًا كاد أن يهلك في مدخل أحد الأبنية في عتمة الليل على يد صبية لا يتجاوزون الثالثة عشر.

توقفت الشاحنات عن القدوم إلى الملاجئ لثلاثة أيام متتالية.. اختفى كل الطعام. حتى هو نفسه الذي لا يزال يواظب على تقشفه، كاد مخزونه السري أن ينفد. لا يدري كيف أو متى صار رشوان قائدًا للجميع. هو الوحيد الذي واجه الفوضى، خشونته وغضبه تضافرا مع قوته وحكاية قتله للفئران، فصار قادرًا على أن يأمر فيطاع. تكاثر الأقوياء حوله ومعه، فقضى على العراك الدموي الدائم. استطاع حسين

أن يتواصل مع المدجنين، فباتت شاحنات الطعام والماء تنتظر فيما قبل بوابات الملاجئ ليأتي رشوان ورجاله ليستقبلوا الحصص ويوزعونها.

لم يترك رشوان إسماعيل يعود إلى عزلته.

- إن لم نتصرف سيهلك الكل جوعًا، سيأكل الناس بعضهم.

كلماته التي يعرف إسماعيل أنها صادرة من القلب، استقرت داخله فاتبعه. يعلم أن ما يفعلونه هو الصواب، لكن رغم كل شيء هناك حنين إلى الوحدة والبساطة القديمة، حيث لا يهتم سوى بنفسه وبياسين. ياسين الذي صار انشغاله عنه بابًا يفتح إلى حرية الطفولة التي طال كبتها.

في ظلام الفجر يتلمس طريقه في الشوارع الخرساء. يوقظ الرجال النائمين، يداعب الساهرين للمراقبة على حواف الملاجئ. هناك قدر من القوة يتراكم حوله هو الآخر يومًا بعد يوم، تصبح الناس حوله أكثر ليونة.. أكثر طاعة.. كعادته لا يتحدث كثيرًا ولا يغضب بسرعة.. لهذا مال الناس إليه أكثر من رشوان الذي أضحى مهيبًا، حتى الصغار يخافونه. رشوان على حق، رغم بعض القسوة التي يمتعض منها إسماعيل في رجاله، إلا أن وجودهم وترابطهم هو من أعاد الهدوء إلى الملاجئ.

الطمأنينة في عيون الناس لا تقدر بثمن، لهذا استمر في القيام بدوره الذي يستلزم الاحتكاك بحسين في أوقات كثيرة.. حسين صار ظلًا لرشوان، لا يعرف إسماعيل ما هي قدراته الخفية التي جعلت منه حلقة الوصل بينهم وبين المدجنين وأسيادهم. حسين من رتب نقل الطعام من الشاحنات إلى داخل الملاجئ، حسين هو من حدد حصة

كل فرد في الأكل والماء كل يوم. ذات مرة سأل رشوان بشك عن سر قدرات حسين تلك، أجابه وهو يغالب الابتسام:

- أبوه كان يعمل في المدينة قديمًا، لديه بعض العلاقات.. ربما استطعت التغلب على مهاجميك من الفئران، لكنك لا تستطيع التغلب على كرهك للرجل.

حاول إسماعيل الاعتراض، فلم يكن مقنعًا كفاية، هو نفسه يدرك أن هناك حقيقة في ما يقوله رشوان. الأخبار التي يأتي بها حسين وتصرفاته أفادتهم كثيرًا على كل حال. بينما لا يملك هو سوى توجس وابتعاد دائم عن العالم، حسين وأمثاله هم الذين يستطيعون فعلًا شق طريقهم وسط البلايا.

بدأوا في تنظيم الحياة داخل الملاجئ، لم يكن يتم الاجتماع على فعل أي شيء سوى بعد إقراره منه ومن رشوان، مع الوقت صار أخذ رأيه يتم على فترات متباعدة..

- هناك الكثير مما يجب التصرف فيه بسرعة بينما أنت تجول على حواف الصحراء أو وسط الميادين.

قيل له. شعر بالغيرة لقليل من الوقت، في النهاية هو أكثر راحة هكذا، لم يحب أن يكون زعيمًا. قال له أبوه قديمًا:

- العبد الصالح لا يمكنه سوى أن يأمل في النجاة بنفسه.. النجاة بالناس فعل لا يقدر عليه سوى الأنبياء، حتى هم - برغم المدد الإلهي- حوربوا وطوردوا.

ينغمس في العمل مع الرجال حتى يصير واحدًا منهم. تلوك أذنه الكلمات عن حصص أكبر من الطعام تذهب إلى رشوان ورفاقه الأقربين، فلا يصغي. همسات في جنبات الملاجئ عن أنواع مخصوصة

من الطعام تأتي من المدن إلى حسين فيحجزها لرشوان. يكره الكلمات ويكره البحث وراءها. أخبره رشوان أن المدجنين على حواف الملاجئ في طريقهم للرحيل. الفزع يحتل جنباته، فيظهر في عينيه. يقول رشوان بأننا يجب أن نتأهب للدفاع عن أنفسنا. لم يجرؤ الفئران أبدًا على مهاجمتهم هنا، بينما المدجنون - على قلتهم - متواجدون للحراسة..

يعلمه رشوان بأنه قرر أن يبني سورًا حجريًا مرتفعًا، بمحاذاة الجانب الغربي بأكمله. كما أنه قرر إخلاء جميع المباني المواجهة للصحراء في هذا الجانب. حاول إسماعيل الاعتراض، مئات الأسر تقطن هذه المباني، والملاجئ مزدحمة عن آخرها، لكن رشوان كان قد اتخذ قراره بالفعل. كل ما تمكن إسماعيل من فعله هو عدم المشاركة في الإخلاء. رجال رشوان الآخرين هم من نفذوا. لم يتمكن قط من الإمساك باللحظة التي تحول البؤس الذي اعتاد رؤيته في ملامحهم إلى غطرسة القوة البادية.. جلابيبهم الملتصقة بأبدانهم التي قلت نحافتها، شمرت عن سواعد قاسية، تلقي بحاجيات الناس القليلة من الفجوات التي كانت نوافذ في عصر قديم. بكاء النساء وخضوع الرجال جعله يحني رأسه حتى لا يرى، بينما بدا ياسين مبتهجًا، يلعب الفتى مع أبناء رجال رشوان فقط منذ أن صاروا المنظمين لكل الملاجئ. انشغال إسماعيل الدائم ألهاه عن رؤيته لبعض الوقت. يبتسم الفتى ويعقد حاجبيه كالرجال الذين يرمون حاجيات الناس من الغرف الأسمنتية..

الأغطية الملتصقة ذات الروائح النفاذة، البطاطين الرمادية المليئة بالثقوب التي خلفتها أصابع الزمن اللاهية، تطير مع الريح فلا تسقط في التو. الصراخ اندلع عندما حاول الرجال إلقاء أواني الطعام.

هناك رغبة مفرطة في إنجاز أمر رشوان، يتبارى الرجال في هذا. ارتمت النساء على الأواني كأنها أطفالهن. تدخل أزواجهن فبدأ الشجار.

عويل متصل من الطابق الثالث. وجه امرأة فزع يبدو من الفجوات، وهي تلطم وجنتيها. قال شخص ما بجوار إسماعيل:

ـ لماذا يتلكأون.. هم في ترحال دائم منذ ولادتهم، عليهم شكر رشوان أنه لم يأمر بأن يفترقوا عن بعضهم.

حركت الكلمات شيئًا ما بداخله، تحرك بسرعة غير معتادة منه، ليقفز الدرجات الصاعدة محاذرًا الأماكن المخلخلة الخادعة في الدرج، ليصل إلى حيث الصراخ.

وصل إلى الطابق الثالث، ليجد الرجال يتكالبون على زوج بدين يقبض على وعاء خزفي حول بطنته. يحميه بيديه، بينما ترك رأسه وجسده نهبًا للركلات والقبضات الغاضبة.. لم ينجرف إسماعيل مع مشاعره، استطاع النفاذ من وسط الرجال ليقف حائلًا بينهم وبين الزوج المتهالك. كاد يتلقى لكمة طائشة، لكن اليد توقفت حينما ميز صاحبها وجه.. هو إسماعيل رفيق رشوان رغم كل شيء، الرجل الذي قتل فأرًا وحمى ابنه.

ـ يكفي هذا.

لم يزد عن كلماته هذه. تراجع الرجال بعد هنيهة، تلكأ اثنان أو ثلاثة في رفض مكتوم. ظل ثابتًا حتى تركوا الطابق بأكمله. تحول صراخ المرأة إلى نحيب، استدار إسماعيل نحو الزوج الذي لا زال على وضعه الحامي لوعائه. ربت على كتفه، فرفع الرجل رأسه في شكر وهو يهمس في ألم:

ـ لا توجد أوعية أخرى، من دونه ستهلك عائلتي.

رأى إسماعيل الشروخ التي أصابت الوعاء، رغم تفاني الرجل. قليل من الاستعمال وسينتهي أمره إلى الأبد. نزل من المبنى والوجع يفعمه

قابل رشوان ليلًا، وأخبره بما حدث. قال رشوان:

ـ الناس لا تعرف مصلحتها.. لكنني سآمر الرجال أن يكونوا أكثر رفقًا.

هجرة وسط الهجرة.. وكأنما ما كان لم يكن كافيًا، ازدادت الليالي برودة.. تلاصق النائمونَ في العراء وسط الميادين وبين المباني دون جدوى. بينما صارت الغرفة ملكًا خالصًا له ولياسين. أهداه رشوان بضعة بطاطين إضافية حينما ازداد البرد. ارتجاف ياسين في الليلة السابقة، والريح التي تعوي لاهثة في المنافذ العديدة للمباني، وتعدو في الخلاء بحثًا عن جسد ساخن، جعلاه يقبل الأغطية دون أن يسأل من أين أتت.

أغرق نفسه في بناء السور. لم يكن بناءً قط، لكنه قام تحت إشراف الملاحظين بضع مرات بترميم الزوايا الحجرية في المزارع بعد سنين من الترحال، فكرة أن هذا السور هو درعهم ضد الفئران، ضد الصحراء، جعله يضغط على نفسه، وعلى كل من يعمل في بنائه. يومًا تلو الآخر يعلو البناء ويشتد. يبتسم رشوان كلما رآه يعمل، ويربت على كتفه باعتزاز. لم يعد الناس يرون رشوان كثيرًا كما اعتادوا. حينما يأتي يتضاعف مجهود الرجال وحماستهم. كلماته على قلتها، اعتاد الناس على تذكرها ليلًا وتفسيرها بشتى الطرق.

وضع آخر الأحجار في مكانها، جلس ليسند ظهره المكدود على الجدار الذي اشتد عوده. أول نسمات الليل تأتي وجلة، تلمس الوجنات في خجل عذراء. ساعة واحدة من السكون ويبدأون العمل مرة أخرى

تمر العديد من الوجوه المرهقة أمامه، هامسة بالسلام. البعض يمدد على المقربة.. يستأنس بهم ويستأنسون بأصواتهم التي يغالبها نوع متعب. نظر إلى السماء الصافية.. القمر محاق هذه الأيام، فتوجب عليهم إشعال النيران كل ليلة ليعملوا على هديها. مع طوفان البشر عزّت الأخشاب، حتى قرر رشوان جمعها كلها، وتوزيعها بمعرفته حسب الحاجة، لم يعترض أحد.

رغم أن البرد كثيرًا ما يؤلم، يقرض الأطرف، يطرد النوم، إلا أن الطمأنينة دفئًا يغلب حتى برد الصحراء. الجدار الذي ينمو باطراد، وآلة رشوان المعدية، نحرا القلقَ الدائم الذي يعانونه.

ضحكات ياسين على المبعدة أضاءت دياجير قلبه المنهك المتشم. خطوات عارية على التراب الذي يتحول تدريجيًّا إلى رمال الغرب. ظل يتمايل لرجل بدين يعبر ناظريه قبل أن يستقر جالسًا بجواره دون كلام. ازداد الناس عددًا حتى أن الوجوه تطرد بعضها من ذاكرته، يقولون أن الزحام في الملاجئ الداخلية بلغ مداه، وأن الميادين السبعة الواسعة لا مجال فيها للحركة.. يختار رجال رشوان كل يوم -بعشوائية- ثلاثين رجلًا لردم الخلاء الذي يمتلئ بنفايات بطون الناس. ورغم ذلك حينما تشتد الريح الشرقية، تعصف بأنفه الروائح النتنة، حتى وهو في أقصى الغرب. عطف الله خفي لا يدركه الغافلون، لولا رشوان لصار الحال أكثر سوءًا.

تناغم مع أفكاره صوت التسبيحات الصادرة من الظل المقارب له. يعرف هذا الصوت وإن لم يكن يعرف صاحبه. في الحقيقة لا يعرف أحدًا اسم صاحبه. أتى منذ أسبوعين تقريبًا مع طوفان القادمين، لا يرتاح إلا لمامًا، يسبح الله في كل وقت. زجاجة مياه صغيرة لا

تفارق يده. لم يرها أحد فارغة على الإطلاق، الرجل لا يبخل على أي عطش بجرعات. الكل سواسية، رجال، أطفال، نساء. حاول البعض الحديث معه كلما اقترب من الجدار، دائمًا ما يكتفي بنظرة شاردة وبسملة لا تفارق شفتيه. مع الوقت تقبله الجميع كما هو وأطلقوا عليه عبد الله.

لذكر الله راحة لا تقارن في قلب إسماعيل. استرخى جسده وهو يستمع لتمتمة الرجل الخفيضة، كلمات الاستغفار لا تنتهي على لسان الرجل. شعر إسماعيل ببعض الخجل من نفسه، حيث ألهاه العمل عن الذكر الذي اعتاده وقت أن كان في المزرعة.. ما إن تلوح ذكرى المزرعة حتى يسطع طيف سعاد المراوغ في خياله. ألَق بسمتها الخجول، عيناها اللامعتان تحت نور القمر، يداها الدقيقتان وهي تقطع الخبز الجاف، الحفيف الهامس لقدميها وهي تتحرك قبل الفجر بهدوء حتى لا توقظه قبل ميعاده. مع الوقت هذا هوما يتبقى منها بداخله، كحبات رمال آبقة، تتسرب من قبضته اليائسة مهما ضغطها، الزمن يحطم صورتها الكاملة بداخله، تتناثر كمرآة كانت، لا يتبقى سوى شظايا تجرح، مع توالي الأيام يخاف أن يغيم حتى وضوح هذه الشظايا. من سنين خلت فقد عمه ذراعه، عندما اشتبك جلبابه مع السير الحديدي لآلة استخراج المياه الجوفية.. ظل الرجل سنوات عدة يحكي عن شعوره بيده حية لا تزال، حتى اعتاد عجزه دون أن يدري. فقد إسماعيل قلبه في المزرعة، دفنه في القبر الرملي المنسي، يشعر به حيًّا بعض الوقت الآن رغم الوجع الذي تنبته الذكرى، يخشى أن يعتاد عجزه مع الوقت وينسى. تكورت دموع شفافة في جانبي عينيه فتمتم بقلبه دون صوت

ـ الحمد لله.

- حينما تحمده وقت الوجع، يهديك الطريق في ظلام الضيق.

التفت إسماعيل مندهشًا، وهو يتساءل كيف سمعه الرجل.

- الحمد لله في السراء والضراء.

- صدقت يا ولدي.

لا يدري إسماعيل كيف انزاح من مكانه ليقترب من الرجل، الذي يعكس نور القمر كلؤلؤ سائل على لحيته الرمادية، وشعره الأشعث القصير وأنفه الضخم. راحة غريبة انسلت إلى قلبه منبعثة من الصوت العميق الهادئ. ابتسم إسماعيل، الظلمة حجبت ابتسامته، كأن نور القمر لا يسقط إلا على الرجل ذي الملامح الهادئة، المستقر بثقة على الجدار الحجري وهو مغمض عينيه في استرخاء، كأنما يرتاح على فراش وثير.

لم يزد، صمت إسماعيل لدقيقة.. لا يكترث في المعتاد لمعرفة غرباء جدد، الرجل يثير فضوله بشكل يعجز عن أن يقاومه.

- مم.. ما هو اسمك؟

- اسمي!!... وما فائدة الأسماء وسط طوفان الناس والوجوه. كلنا ولد آدم، وكلنا نسعى للنجاة..

- لا يستقيم الحديث دون معرفة.. كيف أناديك إذن.

- سمني عبدالله... في النهاية لن تكون مخطئًا.

- ونعم بالله.

- نعمه لا تعد ولا تحصى، لكن الإنسان كنود.

صمت إسماعيل. تفرست عيناه في الوجه المدبوغ المرهق لأول وهلة، المطمئن بعد التدقيق. ملابسه لا تختلف عن الجميع، جلباب بهزئ، قدم نصف حافية، في خف متهالك ذي نعل متهتك، جرى

إصلاحه مئات المرات. فم لا يظهر تحت شارب كثيف، لا يكف عن
التمتمة بأوراد غامضة لم يسمعها إسماعيل من قبل.

شيء غامض يدفعه دفعًا إلى سؤال الرجل، مع طول الصمت
تكاثرت الأسئلة حتى خرجت دفعة واحدة..:

- لم أرك إلا قريبًا، أتنتمي إلى ملاجئ مدينتنا؟. أم أنت من القادمين من مزارع المدن الأخرى المهجورة؟.. كيف كانت رحلتك إلى هنا؟. هل واجهت الفئران مثلنا؟

أدار إليه عبد الله وجهه، هناك صفرة طفيفة في بياض عينيه، انفرجت شفتاه عن ابتسامة من أسنان بيضاء من غير سوء:

- أنت تسأل كثيرًا، لكنك تسأل الأسئلة الخاطئة.. ألسنا جميعًا نتشابه؟.. عباد الله في أرض الله، يأمرنا فنطويها.. يأمرها فتطوينا.

حدق إسماعيل فيه طويلًا، الصوت المطمئن والكلمات القليلة له تنبت راحة في القلب. بعد هنيهة أراح الرجل رأسه على الجدار ليرفع عينيه إلى السماء. تلقائيًا رفع إسماعيل عينيه هو الآخر، ليرى الجواهر الفضية المتناثرة، والقمر العاجي الذي يسيل ألقه على العالم اللامحدود. تنهد الرجل، يده تريح زجاجة المياه على الرمال الناعمة، وهويحادث نفسه بصوت مسموع:

- سبحانه، لا يخلق إلا ما هو جميل.

5

يهوي رجال رشوان على الناس بعصيهم القاسية التي لم يشذبوها حتى تحتفظ بكل أشواكها، فيتراجعون دون نظام. لا بد من إخلاء

الميدان الأكبر، لكن الكسالى والمرهقين لا زالوا يفترشونه. حاول إسماعيل إقناعهم في البداية، بدا أن هذا سيستغرق دهرًا، والقادمون لا زالوا على الوصول، فتشاغل بالبحث عن ياسين، تاركًا رجال رشوان يفعلون ما أرادوا فعله. فقط رجاهم ألا يمسوا النساء. وسط فوضى الضربات تأذت بعض النسوة وبعض الأطفال.

الحال تزداد سوءًا، المدينة خفضت حصص الوجبات مرة أخرى، المياه انقطعت عن المجيء لثلاثة أيام، لم تعد إلا بالأمس. القادمون الجدد يتحدثون عن معارك مسلحة بين مدجني المدن وبعضهم، لا يصدق إسماعيل هذا، إن الشمس لتشرق من المغرب قبل أن يقاتل المدجنون بعضهم. الشائعات خيوط لعنكبوت الخوف، كلما حاولوا الفرار منها كلما التصقت بهم أكثر.

العجائز ينظرن له برهبة، وهن يحاولن الاحتماء بمداخل المباني المكتظة حتى الانفجار. يتفادى عيونهم القلقة، وهو يفتش عن ياسين الذي يصخب في مكان ما. ليس مرتاحًا لما حدث أو سيحدث، طلبه رشوان إلى مجلسه حول النار، انقطع إسماعيل عن الذهاب إلى هناك منذ أمد طويل، اعتاد على الوجود حول الجدار في ساعات مراقبة لا تنتهي لم يطلبها منه أحد. منذ أن ذهب مدجنو الحدود، وواجب المراقبة يقع على أهل الملاجئ. كان الجو مغبرًا قليلًا، يضطر المرء إلى فرك عينيه كل ربع ساعة لتغسل الدموع المقلة الحمراء. حاول التكاسل عن الحضور، في النهاية وقف أمام النار المتراقصة، أمام رشوان الغارق في أفكاره ورجاله حوله يكافحون الذباب كبير الحجم الذي يصطدم بالوجوه ثملًا من الريح والذي تزايد بشكل عجيب مؤخرًا. حينما تلاقت أعينهما، رأى إسماعيل أن التجمع الدموي الذي كان

يحتل بياض عيني رشوان قد زال تمامًا. تبادلا التحية، أفسح له رشوان مكانًا بجواره للجلوس. الهيبة تشع من هيكله الهائل القوي.. ربما لهذا يعلن رجاله دومًا بأنهم لا يخشون الفئران، إسماعيل نفسه شعر بشيء من القوة بمجرد جلوسه على الحجر الأملس العريض، لتتلامس كتفه المدببة مع الكتف العريض الساخن. سأل رشوان بدماثة عن حاله وعن حال ياسين، أبدى تذمره من ابتعاد إسماعيل عنهم في الفترة الماضية. رد إسماعيل –نصف كاذب– بأن الجدار وحراسته هوما يلتهم وقته كله. افتر ثغر رشوان عن ابتسامة ثقة وهو يعده أن لا فأر سيخطو خطوة بعد هذا الجدار إلا وسيعلق جسده مشنوقًا عاريًا على أعلى ملجأ أسمنتي. عدوى الابتسام انتقلت إلى فم إسماعيل وعقله يتخيل هذا المشهد، الحذر الساكن فيه منذ التكوين أجبره على القول:

- لنتمن ألا يأتوا أبدًا.

هز رشوان كتفيه بلا مبالاة، بينما ضحك بعض الرجال - الذين حلقوا لحاهم وتركوا شواربهم العملاقة ليختلفوا عن باقي الناس- خفية..

- على العموم ليس هذا ما أردت محادثتك بشأنه.

انتبه إسماعيل بكل حواسه، أخبره رشوان أن المدجنين يأتون برسائل من المدينة حول عدم القدرة المتزايد على الوفاء بالطعام والماء.

- نحن نزداد عددًا بلا هوادة، في القريب سيأكل الناس بعضهم.

لم تعد هذه جملة بلاغية كما فكر إسماعيل من قبل. منذ أن بدأ تخفيض حصص الطعام والناس تحاول التصرف بأي شكل كان،

رغم أنه دومًا مشغول بأفكاره الداخلية، حتى أن رجال رشوان يظنونه أبلهًا تمامًا، إلا أنه لاحظ قبيل الانتهاء من بناء السور أنه لم يعد هناك نباح يعلو ليلًا. سأل من حوله، أخبروه أن الناس دأبت على صيد الكلاب وأكلها. كلما ازداد العدد زادت الوطأة.. سمع عن مطاردات النساء للجرذان الصحراوية التي كانت تقطن كل مكان. هناك من صار يكمن عند مقابر الغرب العطنة لينتظر آكلي الجيف من ابن آوى وما شابه. همسات خفيضة عن أن بعض الناس صاروا هم آكلو جيف المقابر، لم يعد هناك شيء محرم. قوة رجال رشوان وقسوتهم هما الساتر الوحيد الذي يقي اللاجئين من الفوضى،.

ـ لكن هذا ليس ما أردتك بشأنه.. هناك أمر آخر.

عينا إسماعيل تطفحان بالتساؤل، يخبره رشوان أن هناك ثريًا ما، محبًا للخير كما يقال، آتيًا من المدينة لتفقد أحوال الملاجئ. ربما يأتي بمساعدات للناس، وهم في أشد الاحتياج لهذا.

ـ وما علاقتي بالأمر؟

ـ الناس تحبك، هم يخافون رجالي.. وهذا حق. لكن لاكتمال النظام لا بد من أن تتحد المحبة مع الرهبة.. أريدك أن تقوم بالمساعدة في تنظيم الناس عند مجيء ذلك الرجل. إن أفزعناه، ربما نضيع فرصة مهمة لنا.

وافق إسماعيل مضطرًا. توحد هو مع العيش على أطراف الملاجئ، حيث الحياة سيرورة دائرية من حراسة وطعام وصلاة وحديث متقطع مع عبد الله في ظلمة الصحراء.

قرر القيام متثاقلًا، وانقباض رمادي يكتنف صدره. أراد رشوان استبقاءه لشرب شيء دافئ. الدهشة عميقة بداخله، لم يشرب شيئًا سوى

الماء تقريبًا منذ أن غادر المزرعة. اتسعت عيناه، فانتبه إلى التفاصيل رأى وعاءً يبقبق فوق حطب ملتهب، بينما أكواب خشبية تدور بين الرجال، فتبتل الشوارب الغليظة.. لا يدري لم تذكر وجه عبد الله الملتحي الأشيب. رفض بأدب مصرًا على العودة إلى السور.

- لا تنس ما عليك فعله إذن.

قال رشوان بينما بصر إسماعيل يتعلق بالمبنى الذي يقطنه رشوان وحيدًا. هناك أضواء تتأرجح متألقة من النوافذ التي تم تركيب سواتر خشبية خرقاء لها. لمح ظلًا يتحرك منسلًا نحو مدخل المبنى الذي يجلس رجال ساهرين على مدخله. الانقباض الرمادي يزداد دكنة.. لم يبد أن رشوان لاحظ ما ينظر إليه، فاكتفى بإلقاء السلام وهو يغمغم:

- لن أنسى بإذن الله.

الآن يقف متوترًا، والترقب يفعم الأجواء.. يشع من العيون الواسعة والضيقة، ينساب من الجدران، يزحف بين الرمال. صخب الأطفال المعتاد تهاوى إلى دمدمة غير ملحوظة، حتى الرياح توقفت عن ركضها اليومي العابث، لتكمن هادئة وسط الناس تنتظر.

أتت عربة المدجنين القتالية التي لا تمس الأرض، ذات الطنين الذي يؤلم الأذن. بنظراتهم الجامدة غادروا عربتهم. دون مجهود آخر من رجال رشوان ازداد تراجع الناس الغريزي. قلب الميدان صار فارغًا، كبقعة صلعاء في رأس أشيب. وجد إسماعيل نفسه ينضغط نحو أحد المباني الأسمنتية.. ميز على الجدران رسوماتٍ بدائية تمثل شجرة زيتون عملاقة يستلقي رجل وامرأة تحتها، بينما يلهو طفل لم يكتمل رسم نصفه الأسفل بجوارهما. لا أحد ينسى ذكرى المزارع السعيدة..

كافح الناس ليعبر الحلقة البشرية المتماسكة، المتأرجحة بين الخوف والفضول. تجاوز الأكتاف المتلاصقة، ليجد المدجنين وقد انتهوا من نصب منضدة متوسطة وكرسيٍّ عالٍ نقش عليه النسر القاهر المخيف. عيون النسر واسعة لا تغمض. حتى رجال رشوان تراجعوا دون أن يلحظوا هذا. يخرج المدجنون صناديق وردية، تخطف الأعين في الشمس متزايدة الحرارة.. استمر إخراجهم وترتيبهم للصناديق طويلًا. تكاثف العرق على جبهة إسماعيل الضيقة، بينما ظهرت بقعة ازداد حجمًا على جلبابه تحت الأبطين. ارتبك حين أحس بها. هوقد شرب كفايته من الماء حينما استيقظ، كل هؤلاء الصامتون المحدقون في الصناديق الوردية ربما لم يذوقوا قطرة منذ يومين. أحنى رأسه وهو يفكر في ذلك.

آثار أقدام الناس على الرمال التي تدفن أرض الميدان الصلبة القديمة خفيفة تمحوها أول هبة ريح، بينما أحذية المدجنين السوداء تترك علاماتها عميقًا وسط الرمال، تتحدى الهواء. نداءات رجال رشوان أجبرته على التقدم. انتهى المدجنون من رص صناديقهم التي أثارت فضول الناس. العيون تبلع اللون الوردي، تفتش عن أقفال غير مرئية لتعرف ما يستقر في الداخل المحجوب.

المنضدة التي تتوسط الميدان، تم إضافة واقٍ قماشي من الشمس فوقها فصارت ظليلة.. طنين قادم من خارج الملاجئ تميزه الآذان. انتبه الناس، تأهب المدجنون. وضع أحدهم فوق المنضدة زجاجة كبيرة شفافة بداخلها سائل برتقالي. تتكاثف قطرات المياه على بدن الزجاجة، لتسيل ببطء كسول على المنحنيات الناعمة المصنوعة بفن في طريقها

استجدى إسماعيل لعابا ليبتلع ريقًا، حلقه جافٍ كمزرعة في سنواتها السوداء. خرج صوته متحشرجًا متوترًا:

ـ إسماعيل.

ـ أنت الزعيم هنا؟

ـ بلى.. أقصد نعم، رشوان هو الزعيم.. أنا هنا بأمر منه.

ـ أفهم.. أدعى آدم، هل تعرف لمَ أنا هنا؟لماذا أحضرت هذا السيرك لكم؟

البلاهة على وجه إسماعيل أجابت دون اضطرار لرد.

ـ بالطبع.. أنت لا تعرف حتى ما هو السيرك.

ابتسم آدم، متأملًا وجه إسماعيل المرتجف، الذي فقد كل مخزونه من الماء فلا يسيل منه العرق رغم حرارة الجو الخانقة..

ـ لم لا تتقدم إلى الظل، لا داعي لأن تسلق حيًا الآن.

الراحة في مقلتي إسماعيل الضيقتين، ارتخاء فكه الغارق تحت اللحية السوداء ذات الشعر النافر، وخزتا قلب آدم دون أن يفهم سببًا.

ـ هل تعرف لم أنا هنا؟

ربما برودة الظل اكتسحت عقل إسماعيل، ربما تجمد وهو بهذا القرب من آدم الذي يشبه الملائكة التي اعتاد تخيلهم في طفولته يسبحون في زرقة السماء بعيد عن العطش الأصفر الأبدي، أيًا كانت الأسباب، صمت ولم يحر جوابًا.

هوت كف صغيرة شرسة في سرعة ودقة على جانب عنقه، مفاجئة لإسماعيل وآدم أيضًا.

ـ حين يتم سؤالك عليك أن ترد.

قال الضابط في زي المدجنين دون مشاعر، وهويحدق من خلف عويناته، متأملًا يده عسى أن تكون قد اتسخت من ملامسة بشرة إسماعيل القذرة..

زلزل باطن إسماعيل. تراجع أكثر رجال رشوان إلى الخلف، وهم ينظرون بقلق إلى الضابط ومدجنيه المتجمدين تحت الشمس كحجارة صلبة بلا روح. آدم هو من امتعض، نظر بغضب إلى الضابط الذي تشاغل بفرك يده. قام واقفًا ليمسك بكتف إسماعيل ليوقف ارتباكه. أشار إلى أحد المدجنين ليأتي بكرسي. انصاع المدجن بسرعة لأمر آدم، جلس إسماعيل ببعض الضغط. الامتعاض ظهر على وجه الضابط، قبل أن يدير ظهره للمشهد بأكمله معترضًا.

جلس إسماعيل على حافة الكرسي، غير سامح سوى لأقل قدر ممكن من مؤخرته بملامسة الجلد البني الذي يخفي تحته إسفنج شديد الليونة.. عاد آدم إلى مكانه مواجهًا إسماعيل ليتكلم:

صوت آدم دافئ، ودي، مشجع، منوم قليلًا. يحادثه عن النجاة، عن أماكن لم يرها من قبل ولا حتى في أحلامه. عن آمال في غذاء دائم، وأمان أبدي. عن ملاجئ جديدة يتم بناؤها حيث يمكن للجميع الفوز بأماكنهم الخاصة دون عناء. عن فرص ومزارع لم يسمع عنها أحد بالقرب من البحر الواسع في أقصى الشمال بجوار المدينة، هناك حيث اخضرار دائم دون سنوات جفاف.

ضوء الشمس ينعكس ذهبًا لامعًا على الأسنان البيضاء الرائعة، فينبت أملًا في بور قلب إسماعيل. آدم يتكلم ويتكلم. لكنته الغريبة قليلًا، تعطي رسمًا دقيقًا لعوالم ريانة، ظن إسماعيل طوال عمره أنها لا توجد سوى خلف أبواب السماء. رويدًا رويدًا فقد إسماعيل الشعور

بلهب الصحراء الحارق، نسي لدغات الرمال المستمرة.. نسي حتى الضابط الواقف على بعد عشرة أمتار منه. ينطلق لسان آدم واصفًا العالم الذي يقع وراء البحر وأهله، ورغبتهم في مساعدة الفقراء والجوعى والمنهكين. يعلن عن أن وجوده هنا ما هو إلا خطوة أولى في طريق طويل من التغيير. الهواء الحار يتسلى ببعثرة الشعر الحريري في كل الاتجاهات، بينما يستمر الصوت ذو النبرة الهادئة الواثقة ناشرًا أثره المعدي.

عندما ارتخى جسد إسماعيل بالكامل على كرسيه، وارتاح ظهره على الجلد المبطن الوثير قال آدم:

ـ بالطبع لا يوجد شيء بلا مقابل في هذا العالم.

جملة اعتراضية أوقفت أوهام المستقبل التي تتراقص في مخيلة إسماعيل كسراب الماء. انتفض الشك في الغرباء مستيقظًا في قلبه. أدرك آدم هذا من التماعة العين المتنبهة، لكنه استمر في حديثه، ونبرته تدريجيًا تصير أكثر حسمًا، قاطعة كسكين.

أهل ما وراء البحر يريدون شيئًا ضئيلًا في مقابل كرمهم السخي. الجسد البشري يحوي الكثير من الأعضاء التي يمكن الاستغناء عنها كليّة أو جزئيًا دون أن تمس صحة الإنسان بسوء. عدد الناس هنا هائل، بأكثر مما كان آدم يتصور، وهناك فقط ٢٠٪ من المزارع تم إخلاؤها حتى الآن التوقعات القادمة بأن عدد المزراع التي سيتم إخلاؤها سيفوق ٧٥٪ من عدد المزارع الكلي. يطلب من إسماعيل تخيل هذا لثوانٍ. طوفان البشر المطرد، مع نفس القدر الحالي من الغذاء والماء. الجفاف يستمر سنين، ولا حيلة في يد المدينة.. كرم أهل ما وراء البحر هو الحل الوحيد للنجاة مما هو قادم. الجسد البشري يحوي الكثير من

الأعضاء التي يمكن الاستغناء عنها بقليل من الضرر، وحتى مع هذا سيكون الجسد – مع الرخاء المنتظر – في صحة أفضل بما لا يقاس.

ربما لغرابة الكلمات، أو للكنة آدم غير الشعبية، لم يفهم إسماعيل بالضبط ما يسمعه:

- ما المقابل تحديدًا؟

تجرأ أخيرًا على السؤال، ما إن صمت آدم قليلًا حتى بدت خيبة أمل في العيون البنية الكبيرة لثوانٍ، قبل أن يعيد الوجه الحليق اللامع الكلمات في أسلوب أكثر بساطة ووضوح:

- أجزاء من أجسادكم لا تحتاجونها، كلى، أمعاء.... هناك أطباء سيقومون بتلك العمليات، سيحافظون على صحة المتبرعين.

اتسعت عينا إسماعيل على ضيقها بذهول. دون وعي منه تحركت يداه لتلتف حول بطنه كأن آدم على وشك أن يمد يده ليخطف ما بداخله، بينما يعيد آدم الكلام عن المزايا وعن قدرة الناس على العيش دون أي إحساس بتغيير بعد هذه العمليات. ما يسمعه مفزع، تحولت الجنات الخضراء التي رسمها خياله إلى ملاحظين بأيد معدنية لامعة، يشقون أجساد المزارعين ويخرجون قلوبهم التي تقطر دمًا أحمر داكنًا. ارتجف جسده وهو يفقد تركيزه للمرة الثانية، خلعت كلمات آدم التالية أي معنى على جدار أذنه، فصعدت إلى رأسه ضوضاء صافية:

- هناك حتى فرصة أكبر. التبرع النهائي، هذا يجعل أبناء المتبرع تحت الحماية الكاملة للمدينة، سيعيشون هناك إلى الأبد، ولن يروا الملاجئ مرة أخرى... في الواقع ستتم حمايتهم وتنشئتهم كمدجنين، وهو ما لا يمكن حتى تمنيه في ظروف أخرى.. تخيل.

ـ مهلًا... التبرع النهائي.

ـ عليك أن تصغي أكثر... التبرع النهائي كما قلت هو التبرع بكل الأعضاء.. كل الجسد.

ـ هل يمكن للإنسان أن يحيا دون كل الأعضاء؟!

ـ لا يمكنه. ابتسم آدم ابتسامة ذات مغزى.

ـ لكن.. لكن هذا انتحار.. حرام.

جاست عينا آدم ـ التي تجاهد أهدابهما الطويلة في حمايتهما من الغبار المتزايد الفضولي ـ في وجه إسماعيل الصريح الساذج، الذي يحمل عدم التصديق والخوف والاشمئزاز.

ـ أخبرني هل لديك أطفال؟

ـ نعم.. ولد واحد.

ـ ما اسمه؟

قشعريرة سرت في جسد إسماعيل، فوقفت الشعيرات السوداء على ذراعيه كأنما لمس ثعبانًا حيًا.

ـ .... ياسين.

ـ كم عمره؟

ـ في السادسة..

ـ صغير للغاية... بالطبع أنت تحبه كثيرًا أليس كذلك؟

لم يحر إسماعيل ردًا، فتابع آدم حسب استراتيجية راجعها عشرات المرات في عقله قبل حضوره:

ـ كم تعتقد أنك ستعيش؟

ـ أستغفر الله العظيم.. الأعمار بيد الله.

- الله!.. أنت تمتلك عقلًا، انظر حولك.. هذا عصر متقلب. أعدادكم تزداد باطراد، مع الوقت لن يكون هناك أي طعام يكفيكم. أشرار الصحراء يتحرشون بكم، لن يطول الوقت حتى يدركوا غياب المدجنين، ويبدأوا في الطرق على أبواب الملاجئ المتداعية.. ماذا ستفعلون حينها؟

- سنقاتل. قال إسماعيل بصوت حاول ان يبدو ثابتًا قاطعًا، استشعر آدم الاهتزاز الكامن تحت طبقات الغضب الخارجية..

- بالطبع ستقاتلون، ستهزمونهم مرة.. مرتين، في النهاية لستم مقاتلين، ولستم أقوياء. انتصارهم حتمي.... من يدري أين ستكون وقتما يصلون. ميت على الحدود الخارجية، محصور وسط المستسلمين، هارب إلى الشرق وسط صحراء لا ترحم دون هدى أو ماء أو طعام. كم تعتقد أنك ستعيش؟! في كل هذه المواقف المحتملة، ما نسب نجاة ياسين ذي السنوات الست، ما الذي سيحل به؟هل الأفظع أن تموت أمام عينيه بينما تتركه ليواجه مصيره، أم أن يموت هو أمام عينيك دون أن تستطيع فعل أي شيء؟. هل يبدو ذلك لك أطيب من أن تتبرع بجسدك دون ألم، ليحيا ياسين في أمان للأبد... حيث يستطيع أن يتزوج وينجب ويحيا سعيدًا؟هل هذا ما تخبرني أنه حرام!!... إسماعيل يا صديقي اسمح لي أن أخبرك أن ما تقوله لا يبدو لي سوى أنانية محضة أو غباءً مطلقًا.

القلب ينقبض، والروح ترتجف. إن تحدثت عن الموت فسيأتي كلمات آدم نداء يشق السماء في بيت بلا أبواب وسط الخلاء.. لن يأتي أبدًا إلا بالسوء.

ـ فأل الله ولا فألك.

استغرق آدم هنيهة ليفهم معنى الجملة، قبل أن يهز رأسه وابتسامة مضيئة تلمع على وجهه:

ـ فقط أبلغ رشوان ومن تعرفهم بذلك، انشر العرض.

قام إسماعيل من مقعده بسرعة، راغبًا في الخلاص. قبل أن يغادر صاح آدم:

ـ انتظر.

توقف إسماعيل ليحدق في العينين الواسعتين. اعتاد أن يرى في الأعين دائمًا ما تخفيه الأنفس، هاتان العينان العميقتان تربكانه، يرى فيهما شيئًا من كل شيء.

فتح أحد المدجنين أقرب صندوق وردي بإشارة من آدم، أخرج علبة ورقية ذات لون ذهبي ساطع،مد يده بها إلى إسماعيل:

ـ خذها إنها شيكولاتة..

كان هنا دور إسماعيل في عدم الفهم، تجلى هذا على وجهه العظمي الناحل.

ـ طعام.. لياسين، الأطفال يحبونها.

فكر في الرفض لوهلة، لكن الضابط لا زال على المقربة.. ذكرى كفه اللاذع تستعمر قفاه. أمسك بالعلبة متحاشيًا أي تلامس مع يد المدجن. خطوتان بالضبط تحركهما قبل أن يأتيه صوت آدم:

ـ لتعلم أن الموتى لا يشتهون الشيكولاتة..

أكمل طريقه ليغوص بين الأجساد، بينما يسوق المدجنون الناس ...ا إلى حيث يجلس آدم.

6

ينطلق الأطفال في كل الأنحاء كالمصابين بالسعار. صوتهم ...خبهم يدوي في جميع الطرقات منذ أن تستيقظ الشمس فلا ينتهي ...ا تحت أنظار القمر المتعب آخر الليل.

احتفظ إسماعيل بالعلبة المهداة من آدم، القطع المكعبة ذات ...لاف الزاهي، الذي يعكس كل لون ممكن أربكته. لم يرتح قلبه لأن ...طي ياسين منها، ولم يستطع إلقاءها والتخلص منها في نفس الوقت. ...أها في أحد الشروخ الغائرة في بدن المبنى الرمادي، عاليًا قرب ...سقف حيث لن يصل إليها ياسين وحده أبدًا.

كالعادة كان تقديره خاطئًا. انتشرت هذه الشيكولاتة في كل ...كان، لم يستطع الأهالي السيطرة على جموح أطفالهم وهم يطالبون ...ئمًا بالمزيد. في النهاية عاد ياسين بشفتين ملطختين باللون البني، في ...ينيه الداكنة يطالب بما يحصل عليه كل الصغار في الخارج.

رضخ إسماعيل، لكن بشروطه الخاصة.. مكعب واحد كل يوم، ...م يعلم أن الأطفال بدأوا في تنظيم أنفسهم في جماعات تجوب ...ملاجئ لتخطف الإغواء البني من أقرانهم الضعفاء والوحيدين.

في فجر مثلج، افتقد عبد الله فيه في الصلاة فصلى وحيدًا. أراح ...هره على الجدار مستمعًا إلى خطو الرياح وتململ الرمال. أحسَّ ...القطعة المكعبة تخمش جانبه. نزل مسرعًا فور وضوئه، فنسي أن

يترك لياسين النائم حلواه لليوم، لا بد وأن الطفل سيأتي باحثًا عنه فور استيقاظه.

مال على جانبه الأيسر قليلًا حتى تنزلق الشيكولاتة عميقًا داخل جيب جلبابه فينساها، لكنها ظلت تتشبث بجلده في عناد. تطلع إلى السماء التي تتشقق ظلمتها. تأخر عبد الله، ربما لن يأتي اليوم. تسللت يده لتعبث بالغلاف السيلوفاني الناعم داخل جيبه. لم يدر إلا والقطعة على كفه، تمتص غلالة الفجر الرقيقه فكأنما تضيء بذاتها. على الأرجح هو الوحيد في كل الملاجئ الذي لم يتذوق الشيكولاتة بعد، ارتبطت في ذهنه بكلمات آدم الضالة المقبضة فزهدها. وحيدًا وسط سكون العالم تحدثه نفسه بأن يذوقها، بحث في جنباته عن نفرته من آدم، هذه المرة انقباضه الذي اعتاد على استدعائه وقتما شاء كان عسيرًا على الإيجاد.

ـ قضمة لن تؤذيك.

قالت له نفسه الأمارة بالفضول وهو يفض الورق الملون، والذي يصدر صوتًا مغويًا حين التلامس كأنه يهمس. طالعه اللون البني القاتم الذي يعد بإجابة كل أسئلته. حينما غرس أسنانه في التركيب الهش المسكر، حطمت سنتاه الأماميتان بندقة مطاوعة تغفو وسط الشيكولاتة..

لم يزدرد ما في فمه، الصدمة الأولى على لسانه للطعم الذي لا يقارن، خدر فمه بتعويذة سحرية أفقدته السيطرة.. يذوب التكتل بنعومة وهو يمتزج بلعابه، فيصعد إلى رأسه عوضًا عن أن ينزل إلى معدته كأي شيء آخر.

أهذا طعام أهل الجنة؟!... لم يحلم قط أن هناك على هذه الأرض الفانية طعمًا كهذا. في سنوات التيه أهدى الله الحيارى المن والسلوى، إن كان طعمهما مثل هذا الذي يرتجف له جسده لكانت الأربعون عامًا طرفة عين.

حينما ذابت بالكامل داخل فمه، نسي تقتيره السرمدي. قضمة الأخرى، حتى أتى عليها تمامًا. امتلأ فمه عن آخره بالشهوة الذائبة.. ازدرد فارتعد. يسري الدفء في كل أعضائه خالقًا سرورًا لم يختبره من قبل، وعطشًا طفيفًا لم يلحظه في البداية، لم يلبث أن توحش وهو ينهش حلقه. في قارورته ملء فمه من الماء، يحتفظ به للمضمضة وقت اشتداد وهج الظهيرة.. سكب كل ما يملك في جوفه، ذهب العطش لبعض الوقت، فلم يبق إلا الذكرى المدوخة للذوبان.

بعض البقايا استلقت فوق أصابعه، امتصها حين رآها كرضيع. الريح تهب من الشرق فتأتي بروائح الخراء والعرق والعفونة لتلقيها على السور الجديد. رغم ذلك كان راضيًا، دون أن يعلم لماذا. هناك قدر من السعادة، استطاع أحدهم بشكل ما تغليفه في ذلك الورق الملون وإهداءه إلى الناس. ربما آدم الغامض على حق، الموتى لهم عالمهم الغامض، لا يعرف أحد على وجه اليقين ما يشعرون به أو يشتهونه. فقط الأحياء هم من لا زالوا في احتياج للسعادة..

ـ الموتى لا يشتهون الشيكولاتة..

الكلمات تحمل معنى يزداد عمقًا كلما تمعن بها.

ـ الرجال لم يأتوا بعد وأنا هنا من قبل الفجر يا أبا ياسين.

رفع عينيه غير فاهم لثوان، أحد الرجال الموكلين بالمرا
وحراسة السور يحادثه.. غرق في أفكاره حتى أنه لم يسمع خطوا
الرجل ولا نحنحته المتكررة..

ـ سأذهب لآتيك بهم.

عاد الرجل إلى حيث كان، بينما قام إسماعيل ببطء وطع
الشيكولاتة لا زال فوق شفتيه.

7

ـ الفزع... الفزع!

يصيح عبد الله، والنور الأخضر ينبثق منه. جيوش العتمة تكتس
الأرض. إسماعيل متجمد تحت قدميه، غير قادر على الحركة أو
الكلام، بالكاد يتنفس والظلمة تقترب منه، هازمة نور عبد الله الزرع
الذي يكسوه. هناك يقين بالهزيمة والانكسار في قلب إسماعيل.

ـ الفزع.. الفزع!

تطمس العتمة الأرض والسماء والنفوس، قريبًا ستطمس نور عبد
الله نفسه الذي لا زال على صياحه. صوت صارخ في البرية، لمعان يتيم
قبل الانطفاء المحتوم.

ـ الفزع... الفزع!

وكأنما قرض الصياح الأخير أذنيه، تحرر إسماعيل أخيرًا من
رقدته. شهق وهو يهرب من أغلال الحلم لثوان، تمسكت عيناه بوهم
النور الأخضر، قبل أن يفرض عقله الواعي سيطرته التامة على أعضائه..
فيعاوده نظره.

ضوء القمر الشاحب المتسلل من الخصاص المتهالكة، ترسب على الجدران النخرة.. رائحة الدخان لا زالت تفعم الغرفة -لحسن الحظ أو سوئه- حيث قام بإشعال بعض من الخشب نصف الجاف قبل النوم بساعات ليطرد دخانه الأسود البعوض الذي سمن وتجبر. ياسين متكور على نفسه، غارق في العرق هو الآخر، ابتل جلبابه الصغير تمامًا. ذكرى الحلم لا زالت متمسكة بشغاف قلبه، فاستعاذ بالله.

أحس أن الفجر لا زال بعيدًا، وهو لا يريد معاودة النوم الآن قام من مرقده على الأرض الصلبة، غمر الألم ظهره لثوان والدم يتدفق إلى عضلاته المتصلبة من قسوة الملاط، اعتاد هذا الوجع اليومي على أية حال. ثقل تنفسه من الدخان أو من الحلم، أغراه بتحريك الشباك البدائي الذي أهداه له رشوان منذ ثلاثة أيام. تأمل القمر الأبيض لدقيقة، مطمئنًا نفسه بأنه كان يحلم حقًا. تحرك بصره جهة السور، السور طويل يتجاوز حدود بصره من مكانه هذا.

هدأت نفسه، وعاودته الرغبة في النوم. قبل أن تمتد يده إلى الشباك مرة أخرى ليغلقه، أدرك خلو الحراسة على السور. هناك دائمًا رجلان على أقل تقدير يسيران بمحاذاة الأحجار، يجلسان سويًا حول النار إن اشتد البرد.. لا يرى أحدًا يتحرك على الإطلاق. النار نفسها خامدة تكاد أن تنطفئ.

- هل ناما وتركا حراستهما؟

سؤال حانق يعرف إجابته، ربما هذا ما يحدث كل ليلة قبيل الفجر.. الحراسة هم ثقيل، ممل مع دوام تكراره. ظل مطلًا من النافذة متوترًا، لحلمه الذي لا زال يقطن عقله. هذه أول مرة يرى عبد الله في منامه، والحلم دائمًا ما يحمل الكثير من الخفايا والعلامات. ألم

يحلم برحيل سعاد قبل أن يزورها المرض، ألا تأتيه الشجرة اليابسة منذ طفولته قبل أن تعلن له الأرض حلول الجفاف. قلبه يؤمن بأحلامه دائمًا.

أخرج رأسه، مال بجسده للأمام حتى يرى أبعد، تكافح عيناه الظلمة المتكدسة في الجانب الملثم من السور.. حيث أشار عبد الله في حلمه.

تعتاد العين الظلام مع الوقت، تميز ما بين ظلمة وأخرى. البناء السميك الذي تجسد بفضل شقاء وعرق الكثيرين، يمتد ساكنًا مصمتًا، يغطيه الليل والقمر الضعيف بنصف سواد.. بينما ظلال أكثر دكنة تتراقص فوقه.. لا، لا تتراقص بل تنزلق منسلة..

ـ الفزع... الفزع!

صرخ قلبه قبل أن يستوعب عقله. لقد أتوا، والغفلة سائدة تحوط الناس. تشنجت أصابعه الممسكة بالإفريز الخشن حتى أن ذرات الأسمنت المفري انهارت تحت وطأتها.

لم يصرخ إسماعيل من قبل في حياته، أتى للدنيا صامتًا حتى ظن من حول أمه أنه ولد ميتًا، بدا لأذنيه صوته غريبًا آتيًا من خارجه. صوت يشق سماء الدنيا المعتمة، كانما يريد الوصول إلى القمر ذاته، صوت يحمل الخشية والخوف والقلق الذين طال كبتهم:

ـ الفئران.. الفئران، لقد وصلوا.

منصور

1

مشى مترنحًا، ساقاه ثقيلتان بتأثير دخان المحراش الذي أفرط استنشاقه هذه الليلة.. أعطى ظهره للمدينة الصاخبة وسط ليل حراء. اختار حجرًا رمليًا ليفتته ببوله الساخن، ابتسم كطفل صغير إن انتهى. الحمحمات حوله كهمسات سرية للرمال، الحمحمات تخيف خليل وعمران حتى الموت، فتجعل ليالي المحراش ممتعة كل خاص. تمطى وهو يشعر بأنه سيد العالم دون منازع. يومًا بعد الآخر يثبت فحولته وجرأته.. ذهب إلى حيث لم يذهب أحد من قبل. طرته تخطت أكثر الخيالات جموحًا، صنع أخيرًا أسطورته الخاصة، التي تفوقت على ذكرى سعيد الفأر نفسه.

عاد بنفس البطء -وإن كان بمثانة فارغة هذه المرة- إلى الحجرة الوحيدة الواقفة وسط فضاء الصحراء، متباعدة عن المدينة المتلألئة والتي تنعكس الأضواء البرتقالية بها على سطح الهوكت الرابضة على المقربة.. هسيس قريب من موضع قدميه يتعالى، رد عليه بنخرة عالية.. وقف الهسيس على الفور. هو الوحيد الذي يعلم المواطن الخفية، هو صاحب الصوت الوحيد المسيطر الذي يطيعه المختفون. شعر بالرضا حينما خرس الهسيس، فلم يعد يسمع حتى اللهاث المكتوم. سيأمر من غده بكميات أكبر من اللحوم، ربما يأتيهم براحد أو أكثر من المغضوب عليهم، هو لا يريد لهم أن ينسوا مذاق اللحم البشري.

اللهب الأحمر يتبدى من داخل الحجرة، الدخان يتجمع ببطء حول الباب المفتوح، يتردد في الخروج إلى السماء الواسعة.. دخل فتراجع خليل وعمران في جلستهما حتى لاصقا الجدار، مفسحين له مكانه الطبيعي حول النار التي تشوي عيدان المحراش الذهبية، وتفهم كيزانها الممتلئة.. نظراتهما عادت كما كانت قديمًا، نظرات كلبين طائعين، أفعاله العظيمة أعادت طوقي الرهبة إلى عنقيهما مرة أخرى، عيونهما تتجنبه وتخشاه.. أطال الصمت فترة مستمتعًا قبل أن يقول:

- عاد المستطلعون من الشمال اليوم.

أومأ الثنائي موافقيْن. رأيا العربات المغبرة في الورش وهما في طريقهما إلى حجرة منصور المنفردة..

- الإشاعات كانت صحيحة، المدجنون يتقاتلون في الشمال.

اتسعت العيون الأربعة في عدم تصديق. لم يشكا لحظة واحدة في كذب الكلمات الآتية من خلف التلال. آمنًا -وإن لم يبوحا- بعدم جدوى إرسال الكشافة إلى الشمال.

- الهوكت تسحق بعضها.. الصواريخ الساقطة من السماء تفري اللحوم والرمال، يقولون أن الجثث تستلقي على طول شاطئ البحر حتى أن الضباع والنسور لم يعد بمقدورها أكل المزيد.

- ولكن.. ولكن هذا لا يعقل، لم نر أبدًا مدجنًا يقاتل آخر.

قال خليل الأكثر تسرعًا، بينما تمهل عمران ليسمع كلمات سيد الصحراء.

- أحمق..لا أحد يمتلك سلاحًا ولا تنبت له شهوة القتل، القوي لا يرغب سوى في أن يصبح الأقوى.

خرس خليل وقلبه لا يزال غير مقتنع. لا بد وأن الرجال عادوا بما يريد أن يسمعه منصور، لا أحد يجرؤ أن يخبره عكس ما يريد.. بقايا الأحذية والملابس الممزقة الطافحة بالدماء حول الحجرة تذكرة لمن ينسى.

- أنت على صواب يا سيد الصحراء.

التفت خليل خلسة حانقًا إلى عمران الذي تمتم بكلماته ببطء. اهتز ركن فم عمران في شبح ابتسامة خبيثة وهو يرى حنق خليل المكبوت.

- بالطبع أنا مصيب.. لهذا سنرحل غدًا.

تبادل خليل وعمران نظرات قلقة..

- إلى أين يا سيد الفئران؟

ابتسم منصور ابتسامة واسعة غير معتادة منه، فظهرت هذه المرة أسنانه النخرة واضحة منفرة..

- إلى حيث يقتتلون. هناك عمل لنا هناك، إن استطعنا إتمامه بدقة ستتغير موازين العالم.

العيون الضيقة منتبهة غير فاهمة، لكن صمت منصور أعلن أنه لن يبوح بمزيد.

- بعد الغروب سنتحرك، أريد نصف الرجال على الأقل متأهبين... جهزا عربات الجر.

- سنفعل.

أشار بيده ناحية الباب غير الموجود في تراخ. انتصبا في سرعة، توقفا ما إن عبرا الفراغ إلى الرمال الفضية الناعسةً.. التفتا إلى منصور في خوف. مال منصور بظهره ليريحه على الجدار الداكن وهو يتأملهما

باستمتاع، ثوان مرت عليهم طويلة قبل أن ينخر هو بصوت عال. تلاق الرجلان في خطوات سريعة تشبه العدو ليغادرا محيط الحجرة.. وحين قهقه منصور حتى ارتج جسده، غمغم بصعوبة وعيناه الضيقتان تدمعان من شدة الضحك:

ـ مخنثان.

2

يخفض كل الفئران رؤوسهم إلا هو. تتعلق أذناه بصوت الصفير الحاد الصارخ الذي يتعالى باطراد قبل أن يتحول إلى انفجار عاصف يبصق الرمال والأعضاء والدماء على سماء العالم.

يراقبون منذ كان النهار حيًّا المعركة الطاحنة التي تدور خلف الكثبان المتحجرة.. لا زال رجاله يرتعدون كلما رأوا مدجنًا، حرب المدجنين الماثلة أمام أعينهم الآن هي أسوأ كوابيسهم طرًّا.... يمقت جبنهم.

هو الوحيد الذي تقدم بين فراغات في الرمال المتكلسة ليرى ينقبض وجهه بشهوة الموت والدم. الهوكت اللامعة السريعة تدور حول بعضها كذئاب فضية جائعة هائجة، دفقات الضوء الأزرق المميت تطيش حينًا وتصيب حينًا، فتخرق المعدن وتذيب من يحتمي به النسر المرسوم على السترات واحد لكن ألوانه تختلف، الأزرق ينهش الأحمر.. الأحمر يطعن الأزرق. مشاة ينحنون بثبات خلف مدافع بلا دروع، يحاولون اصطياد الذئاب السمينة الجائعة.. خلف الأفق تطلق آليات لا يراها قذائف عشوائية تهبط على الرؤوس جالبة الموت بيد مع ذلك الصفير الحاد المخيف. لم يطرف منذ أن بدأت المعركة.. رغم

أن النهار قد انقضى وسيطر الليل بظلمته على جميع الموجودات إلا أنه يرى كل شيء.. عيون الفئران أكثر حدة تحت ظل السماء السوداء.

تعلم في هذه الساعات – وهو يرى المدجنون الذين لا يتراجعون أمام هجوم الهوكت المخيف- أن هؤلاء كما أنهم لا يعرفون الخوف، لا يملكون عقلًا أيضًا. الوقوف كالصخور بينما تقترب المركبة الحديدية بأقصى سرعة لها فتحطم الأجساد على مقدمتها اللامعة أو-وهو الأسوأ- تسقطهم تحتها حيث تضغطهم نفاثاتها السفلية التي ترفعها فوق الأرض، قبل أن تذيبهم الحرارة.. جزء عظيم من مهارة القتال يأتي من الرغبة في تفادي الموت.. هذه العيون الخاوية لا تخشى الموت ولا تفهمه.

لم يترك تفصيلة في هذه المعركة الدائرة دون أن يحفظها في عقله، يحني باقي الفئران رؤوسهم، لساعات لم يجرؤ أحد منهم على مجرد النظر إلى ما يحدث. إنها حرب بين الآلهة بالنسبة لهم، يخشون الاحتراق إن رأوا.

الهوكت المعطوبة ذوات النسر الأحمر وذوات النسر الأزرق تتراجع إلى الشرق والغرب إلى حيث الظلمة مطلقة، يبتلع السواد بصره فلا يرى ما يختفي هناك مهما دقق... يوقن أنه سيجد ما أتى لأجله، سيحتاج إلى كل إرادته وسطوته ليجبر الفئران على الذهاب هناك.

يستنزفه هذا، يحنقه... ويرضيه، حين وصل إلى قمة السيادة أيقن بالضعف الخفي للفئران، كل منهم جبان وإن أظهر العكس.. لا أحد منهم يشبهه، لا أحد تحرقه الشهوة التي لا تنطفئ إلى القوة، دائمًا المزيد من القوة.. وهو يجبرهم على العودة إلى الغرب الهالك للصيد، تكاثرت الهمسات عن جنونه حتى وصلت آذانه. تركوه وحيدًا على

مشارف الأرض الملعونة ليدخلها وحيدًا بالهوكت، لم يجسر أحد على أن يخطو خطوة واحدة.. عاد في النهار التالي قابضًا على سبع من الأفاعي الصفراء البشرية، هو الذي بلا نظير. بنى حجرته الوحيدة، حفر مواضع الأفاعي بنفسه، عذبها وأجاعها لفترة من الزمن حتى أطاعته وميزت نخره ورائحته. لم يعد بحاجة إلى حراسة، ذهب قلق وقت النوم إلى الأبد. الأفاعي الصفراء التي لا يعرف مساكنها أحد أعادت الأمان الضائع منذ أن شق حلق الجد، منحت اسمه وقعًا مريعًا إضافيًا لكل من يطأ الصحراء من بحر الشمال إلى محيط الرمال في أقصى الجنوب، من الغرب الهالك حتى حلفائه الجدد شرقًا خلف القناة الضائعة.. إن نجح فيما يقدم على فعله الآن، ستنتهي صياغة أسطورته الخاصه التي ستحيا لألف عام أو يزيد، لن يعود سعيد الفأر نفسه سوى شمعة ذابلة متضائلة أمام شمس اسمه الزاهية..

القذائف تتوالى، نقطة أخرى يجب حسابها.. المدجنون يقاتلون دون تعب. لا فرق بين جحيم النهار أو برد الليل القاسي، لا يتوقفون ولا يسقطون إلا موتى. دفقة ليزر تحتك بالجانب الأيسر لهوكت فتذيبه، ترتد إلى الشرق لتصيب نتوءًا معدنيًا خفيًا مغطى بستائر قماشية تماثل لون الأرض... حتى عين منصور لم تميزه من قبل، اشتعل النتوء تمامًا. وسط صخب المعركة لم يسمع أحد شيئًا، لكن إن خدعوا عينيه فلن يخدعوا أذنيه، صراخ ضعيف يأتي من قلب النتوء الملتهب. اضطرب مدجنو الشرق ذوو النسور الرزقاء. توقف نصفهم عن القتال، تجمدوا كتماثيل حجرية تتلقى النار لتموت. النصف الآخر يطرق خوذته بجنون، يضغطها فتلتصق أكثر بأذنيه قبل أن تسحقه القذائف رائحة التوجيه الآن.

انتهت المعركة في دقائق، فور احتراق النتوء المخفي. للغرابة تراجع المنتصرون وقد أفنوا كل من أمامهم، حملوا جرحاهم، وتركوا موتاهم للعراء الواسع ليتكفل بهم. في سرعة انتهت كل الضوضاء. ذهب المنتصرون إلى الغرب، إلى عتمتهم الخاصة، بعيدًا عن عيون منصور وفئرانه الذين رفعوا رؤوسهم أخيرًا.

قفز منصور دون كلام متجهًا نحو النيران الخابية لما كان درعًا معدنيًا مقعرًا مموهًا بألوان الصحراء. نظرة واحدة على الجثمان المتفحم بداخله وفهم الأمر، بقايا الزي الأزرق المحترق أعلن له الحقيقة كاملة.. نداؤه عالي الصوت يظهر خليل وعمران.

- الجامعون عليهم تفتيش الأرض بأكملها، أريد كل البنادق، كل الخوذات والدروع حتى الملابس... الهوكت المحطمة والمحترقة تربط جميعًا بعربات الجر، أريد هذا الميدان خاليًا إلا من الجثث.

هزا رأسيهما دون نقاش، وإن التمع بعض من عدم الفهم في عيونهم التي لا زالت محتقنة من رعب الساعات الماضية..

- أنت يا عمران جهز الصيادين، سنذهب في مهمة سريعة وخطيرة للغاية..

الهياج المتألق في عيون منصور منع عمران من أن يجيبه سوى حالًا يا سيد الصحراء.

- أسرعا.

انطلق الرجلان لتنفيذ أوامر سيد الصحراء الذي يداعب لحيته المغبرة في توتر.

3

- أرى أن عددكم قد ازداد كثيرًا.

صوت المبعوث يطرق أذنيه في خبث غير مبرر، يشك منصور أن هذا الرجل يحب أن يشعره بعدم الارتياح كل مرة يأتي إليه فيها. ألقى منصور نظرة لا مبالية على مدينة الفئران التي يتحرك أمام مخارجها الجامعون وصبية المطبخ.

- الكثير من الصبية أيضًا، أرجو أن لا يكون عددهم قد
على أعداد النساء في غاراتكم.

تأمله منصور صامتًا، لم يعد بداخله ذلك الغضب القديم الذي كان يشتعل مع علانية ذكر الصبية.. هو إله هذه الأرض لا يسأل عما يفعل.

- دائمًا ما نحتاج إلى مزيد، ربما أنت تخفي البعض عن أعيننا في مكان ما.

فوجئ المبعوث برده، ابتسامة منصور الجديدة على ناظريه أشعرته هو هذه المرة بعدم الارتياح.

- ربما...

- ما هي الأوامر هذه المرة؟

اختار منصور أن يقابل المبعوث في الصحراء بمواجهة الجزء الجنوبي، بأقصى قدر مستطاع من البعد عن الجزء الشمالي، والذي يستحم منذ أول أمس بصرخات المعذبين الفاتنة..

ـ هناك عشرة مزارع على وشك الإغلاق، سأترك مع خليل توقيتات الهجوم.. اترك المهام لرجالك، البك يريد كامل انتباهك للملاجئ.

البك، رغم طول الوقت لا زال لم يعتد الكلمة.. ربما لن يعتادها أبدًا، لكن عليه ابتلاعها الآن.

ـ هل سنبدأ هجومنا الشامل على الملاجئ؟

ـ لا.. أقرب ملاجئ الشرق فقط.. يريد البك أن ترسل مجموعة استطلاع صغيرة، اختر الأضعف من بين فئرانك على الإطلاق.

ـ ماذا؟!

ـ الأضعف من بين فئرانك... هي مهمة للموت في الواقع، نريدهم أن يذهبوا هناك ليقتلوهم.

ـ لا أحد يقتل فئراني.

استطاع الغضب أن يتحرر، حمم مكبوتة في قلب بركان. قهقه المبعوث راضيًا وهو يرى منصور يعود إلى طبيعته القديمة.. رغم أن ما يفعله هو عمل محض، إلا أنه لا يستطيع أن ينكر استمتاعه بإهانة سيد الصحراء المغفل هذا.

ـ إنك تنسى سريعًا من هو السيد الحقيقي.. البك يريد أن تموت فئرانك، لذا ستموت فئرانك، إن أرادك أن ترقص عاريًا، سترقص عاريًا حتى تشوى مؤخرتك تحت الشمس.. هناك اتفاق لا بد من احترامه وإلا سنجد من يحترمه بدلًا منك، هل من الضروري أن أذكرك ما يمكن للبك فعله لك ولفئرانك؟

لم يشتهِ منصور إزهاق روح قدر اشتهائه لروح هذا المبعوث الآن
اتسعت طاقتي أنفه وهو يسحب نفسًا عميقًا ليهدأ قبل أن يرد.

ـ بالطبع.. ما يطلبه البك يكون.

ـ ما يأمر به البك... لا تعتقد أننا لا نراك، نحن نعلم ما يدور في خلواتك بين صبيتك.

ـ لا يوجد لدي شك في هذا.

هذه واحدة من اللحظات التي يتمني أن يملك فيها ذكاءً أكثر وسرعة بديهة ليطلق ردًا لاذعًا يناسب الموقف، اعتاد طوال حياته أن يكون رده بيديه لا بلسانه.. لكل شيء أوانه.

ـ كما قلت، سيذهب أضعف كشافيك، أطلقهم في وقت خطر.. بعد الغروب أو قبيل الفجر، كما تحب. كل ما عليهم فعله هو أن يتم اكتشافهم وأن يموتوا، إن لم يكن في ذلك إرهاقًا لهم.

أسنان المبعوث تعكس ضوء النهار كسيده الرخو، أسنان بيضاء كجدران مدينتهم المحروسة التي ترفعهم فوق الصحراء والناس.

ـ فهمت.. سيذهب الفئران إلى الملاجئ بعد ليلتين.

ـ و...

ـ سيموتون كما يأمر البك.

ـ إني أخالفكم الرأي أهل الصحراء، لا أراك فأرًا بقدر ما أراك كلبًا مطيعًا رائعًا يا منصور.

يد منصور اليسرى تتحسس حزامه من خلف، حيث مقبض منجله العطش إلى الدماء.

- على العكس، لو كنت كلبًا لمِتُّ من سنين، أنا فأر وسط فئران الصحراء على أعتاب مدينتكم.. أقذر من أن نؤكل، أخطر من أن ننسى.

- ياللعجب.. إنك تتحسن يا صديقي، ذخيرة البك تجعلك أكثر حذقًا مع الوقت.

- ربما.

- فقط لا تنسَ أنها ذخيرة البك.. لا تغضبه.

- لن أفعل.

- حسنا إذن.. سأعرج على خليل وعمران في المدينة لأخبرهما بمواقع المزارع والملاجئ.

- لن تحتاج للذهاب إلى المدينة... هما في انتظارك هناك.

أشار منصور بأصبعه إلى حيث وقف تابعوه تحت ظل تبة عالية.. تحرك المبعوث دون كلمة نحو الثنائي،خطواته ثقيلة، خطوات من لم يعتد السير على الرمال المخلخلة.. صاح دون أن يدير رأسه:

- سننتظر الأخبار السعيدة، سيكافئك البك قريبًا.

نظرات منصور طلقات رصاص تخترق دماغه وقذاله وظهره:

- إلى حين.

1

- العمل ثم العمل... ثم المزيد من العمل. هذه هي القاعدة الذهبية لكي تستتب الأمور.

قال الجنرال وشمس المغيب تتسلل بشكل ما من خلف الزجاج الداكن لتضفي حمرة إضافية على أوداجه المنتفخة بالدم والشحم.

- لم يدرك أحد قبلي هذه القاعدة، فعانينا كثيرًا لسنوات وسنوات... حينما تغرقهم في العمل، لا يجدون الوقت للجلوس، للنميمة، للحقد. في شرق آسيا يعملون بلا انقطاع لذا لا تراهم أبدًا يعترضون أو يتمردون... هناك رخاوة هائلة في الغرب، لهذا يواجهون تلك المشاكل في اليونان وغيرها.

يوحي وجه آدم بالتركيز في الاستماع، في الحقيقة هو يغالب نعاسه بالتفكير في الألم الذي سيعانيه مقعد الجنرال لوكان حيًّا، تحت وطأة العجيزة الهائلة..

- الأمور كانت تسير على ما يرام، الحمقى الطماعون في المدن الأخرى يخلون بالتوازن... الآن المزيد من الناس ينزحون إلى ملاجئي دون عمل.. كل هذه الأفواه.. كل هذه الأفواه، زد على ذلك أنهم يتكاثرون كالذباب على الخراء، رغم كل ما نعانيه يتضاجعون دون تفكير ليفرزوا المزيد من الأفواه.. آه يا صديقي، يمكنك فعل ما تشاء بهم.

تابع الجنرال شكواه التي لا تنتهي، وأنفاسه تتلاحق بتأثير الأزرار المغلقة للبذلة العسكرية بنية اللون الضاغطة على كرشه بقسوة.. في

ظم الأيام كان يجلس على مكتبه الضخم هذا تاركًا أزرار سترته موحة بالكامل، أراد اليوم أن يبدو عظيما أمام آدم وعرضه المغري.

ابتسم آدم بأدب وعينه تتوه وسط النياشين والشارات اللامعة بة من السترة التي تكاد أن تنفجر تحت وطأة ما تحتويه. ذكر طاووس في مراحل تطورة تعلمت جيناته مع الوقت أن الريش الملون ر الأنثى ويزيد فرصه في التزاوج، في نفس الوقت يقلل من قدرته لى التخفي أمام الأعداء الطبيعيين.. اختارت الجينات زيادة فرص تزاوج، لهذا يبدو ذكر الطاووس مبهرجًا متألقًا، لهذا يبدو الجنرال منتفخا بكل هذه الأوسمة وهو الذي لم يخض حربًا أو معركة واحدة حقيقية، فقط العديد من المكائد والانقلابات المتعددة بداية من عداء الجنرال الأعظم منذ عقود. وجنتاه منتفختان من إثر وجبة الإفطار، لغده يحتك وهو يتكلم بياقته الجديدة القاسية.. إن ظن أن دم أنثى طاووس سهلة الإغواء فهذا جيّد.. جيّد للغاية..

- هذه بداية رائعة سيدي الجنرال، هدفنا هو الوصول إلى اتفاق مشترك بأقصى قدر من المنفعة للمدينة ولهم.

- بالطبع بالطبع.

- كما أخبرت مندوبكم في بروكسل منذ شهرين، نحن نحتاج إلى مواردكم البشرية كسلع.. في المقابل سنقوم بتمويلكم بالاحتياجات الأساسية لكم والتي تعانون من نقص حاد فيها.. ربما محطة تحلية مياه جديدة، مفاعل ليثيوم صغير لمضاعفة طاقة المدينة الكهربائية، توريد الحبوب واللحوم، تزويدكم بأنواع حديثة من السلاح... هناك وقت للتفكير و..

- السلاح... ما الذي تقدمونه؟

قاطعه الجنرال متلهفًا، الصراعات الداخلية بين الجنرالات الخمسة غير معلنة بعد، الصدام على إعادة توزيع الأراضي المتاحة للزراعة في مد وجزر دائم لا ينتهي، أتى آدم في جزر الجنرال.

- هناك قوائم معدة، تدرك أننا لا يمكن أن يتم ربط اسمنا في أية صراعات مسلحة معلنة..

- طبعًا.. طبعًا.

عينا آدم الواسعتان تفحصان ملامح الجنرال ببطء، مما أجبر الرجل على التحدث بصراحة أكبر:

- منذ ذهاب الجنرال الأعظم، والأرض القابلة للزراعة مقسمة بالتساوي بين المدن... البعض يحصل منذ عامين على عقود جديدة من شركات روسية للزراعة، وضع يد تدريجي يقع على مساحتنا من الأراضي.. انقلاب في موازين القوى يصنعه الروس الجشعون، زِد أن العديد من الأيدي العاملة كبيرة السن من تلك المدن يتم طردها لتتدفق على ملاجئنا الفقيرة، أكثر بمراحل من طاقتنا الاستيعابية.. لا يكتفون بسرقتي بل يلقون بقمامتهم في مكبي.

أعجبته جملة الجنرال، التشييء حيلة قديمة أثبتت دومًا نجاحها، للغة تأثير عظيم على العقل، ببعض التغييرات في اللفظ يتقبل الناس ما قد يرفضونه بالمسمى القديم، هكذا أطلق على العاهرات عاملات الجنس، على الأعضاء البشرية السلع البيولوجية، يعطي الاسم الجديد شعورًا بالحياد فيتحول كل شيء إلى تبادل تجاري، أرقام متتالية، رسم بياني صاعد أو هابط، ترتاح النفوس العنيدة... وتقبل.

- ونحن هنا للعناية بقمامتكم فخامة الجنرال.

يدعو عرض آدم للثقة، مزحته تنبئ برغبته في الاتفاق الآن
جنرال مخادع عتيد، يحمل دائمًا العديد من الهواجس بداخله،
رغم احتياجه الهائل إلى ذلك الاتفاق التجاري، إلا أن هناك قدرًا من
عدم اليقين بداخله. سنوات عمره -كأي عسكري- بنيت كلها على
التوجس من الأجانب.

- تعازي المخلصة لرحيل الوالد.. تعازي متأخرة، لكني لم أعلم كيف أبعث بها.

الطرق على ذكرى أبيه الميت. ابتسم آدم وهو يرى أن الجنرال يحاول إيجاد صلة بينهما.

- شكرًا لك.. لم نُقِمْ مراسم جنائزية كبيرة، تلك كانت وصيته.

- بالطبع بالطبع.. رحمه الله كان رجلًا عظيمًا خدم وطنه لعقود.

تتداعى لعقل آدم صور الجرائد القديمة وفيديوهات الإنترنت لوالده ضمن حاشية الجنرال الأعظم وهم يهربون، وطلقات الرصاص تلاحقهم أثناء الانقلاب. اضطر والده الذي كان رجلًا عظيمًا كما يسمع الآن إلى أن يترك أمواله السائلة والمقتنيات الثمينة إلى ضابط صغير ليتغاضى عن هروبه، ضابط ترقى ليصبح الجنرال الجالس أمامه الآن تحديدًا. هناك صلة بالفعل بينهما، لولا فساد هذا الرجل ما كان آدم.

وجه آدم الجامد الذي لم يبد أي لطف أمام مجاملة الجنرال، أحرج الرجل، فتابع ليحافظ على استمرار فرصته في الود:

- كيف توفي رحمه الله.. هل كان مريضًا.

لا يخبر آدم أحدًا كيف توفي والده، كل ما يذكره أنه مات بسلام. لا أحد يعرف الحقيقة سوى هو وأوكسانا أمُّه.. لم يخبروا مريم قط.

الرجل أدمن الخمور فصار يشربها كالماء، في لحظة غضب زائد
قررت أوكسانا معاقبته، أخذت كل مخزونه وأغلقت حجرته القابعة
في العلية.. أوكسانا الغضوب الحمقاء. أخبره الطبيب الذي فحص
جثمان والده بأنه أصيب بالهذيان الارتعاشي delimum termens إثر
فطام الكحول المميت بعد شربه لفترات طويلة بمعدل عال. التوقف
المفاجئ يصيب الجسد بصدمة فرط الحساسية، زيادة في ضربات
القلب، الهلع من الموت الوشيك.. الهلاوس المخيفة.. أسوأ الأعراض
تحدث ليلًا، صراصير.. ثعابين تخرج من كل الأركان.. ديدان تزحف
على الجسد. الجهاز العصبي يكون في أقصى استنفار له، لذا تبدو
الهلاوس حقيقية تمامًا، يأتي الذعر والجنون الكامل. في النهاية يفشل
النظام الدوري، فتظل الهلاوس حتى الموت. مع تاريخ كتاريخ أبيه
لا يشك أن أشباح قتلى مجزرة اليونسكو، التي حاول المسن إغراقهم
تحت أمواج كحوله، قد ظهروا مع جزر بحر خموره.

«نبشوا قبورهم من داخل عقله الباطن، ليبعثوا مذبوحين
مسحوقين، غاضبين.. هرب منهم معظم عمره، لكنهم رافقوه في
نهايته... هناك عدالة شعرية لا تنسى هاهنا.» لا زال يذكر كلمات
ختام المقال.

- إنها طريقة سيئة للذهاب ولا شك، لكنني واثق أن والدك
لم يعانِ كثيرًا، الروائيون وواسعو الخيال هم من يرون أسوأ
الأشياء التي لا تخطر على بال، إدجار الآن بو مات بذات
الطريقة..

أخبره الطبيب الذي لا يعرف الميت وهو يحاول مواساته، نظرة رعب في العيون الجامدة تركته لا يستطيع أن يقرر من كانت هلاوسه الأخيرة أكثر فزعا.. أبوه أم آدجار الآن بو.

ـ نعم كان مريضًا، لكنه رحل في سلام.

أدرك الجنرال أخيرًا أنه يحاول المرور من حائط صخري... لا فائدة.. سيحاول مرة أخرى في المستقبل، ربما ببعض النساء، أو حتى الرجال، هؤلاء الأجانب مخنثون بالفطرة..

ـ وما الذي تحتاجه تحديدًا يا آدم بك حتى تبدأ عملك؟

بك!! الكلمة جديدة على مسامعه. سيحاول فهمها فيما بعد.

ـ في الواقع أحتاج إلى كل ما تملكونه من أماكن، ومعدات، بل وحتى المعلومات.

تراجع الجنرال في مقعده وهو يتأمل آدم الوسيم، الذي لم يرث ملامح والده. في مخيلته رسم وجه أوكسانا التي سمع بعضًا من تاريخها.

ـ كل ما نستطيع توفيره سنوفره، نحن نلتزم بوعودنا دائمًا... إن التزمت الشركة بوعودها.

ـ في التجارة سيدي الجنرال النكث بالاتفاق لا يمكن أن يلد إلا بيزنس سيئًا.. أنا لا أقوم أبدًا ببيزنس سيئ.

ـ اتفقنا إذن.

وقف آدم ليصافح الجنرال، هذه هي البداية الحقيقية لعصره القادم. إن نجح فسيملك كل ما يشتهيه، لا خيار لديه إلا أن ينجح مهما يكلف الأمر... همس لنفسه وهو يخرج من المكتب المبهرج وألوان علم المدينة العملاق الأزرق يحتك بسترته:

ـ لا عودة، ولا تردد بعد الآن.

2

القيء يدق باب حلقه.. لا يذكر ما أكله في الظهيرة، انقباضات معدته تنذره بأنه على وشك أن يرى بعينيه.

كف عن مقاومة مارتن القوي، حاصل معادلة الصراع لن يكون موجبًا أو حتى صفريًا، ألم المقاومة لن يحتمل.. رضخ. أشعل جاك أو مارك لا يستطيع التحديد جهاز العرض. تألقت الشاشة الكبيرة أمام عينيه مباشرة فاستعبدت بصره. ديفيد يرتج في ضحكات مكتومة، لم يره آدم قط بمثل هذه البهجة المهتاجة..

ساق أنثوية بيضاء ترتسم على الشاشة.. الشاشة ضخمة بعرض جدار القاعة المدرسية، فتمددت الساق عملاقة عارية صادمة.. مارتن الغبي لا يعطي أي مساحة للحركة، يحتاج آدم أن يرجع رأسه للخلف قليلًا إن أرادوا له أن يرى الصورة كاملة.. لا أحد يغطي أذنيه، يسمع لهاثًا ذكوريًا متلاحقًا.. يسمع غنجًا أنثويًا متصنعًا.. يوجد شيء مألوف للغاية في هذه الأصوات لا يستطيع تحديده بعد. ديفيد يكاد أن يهوي أرضًا من فرط الإثارة.. الكرسي ساخن يلتصق بظهره الغارق في العرق من الغريب أن تعرق في ديسمبر البارد.. فهم جسده قبل عقله بوقت طويل. صوت لقبلات ما، ربما خمشات لا يدري.

- ارفع رأسه قليلًا مارتن.

قالها جاك أو مارك، لا يعرف أجسادهما تتداخل وتنفصل كل ثانية..

- لا فارق أليس كذلك؟

يهمس رأس أبيه بعينيه الثملتين وهو ينزلق حرًا على الأرضية [illegible]معة.. الكلابة السمينة القوية تجبر فقرات رقبته على التراجع [illegible]ف. سينما المدرسة بوابة هروبه من العالم تتألق. رجل وامرأة [illegible]يان في فراش أشعث، بينما تتجمع الأغطية متجعدة لتتدلى على [illegible]انب ولا تلمس الأرض.

ـ إضاءة سيئة وزاوية تصوير خرقاء.

كان ليصرخ بها لمانيير جورج وهو يسأل الطلبة عن رأيهم بعد [illegible]لم. صلعة دائرية وجسد نحيف مشعر للرجل، بشرة بيضاء ونمش [illegible]ي وشعر أحمر للمرأة.... شعر أحمر للمرأة... شعر أحمر للمرأة..

ـ أغمض عينيك كي لا ترى.

يقول لنفسه. تخرج رأس أبيه من أسفل الشاشة، يقهقه:

ـ حتى لو أغمضت عينيك حتمًا سترى.

لم يعد مارتن إنسانًا، يداه أخطبوطية خضراء لزجة تلتف حول [illegible]ـه بأكمله.. ترفعه من مكانه لتدخله إلى قلب الشاشة الذي يترقرق [illegible]طح الماء. شعر أمه الأحمر المنسدل على وجهها لا يمنعها من رؤيته [illegible]وبيخه.

ـ اخرج.. أنا أعمل الآن تصرخ فيه.

ـ ألم تتعلم أية آداب أيُها الفتى الصغير. يمتعض مدير المدرسة العاري بجسده ناتئ العظام القبيح. رأس أبيه، صغيرة صغيرة، تكتم ضحكتها بصعوبه وتغمز له. مريم تشير إليه من أسفل السرير.

ـ هنا.. هنا، اختبئ معي، سيؤذوننا ما إن يروننا.

أراد بكل قلبه أن يختبئ معها، لكن الأذرع الخضراء ذات الممصات تجذبه بعيدًا، بعيدًا. تلقيه تحت أقدام مارك الراسخة..

- خمن ما وجدناه على حاسب يول العجوز، الآن الكل يعرف حقيقتك يا ابن العاهرة.. يقول مارك. ممسات مارتن تشق بطنه فتتدلى أمعاؤه. تخرج من بطنه المشقوق فراشة سوداء بشعة تتلوها أرى فأخرى... عددهن يزداد بلا نهاية..
- أووبس. يقول أبوه وهو يخترق الحائط هاربًا معطيًا له ظهره الفراشات تأكل الجدران والأرض، نقش على ظهورهن عيون حمراء جائعة للأبد.
- انظر ماذا جلبت، ألم أنبهك مرارًا ألا تترك الباب الأمامي مفتوحًا؟صرخت أمه ممتعضة من أسفل المدير، الذي استدار محنقًا ليسدل ستارًا على شاشة العرض.

الفراشات الجائعة تلتهم كل ما تراه، تتساقط الجدران.. يتهاوى العالم. تتكشف إيزابيل واقفة تغطي وجهها بيديها، يعدو ناحيتها وهو يحمل مارتن الأخطبوطي على كتفيه. لكنه يجري في مكانه.. مهما يجتهد لا يقترب.

- لا، لا أريد أن أراك. صوتها المعذب يأتيه من بعيد. سماء الدنيا رمادية مكفهرة تنبت الظلال على العالم المتداعي، الظلمة تلف إيزابيل، بينما هو يمزق عضلاته كي يقترب منها بلا جدوى. جحافل الفراش تقترب منها، فتصرخ. تلامسها فتنفجر فتاته إلى مئات الغربان السود التي تنعق طائرة في طريقها إلى البروق المتلاحقة..
- إيزابيل.. إيزابيييييييييييل.

استيقظ جاحظ العينين، الاسم محشور في حلقة يضغط على حنجرته. غرفة الفندق ساكنة سكون القبور. ومكيف الهواء يئز بلا جدوى، فجسده غارق في العرق. أمسك رأسه بكفيه، وهو يحاول السيطرة على ضربات قلبه المجنونة.. استغرق عشر دقائق كاملة حتى لملم شتات نفسه، ساعته تعلن عن الرابعة مساءً. لم يعتد نوم القيلولة، لكن الطقس الحار هنا أصابه بالوخم.

اتصل بفتحي، الذي لم يتوقع الاتصال... اخترع عملًا ما ليجلبه، لن يجلس وحيدًا هذه الليلة.. أخبره فتحي بأنه سيكون هنا في خلال ساعة.. طلبت أصابعه رقم خدمة الغرف. حينما أتاه الصوت الأنثوي من الجانب الآخر قال:

ـ أريد ثلجًا... الكثير من الثلج.

3

مطارق تدوي في رأسه، أجزاء من كابوسه المقيت تغزو وعيه، فبدا ظهوره أقل تألقًا مما كان يريد له أن يكون في ذلك الغسق. برودة مكيفات الهواء اصطناعية تقبض على روحه، يشعر جسده -بغرابة- بسخونة والتهاب الهواء في الخارج، بالشوارع التي تبدو كالجمر والتي سيضطر إلى الحركة فيها بعد حين.

فتحي مساعده الذي اختاره له الجنرال، يتحدث دون توقف ويده تتحرك على الخارطة الهولوجرامية التي يجاهد آدم ليستوعبها. النقاط الحمراء التي تمثل الغرب الهالك تذكره بالنمش الوردي الذي يجاهد كي يدفنه في قبور عقله. الكآبة تفعمه فزفر. توقف فتحي وقطع كلامه الذي بدا لآدم أنه لن يتوقف إلا بموته.

- كل شيء على ما يرام يا بك؟
بك... تحمل أيضًا تلك الكلمة في طياتها ذكرى لتاريخ والده لا يريد لها أن تعبر إلى وعيه هي الأخرى.
- نعم، كل شيء على ما يرام... أنا فقط لا أحب المقدمات الطويلة يا فتحي.
هز الرجل رأسه في انصياع. الصلع يغزو مقدمة رأسه بنجاح، رأسه الكبير غير متناسق مع جسده النحيف.. القوي رغم ذلك، أسنانه العلوية تبرز طوال الوقت فلا تحتويها شفتاه إلا بصعوبة.. من اللحظة الأولى عرف آدم أنه ذلق اللسان مداهن، اختيار ذكي من الجنرال حتى الآن، وقت الاختبار الحقيقي له سيأتي وقتما يحب آدم.
- ما هي المعلومات المتاحة عن متشردي الصحراء، غير المسئولين من أية مدينة؟
- الكثير يا آدم بك، هناك أربع مجموعات رئيسة من المشردين، يمكن ببعض التجاوز أن نطلق عليهم عصابات. أبناء الحجر في أقصى الشرق خلف القناة القديمة، هم في صدام دائم مع البدو المحيطين. يسكنون كهوف الجبال العصية على الاكتشاف. يعتمد عيشهم في الأساس على نهب البدو وزراعة الحشائش المخدرة وتهريبها إلى حدود الدول المجاورة.. قيادتهم ثلاثية، لكن لا يمكن الاعتماد عليهم كثيرًا في الوفاء باتفاقيات، فهم لا يحترمون أحدًا.
على الجانب الأقرب من القناة الميتة هناك الأسياد، أقل في القوة، اهتمامهم الأساسيّ هو الإغارة على تجمعات الصيد التي تتكون على صفاف البحر الجنوبي من بعض المهاجرين والمغامرين. يبيعون

ونهم في بعض الأحيان إلى البدو، فيعبرون إلى الناحية الأخرى من القناة، ليدخلوا في معارك مميتة مع أبناء الحجر، أو يتجهون غربًا ليصطدموا بالفئران. الفئران متوسطو القوة، لكنهم في حلف دائم مع كل أهل الصحراء المحيطين بهم لذا فهم أكثر رسوخًا. رزقهم الأساسي يأتي من مهاجمة الملاجئ التي يتم إخلاؤها. يتميزون عن المجموعتين الأوليين بقربهم من المدن الخمسة.. الجن على النقيض.. يقطنون الجنوب البعيد، صراعاتهم وهجومهم ينصب في الغالب على دول حدودنا الجنوبية.. توجد العديد من الجماعات الأقل عددًا وتنظيمًا، والتي تغير تحالفتها وأماكنها تبعًا لدورات الجفاف، ولكنني أعتقد أنك لا تريد هؤلاء.. أليس كذلك آدم بك؟

عينا فتحي واسعتان، جاحظتان قليلًا تشعان ذكاءً، ربما بعض المكر. أحسَّ آدم بالرضا وهو يتأمله، لقد أحسن الجنرال الاختيار الأول.

- أنت على صواب.. إذا كانت الفئران هي الأقرب فلنبحث قدراتهم أولًا.لماذا يسمونهم الفئران؟
- هم يسمون أنفسهم.
- طوطمية؟
- ماذا؟!
- لا عليك.. لم يسمون أنفسهم الفئران؟
- هم ينسبون أنفسهم إلى جدٍّ أسطوري مميز، سعيد الفار الناجي من حادثة المفاعل المؤسفة التي أعقبت الحرب الثانية..
- والقيادة؟
- قيادتهم وراثية، من أب لابن من نسل سعيد الفار المختلق.

- من يقودهم الآن؟
- ظاهريًا زهران الفأر العجوز.. لكن من يدير الأمور فعليًا هو ابنه زيدان. أيام قلائل ويتولى السلطة كاملة، كان هناك صراع على القيادة انتصر فيه ونفي ابن أخيه مع بعض أتباعه جماعة جديدة من التائهين ستلتهمهم الصحراء على الأرجح.
- زيدان هذا... هل يملك الطموح والشجاعة؟هل يملك الرغبة؟هذه أسئلة مهمة للغاية بالنسبة لي.
- هوخبيث كالأفعى، لكنه لايملك القوة الكافية، المكتب يعتقد أن قيادته ستكون النهاية للجماعة بأكملها.
- هل تملكون تعاملًا مباشرًا معه؟!
- بالطبع، نحن نمتلك تعاملًا مباشرًا مع كل الجماعات، نحتاجهم أحيانًا لتصدير القلاقل للمدن الأخرى، أو لإحباط مخطط المدن الأخرى لتصدير القلاقل لنا. أنا أعرف زيدان الفار شخصيًا، لهذا لا أعتقد أن الفئران هم الخيار الأمثل.
- ولا أي من الجماعات الأخرى.. استقرار نظامهم الطويل سيجعلهم أقل رغبة في المخاطرة وتنفيذ ما نريده.

ضيق فتحي عينيه في تفكير. حينما اختاره الجنرال لمساعدة الغريب، كانت فرصة لا تعوض للترقي في نظام مغلق يسحق طموحاته، ربما هناك أيضًا فرصة للتعلم من هذا الغريب.

- نحن بحاجة إلى قائد مغامر، شهواني بطموح بلا حدود وحقد عارم. ما الذي تعرفه عن ابن الأخ المنفي هذا؟
- منصور.. هممم، هو قاس متوحش، لكنه أهوج ومندفع. لديه ضعف شديد تجاه الصبية الصغار... أحمق، حينما تملكته

شهوته تعدى على الحلف القديم بين البدو والفئران فكانت نهايته.

ابتسم آدم وهو يقول:

ـ حقًا!

ـ الحلف شديد الأهمية للفئران، هو وسيلتهم للثبات أمام هجوم الأعداء كالأسياد أو الجماعات الأصغر. الفئران يسكنون مدينة قديمة، هي مركزهم الثابت، تجعلهم غير مجبرين على الحركة الدائمة بكليتهم أو الاختباء في كهوف سرية كالآخرين، هذا بفضل الحلف، الفتى شديد الحمق.. خاطر بتحطيم كل هذا في سبيل شهوته.

ـ كيف يحصل المشردون على سلاحهم... ووسائل مواصلاتهم؟

ـ هم شديدو البدائية، سلاحهم لا زال يعتمد على الذخيرة القديمة، لا يملكون بنادق ليزر.. المخازن القديمة مهجورة منسية في كل مكان، المدن تمتلك خرائط تفصيلية بأماكنها. حينما نريد مكافئة بعضهم، نطلعهم على مكان مخزن ذخيرة أو أكثر. هم يصنعون نصف أسلحتهم على الأقل، بالطبع كفاءته شديدة التدني. هذا توازن ممتاز حتى لا يستطيعوا الثبات أمام المدجنين في أية مواجهة.. وسائل النقل بدائية أيضًا، لا زالت تعتمد على البنزين. وهو ما نمتلك منه الكثير أيضًا، اكتشاف تحرير الليثيوم جعل ما خزنه القادة السابقون بلا فائدة على الإطلاق.

ـ سيف المدن على رؤوسهم حرفيًا إذن.

- بالضبط يا بك، هذه هي الوسيلة المثلى لاحتوائهم.

- عظيم.

أخذ فتحي نفسًا عميقًا، بدا أنه سيعود إلى خطبته التي تمرن عليها مرارًا ليشرح للغريب كيف يختار من بين العصابات ولماذا:

- أبناء الحجر هم الاختيار الأمثل، علينا فقط نقلهم من أماكنهم إلى... على الأرجح إلى حيث يسكن الفئران الآن ثلاثة بطون بثلاثة قادة، سأقابلهم و...

هز آدم رأسه معترضًا، فسكت فتحي على الفور.

- لا... هذا المنفي، ما اسمه؟

- منصور!!

- هذا رجلنا.

حدق فتحي في آدم الذي يتابع الخارطة الهولجرامية بتمعن، وجهه يشي بعدم الفهم.

- لكن.. كيف؟

أسكته آدم بحركة من يده في نفاد صبر. هناك الكثير يدور في رأسه، لا يحتمل شرح ما يفكر فيه، ولا يحتمل أن يخالفه أحد.

- أنت هنا لتنفيذ رغباتي لا مناقشتها،أليس كذلك؟

- بالطبع..ب الطبع.

- جيّد... أريد مقابلة سريعة وسرية مع منصور هذا.

- لا داعي لمقابلته بنفسك يمكنني أن أنقل...

نظرة آدم غير صبورة، قاطعة..

- سأذهب شخصيًا لأجد منصور وتحديد مقابلة لك.

- أريد أيضًا كم الذخيرة والوقود التي يمكننا منحها له.
- غدًا سيدي ستكون الأرقام أمامك.
- هذا أفضل كثيرًا، أرى أن تعاونُنا سيكون مثمرًا. هل تم تحديد مقر الشركة بعد؟
- غدًا أيضًا يا سيدي سأريك ثلاثة أماكن اختارها الجنرال بنفسه لتختار من بينها.
حسنٌ، إلى غدٍ إذن.
- إلى غد.

4

وقف لدقائق يتامل اللوحة المضيئة التي انتهوا من تركيبها أخيرًا. كل شيء في هذه المدينة بطيء كسول لا يأتي في موعده أبدًا. طقوس الشرق منذ بدء الخليقة ربما. يحاول إقناع نفسه بأن هذا هو ما يشعره بعدم الارتياح الذي صار يلازمه، نفاد صبر لا يعرف سببه.. ولا يريد أن يعرف.

الأنوار الحمراء والزرقاء التي تتماوج وتندمج لتخطفَ البصر وتذهل العقل، واجهة بريئة للمبنى الزجاجي ذي الثلاثة طوابق الذي يبدو كالقزم بجوار المباني العملاقة بجواره، أنوار -اختارها بنفسه- تنسي من يراها ما حوله. كان يتوقع أن يشعر بالرضا، لكن لحظة في ذلك التماوج البصري حيث يغفو الأزرق ويبقى الأحمر مسيطرًا كاسحًا آلمت روحه. الشمس في طريقها إلى السبات، والجو لا زال خانقًا قابضًا على الحلق. تأفف وهو يدرك أن عليه إعادة تذكير إدارة الفندق بكميات الثلج الكبيرة لحمامه الليلي.

يقف فتحي بجوار شجرة قصيرة كثيرة الفروع. وريقات الشج هنا خضارها باهت، لا كأشجار الشمال الوارفة عميقة الاخضرار مغالبًا طوق الحرارة الذي يقبض عليه تحرك نحو فتحي الذي تعلم أخيرًا أن لا يتحدث إلا حينما يطلب منه آدم الحديث.

- لا بأس، لقد قمت بعمل جيّد.

ظهرت الأسنان التي قيدتها الشفة العلوية بصعوبة لوقت ليس بالقليل.

- أنا في خدمتك آدم بك.

- وماذا عن الداخل؟

- كل شيء في محله، كل الأثاث الذي طلبت.. المعدات الطبية في الملحق المغلق في انتظار وصول الأطباء.

- سيكونون هنا بعد غد.

- رائع.. أركان الجنرال أوصوا بسكرتيرة لائقة، ومدير للمكان

هز آدم رأسه. الجنرال يريد حتى الفتات، أخبروه بأن هناك قانونًا عتيقًا ما يحتم على أي استثمار أجنبي الاستعانة بعمالة من المدينة، تحتم عليه توظيف فتاة ما لا فائدة لها تلتهم المدينة معظم راتبها الذي سيكون باليورو، بالإضافة إلى مدير صوري لا يتوجب حتى حضوره بصفة دائمة،علم آدم من فتحي أن المدير هو قريب رخو للجنرال المسن.

- هذا تكرم من الجنرال.

قال له فتحي وعيناه تضيقان ليميز انفعالات آدم.

- بالتأكيد. ابتسم آدم وهو يفهم المغزى، ربما أكثر من الجميع يعرف الطمع جيّدًا.

توجد لوحة من الرخام المصقول اللامع نقش عليها اسم الجنرال لافتتاحه المكان. طقوس متوارثة، لا يظن حتى من أمروا بنقش الرخام يعرفون سببها. كان ليعترض فيما سبق، يوم تلو الآخر هنا وإرادته في إقرار كل شيء حسب ما يشتهي تتضائل وتنكمش.

ـ الحر... هذا الجو الصحراوي يميت كل رغبة.. قال لنفسه.

ما إن وطأ المبنى حتى غمره الطنين المكتوم، هدير مكيفات الهواء التي لم يعتدها بعد.ا لأرض مكسوة بسيراميك نظيف، كشافات ضوء صغيرة متعددة، مدفونة في الجدران شاهقة البياض. مكتب زجاجي وحيد متوسط الحجم تجلس عليه فتاة في أوائل العشرينيات، هبت واقفة ما إن دخل. تأملها ببطء، شعرها بني كثيف غير ناعم، يلتوى في خصل مثيرة، وجهها دائري تكسوه حمرة الرهبة، عينان عربيتان واسعتان لمح الذكاء داخلهما، تحت ستار الرهبة تتفحصانه كما يتفحصهما، أنف صغير جميل وشفتان مكتنزتان، جسدها متناسق، يعرف من خبراته المتراكمة أنه شديد الجمال رغم ما يغطيه من قميص وردي وتنورة رصاصية فاتحة.. ترتدي ربطة عنق أنثوية تنام فوق قميصها، فتبرز بانحنائها مدى تكور نهديها العامرين.

تساءل لوهلة 'ن كان أركان الجنرال هم من أعطوها ما ترتديه أيضًا على أن يخصموا ثمنه من راتبها القادم. أبهجه وجلها وهي ترمقه بعينيها العسليتين القادرتين على ابتلاع العالم. رضي عن اختيار الجنرال، تقدم إليها بابتسامة ساحرة، مد يدًا ليصافحها فلامس بشرتها السمراء الناعمة..

ـ كيف حالك؟

ـ على أفضل ما يرام.

ـ ما هو اسمك؟

ـ هاجر.

هاجر.. اسم خارج لتوه من طيات صفحات مغبرة لكتاب قديم منسي.

ـ أدعى ادم.

ـ أعرف يا سيدي.

أرضاه إنها لم تناديه بالبك ككل من يقابلهم هنا. ازدادت ابتسامة الساحرة اتساعًا وهو يشير إليها بالجلوس، جلست بعد ثانية من تردد رشيقة هي كعصفور صغير. كانت أمه لتقتل كي تضم غضة مثلها إلى مجموعتها الساهرة.. لم يتح الوقت لأفكاره كي تكتمل. ظهر نازلًا من الأدوار العليا رجل في أواخر الثلاثينيات، ضخم الجثة طويل القامة تتهدج أنفاسه خفية دالة على كسل مزمن. لم تستطع البذلة ذات السترة الواسعة مداراة بطنه العظيم الذي يتدلى مخفيًا حزامه.

ـ مرحبًا آدم بك.

ـ مرحبًا.

ـ سعيد الدجوي، المدير الذي اختارته المدينة..

ابتسم آدم بركن فمه، يخفي الرجل توترًا كامنًا باستعراض صغير لمنصبه الموكل له من الجنرال.

ـ بالطبع.

تركه آدم يبتسم ببلاهة، بينما يجول هو ليتفحص الأركان. يريد كل شيء معدني محايد. يتخيل أصحاب السلع بدائيين، كالأمريكيين الأصليين المتوحشين، لذا يجب على العالم الذي سيرونه قبل التبرع أن يكون مبهرًا قاهرًا، ليئد شكوك اللحظة الأخيرة التي تواجه الجميع

ـ أترغب في مشاهدة الملحق الطبي؟

سأله فتحي الذي يربكه الوقوف ساكنًا دون معرفة ما يجب عليه عمله. أومأ آدم براسه إيجابًا. وهو يتحرك لم يفته أن يرى قريب الجنرال وهو يتحدث بصوت خفيض وابتسامة مشتهية إلى هاجر التي تطرق وعلى وجهها تعبير مهذب، راهن أنه لا علاقة له بما تسمعه الآن.

5

أطفأ كل الأنوار، حتى الأباجورة الصغيرة جوار فراشه الذي تمدد عليه شبه عار. شعر ببعض الراحة الآن، وكأن حتى الملابس الخفيفة ضغطها لا يحتمل بالنسبة له.

يبدو العمل واعدًا، خطته تمشي بأحسن وأسرع مما توقع. البدايات الجيدة تفضي في الغالب إلى نهايات جيدة.. ربما حتى إلى نهايات رائعة... الطموح الذي رآه في أعين منصور هذا جامح مجنون. يتقلب على الفراش عديد المرات، النعاس عبد آبق يهرب دون أن يتمهل. الغريب أن يومه كان طويلًا، الهوفركرافت التي ارتحل فيها قديمة من الطرازات الأولى التي لم يعد أحد يتذكرها. ظل يتثاءب في طريق العودة حتى كاد يفصل فكيه عن بعضهما. فكيف لا ينام الآن؟

ألقى باللوم على الحر، والشمس، والغبار، وصورة الجنرال الموجودة في كل ركن. يعلم داخله أن كل ذلك غير حقيقي، مبررات وهمية.. سلات فارغة يلقي فيها أكياس قلقه الحقيقي. هل يفتقد منزله في بروكسل؟لا يعتقد. لا يتذكر أوروبا كثيرًا وسط يومه المشحون. لم لا يشعر بالراحة هنا إذن؟

في البدء ظن أنه سيجد جذوره الحقيقية هنا، الابن الضال الذي عاد. راحة خفية ستنسكب على روحه المرهقة دومًا. الوطن... كمئات الأفلام التي يذكرها، حيث العائدين بعد عمرمن الشتات، لمعة في العين، دمعة متحجرة في المقلتين، والراحة.. الراحة التي ترتسم على وجوه الممثلين وهم يواجهون الكاميرا كأنها أرض الميعاد. لا شيء من هذا حقيقي، سيظل يحيا يومًا بعد الآخر لتحطم الحياة كل خيالات آدم الطفل.. آدم الأحمق الذي كان.

ضغط جفنيه في تعب. الظلمة مطلقة، لكن خياله المشتعل يبددها. تدور في رأسه وجوه مارجريت وأوكسانا وإيزابيل ومريم. لا يوجد وجه يتذكره يبعث على الراحة.. تتفتت الوجوه، تلتهم سماء خياله العينين الضيقتين المشتعلتين. نفور لا يوصف تشعه عينا شيطان الصحراء ذاك. تلوكه النظرة الأخيرة له قبل الافتراق في الفجر البارد. رأى رغم ضيق العينان فزع ما هو قادم.

أضاء الأباجورة عسى أن يتشبث بضوئها البرتقالي الخافت ليخرج من مغاور أفكاره السوداء. أخذ نفسًا عميقًا من الهواء الذي لا زالت أنفه مصرة أنه يحمل الرائحة التي لا تطاق للغبار رغم إغلاقه كل المنافذ في غرفته. أمسك بحاسوبه الصغير، الشاشة الزرقاء متسائلة، لا يعلم ما سيفعله. لمعت مارجريت في عقله مرة أخرى، قد يستفيد من الحديث مع إنسان آخر. لم تحاول الاتصال به على الإطلاق منذ أن سافر، عكس ما كان يتوقعه، هل يتصل بها؟للغرابة استغرق بعض الوقت حتى يرفض. في أيامه السابقة لم يكن حتى ليفكر في فعل كهذا.

ـ اللعنة..

تمتمت شفتاه دون أن يدري، في النهاية قرر معرفة أخبار العالم خارج هذه المدينة المغبرة..

- تهديدات روسية بمقاطعة البضائع الأمريكية..

صرح روبنسييف وزير التجارة للاتحاد الروسي بأن عمالة أمريكا اللاتينية المجانية رخيصة بشكل يشكل تهديد لقواعد المنافسة التجارية العادلة، مما ينذر بخطورة على الاقتصاد الاتحادي.

ابتسم آدم....

بيتر لافين رئيس المجموعة الأوروبية في تصريح لوكالة يورونيوز:

- إن التحديات الاقتصادية المترتبة على القرار الروسي المنتظر، قد تؤثر على معدل النمو الأوروبي، خاصة وأن العالم قد وصل في السنوات الخمس الأخيرة إلى توازن محسوب في العلاقات الاقتصادية بين التكتلات الثلاثة الرئيسة..
- وأعرب عن أسفه للتطورات الأخيرة في الأحداث، وأمله في تحسن العلاقات مرة أخرى وتجاوز الأزمة..

أرخى ظهره على الفراش، الراحة في الكلمات والأرقام، دائمًا ما عرف كيف يحيا بها وفيها.. ربما لهذا يشعر السادة في عشهم العظيم فوق الألب بالراحة الدائمة والطمأنينة، كلما تعاليت تحولت الحيوات والناس إلى نقاط وأرقام. لا توجد للنقاط عيون مخيفة تفترس روحك، لا تملك الارقام أنفسًا لتشعرك بالذنب. إن كان الإله وجد يومًا لم يكن ليقطن سوى السماء. السماء الزرقاء الواسعة اللامحدودة.. أغمض عينيه وهو يشعر بالنوم قريبًا للغاية منه.

6

بدت زرقة البحر باهتة عندما ضيق عينيه تحت تأثير انعكاس الوهج الأصفر على السطح المترقرق ذي الموج المتكاسل. طفرت قطرات عرق من كل مسام جسده طاردة كثير من الملح، قليل من الملل المياه بدأت تدفئ في منتصف هذا النهار، تلامس قدميه العاريتين برفق وحنو، بينما يتمدد هو على منشفة بيضاء ناصعة فوق الرمال المتماسكة، رغبة في النوم الهادئ بدأت في مداعبة عقله. أحب هذه اللحظة، حيث تشيللو البحر السرمدي يمتزج مع بيانو الريح المتوسط في سوناتا استرخاء لم يدرك مدى احتياجه له إلا الآن وسط استمتاعه أتاه صوت فتحي اللزج المتملق متسائلًا:

- هل تشعر بالراحة يا بك؟هل تحتاج أي شيء؟

للوهلة الأولى كاد أن يخبره أن جل ما يريده منه هو أن يخرس لكنه قرر التلفت دون أن يغير جلسته ويبتسم بهدوء:

- لدي كل ما أحتاجه يا فتحي.. شكرًا لك.

جرب إغلاق عينيه تمامًا هذه المرة، استجلابًا لموسيقا الطبيعة ثانية.. الضحكات الذكورية الجافة على المقربة طاردت تلك الموسيقا وكأنما تبغي إبادتها. دون أن يرى كان يعرف أن هذه ضحكات قريب الجنرال وهو يمازح هاجر. جالسين على بعد متوسط ليس مخفيًا عن العيون، وفي نفس الوقت لا يمكن سماع الهمسات الشبقة اللاهثة التي لا تنتهي للرجل.

لم يكن هناك شيء بيده ليخرسه هو الآخر، الشاطئ بأكمله ملك خاص للجنرال. يتعرى فيه جسده البدين تحت أعين الصباح المتقززة ولا ريب. آدم ضيف هنا لا أكثر، الدجوي الشاب هو صاحب المكان حتى وإن كان نظريًا يعمل لدى آدم.

وكأنما يصر الكون على تذكيره، هناك صورة عملاقة للجنرال بطول مبنى كامل تحدق في الشاطئ. جبار كما يشتهي أن يرى نفسه، واقفًا ببذلة عسكرية كاملة النياشين، ووجه تم تعديله لتختفي تجاعيد الزمن وتقطيب السلطة المزمن، شارب ضخم مصبوغ حالك السواد، حاجبان حادان أبرزا عينيه العميقتين.. صقر عملاق يراقب قطرات المياه وذرات الرمال وآدم الذي لا يرتدي سوى ثياب البحر. أي راحة بال تبخرت وهو يتأمل الصورة وتتأمله. مال على فتحي بنصف رقبته:

ـ هل كان أحد أقربائك جنرالًا عظيمًا أنت الآخر؟

أربك فتحي السؤالُ، كل تركيزه كان فيما يمكن أن يطلبه آدم. التعليمات تحتم عليه أن يخدمه جيّدًا، فهم مغزى كلمة أنت الآخر، التفت لا إراديًا نحو سعيد المبتهج الذي التصقت الرمال بأسفل فخذيه المدملجين. صمت ولم يجب، الكلام عن الضباط خطر دائمًا، وهو لا يعرف هذا الأجنبي ذا الأصول المحلية بشكل كافٍ. لم يعد آدم سؤاله، ولم يشح بعيدًا أيضًا، عيونه نفاذه مغناطيسية.. قرر فتحي إمساك العصا من المنتصف:

ـ لا للأسف، لا يوجد إلا جنرال عظيم واحد.. حامي المدينة وسيدها.

ابتسم آدم بنفس هدوئه، شعر فتحي أنه يكافح قهقهة عظيمة.. أحنقه هذا، حينما أدار آدم وجهه ناحية البحر، انفتح فمه الكبير في ثرثرة مفاجئة:

ـ أنا ابن لمدجن.

ـ وهل يتزوج المدجنون؟

- بالطبع، المدجنون يخدمون حتى سن الأربعين.. إن ظلوا أحياءً إلى هذا العمر بالطبع. بعد ذلك يتم تسريحهم وتزويجهم من العاملات والخادمات اللواتي تجاوزن الثلاثين. الأحياء الخلفية في المدينة مخصصة لهم، في العادة لا يفضي هذا الزواج إلى أبناء، لكنني أحد المعجزات فيما يبدو.

تجاهل آدم الابتسامة الواسعة التي فضحت تحت هذا الضوء الساطع تقوس الأسنان وعدم تناسقها:

- لماذا لا يفضي الزواج إلى أبناء؟

- المدجنون... همم يمكنك أن تقول ليسوا طبيعيين تمامًا، لا يعمرون طويلًا بعد الخدمة.. أبي كان مختلفًا ربما.. لم أعرفه طويلًا، مات وأنا في الخامسة من عمري. كنت أضعف من أن يتم تدجيني. لحسن حظي رأى المشرفون فيّ بعضًا من ذكاء، قليلون هم من يحظون بالدراسة ممن ليسوا أقرباء للضباط أو الأثرياء.

عينا آدم الواسعتان خطيرتان.. تمزقان كلماته وتعيدان تركيبها، تنقب عن أسراره وسط ثرثرته. يرى انعكاسه في المقلتين السوداوين، أشعث مغبرًا، راقدًا على الأرض الرملية بينما أبناء الضباط ينهالون عليه بأحذيتهم الغالية وهم يصيحون بمرح:

- قم وارقص يا قرد.

وجهه القبيح لعنة طفولته، حتى بعد ما بلغ مبلغ الرجال، العديد من الفرص ضاعت لأن السادة لا يرتاحون إلى سحنته. عليه أن يستمر في التلوي والتحمل. أمه البدينة نصف البلهاء التي ورث دمامتها، لا تملك معينًا غيره وهو يعرف ما الذي يحدث لمن لا عائل لهم هنا

أمضى نصف حياته في مأوى الأيتام، أنهى دراسته وفعل المستحيل ليجلب أمه والتي تحطمت صحتها من مسكن العجزة إلى الأحياء الخلفية مرة أخرى. لا أحد يظل بلا عمل، لا أحد بلا فائدة.. نصف ما يحصل عليه يذهب إلى مشرفة دار الخدمات الطبية لقدامى الضباط، حتى تغمض عينيها عن عجز أمه، حتى تضع الختم الأخضر على قسيمها الشهري بكلمة «لائق للعمل»، بينما تجلس أمه طوال النهار في المراحيض المنسية دون طعام أو ماء حتى يأتي هو، ليعود بها إلى الحجرة الضيقة -كحياته- في الأحياء الخلفية..

آدم لا يكف عن الأسئلة، وهو لا يكف عن إجابتها رغم انقباض أحشائه وتحذيرها له. فمه الكبير صار له إرادته الخاصة، انكسر رتاج ما في روحه، فانسكبت حياته سائلة بين يدي آدم. آدم الذي عاد إلى إغماض عينيه ما انتهى فتحي من الكلام. ذكر الناس لأمهاتهم يضايقه مهما حاول ألا يحدث هذا. تكونت في مخيلته صورة المرأة البدينة البلهاء التي تجلس وحيدة جائعة وسط مراحيض قذرة -لم يرها خياله سوى قذرة رغم أن هذا لم يجر على لسان فتحي - لمست قلبه، فارتعد باطنه.

هرب بإقناع نفسه في الحال أن تلك الصورة مختلقة بكل تأكيد من فتحي المتملق، ربما لزيادة راتبه.. ألا يمكن أن تكون حكايته الأثيرة ينسجها أمام كل سيد جديد. الخبث الشرقي المتذلل الذي طالما قرأ عنه؟

- أريد أن أرى هذه الأحياء الخلفية..

جمود وجهه، وكلماته التي خرجت متشككة، أطلقت فيضًا من نفور داخل فتحي تجاه آدم. كفتاة كشفت عورتها أمام غريب، عرف آدم ما ليس من حق أحد معرفته.. لا يمكنه أن يمحو هذا.

ـ لا أعرف إن كان هذا مسموحًا به لك.

ـ مسموح به! هل أنا سجين؟

ـ لا.. لا، لم أقصد.. عفوك.

ـ أنت تعمل لصالحي، أليس كذلك؟

ـ بلى يا بك.

نفض آدم الرمال الملتصقة بجسده وهو ينهض برشاقة..

ـ لقد اكتفيت من الشاطئ، لنذهب الآن.

قام فتحي خلفه مرتبكًا، يغمغم موافقًا بكلمات غير مفهومة..

ـ إلى أين أنتما ذاهبان؟

سأل الدجوي الصغير، ويده مدعية البراءة تلامس بأطرافها الفستان الصيفي الأبيض لهاجر، والذي يكشف تحت ضوء الشمس عن بعض من ظلال لمنحنيات شهية تلهب العقل.

ـ سيأخذني فتحي في جولة في المدينة الحقة... الأحياء الخلفية..

عقد البدين حاجبيه مدهوشًا لوهلة، كاد أن يخبر آدم أن الأحياء الخلفية ما هي إلا مكب قمامة كبير، إلا أن فكرة خبيثة نبتت في عقله فابتسم راضيًا.

ـ هذا رائع.. اذهبا إذن واستمتعا.

لم يفهم آدم سر تغير وجهه، لكنه تحرك على أية حال. عاجله صوت هاجر المبحوح قليلًا:

ـ مستر آدم.

التفت متسائلًا، رأى في عينيها الذكيتان رجاءً.

ـ هل يمكنني الذهاب معكما؟

ـ لماذا؟!!!.. أنت تقطنين هناك بالفعل.

قال البدين وأظافره تنغرس عميقًا في لحم الشاطئ الناعم:

ـ بالطبع يمكنك أن تأتي. في الواقع أعتقد أنك يجب أن تأتي، ستكوني صحبة أكثر مرحًا من فتحي وأقل ثرثرة..

ضحكت وهي تقفز على قدميها كقطة، في عينيها تقدير لبديهة آدم جعله يبتسم، أربد وجه الدجوي. في طريقهما للسيارة كان آدم وماجر يتحدثان بحرارة، بينما يجر فتحي قدميه بتثاقل.

7

أشجار«الفيكس» القزمة الغريبة عن هذه الأرض، المجلوبة من الخارج لتجلب أناقة هندسية متوهمة في خيال مهندس ما منذ سنوات بعيدة، تتراص في خطوط متوازية على جانبي الطريق. الأشجار الأصلية لهذه البلد تشبه سكانها، ما إن تترك لها الفرصة والزمن حتى تتضخم فتفسد النظام. هكذا نبذ الجميز حتى انحسر وتلاشى داخل المدينة، ظل فقط على حدودها في معركة لانهائية مع الرياح المغبرة، بينما سيطر الفيكس بحجمه الصغير المناسب لكل نظام، وككل الغرباء لم يعط الظل الذي يعطيه في بلاده الأصلية..

الطريق أسفلتي شبه نظيف، هناك بعض المطبات الخفيفة التي أحس بها آدم ولم يشعر بها مرافقوه. تكلفة الطريق الممغنط الواحد تقترب من مائة مليون يورو.

- ربما يكون هذا مشروع آخر قادم.

فكر جزء من عقل آدم، والمزيج بين الأخضر الخاطف والرمادي المستمر يحير عينيه. كانوا يتجهون بعيدًا عن البحر، عبروا وسط المدينة الذي يتحرك فيه الضباط جيئة وذهابًا في نفاد صبر. انعطفوا قبل نهاية الطريق التي يحتلها قصر بالغ الضخامة.. لم يحتج آدم أن يسال عن صاحبه بالطبع. حواجز داخلية تواجههم وكبائن زجاجية عاكسة للضوء يجلس داخلها مدجنون.

- لا بد لكل قادم من الأحياء الخلفية لاستمارات عمل للدخول إلى المدينة..

تسمر المدجن غير فاهم وهو يحدق في السيارة.. اعتاد- في هذا الوقت من الصباح- على التدقيق في القادمين من الناحية الأخرى، لا من هذه الناحية.. أشار لهم أن قفوا، قبل أن يضغط خوذته وهو يتمتم ببعض الكلمات غير المسموعة.. ترجل فتحي من السيارة، تحدث مع المدجن لفترة، أو بالأحرى تحدث مع الصوت الذي يأتي من داخل خوذة المدجن. العيون التي لا تحمل أية مشاعر، والوجه الذي لا تملك عضلاته أي انفعال.

- لم تتقن المدينة أي شيء أكثر من صناعة المدجنين.

فكر آدم ووهج الشمس يستعلى على الأرض فيملكها. رفعت الحواجز أخيرًا. قال فتحي راغبًا في إبراز فائدته كعادته، محاولًا بشكل ما أن ينسى آدم ثرثرته الطويلة المحرجة على الشاطئ.

- هذا لا يحدث كل يوم، طلبت منه أن يتكلم مع أركان الجنرال مباشرة، قلت له نحن نمتلك تصريحًا من الدرجة

الأولى، تردد قليلًا... لا أعتقد أنه طلب مكتب الأركان فعلًا، لا يجرؤ أحد على اعتراض تصريح من الدرجة الأولى.

أعاره آدم أذنًا صماء وهو يرى الأبنية الصفراء المستنسخة تمر بجانبه واحدة تلو الأخرى. هنا اختفت الأشجار دفعة واحدة، الشرفات في المباني صغيرة للغاية لا تلقي ظلًّا، في الوقت الذي صارت الشمس فيه في وسط السماء تمامًا. الشوارع ضيقة مقفرة، كل النوافذ مغلقة.. مدينة أشباح أمام عينيه.

- أين الناس!!

- لا أحد دون عمل هنا الكل في دوامهم الآن، المحظوظون يعملون في المدينة، معظم ساكني الأحياء يعملون في المطبخ الآن، وقد ازدادت الكميات التي يجب أن يصنعوها.

أجابت هاجر هذه المرة، وأصبعها الصغير الرشيق الذي يصبغ ظفره طلاء رخيص أحمر يشير إلى مجمع كبير من الأبنية على اليسار.

- دعنا لا نقترب منه يا بك.. الرائحة قد تقتلك.

غمغم فتحي في مزيج من المرح والخبث، لم يبال به آدم. دارت السيارة في الطرقات وسط تعليقات وشرح فتحي وهاجر. الأحياء الخلفية أكبر من المدينة نفسها.. ربما هي المدينة الحقيقية..

- متى يعود الناس من دوامهم؟

- في القريب. قالت هاجر.

- على الأرجح لا بد أن نعود أدراجنا الآن، ما إن تأتي الناس حتى يصبح الزحام لا يطاق. قال فتحي.

- أريد أن أرى الناس.

وضع آدم حدًا سريعًا لأي جدال، وهو يطالع خواء الشوارع والبيوت. ابتسمت هاجر للحظة، بينما ظهر الضيق مكبوتًا على ملامح فتحي، فظهرت أسنانه الأمامية التي لا تفوت فرصة الظهور في فرح أو عبوس.

فتحي كان محقًا.. يعود الناس في وقت واحد.. لا ضجيج بشري لا شيء سوى أصوات الأقدام المتعبة تحتك بالأسفلت الساخن. ترجل آدم من السيارة وهو يراقب جمع النمل الإنساني الذي يتفرق إلى جحوره. لمح وجوهًا خلف النوافذ لم يرها وهو في السيارة..

- هؤلاء.. هناك وراء النوافذ.. لا يعملون؟

- آه.. إنهم المدجنون السابقون، هم فقط من يجلسون بلا عمل في البيوت، يستحقون الراحة بعد خدمة المدينة..

- يجلسون لأنهم بلا جدوى.

غمغمت هاجر دون أن يسمعها أحد. رأى آدم ما يكفيه، قرر العودة إلى السيارة، هاجر اقتربت منه لتحادثه. عيناها وهي تقف بجوارها تفتشان الطريق وتنقب بين القادمين. انفرجت أساريرها وصفان من الفتيات اللواتي يماثلنها سنًا يسيران على الناحية الأخرى.

نظرات العجب في عيون الفتيات المتعبات أضفى حمرة لطيفة ساحرة على وجنتي هاجر. ابتسم آدم وهو يرى الفتيات يتفحصنه، يلتهمن هاجر بعيونهن. ربت على كتفها برقة:

- لا داعي لأن تعودي معنا إلى المدينة، أنت تسكنين بالقرب من هنا، أليس كذلك؟

أشارت إلى حيث لم ينظر. ارتبكت وهي تدرك أنه لاحظ ما فعلته. شعر بالأسى من أجلها، فربت على كتفها مرة أخرى.. ببطء حتى لا تلاحظ صديقاتها.

- لتحظي بليلة سعيدة..

- شكرًا لك.

لماذا آلمه الامتنان في عينيها الواسعتين! تلك منطقة عليه ألا يدخلها، تشاغل بالنظر إلى البيوت التي تكسو جوانبها صورة الجنرال.

غادرت هاجر بخطوات متقافزة لتلحق بسرب رفيقاتها. فتحي مشغول بالحديث في هاتف السيارة.. تحركت قدما آدم ليقترب من الجنرال العملاق الذي تراقب حدقتاه الجميع. الصورة الهائلة مصنوعة من مادة بلاستيكية عصف الجو غير الملائم بأطرافها فحال لونها، وبدأت في فقدان اللاصق الخاص بها. عبث بأصابعه النظيفة في الطرف المصفر. أزاله بسهولة، ليجد أسفل منه ملصقًا آخر أكثر قدمًا.. لجنرال آخر ربما. فتحي لا زال منهمكًا في حديثه فلم يلحظ انصراف هاجر، ولا وحدة آدم.

ملصق أسفل ملصق أسفل ملصق، تاريخ يمتطي بعضه، نسي آدم العد. ظل يزيل الأطراف حتى وصل إلى الجدار الأصلي. انغرس أصبعه في شق غائر، يسير عميقًا بطول المبنى فيما يبدو، تخفيه البذلة العسكرية اللامعة والعيون الحادة النفاذة والشارب المصبوغ. صاح به فتحي الذي أنهى مكالمته ويبحث برأسه عن هاجر:

- لقد صرفتها.. عد بي إلى الفندق، أنا متعب.

1

يتزاحم الناس تحت الجثمان المعلق، حتى أن البعض يكاد أن يتشمم قدميه العاريتين. رجال رشوان يتعاملون بطيبة مع الجموع الآن الفرحة على الوجوه، على حركات الأجساد. حاول بعض الأطفال رجم الجسد الهامد، بعض الصفعات النشطة كانت كفيلة بتغيير قرارهم ياسين وسط الأطفال، بصق معهم على الميت، حكى لمن لم يعرف بعد من أطفال بطن الملاجئ العاديين القصة المتداولة عن الانتصار. أضاف بعض الشجاعة غيرِ المنطقية على نفسه وعلى إسماعيل. دسوقي نصف الأصلع يقف مرتبكًا بجوار إسماعيل الصامت، يبدل ثقله من قدم إلى قدم كأنما يتراقص، حينما انحنى أحد البائسين في نشوة غريبة ليقبل يده، منعته الصدمة من إتيان أي ردة فعل. رغم أن شفتي البائس كانتا غارقتين في اللعاب اللزج من إثر الهتاف الذي كان يصيح به منذ قليل، إلا أن شعور القبلة على اليد والانحناء أمامه لم يكن سيئًا على الإطلاق.. تغافل عن نظرة إسماعيل المعترضة وأشاح بوجهه المكتنز بعيدًا.

لا زالت الناس تتوافد حتى ضاقت المساحات وبدأ التلاحم الغضب يملأ إسماعيل والتدافع يطوله هو الآخر، يده اليسرى لا زالت على انقباضها منذ الفجر حتى بعد زوال الخطر، زواله الآني على أية حال. عيناه متسعتان على ضيقهما، يجوس بها في وجوه رجال رشوان، يتفادون نظرته هم أيضًا.

- متى يأتي رشوان؟

صوته مزقه الصخب، فمات السؤال دون إجابة.. أفلتت امرأة يد التدافع وتعلقت بساق الفأر العاري تمامًا. جسده البائس تم ...له عشرات المرات، ضلوعه تم تهشيمها ركلًا قبل أن يقرر شخص تعليقه بهذا الشكل. إما أن وزن المرأة كان هائلًا بشكل استثنائي، ...أنها تحمل حقدًا بثقل الجبل، لا يعلم إسماعيل فالأقدام تحرث ...أس وتثير الرمال فتجعل الرؤية صعبة.. ما استطاع تمييزه هو الساق ...ني للفأر وهي تنفصل عن جسده، فتسقط المرأة دون أن تتخلى عن ...اق في التراب. اندفاع الدم أنبت صياحًا جديدًا وسبابًا ولعنًا اقشعر ...ه إسماعيل. الحمقى لا يعرفون الحقيقة،لا يعرفون أي شيء.

ـ افرد سحنتك يا رجل، لقد هزمناهم.

لكزه من يعرفه بشكل سطحي في كتفه، رغب بشدة في أن يرد عليه بكل التوتر الذي لا زال يسكن جسده منذ رأى الفئران يتسلقون السور في العتمة لكنه صمت... قرر أن ينتظر رشوان.

ماد الجمع كالبحر، ثم انشق إلى نصفين ليعبر رشوان ببطء إلى ...ث الجثمان، رأى إسماعيل حسين وهو يتبعه كظله. توقف رشوان ...ت الجثمان، تأمله بعيون لم يرها إسماعيل جيّدًا. ما إن لمس الساق الباقية حتى عاود الحشد تهليله، يهمس حسين في أذنه ويصف بيديه معركة خيالية فظهر الرضا على المحيا وابتسم رشوان.

يتحرق إسماعيل للانفراد برشوان منذ أن علقوا الجسد ليخبره بما يعرف. الكذب سميك غليظ هاهنا، يضغط على روحه يكاد أن يزهقها. كل هؤلاء المخدوعين الراقصين المنتشيين لا يدركون الخطر الحقيقي. ابتسامة رشوان الراضية وسط فرحة الناس، القشة الأخيرة التي قصمت ظهر بعير التريث. هو الذي لم يعتد الاستسلام للحنق،

التوتر المستمر منذ الفجر والصخب الذي ينهش أذنيه أطلقا جمو
وقتيًا لا يمكن كبته.

اندفع وسط البشر يدفعهم بيديه وجسده وصولًا إلى الفأر الميت
حرارة الأجساد الزائدة أضفت حنقًا على الحنق. الناس في وقت الفرح
يفقدون حدة حواسهم، اضطر لإبعاد البعض بقسوة غير معتادة
العصي ذوات السنون في الأيدي المشعرة ترسم نصف دائرة وهمية
حول رشوان حتى لا يمس وسط الهرج. في تبادل سريع لنظرات غير
مريحة، تنحى الرجال حتى يعبر إسماعيل.

ـ رشوان.. رشوان.

كررها إسماعيل مرتين، بصوت عالٍ في المرة الثانية حتى يعلو
على الضجيج. ميزه رشوان ما إن وصل صوته إلى أذنيه، لا أحد غيره
يناديه باسمه مجردًا.

ـ إسماعيل كيف حالك؟

لم تكن هناك ابتسامة، ظل من امتعاض على الوجه الصخري
برز حسين من خلف جسد رشوان الذي كان يحجبه. تقدم بخطواته
السريعة نحو إسماعيل، خمن ناتج الاهتياج البادي على وجه إسماعيل
فحاول استباقه، أطلق إسماعيل لسانه ليطلق كلماته المحبوسة في
صدره:

ـ رشوان إنهم يكذبون عليك... لم يقتل أحد هذا الفأر
الدسوقي أسقط الصخرة من نافذته خوفًا وهم في طريقهم
للخروج بعدما جاسوا هنا. كل الرجال اختبأوا، كل الرجال
اختبأوا.

الوجه الجامد أوحى له أن كلماته لم تسمع، أعاد ما قاله بصوت أعلى. وصل حديثه إلى ما خلف نصف الدائرة الحامية، أنصت بعض المهللين.

ـ إسماعيل.. اهدأ، دعنا نتكلم بصوت خفيض. قال حسين وطرف عينه متعلق بالمنصتون وتابع: لا توجد أي كذبة،أنت مخطئ بكل تأكيد.

أمسك بذراعه وهو يتكلم، شعر إسماعيل بتوتر أصابعه، بلزوجتها الباعثة على القشعريرة، طريشة تحت الرمال تخفي مصيرًا أسود للغافلين.

ـ ماذا؟. لا بد له أن يعلم، أراهن أنك وراء هذا.. تكذب على رشوان، تخدع هؤلاء الحمقى، لم يحارب الفئرانَ أحدٌ. كل الرجال هربوا عدوا ما إن أنذرتهم.

غمغمة خافتة بين الحشود، يقترب الناس ليسمعوا أكثر. التضاغط يدفع رجال رشوان خطوتين إلى الخلف. في عيون حسين الناعسة شعور بالخطر.

ـ لا أحد يكذب، لا أحد يجرؤ على الكذب على سي رشوان، هناك من يقول عكس ما تدعيه، يقولون أنك ظللت تصرخ من نافذتك كامرأة، دون أن تقذف حتى بصاقًا... أتنكر؟

تلجلج إسماعيل لوهلة وهو يشعر بعيون الناس تحدق في ظهره.

ـ كنت أحمي طفلي.

شرخ في صوته، تماسك في صوت حسين:

ـ هناك مائة رجل على الأقل يكذبونك، الدسوقي قاتل الفأر نفسه سيكذبك... أحضروا الدسوقي.

انتشر الصمت كالطاعون، حتى الأطفال المبتهجة أصابهم العدوى فتاقوا برؤوسهم في قلق. خرج الدسوقي بخطوات مرتبكة من بين الجمع. تعالى صوت حسين:

- ها هو الدسوقي، إسماعيل يدعي أنك قتلت الفأر بالصدفة يقول أنك جبان مثله تجمدت في مكانك.

لم ينتبه إسماعيل إلى خبث الجملة وهو يحدق في الدسوقي الذي أبعد عينيه عن نظرات إسماعيل وأطرق.

- قل للناس الحقيقة يا دسوقي. قال إسماعيل،منتظرًا كلمات دسوقي التي ستحطم حسين.

- هذا غير صحيح.. لقد قتلت الفأر عمدًا.

- إسماعيل كاذب إذن.

كاذب!!.. اخترقته الكلمة كسهم ثلجي واستقرت في عظامه همهمات الناس وهم يكررون الكلمة وصلته، كل جماعة تنقلها إلى ما خلفها. الدماء تندفع إلى أذنيه وهو لا يفهم، عقله لا يفسر صورة العالم كما اعتاد، ترتج الرؤية في عينيه.

لم يدع حسين الفرصة تفلت، استطرد في سرعة مواجهًا الناس لا إسماعيل:

- لماذا يكذب إسماعيل.. هل لأنه كان الجبان الوحيد؟لأنه أدرك أن ما حدث منه سيعرف آجلًا أو عاجلًا؟هل هي الغيرة من دسوقي البطل وباقي الرجال الذين وقفوا وقاتلوا؟

أصوات تختار الجبن، أخرى تؤمن بالغيرة.. إسماعيل يغالب ارتجاجه من إجابة دسوقي التي لم تكن متوقعة على الإطلاق.

- أنا.. أنا قتلت فأرًا من قبل.

خرج صوته مبحوحا واهنًا.

ـ هكذا قيل.. سي رشوان صدقك، أسكنك في مواجهة السور حتى تحمي الناس مع الرجال. وها أنت ذا، ارتعدت وجبنت. أتساءل إن كنت قتلت فأرًا حقًا أم هي كانت كذبتك الأولى؟

ـ لست كاذبًا يا ابن الكلب.

بصعوبة استجمع غضبته وهو يرى العيون المحدقة والهمهمات، وهو يشتم الكره في القلوب.

ـ سي رشوان وثق بك، تسكن غرفة واسعة مع ابنك والناس تتكدس في الملاجئ فوق بعضها، تأكل وتشرب والناس تعاني، تجد ما تتغطى به في برد الليل والناس تلتحف السماء... كل هذا من أجل أن تحمي الناس.

تتسلل كلمات حسين في الآذان، فيرون حياة إسماعيل المرفهة ويرون ما يقاسونه.

ـ وقت الجد ظللت مكانك، ولا يكفيك هذا فتريد أن تصيب الكل بجبنك.. تأتي وتصرخ في حامينا وتتهم رجاله بالكذب.

ـ إنه يعمل مع الفئران.

صاح صوت مرتعش من الانفعال وسط الجموع، فأتت الصيحات موافقة من حوله.

ـ كيف تحول الأمر لمحاكمة؟

توهجت الفكرة في رأسه والأصابع تشير إليه من كل مكان. ضغط على أسنانه. تمنى لو كان طليق اللسان كحسين، هذا الثعبان يتكلم ويتكلم. التفت إسماعيل إلى رشوان، وجهه وجه صنم.. لا يتحرك.

– ... لولا سي رشوان لمتنا جوعًا أو عطشًا أو قتلنا بعضنا ق
أن تقتلنا الفئران، هل يعقل أن يكون هذا جزاؤه؟تكذ
وتكذيب رجاله!! لماذا تكذب يا إسماعيل؟

دار إسماعيل بجسده كله ناحية رشوان:

– لا تستمع له يا رشوان، أنا لا أكذبك أنا..

– اسمه سي رشوان.

عبرت الحصاة الأولى من بين رجلين في سرعة هائلة – حتى أنهما لم يروها فعليًا – لتصيب إسماعيل بين لوحي الكتف تمامًا حينما رأى الناس توجعه، بدأوا في حصبه واحدًا تلو الآخر. حصا أخرى أصابته في رأسه، ارتفعت كفه لا شعوريًا لتضغط مكان الصدمة فشعر بالدم. واحدة أخرى خبيثة أصابت جانب عينه، فأظلمت عينه اليمنى تمامًا.

– لا لا. صاح حسين.

انحنى إسماعيل على الأرض ويداه فوق رأسه، عشرات الناس يقذفونه بحقد عارم، بعضهم يقذف عذاب النوم في الخلاء، البعض يقذف عطشه الشخصي أو جوعه.

– أوقفوا الناس. أمر حسين، فاندفع رجال رشوان بعصيهم المسننة وهراواتهم يهوون على من يقابلهم فيطفئون حماسته.

تراجع رشوان ما إن بدأ الرجم حتى لا يطاله غضب طائش. يد إسماعيل اليمنى تحاول إسكات الدم بلا فائدة.. عينه اليمنى لا ترى، واليسري خالطها تراب عندما انحنى فصار كفيفًا للحظات. تحسس الأرض بيديه وهو يصرخ:

– أين ياسين؟أين ياسين؟

مال حسين على أذنه وهو يمسك بكتفيه:

- ياسين أذكى منك، هو في غرفتكما على الأرجح. اهرب إلى هناك... بسرعة وسط هذه الفوضى.

- أنا لا.. لا أرى.

- اهرب أو مت.

دفعه في ظهره إلى حيث يجب أن يتحرك، تقدم متمايلًا مادًا إلى الأمام والغبار في عينه اليسرى يشعل نارًا ويجعل الرؤية شديدة التشوش. تابعه حسين بعينيه وكرر هامسًا:

- اهرب أو مت.

2

لليوم السابع على التوالي يختارونه ضمن الذاهبين إلى تلال الحراء. يفتح فم الجوال المتهالك ليزغطه رملًا ساخنًا. ينهشه الغبار مع كل حركة، تحمر عيناه وتؤلمه، لكنه لا يتوقف. يرفع القماش الخشن على كتفه الأيمن برفق حتى لا ينزلق الجوال أو يتمزق. يسرع الخطى قدر استطاعته تحت أنظار رجال رشوان الممسكين بعصيهم. يشعر أنهم يراقبونه هو بالذات، ينتظرون خطأ منه.. أي خطأ. يحثه هذا على الإسراع، تنسل حبيبات الرمل هاربة من ثقوب غير مرئية في بدن الجوال، تسري فوق جلبابه دون أن يشعر، قبل أن تعود إلى الأرض.

في الأيام الثلاثة الأولى كانت الرائحة لا تطاق، في النهاية اعتادها كما يعتاد كل شيء. يرى وجوهًا مغبرة عائدة من حيث هو ذاهب، وجوهًا مألوفة، ووجوهًا غريبة سيعرفها بعد حين. وجه عبد الحميد بلا أذن يمنى، فقدها منذ أسبوعين في صراع على مكان للنوم،

لا زال اللحم داميًا على شكل دائرة، دائرة يلهبها قيظ النهار والعرق سيهمس له في أذنه المتبقية أن يحمل جوال الرمل فوق صدره لا على كتفه، ربما يقلل هذا من ألمه، من يدري. عليه فقط أن يتحين لحظة غفلة من رجال رشوان حتى لا يؤذوا عبد الحميد.إن رأوهما يتكلمان نال الرجل كفايته من الألم.

حتى دون الرائحة يمكن للإنسان أن يميز تلال الخراء من تراكم أعداد الذباب السمج الكبير كلما تقدم خطوة في هذا الاتجاه. يلقي زملاؤه في العادة بالرمال على أدنى مكان يصلون إليه. لا يفعل هو هذا، يتقدم محاذرًا فوق البقع السوداء ليلقي رماله على أكبرها حجمًا. كل ما يفعلونه لا جدوى منه، الغائط ينتشر حتى دخل الملاجئ نفسها، إلى الأركان المظلمة في المداخل والطرقات. من يرغب في الذهاب كل هذه المسافة في الخلاء ليريح بطنه. لا يهتم، الله يحب متقني أعمالهم مهما كانت هذه الأعمال، زرع زيتون، حفر بئر، ردم خراء... لا فارق. يتململ زملاؤه، لولا الخوف من رجال رشوان ما رفعت حبة رمل.

الهجير يمتطي الظهور فيلهبها، يبحث رجال رشوان عن الأماكن الظليلة ليتقوا بها سوط السماء. إسماعيل بعيون نصف مغمضة يواجه القيظ، هذا عقابه على ما بدر منه بعد الهجوم كما يهمس الجميع، يخشى أن هذا هو غضب من الله عليه لما راوده في عتمة الفجر الأسبوع الماضي.

حينما ينتصف النهار تمامًا سيتفرقون. سيذهب رجال رشوان إلى حيث المياه، سيذهب رفاقه إلى حيث أهلهم، سيذهب هو ليبحث عن عبد الله، فقلبه ثقيل ولا يفرج الهم سوى الكلمات الطيبة للرجل الطيب. ما إن يدخل حيز الملاجئ حتى يجد ياسين في الانتظار...

وحيدًا. منعوا أطفالهم حتى من الكلام معه. هذا أكثر ما يؤلم، أكثر من استيلائهم على أغطيته وآنيته، أكثر من طرده من الغرفه الخالية التي اعتادها. انتصب ياسين وتحرك ليحتمي به من الشمس، خطواتهما بطيئة وأقدامهما تفتش عن الظلال القليلة في الميادين، العطش قاس كما هو، لا حاجة لزيادة توحشه بالبقاء في الشمس. مهمة صعبة حيث افترش الناس الأرض، وعلقوا أغطيتهم المثقوبة فوق أحجار انتهشوها من الخرائب، ليصنعوا خيامًا خرقاء صغيرة.. مع بعض الجهد يتفادى السائران الأقدام المفرودة التي تكاد أن تتشابك. توقف ياسين مرهقًا، فحمله إسماعيل. لا يعلم من أين ظهر عبد الله، جذبه من ذراعه دون كلام إلى فرجة بين مبنيين لم يرها إسماعيل. الظل طيب، والرجل الطيب أخذ ياسين منه وأراحه حيث يأتي قليل من نسيم فغفا.

- عَطِش؟

- احفظ الشربة لياسين.

- هناك ما يكفيكما معًا.

تبسم إسماعيل لأول مرة منذ أيام طوال، فبدت شقوق طولية في وجهه المتسخ. حينما تجرع ماء عبد الله الدافئ شعر بقليل من الذنب.

- لم أعد أتوضأ... لا ماء على الإطلاق.

- وجعلنا الأرض طهورًا.

- صدق الله العظيم.

- ما الذي يوجعك يا بني؟

نظر إسماعيل إلى حيث الوهج الأصفر يمارس سطوته على كل الألوان فيبهتها.

- قلة الماء يا مولانا.

ـ أتكذب عليّ؟

الصوت هادئ رقيق، مس العتاب باطن إسماعيل الذي اضطرب، ارتبكت عيناه.

يخفي بداخله ما يخجله، في عتمة فجر سابق استيقظ قبل ميعاده من نوم خانق. لم يعتد الحجرة شديدة الازدحام والصغر بعد، ياسين يغفو مواجهًا الجدار، بينما يحرس هو بجسده ياسين من الناحية الأخرى. حائط الحجرة المواجه للميدان غير موجود، ولا نسمات آتية من الخارج. ما إن فتح عينيه حتى شعر بلدغات البق، حجب ألمها النوم إلى حين. هل كانت الأنفاس الخافتة المتلاحقة التي وصلت أذنيه هي من جعلته ينقلب على جانبه الأيسر في خفوت؟أم كان الإحساس الغريب الذي سري إلى جسده من اهتزازات الأرض؟. لا يذكر. اعتاد بصره بعد هنيهة ضوء النجوم الشحيح فالقمر محاق، ميز الأجساد المرتمية على الأرض في سكون، ظلال متكتلة كبيرة وصغيرة..

اللهاث المكتوم شد أذنيه فدقق. الرقصة الداكنة أخبرته أن رجلاً يعتلي امرأة وسط النيام الغافلين. كان من الواجب أن ينقلب على جانبه الأيمن مرة أخرى، ويغمض عينيه ويسد أذنه.. كان من الواجب، لكنه لم يفعل.

ما الذي منعه من أن يفعل، كتم أنفاسه ولم يشح بوجهه كأن الأرض نفسها تفيض بالشهوة.. من كانا؟لا يعرف ولا يريد أن يعرف. مع حركة الجسدين المحمومة رآها، مستيقظة على الناحية الأخرى من الزوجين. عيناها تحدقان مثله وأكثر، هي أيضًا رأته، في بياض عينيها نادته الفحشاء، في ضيق عينيه كاد أن يجيب... كاد أن يجيب. زحفت ناحيته ببطء كأفعى عملاقة، اقتربا حتى أوشكا. يخشى تخيل ما كان

مكن أن يحدث لولا أن أذَّن عبد الله في هذه اللحظة، قفز ملتاعًا والخجل يملأ قلبه. لم يستطع أن يخبر عبد الله، كيف يخبره أن نداء طرتها لا زال يوسوس في قلبه. حيث لا مكان آخر للنوم منذ تم طرده، أغرق إسماعيل نفسه في السعي، أهلك جسده في أعمال رجال رشوان لما بعد حدود الإرهاق، حتى ينام كالقبر عندما يعود.

ـ لا، لا أكذب.

قالها وعيناه تفتش الأرض بحثًا عن لا شيء. لم ير ابتسامة عبد الله وهو يتأمله.

ـ وقد هم بها لولا رحمة اللخ.

انتفض إسماعيل:

ـ ماذا؟

ـ نبي الله يوسف، هم بامرأة العزيز لولا رحمة الله.

أطرق ولم يرد، فيما سبق كان ليلقي بكل همومه على أسماع الرجل... هذه المرة تختلف.

الحكي يستدعي الذكرى، والذكرى طعام الأفكار المحرمة.. ستأتيه عينا سعاد حزينة غير مصدقة، لتسأل كيف نسيها بهذه السرعة، كيف هم أن يخونها. لا يعرف الإنسان نفسه حقًا إلا بالاختبار، وهو فشل في اختباره.

ـ لا تبتئس.

يلكزه عبد الله بكتفه. للقلب السليم بصيرة تفوق ما تراه العيون، تكشفه للرجل في صمته أو كلامه.

ـ سمعت بأن هناك من ذهب ثانية..

رأى عبد الله مراوغة إسماعيل فعاود الابتسام.

- من فم الحية إلى بطن الذئب.
- حسين يقول للناس أن من ذهب صار أحسن حالًا، يعيشو[ن] دون خوف.
- ربما.
- بالأمس افتقدت صبحي وعثمان، لم أرهما اليوم أيضًا. كا[نا] يتحدثان عن الذهاب.
- ربما ذهبا بالفعل.
- لم أستطع مجادلتهما، هما أيضًا رأيا ما حدث عند الهجوم.. قالا لي ما أهمية فقدان طرف أو عضو، قد نفقدها مجا[نًا] على أية حال عندما يأتون فعلًا.
- وكيف تبيع ما لا تملكه؟
- لا أعرف يا عبد الله.. لا أعرف.

تخللت يده شعره المغبر الذي استطال وتلبك، لا ماء ليغسله.

- رجال رشوان لا زالوا يراقبونني.
- وسيظلون على هذه الحال.
- هل أخطأت حينما تكلمت؟هل كان يجب أن أصمت كما صمت صبحي وعثمان؟أقسم أني لم أرد سوى حماية الناس.. لقد رأيتهم بعينيّ يا مولانا، يتسلقون السور في العتمة ويعبرون إلينا. صرخت حتى أفزعت ياسين، شاهدت رجال رشوان يهربون كالنساء دون أن يقذفوا حتى حجرًا. كل تلك الشوارب والعصي كانت رخوة بلا فائدة.. أمام سبعة فئران ناحلين. جاسوا خلف السور في طرقاتنا ليخبروها، كانوا ليعودوا دون خدش لولا توتر الدسوقي الذي أفلت الحجر

الكبير وهو يراقب مثلي من نافذته ليهشم رأس أحدهم. أين كان رشوان وحسين؟وستة فئران في الخلاء حول الجثمان، ودسوقي الذي اختفي مرعويًا مما فعله. لوأرادوا الصعود إليه وذبحه لفعلوا دون أن يرفع أحد أصبعًا لمساعدته.

يراقب عبد الله تحولات وجهه وهو يحكي القصة التي سمعها منه عشرات المرات، تركه يسترسل دون أن يقاطعه، فهو يعلم أنه الأذن الوحيدة المصغية منذ ما كان.

- كيف كان لي أن أخرس وهم يخبرون الناس جميعًا أن الفئران أتت وهاجمت وهزمت؟كيف كان لي أن أخرس وقد رأيت... سيعودون، أتوا لاختبارنا وسيعودون. ربما بالغت قليلًا في تكذيبهم أمام رشوان، حسين الكلب لم يتركني حتى أقترب منه. يعلقون الجثة على المبنى!! والناس صدقت يا مولانا، ما يؤلم هو أن الناس صدقت حقًا، سيستكينون بدلًا من أن يأخذوا حذرهم، لا يعرفون أنه لن يحميهم أحد، كيف كان لي أن أخرس. أنا لست وحدي، ياسين في رقبتي وأنا لا أملك سواه. سيأتون.. وحينما يأتون لن يقف حائل بينهم وبين عيال الناس، أتعلم ما يروونه عما يفعل الفئران بالصبية؟يؤنبونني لأنني صحت في رشوان أمام الناس، كان يحتاج أن يسمعني. لا أعلم ما الذي يسكبه حسين في أذنيه من سموم، ربما أخبره أن رجاله حاربوا الفئران فعلًا. الأكيد.. الأكيد أن رشوان لا يرضى بكذب كهذا، خدعوه هو أيضًا ولا شك. لو علم لتغير كل هذا... كان يجب أن أكون أكثر حصافة، ربما لو قابلته وهو وحده، هو أيضًا كان

عليه أن يسمعني نحن شركاء منذ البداية، كيف سمح لهم بأن يطردونا أنا وياسين من مكاننا؟هل تعتقد أنه يظنني جبانًا؟أن خوفي هو سبب تكذيبي؟

- أنا أعرف أنك لست جبانًا يا إسماعيل.

لم يسمعه إسماعيل،فلم يكن يسأل إلا ذاته.

- يخبر حسين الناس أنني لم أتحرك من مكاني. لا أخشى على نفسي، لكن ابني من يعتني به بعدي؟لا أحد يريد أن يسمعني، نظرات الناس لي تمزقني. أنام في أقرب الملاجئ للخراء، أسمع السخرية طوال اليوم. لا أبالي بنفسي لكن هذا البائس الصغير ما ذنبه؟كل الأطفال تتجنبه. رأيت أوعية الماء ممتلئة بعد الفجر، حين نزلت أخبرني رجال رشوان بعيون متحفزة أن الماء نضب. عصيانهم الخشنة تشتهيني، أعرف هذا. عاجلًا أو آجلًا ستكون هناك مواجهة، حسين لن يتركني... لا أمل لي سوى لقاء رشوان. عدني يا عبد الله أن تحفظ الولد إن حدث سوء.

- كلنا في حفظ الله يا إسماعيل.

- عدني فقط.

- أعدك.

استيقظ ياسين متململًا، انسلت يد عبد الله داخل جيب جلبابه لتخرج بقطعة جافة من خبز. اختطفها ياسين ما إن قدمت له. شكر إسماعيل الرجل، أغلق عينيه في أسى. تغير الولد كثيرًا، في زمن المزرعة ما كان ليفكر أن يقرب شيئًا دون أن يسأله. يقولون أن الجوع

كافر، العطش أيضًا كافر، الحزن كافر.. القهر كافر، لا شيء في طول هذه الصحراء وعرضها سوى كفر يطأ كفرًا.

- وحد الله.

- لا إله إلا الله.

قرص الشمس يتوارى خلف التباب، فتنتشر الظلمة والظلال المنسلة.. عبد الله يقرأ أوراده، إسماعيل يرقب الخلاء خلف الملاجئ. في بداية الليل يتحرك من عزموا على الرحيل. السير في الليل أقل إثارة للعطش، والضواري تعلمت أن الجائعين من الناس أكثر ضراوة منها.

من يذهب لا يعود ليحكي، فلا يقين إن وصل أحد لغايته أم ضاع وسط الرمال المتلاطمة.. هناك من يهمس دائمًا عن عربات بيضاء لامعة تنتظر وراء الهضاب الشرقية، جاهزة دائمًا لتقل من قرروا الذهاب إلى مخالب المدينة، حيث تشق أجسادهم ليأخذ منها البك ما يريده ثم... ثم ماذا؟هل يهديهم حقًا إلى جنته حيث الطعام والماء؟قلبه يؤمن أن لا... لا يمكن الثقة أبدًا بأهل المدن، بينما عقله الذي لا زال يراود ركن الذاكرة فيه الطعم المسكر المسكر كلما سمع اسم المدينة هو من يجادله قبل النوم.

3

- الذبح، يا فاجرة.

اخترق الصوت المبحوح الضوضاء المعتادة داخل الملجأ كالسكين. الحزن والحنق انبثقا كالأشعة، صعدا ونزلا إلى كل أذن ممكنة.. انتبه إسماعيل من غفوته ما إن مسه الصراخ النسوي الذي اتبع الجملة.. برد فعل غريزي مد يده إلى حيث يوجد ياسين، فلم تمس

يده سوى قطعة القماش الخضراء المهترئة التي كان يجب أن يكون فوقها. المشاجرات هنا كالجوع تم اعتيادها، فتغافل البعض عن ما يحدث وحاولوا النوم مرة أخرى. المساء قد حل منذ بعض الوقت وقد نبه إسماعيل على طفله ألا يخرج إلا معه منذ تحرش رفقته السابقة به وهو يلعب وحيدًا منذ بضع ليال. لكن الأطفال أشقياء.

- متى يطيعني ياسين يا الله!

جسده متوجع من شتى آلام العمل التي تصحو مع صحيانه، اتكأ على ركبته ليقف، نظرت له بعض العيون في عجب، تجاهلته أخرى.

- ألم ير أحد ياسين؟

سؤال ضروري، طرحه مجبرًا وهو يدرك أن لن يرد عليه أحد. تلقى الصمت لنصف دقيقة.. عاد الصراخ الأنثوي بصورة أشد، خمن أن ياسين يشاهد. غادر الغرفة نصف مهرول. الصوت يأتي أسفل منه بطابقين. نائمو الدرج وقفوا لينصتوا، ترك هذا بعض المساحة فيما بينهم استغلها نزولًا. قبل الوصول إلى الطابق الصاخب ومع دوران الدرج المتآكل رأى ياسين منزويًا، عينا سعاد الواسعتان اللتان ورثهما مبتهجتان، لا بد وأنه رأى شيئًا أعجبه. القلق الذي يملؤه حرك يده اليسرى ليعصر بها الأذن الصغيرة الناتئة للطفل الذي مال برأسه وهو يتأوه، وقبضته مشدودة لضربة في طور التكوين. تراخت القبضة عندما رأى لحية إسماعيل التي غزاها المشيب بشكل غريب في الأيام الماضية..

- أين ذهبت يا ملعون؟

- هنا فقط،أقسم بالله.. أردت أن أرى.

- ألم أنبه عليك ألا تذهب وحيدًا أبدًا؟

ـ لكنك كنت نائمًا، وأنا لم أستطع النوم.

رحل القلق مؤقتًا، فأفلتت أصابعه الأذن التي احمرت، عاد ياسين لمشاهدة الأجساد المتلاحمة حول مصدر الصراخ.

ـ ماذا يحدث هنا؟سأله بفضول هامس.

ـ عم بهلول يريد أن يقتل زهرة ابنته، لكن الناس يمنعونه.

انتفض حين سمع الأسماء. بهلول يعرفه من قديم، يوم هاجمهم الطيران عند محطة القطار خطفت زينات زوجته وقتل زوج ابنته ـ زهرة ـ الشاب. خرج وجه الرجل من تحت ركام النسيان، توقفا عن رؤية بعضهما بعد وصولهما الملاجئ بقليل، وجوه رفاق الماضي لم تعد سوى أسياخ حامية تشوي الحنايا على جمر الاشتياق لمن راحوا. لكن بهلول أكثر من قابلهم طوال عمره طيبة ومسالمة، وزهرة هي كل ما تبقى له، فماذا حدث؟

مال على أذن ياسين التي لا زالت على احمرارها ليسأله بعيدًا من الفضوليين الذين بدأوا في النزول من الطوابق العليا والصعود من الأدوار السفلى مع استمرار الصراخ.

ـ ألم تسمع لم يتشاجران؟

ـ أم سعيد تقول أن بطنها كبير وظاهر، وأن حتى المغفل سيرى ويفهم.

ـ بطنها كبير؟

استغرق ثوان ليفهم، وهو يرى من مكانه ظهور الجلابيب المتعرقة التي تسد مدخل الطابق.

ـ آه والله، أنا لا أفهم لماذا يريد أن يذبحها؟هل لأنها صارت سمينة؟من أين تأتي بالطعام والكل ينحل؟ما معنى فاجرة يا أبي؟

أسئلة ياسين متلاحقة كأنه كان يحبسها، هو الآخر لم يعد يكلمه أحد. يعرف إسماعيل إنه ما إن يحرر فضوله حتى لا يصمت، لكن كيف يجيبه، هذه أشياء لا تعرف إلا في وقتها، وهو لا زال صغيرا جدًا.

ـ أبي... أنت لا تنصت، ما معنى فاجرة؟

صفعه على مؤخرة رأسه دون قسوة، حدق فيه بغضب مصطنع

ـ اصمت قليلًا، لن أنبه عليك مرة أخرى لا تتحرك دون إذني.

الغضب في عيني ياسين الواسعتين حقيقي، شعر بالظلم وأبوه يراوغه.. أبوه من سأله أولًا، لذا لا يستحق هذه الصفعة.. أطرق في النهاية فهو يعرف نهاية الجدال مع أبيه.

ـ اصعد أنت، لن أتأخر.

ـ لا... لا تذهب إليهم.

اليد الصغيرة تمسك بكم الجلباب الذي صار من المستحيل تمييز لونه، الغبار والشمس والعرق جعلوه نسخة من الجدران المحيطة الداكنة..

ـ لن أتأخر.

ـ لا تذهب، لا أحد يحبنا هنا، لن يسمع لك أحد.

ـ اصعد.

حنى ياسين رأسه غير راض، جرجر أقدامه وهو يشيح بيديه ويتمتم بصوت غير مسموع. جسده الضئيل لا يحتاج إلى فراغات كبيرة بين

ناس ليمر. تابعته عينا إسماعيل حتى اختفى، عصفور صغير حانق. يلسم داخله، سيصالحه عندما يرجع، هناك ليالي عديدة قادمة ليراوغ فيها أسئلته التي لن ينساها.

ـ يا سلام.

همست شفتيه بالاسم العظيم دون صوت، وهو يعبر بين الواقفين ماضيًا إلى مصدر الصراخ. غرفة مطابقة لغرفته بالأعلى، جدران رمادية سوداء، ما كان طلاءً تساقط ليكشف عن طوب دفن لونه الأحمر تحت السخام والزمن فصار حالكًا ككل شيء. ما إن دلف حتى رأى تجمعين واحد للنساء والآخر للرجال. النهنهة النسوية تربكه دائمًا، تحاشى التلامس واخترق دائرة الرجال التي تحيط ببهلول.

لم يميزه دون طاقيته في البداية، رأسه عار من الشعر وبرزت عظام وجنتيه. فقد جزءًا هائلًا من وزنه منذ آخر مرة رآه فيها. جلبابه واسع مفتوق من تحت الإبطين، رأسه غاطس بين ثنيات القماش وأحد الرجال يحتضنه من الخلف حتى لا يعبر إلى الناحية الأخرى، تتهدج أنفاسه متلاحقة في صدره الضيق. ما إن وصل إسماعيل إليه حتى بدت منه حركة مفاجئة.. زاد الرجل من خلفه إحكام ذراعيه، شعرت النسوة بالحركة فعاد الصراخ المذعور.

ـ فضحتني، ابنة الكلب الفاجرة.. فضحتني.

صوته مشروخ بين اللهاث. لم يعد هذا بهلول الذي يعرفه، الذي تزامل معه في تمهيد الأرض وتغيير زيوت المولدات ونهارات الحصاد. بهلول ذو القلب الكبير باتساع السماء، صاحب الضحكة الدائمة، الرقيق الذي بكى خلسة وهم يصنعون كيفما اتفق نعشًا لسعاد.

ابتعد الرجال خطوة ما إن أدركوا وجود إسماعيل، تقدم أكثر ليمسك بكتفي بهلول:

- وحد الله يا بهلول.

استغرق عقل بهلول بعضًا من الوقت حتى يتعرف إسماعيل الذي تغير هو الآخر كثيرًا. بعد دقيقة لمعت الدموع التي يحبسها الغضب في عينه. ابتعد الناس خطوة تلو الأخرى، حضور إسماعيل مهدئ لبهلول منفر للآخرين. عيون النساء واسعة متسائلة.. خلف جدار الإناث يظهر وجه زهرة المنتفخ، بصمة كف وردية على وجنتها سيتحول للأزرق مع الوقت.

المكان لا يسمح بالكلام، قرر النزول ببهلول إلى حيث يمكن أن يهدأ وينفثئ. شعر برخاوة الإرادة تحت العضلات المتشنجة فاقتاده دون كلام. طأطأ بهلول رأسه حتى لا يلتقي بصره بابنته، في عينيها السوداوين خوف عليها لم يزل.

على الدرج القديم أخلى لهم الواقفون مساحة كافية للنزول. همسات صغيرة لم يستطع أصحابها كتمانها لامست الأذن، ما إن يغادرا حتى تنمو إلى نميمة ناضجة.. التعبير على الوجوه المراقبة وهي تتعلق ببهلول منكس الرأس مر ذاقه إسماعيل من قبل، الراحة في أنهم ليسوا هو.

سارا عشر دقائق كاملة دون كلام، عبرا الميدان المكتظ، مرقا بجوار الأطفال اللاهية، ورجال رشوان المستندين على الحوائط بشواربهم العملاقة وعيونهم الجشعة، والنساء اللواتي يفرشن أغطية تحت الخيام تأهبا للنوم. سارا حيث جبل الخراء، المكان الوحيد الذي استطاع عقل إسماعيل التفكير فيه. الرائحة الخبيثة تطرد كل الناس

عتاة الفضوليين. القمر بدر الليلة، انعكس ضوءه على التلال الساكنة، للناظر من مبعدة لم يكونا سوى بروزين مظلمين للمكان.

ـ لنجلس هنا.

قال إسماعيل برفق وهو يشير إلى الحجر العظيم الذي اعتاد رجال رشوان الجلوس عليه نهارًا وهم يراقبون الردم. هوى بهلول بجسده كمبنى ينهدم، انسحاب الغضب من أوردته ترك المجال حرًا للانكسار. سيمكنهما الكلام بحرية هاهنا، لا يكون اللسان حرًا صادقًا إلا في خلوة مع أذن صديقة متفهمة..

ـ ما الذي جرى يا بهلول؟

رفع إليه الرجل عينين محطمتين، قبل أن تتهاوى كل أسوار صموده، فأجهش بالبكاء. لا شيء يؤلم كبكاء الرجال. يد من ثلج قبضت على قلب إسماعيل وهو يرى الكتفين المنحنيين تحت وطأة هم يفوق القدرة، ربت على ظهره تاركًا له الوقت ليفرغ كل ما بداخله.

ـ زانية يا إسماعيل، ابنتي أنا زانية... فضحتني في آخر عمري، عرت عرضي وشيبتي لكلاب السكك قبل أن أموت. كلماته تخرج متلاحقة وسط النشيج.

ـ بنت الكلب... كانت تنام مع سي رشوان ورجاله من شهور وأنا غارق في العتمة.. تأتي بالعدس والفول والناس جياع، أسألها فتجيبني أنها مع صاحباتها ينظفن مبيت سي رشوان وأن الأكل جزاء العمل. أنت تعرف زهرة، أنت ربيتها كما ربيتها. لم تكذب قط، صدقتها، تركتها تذهب على ألا تتأخر ليلًا.. قلت لنفسي كل الناس تتمنى خدمة سي رشوان بعينيها، هو رجل مجدع على حق كما أنك بجواره، إسماعيل لا

يصاحب الفسقة.. كل ليلة بعد أن أنام تتسل إلى المبيت، كل
الناس كانت تعرف إلا أنا... من شهور وأنا مع الإمام سمعه
يتحدث عن رغبته في الزواج مجددًا، عرضت عليه زهرة
لكنه راوغني وقال أنها أصغر منه كثيرًا... كل الناس كانت
تعلم يا إسماعيل إلا أنا. تقول أنها لم تحتمل أن تراني أموت
جوعًا، الموت أرحم من العار يا إسماعيل كيف لم تفهم من
ذلك؟ماذا فعلت يا رب لأفضح في نهاية عمري، ماذا فعلت
يا رب لتسقط عليَّ المصائب دون عدد.

- وحد الله يا بهلول، تذكر..

- طوال عمري موحده وراض بقسمته. خلقني ضعيفًا فقيرًا
ساذجًا، ابتلاني بالترحال من مزرعة إلى أخرى ولم أفوت
صلاة، جعلني أرى زينات تخطف وزوج ابنتي يذبح ولم
أكفر به... قاسية هي الحياة يا إسماعيل.خُلقنا عبيدًا أولاد
عبيد، تتناوب علينا السادة منذ ميلادنا، نصفع ونركل ونشحن
كالطوب، نحرق شبابنا وقوتنا دون لقمة تشبع ولا يكتفي
خُلقت الصحراء لتحرقنا والشمس لتشوينا، خُلق المدجنون
والملاحظين ليعاقبونا، خُلقت الفئران لتقتلنا، خلق رشوان
ليدنسنا. أربعون سنة أصعد فوق الأسطح كل ليلة قبل الفجر
أدعو الله. أخبرونا منذ الصغر أن هذه هي أقرب أوقات
يسمعنا فيها. أربعون سنة لم أفوت فجرًا واحدًا ولم أطلب
الكثير، اللهم احفظ عائلتي، اللهم لا تتركنا جوعى، اللهم لا
تتركنا عطشى.. أربعون سنة وها أنا ذا... أدركت أخيرًا أنه
لم يستجب لي.

تراجع إسماعيل غريزيًا خطوة للخلف أمام صدمة الكلمات، [...] نفسه بعد ثانية على إعادة التربيت على الظهر الغارق في عرق [...]زن الساخن:

ـ ابتلاء الله لعبده ليختبره، استغفر الله يا بهلول.

ـ لن يسمعني يا إسماعيل.

إسماعيل هو من استغفر في سره، وهو يشعر بالكلمات تحفر لها [طر]يقًا أسود داخله.

قبل أن يفكر فيما يمكن أن يقوله في هذا الظرف، سمعا صراخًا [ح]ادًا آتيًا من قلب الملاجئ. ولولة نساء ثكلى تشق الجو نصف البارد [الم]عتم، صاعدة في طريقها إلى النجوم ذات اللمعان المبهر. خطوات [تبع]ثر الرمال في هرولة قادمة من الملاجئ، تنثر في عدوها الأخرق ما [د]فن تحت الثرى فتنتشر رائحته المقبضة..

ـ الحق زهرة يا أبا زهرة..

ظهر الصوت اللاهث قبل أن يخترق صاحبه حجب الظلام، فانتفض بهلول على قدميه. لم ينتظر ليسأل، حرك قلبه قدميه قبل عقله فانطلق. أمسك إسماعيل بكتف الرجل الذي يلهث.

ـ ماذا حدث؟

ـ رمت البنت بنفسها من المبنى، انتهزت لحظة غفلة من النساء حولها وقفزت.

يد سوداء امتدت لتمسك بأحشاء إسماعيل. والرجل يتابع:

ـ لا زال بها بعض الروح، لكنها أراحت العجوز على أية حال.

كلمات الناس سكين أخرق، يذبح ويزيد الأوجاع. كيف يكون في هذا أية راحة للعجوز.. ترك الرجل دون كلام، رفع جلبابه ليجري

بأقصى ما يمكنه، لا يستطيع أن يتخيل مدى الألم الذي سيعانيه
عندما يعرف، عندما يرى ثمرة روحه وهي تغادرها روحها.

تهتز الرؤية مع اللهاث فتبدو له المباني التي يعكس بعضها
القمر كأصنام الكفار التي طالما حكى له عنها أبوه. وصل ليجد
راكعًا بجوار ابنته المهشمة النازفة، والناس يحوطون به في دوائر
اتساعًا. الدماء تبدو في الليل بنية اللون، يشربها التراب ببطء،
ركبتي بهلول من جانب، ومبتعدة قدر ما يمكنها من الجانب
نحو الخلاء.

- كجناح من دم.

فكر إسماعيل. بهلول يمسك باليد اليسرى المرتعشة لصغيرته
يقربها من شفتيه وأنفه. أصبع السبابة منكسر منحرف، يسقط للأسفل
هناك قليل من الألم في هذه الدنيا فوق البكاء، فوق الصراخ،
بهلول الراكع وكتفاه المتشنجتان يتحطمان تحت وطأته. لم يجرؤ
إسماعيل على التقدم، وقف على بعد خطوات من الأب وابنته. امرأتان
ضحتا بخشب التدفئة، فرفعتا عودين مشتعلين فوق الرؤوس. تمايلت
الظلال كشياطين شوهاء، تستطيل وتقصر حول الجثمان. طالت
اللحظات كالدهر. ماذا يمكنه أن يقول، أي كلمات تحمل العزاء لهذا
القلب؟قتل النفس لا يذهب بصاحبه إلا إلى الجحيم الأبدي، هل
يكذب عليه ويخبره بالعكس؟لكنه يعلم بكل تأكيد.. البائسة هربت
من نار إلى نار. ماذا يمكن أن يقال؟حين راحت سعاد بصق قلبه
كل ثرثرات الناس التي ظنوا أن فيها راحته. الجرح النازف لا توقفه
نفخات من هواء دافئ.. العجز يبتلعه ويدوخه كدوامة في نهار عاصف.
فكر إسماعيل في البحث عن عبد الله، لا بد من وجوده في هذا الوقت،

يعرف ما يجب أن يقال، يجب أن يكون هناك ما يقال. إن طالت ... سيموت بهلول لاحقًا بابنته.

في هذه اللحظة بالذات ظهر حسين التابعي. الغضب سكن العيون المحدقة للحظات، قبل أن يفر مع رؤية العصي المسننة بالمسامير رجال رشوان من خلفه.. خمسون رجلًا على أقل تقدير، بسحن متأهبة وشفاه مزمومة وشوارب. انفثأ الناس كالبثرة، هاربين بصديد أفكارهم من وجه القوة.. تبقى أقل من ستة رجال وامرأتين، الأكثر قربًا من بهلول وابنته أو الأكثر فضولًا.. لا يعرف إسماعيل.. رؤية التابعي في هذا الموقف أهاجت كل شجون الماضي وغضبته نصف المنسية.. تقدم الخطوات الأربع التي كانت تفصله ليقف بجوار بهلول ـ الذاهل عما حوله ـ بالضبط.

من مكانه رأى وجه زهرة المتعب، سقطت على ظهرها فظلت ملامحها سليمة، تغضنات حول الشفتين التي يتسرب الدفء منهما كل ثانية فتكتسيا باللون الأزرق، دوائر سوداء حول العينين اللوزيتين، رأى راحة تأتي بالتدريج لتنبسط تعاريج الجبهة المتألمة، في شعرها البني الخارج من طرحتها والمخلوط بالدم عدد من شعرات بيضاء رغم سنوات عمرها المنقصف القليلة..

ـ انصرفوا.

قال حسين بهدوء، فرفع الرجال من خلفه عصيهم في استعداد للشر. اختفى من كانوا واقفين في طرفة عين.

ـ دعنا وحدنا يا إسماعيل.

جاوبه إسماعيل بنظرة متحدية، تحرك الرجال ليحاوطوه في شبق، لم ينسوا تعريته لخورهم أمام الناس. الانتقام يلوح قريبًا لا ينقصه سوى أمر من حسين.

- انصرف يا إسماعيل، لن أمسه بسوء. ياسين يقف على مدخل الملجأ لا تدعه يتأذى، ويراك تتأذى.

التفت إسماعيل فرأى ياسين المرتعد ممسك بالحافة الأسمنتية للمدخل الواسع الذي يبدو كفم عملاق جائع.

- صدقني لن أمسه بسوء، لن يفيده وجودك أو يضره.

الاختيار قاس، وبهلول الذاهل لا زال على وضعه ممسكًا بالكف التي بردت، تتحرك شفتيه دون صوت. انشطر قلب إسماعيل وهو يغادر مكانه جوار الثاكل، بقدمين تزنان أطنانًا يجرجرهما مطأطئ الرأس، معطيًا ظهره إلى حيث انتصر ملك الموت.

شعر بارتجافة ذراع ياسين وهو يمسك به ليقوده للداخل، ألقى بنظرة أخيرة خلفه فرأى الرجال تحيط ببهلول وحسين منحنيًا يهمس في أذنه.

صعوده إلى حيث رقاده كان مؤلمًا، الناس أجلاف.. لا يتركون إلا مساحة ضئيلة للمرور عن قصد، بينما يثقل الهم روحه، وصمت ياسين يزيد كآبته. قال أحدهم بصوت عال وإسماعيل يمر بجواره:

- يقتل القتيل ويمشي في جنازته، ألم يكن صديق رشوان الأقرب.. أراهن أنه كان يضاجعها هو الآخر.

كلمات الناس سكين أخرق، تذبح وتزيد الأوجاع. عبر جوار المتكلم دون أن يرد. طالعته العيون المتهمة لرفاق غرفته دون كلام لحسن حظه. أرقد ياسين بمحاذاة الجدار، ألقى نظرة على الميدان

الأسفل، لا وجود لبهلول وابنته ولا لحسين أو الرجال.. فقط أثر من
م لملاك ذي جناح واحد يتسربل وحيدًا بالتراب.

4

ـ قاسية هي الحياة يا إسماعيل.

تعصف الكلمات بذهنه، تفور كرياح الصيف المغلية، تحرق دمائه وأفكاره. يجلس على التراب، يخمش الأرض بطرف خشبة عليلة نصف محترقة، تبقت من نار رجال رشوان. يجلس قريبًا من حيث كان يتحدث مع بهلول منذ بضعة أيام. بضعة أيام تسجن عقله كدهر كامل. عيناه مفتوحتان في شرود وياسين يراقبه على مقربة.. أينما ينظر يرى الملاك الأحمر الذي سقط، هناك حريق داخله يذيب روحه، فيهتف داخله دون صوت «أنقذني يا الله».

يتقلب ليلًا على الملاط مستجديًا نومًا متمنعًا، يتمني حلمًا يأتيه بسكينة من السماء. يدعو وهو ساجد حتى تطفر عيناه، وتشق دموعه الصامتة قنوات في وسخ وجنتيه، تبتل لحيته دون مجيب أو سكينة..

اختفى بهلول في الصباح التالي، لم يعد قط من حيث ذهب مع حسين. نظرات الناس اللوامة تطعنه كالخناجر كلما سأل عليه... لا إجابات. تبخر الرجل كأنما لم يكن، وغرق الناس في خضم جوعهم وعطشهم فنسوه ونسوا ما كان.

ما أقسى الناس وما أسرع ما ينسون! يسأله عقله ألا يشبهون خالقهم، فيصرخ باطنه مستغفرًا، بين هذا وذاك تشرق الشمس وترحل، ينهمر الليل من السماء فيغرق الأرض ويعتمها، يكسو قلبه ويخيفه.

تواری عبد الله أيضًا بين الناس فلم يعد يراه، آهٍ لو يعلم كم يحتاجه الآن؟

ياسين يحاول جذب انتباهه دون جدوى، يدور في الميادين ليعود ويخبره بكل ما يسمع.. حمولة جديدة من البشر وصلت فجرًا، دسوقي وقف فوق السور وصرخ ففرت الفئران هاربة، حسين دار مع الرجال على كل المباني وأخذوا العديد من البنات ذوات البطون الكبيرة مع أهاليهن ولم يعد منهم أحد، جنيٌّ أحمر ظهر في الشرق نهارًا، وتأمل الناس لدقائق قبل أن يختفي، عدد المتسللين إلى ما خلف الهضاب يزداد، بحث عن عبد الله فلم يجده، ترك رسالة لكل من يعرفه ليخبره بأن والده يريده.

حمل صغير لا يكف عن الثغاء، في الماضي اعتاد إسماعيل الاستماع لثرثرة صغيره وهو يهز رأسه ويبتسم. الآن يهز رأسه والكلمات لا تعبر حاجز أذنيه، ولا يبتسم. كل ما يفكر فيه هو الذهاب إلى رشوان ومواجهته. الساكت عن الحق شيطان أخرس هكذا قيل منذ القدم، ولهذا تتناوشه كلمات بهلول المخيفة ولا تتركه لأنه خرس.. فتح السكوت بابًا للشيطان في روحه. عليك أن تذهب، أنت تعلم هذا ولكنك خائف يا إسماعيل، لهذا تتحجج بعبد الله.

برودة الليل ثقيلة الوطأة هذه الليلة، غيم في السماء يحبس القمر والنجوم. الأرض تسرق حرارة جسده وتقايضها قسرًا بالرعشة والكآبة..

«الساكت عن الحق شيطان أخرس.» زهرة بالجناح الواحد، ووجهها البريء ينزف.. تهوي من الملجأ فتنفتح الأرض، يفغر الجحيم فاه، ناره ثلجية تشتهي جسدها الغض، يرفرف الجناح ولا يمكنه التحليق، تتلوى ألسنة اللهب وتلعق شفاه سقر في تلمظ، أصابع

الشيطان تتحسس جدران روحه، يفح في أذنه مقلدًا صوت بهلول «قاسية هي الحياة يا إسماعيل.» سنوات العبادة والدعاء.. ليال طويلة بلا عدد تناجي فيها الخواء، أين سعاد الآن، ما ثمرة كل الجوع والشقاء والتعب، أين ذهب رحيق شبابك، ما الذي تحتاجه أكثر من هذا لتوقن أن لن تدك الحب أبدًا؟

هز رأسه لينفض أفكاره، هرع إليه ياسين الملهوف، اقترب يتأمله بقلق.

- أنت بخير يا أبي؟

حدق في الوجه الوسيم المشاغب، من يقلق على من الآن، كبر الصغير قبل أوانه.

- كل شيء على مايرام، لماذا تبدو خائفًا؟ابتسم إسماعيل ليطمئنه، تابع بحزم خفي:

- اذهب إلى الغرفة ولا تنتظرني.. قد أتأخر قليلًا والجو شديد البرودة الليلة..

- كلا، لن أتركك وحدك.

في ظروف أخرى كان ليبتسم ابتسامة عريضة، فتتبدي أسنانه النادرة الظهور من طول العبوس.

- بل ستسمع الكلام، سأبحث عن عبد الله في الجوار.

- لكنني بحثت عنه طوال الأيام الماضية دون جدوى. تبدى الشك على الملامح الدقيقة فتابع:

- أنت ذاهب ناحية السور.

- قلت لك أن تذهب إلى الغرفة.. لا تتعب قلبي يا ياسين، هو متعب كفاية..

مست الكلمات الصادقة قلب الطفل، هز رأسه في طاعة غير معتادة.. سار بساقيه الناحلتين في خطوات بطيئة.. تابعه إسماعيل ببصره وهو يدور مع الميدان، والغلالة البيضاء المتمايلة المنبعثة من الأرض تبتلعه على مهل.

- يا رحيم.

قالها بعناد، وهو ينهض ليسير دون أن ينفض جلبابه. سار في الاتجاه المعاكس، يعبر بين الخيام وبين نائمي العراء، لو استمرت هذه البرودة أكثر من ليلة سيموت العديد منهم. حث السير حتى لا يتردد قراره، فلم ير ياسين الذي عاد أدراجه خلسة، ومضى يترصده بخفة وهو لا يشعر.

5

يتحرك بغريزته، الليل حالك وأصابع قدميه تحتك بالأحجار الخبيثة الناتئة من التراب فتؤلمه. لا صوت يؤنسه وهو يسير. في صغره كان قلبه ينقبض إذا ما سار في الظلمة، كان يرى الجان بعيونهم المشقوقة بالطول، والعفاريت التي تكمن للأطفال في كل ركن. العمر قطرة ماء تسري في جوف عطش،أين تبخرت السنوات وكيف كبر بهذه السرعة... كأنما كان طفلًا بالأمس فقط. ترك الخوف من الغيلان والمردة لياسين، تعلم أن أكثر ما يخيف هم الناس ولا شيء غيرهم. ينقبض قلبه مع كل خطوة يخطوها حتى أنه نسي مجرباته. متى بدأ في خشية رشوان إلى هذا الحد، تريه عيون عقله البقعة الحمراء في مقلة الرجل فيشعر بالبرد في عظامه. التقطت روحه عدوى مهابة الرجل منذ ترك جوار السور وخالط الناس. الناس.. ما أقساهم، ما أشقاهم.

عليه أن يكون هادئًا هذه المرة، أن يحادثه منفردًا. سيذكره أنه أول من احتضنه وأفرد له مكانًا بجواره للمبيت حين وصل إلى الملاجئ صغيرًا، مكسورًا، غاضبًا. لا... قد يضايقه هذا. سيبدأ بوقوفهم المشترك أمام المليجي وعصابته، جلساتهما المشتركة حول النار وقلقهم مما هو قادم.. بلى، بلى هذا سيرقق قلبه. سيبتسم له ويضحكان سويًا، سيعيد عليه رواية عبد الحليم والليل لحظة تعثر في جلبابه وسط العتمة وانكفئ على وجهه في حفرة، وظل يصرخ ظانًا أن المليجي يريد قتله وسرقة جلبابه. لا يمل رشوان من سماع هذه الحكاية بصوت إسماعيل المدهوش. سيستمع له كما اعتاد، وسيؤدب رجاله ويطرد حسين، سيقبل رأس بهلول على مرأى من كل الناس ويعاقب من فعل الفحشاء بابنته، ربما حتى سيعيد إسماعيل إلى مكانه القديم في الملجأ الملاصق للسور حيث لا يوجد سواه هو وياسين. دون أن يشعر ابتسمت شفتيه قليلًا.

- كل شيء سيكون على ما يرام.

همس لنفسه بأمل. عبر الميدان الأخير، ببصر قلبه تجاوز كتلة الظلمة حيث خلاء ما قبل السور ثم الصحراء الواسعة التي بلا آخر. لا زال يذكر الطريق، انحرف يمينًا، غرست قدمه في شيء رخو لا زالت به بعض من طراوة، لم يتوقف. للظلمة حدود وشكل هو أول ملاجئ الناس، تجاوزها ليرى الأضواء البرتقالية الصغيرة مبعثرة على المدى، تنشر الراحة والأمان لمن حولها. توقف للحظة في تردد، قبض فيها على عنق آماله ثم تحرك. بعد خطوات ليست بالعديدة، انفصلت ظلال من الظلمة لتحوطه. أجفل وأيادٍ تمتد لتمسك بكتفه.

- من أنت؟

لم يتبين الحراس وجهه، ولم يتبين وجوههم في هذه العتمة الشاملة..

ـ أنا إسماعيل، أريد رؤية رشوان.

الأصابع التي تحيط بكتفه دلت على بعض الحيرة:

ـ إسماعيل من؟

ـ صديق رشوان، كنت واحدًا منكم... أبلغوا رشوان أني أريد أن أراه.

غمغم أحدهم في امتعاض وكأنه يسمع تجديفًا:

ـ رشوان!! اسمه سي رشوان.

ـ حسنًا.. أخبروا سي رشوان أني أريد أن أراه.

ـ يبدو أنك عبيط.. لا أحد يطلب رؤية سي رشوان، هو من يأمرك فتأتي.

أكثر ما سيدهشه بعد أيام عندما يتذكر كل ما حدث، هو حنقه لعدم معرفة الرجال به.

ـ يبدو أنكم حديثو العهد هنا، قلت لكم لأني إسماعيل صديقه.

ـ إسماعيل.. إسماعيل.. لا أعرفك.

شعر بعدم الجدوى، عليه الرجوع والعودة مع نور الشمس. استدار خائبًا قبل أن يأتي صوت من الظلام القريب.

ـ إسماعيل!! ما الذي يفعله هذا الديوث هنا؟

الإهانة حارقة، التفت مغضبا لكنه لم ير شيئًا وسط هذه العتمة..

ـ أوقفوه، ألا تعرفونه يا رجال.. هذا الذي ادعى أننا هربنا أمام الفئران، الذي يدور في الملاجئ يوسوس للناس أن الدسوقي جبان وأن سي رشوان كاذب.

ـ ابن العاهرة..

ـ يا مرحب.

ضيق إسماعيل عينيه محاولًا تفتيش السواد ليصل إلى وجه المتكلم دون فائدة، لم ير نتيجة للجدال فاكتفى بإعادة كلماته.

ـ أبلغوا رشوان أني أريد أن أراه.

ـ سي رشوان يا ديوث.

لكزته قبضة غاضبة في كتفه، أمسك بها في قوة جاذبًا صاحبها:

ـ أريد أن أراه.

صوت العارف به تعالى في هذه اللحظة وقد صار أكثر قربًا:

ـ ليس قبل أن تنال الترحيب اللائق... حطموه.

سرعة رد فعلهم سبقت تفكيره، الرجال الجدد متلهفون لإثبات جدواهم. تلقى صفعة نصف طائشة، أصابت شطرًا من وجنته، أصابت قلب كرامته. من الحمق الصراع مع هذا العدد من الرجال، من الحمق الشجار في الظلام حيث العمى هو السيد، لكن غالبًا ما يكون الحمق هو التوأم الملتصق للغضب. أطار قبضته في العماء على غير هدى، أصابت عينًا ما، شعر بالماء الدافئ لثانية على مفاصل أصابعه مع صرخة متألمة اخترقت أذنه. وكأنما أنارت الصرخة المكان لهؤلاء الجدد وشجعتهم، هوت القبضات والأكف على رأسه ووجنتيه وفكه. الألم الطائش يعدو بسرعة البرق من نقطة إلى أخرى فلا يدري إسماعيل أي جزء في رأسه أكثر تضررًا. أحاطوا به، عرف هذا عندما تلقى

قفاه الصفعات الأولى. تشممت عصاة الهواء لثانية قبل أن تحدد مكان ظهره فتنقض عليه تريد أن تقصمه. ما إن تلوى حتى استقرت عصا أخرى ذات سنون فوق معدته ممزقة لحم بطنه الأعجف. ضربة محظوظة التفت خلف ركبته فركع، ركلتان في الرأس فسجد. تكوم أخيرًا محاولًا حماية وجهه بكفيه، تمزق جلبابه عندما اشتبك بصخرة عنيدة في الأرض، تحررت ركبتاه البارزتان فثناهما إلى قرابة صدره.

اللهاث الناتج عن تسديد الضرب المحموم تحول إلى سباب متهدج منتصر يتعالى مع كل ركلة.. الرمال التي أثارها سقوطه، استقر نصفها على الأقل في أذنيه فلم يسمع معظم السباب الصاخب، بين كل الأصوات المتداخلة في رأسه أهالته صرخة طفولية آتية من بعيد:

- اتركوه يا أولاد الكلب.

- ياسين.

صرخ فيه قلبه. ألقى الألم بشكل ما في خزانة نسيان مؤقتة واستند على قبضتين ورفع رأسه، ليرى الجسد القصير قريبًا منه، يقذف حجرًا تلو الآخر.. أحجار صغيرة مثله. حينما أصابت الرجال آلمتهم ولم تجرحهم.

- أحضروه هو الآخر.

أمر الصوت الملتحف الظلمة والذي لم يخرج إلى دائرة إبصار إسماعيل بعد. توقفت الأرجل عن ركل إسماعيل لثوان كانت كافية له ليقفز مستندًا على مشاعر الأبوة.. باغت أقرب الوجوه إليه بلكمة من قبضة متشنجة طافحة بالغضب والخوف. أصاب أذنًا عملاقة، هوى صاحبها دون أن ينطق فاقدًا للوعي. تلقى عصا على كتفه الأيسر، جسده الساخن لم يشعر بألم مؤثر. أصاب أنفًا مكتنزًا هذه المرة وسط ضرباته

عشوائية، انسحب من أمامه خطوتين. تراجع هو الآخر بظهره ليقترب من ياسين، هناك نافذة للنجاة تفتح الآن تراجع الخطوة الأولى، قبل أن يخطو الثانية -بينما عيناه تصارعان العتمة- صرخ ياسين متألمًا. التف بكامل جسده، لمح جلفًا يمسك بقبضة ابنه اليمنى التي تمسك الحجر ولا شك، ويهوي بصفعات متوالية على وجهه المدور الصغير. اندفع بكل قوته، ليتعثر في قدم ممدودة بخبث، سقط مرة أخرى، هذه المرة انهالوا بعصيهم على كل جزء في جسده العظمي. طعم التراب وهو يدخل جوفه خالطه المذاق المالح قليلًا للدم. مد يديه يفتشان في الغبار عن ياسين تاركًا وجهه مكشوفًا بالكامل. العصي تشبه أصحابها، غاضبة قاسية.. تنهال لتسحق وتقضم وتنهش كل ما تمسه. تشهد في قلبه وهو يشعر بروحه تغادر جسده، لم يكن في موته شك لولا التوقف المباغت للضربات. بآخر طاقة لديه فتح عينيه الساخنتين بقدر استطاعته ليرى خفين أمام وجهه مباشرة.. سكون مفاجئ ملأ المكان، جذبت يد قاسية شعره المتلبك ليرفع رأسه، التقت عيناه بعيني رشوان الجامدتين، حاول الكلام لكن ما خرج من حنجرته لم يكن سوى صفير يشبه الأنين. تغير الجمود في العينين المخيفتين، في المقلة البنية رأى كرهًا عارمًا، عظيمًا. بصق رشوان فاستقر اللعاب اللزج على جبهة إسماعيل المغبرة، رفع قدمه ذات الخف ليدوس بها على العنق المكشوف بقوة ضاعفها البغض. غمر مد الألم جسده بما لا يمكن تحمله، قرر مخه أن يغرق في غيبوبة ليعبر اللحظات الأخيرة، انمحت الرؤية تدريجيًا لم يعد هناك إلا ظلام شامل سرمدي. فكه شبه المحطم ولسانه المدفون في كتلة من رمل مبتل أوقفا الكلمة الأخيرة التي ظل يكررها قبل الانطفاء:

- ابني.. ابني.

6

لم يفق إسماعيل فعليًا سوى بعد ثلاثة أيام. في لحظات صحوه المتقطعة خيل إليه أنه يرى وجه ياسين، في ساعات غيابه عن الوعي والتي التحمت بنوم طويل لم يكن يرى سوى وجه سعاد.. ربما لهذا طال رقاده.

كانت الشمس على وشك الأفول حينما فتح عينيه أخيرًا بشكل واعٍ. انسكبت الأشعة البرتقالية الدامية من بين خصاص نصف مفتوحة يداعبها الهواء، يتراقص النور بنعومة، يمسك أريكة كبيرة في مواجهة الحشية الصوفية المريحة التي يرقد فوقها حينًا ويتركها حينًا. تابع حركة الضوء بوعيه الذي لا زال خاملًا، فكانت الموجة البرتقالية هي كل ما يراه:

- أبي.

أتى صوت ياسين من جانبه، يحمل اشتياقًا محببًا، قبل أن يقفز جسد صغيره فوق صدره، كأنما يبغي أن يدفن نفسه داخل ضلوعه. تبدد أثر النوم حين تلامسا. التفاف ذراعه حول طفله بعث الآلام التي حبسها طول الرقاد حية.. تأوه مرغمًا وهو يقبل الشعر الغزير الناعم. همست شفتاه في الأذن الدقيقة وقلبه يدرك خوف ياسين عليه، فطفرت دموعه:

- هششش... أنا بخير، أنا بخير.

تراخت أعضاء ياسين وصوت أبيه ينزل في صحراء قلبه العطشة كالغيث:

ـ ألم أقل لك أنه سيكون بخير، لكنك ظللت تبكي كالبنات.
فاجأه الصوت، ثم الوجه المبتسم الراض لحسين التابعي:
ـ حسين...
ـ ومن غيري، اتركه الآن ليرتاح يا ياسين.
ينظر له الطفل بغضب، فضحك التابعي. ربت إسماعيل على ظهر
ابه:
ـ اذهب، لكن لا تبتعد.
ما إن غادر ياسين حتى ارتخى حسين على الأريكة المواجهة..
ادلا النظرات لحظات قبل أن يتنهد حسين آسفًا:
ـ لم أخالك حمارًا إلى هذا الحد... لكنني كنت مخطئًا.
ـ حمار!! قد أكون متعبًا لكنني قادر على...
ـ اصمت، أنت غير قادر على أي شيء. انظر إلى حالك، كدت تموت لولاي.
لم يكن الغضب المختلط بصوت حسين هو ما أسكت إسماعيل،
إنما الأسى الغريب في عينيه.
ـ قلت لك من قبل اهرب أو مت.. ظننتك فهمتني وقتها. ما الذي دعاك إلى العودة حيث يوجد رشوان.. وليلًا؟يا لحمقك.
ـ أردت.. أردته أن يعرف ما حدث لزهرة، وبهلول.
ارتفع حاجبا حسين الكثين اندهاشًا، وهو يميل بوجهه ناحية
إسماعيل:
ـ هل ظننته لا يعرف؟

ـ طبعًا لا يعرف، لن يقبل بهذا أبدًا.
ـ أنت حمار فعلًا.

أثارته الكلمة، فاستند على كفيه ليرفع نفسه قليلًا بكثير من الألم

ـ أنت تحجب عنه ما تفعله، وما يفعله رجاله.

ضحك حسين دون صوت، هز رأسه كمن يحادث طفلًا:

ـ أحجب!! أتعلم أن هذا ما يجعلني أحبك، رغم كل ما يدور في رأسك من وساخات عني.. بداخلك براءة وبعض من سذاجة محببة..

ـ لا أفهم.

ـ لأنك لا تريد أن تفهم، هذا كل ما يمكنني قوله. أنت تريد أن تغمض عينيك فليكن، لكن لا تلقِ باللوم عليَّ. وليكن في معلومك أن هذه هي آخر مرة أنقذك فيها.

ـ تنقذني!! أنت الشيطان.

ارتفعت حدة الغضب في نبرات حسين:

ـ الشيطان مرة واحدة، حقًا خير تعمل شرًا تلقى. أنا من أقنع رشوان بتركك تحيا جوار السور بينما تعارض أفعال رجاله، أنا من أنقذك يوم جعلك حمقك تصرخ فيه أمام الناس لتكذب ما حدث.. لولا سرعتي في قلب كلامك أمام الخلق، ماذا تظنه كان سيفعل بك؟أنا من يهدئه في كل مرة يأتي من حولك ليخبروه بما تقول عن حقيقة الدسوقي والفئران وإنقاذك له من المليجي ليل نهار. أنا الشيطان!! لولاي لكان ياسين يتيمًا منذ وقت طويل، لولاي لدفن بهلول جوار زهرة.

ـ رجاله اغتصبوا زهرة...

- اغتصبوا؟استيقظ، رشوان من كان يضاجعها، رشوان يضاجعهن جميعًا. الكل يعرف هذا، الكل يعلم بينما كنت تنعم أنت بطعامك ونارك جوار السور.. الكل يعلم. ألم يتسائل بهلول مرة عن كم الطعام الذي تأتي به ابنته.. كان يعلم.

صاح إسماعيل بحدة:

- لم يكن يعلم، أنت مليء بالأكاذيب.
- بداخله حتمًا كان يعلم، هو مثلك يغمض عينيه ليرتاح. أتى لي مع ابنته لتعمل لدى رشوان. رجل بلازوجة وشابة بلا زوج، ماذا كان يتوقع؟
- أنت قواد.
- ربما أنا أفعل كل ما يتوجب عليَّ فعله كي أعيش. لا أخجل من ذلك ولا أسدل ستائر من وهم على ما أفعله. أكون ما يحتاج القوي دائمًا أن أكونه. خادم.. حامل رسائل.. قواد. ما الفارق؟

بصق إسماعيل من فم جاف فلم يخرج إلا الهواء:

- ما أقذرك!
- ماذا عن ذنوبك أنت يا صبي الشيخ، لا تعجبك قذارتي وفساد رشوان؟أنت أفسد منا جميعًا، فضائلك لا تنبع من تقواك إنما تأتي من عجزك. كان بإمكانك تغيير كل ذلك، أنت ورشوان كنتما صنوان، كان بيدك أن تثبت، أن تكون أنت رشوان، تحمي الملاجئ وتحكمها.. لكنك صرصار صغير لا يبغي سوى شق في جدار للاختباء. أنت أناني لا

تهتم حقًا بالناس أو الخير.. لا يهمك سوى سلامتك وسلا
ابنك. لم تسأل وقتما كان يأتيك طعامك وماؤك، لم تكتر
بالجوعى طالما كان بطنك ممتلئًا، أنا لا أعترض.. لدي ثلا
أطفال وامرأة، وأنا رجل ضعيف لم أقتل فأرًا عند محط
القطار، رقدت على الرمال مع أسرتي بلا حول. رآك الناس
بطلًا واستغللت ذلك لتحيا، أنا أملك دهاءً واستغللت ذلك
لأحيا... أترى، لا فارق بيننا سوى أنني لا أكذب على نفسي
ولا أجمل حقيقتي. منذ كنا صغارًا وأنتم جميعًا تكرهونني
لأنني أفعل ما تشتهونه سرًا دون أن تجرؤوا على تحقيقه.

- تحيا بظلم الناس، بذراع رشوان.
- أحيا كما يمكنني أن أحيا. لا بد للناس من سيد، لو لم يوجد لصنعوه ثم أطاعوه.. الله، الملاحظون، رشوان. وأنا أستطيع خدمة أي سيد، لا تلمني على رغبتي في الحياة..

صمت إسماعيل، أسقط في يده. عرف حسين هذا وهو يرى عينيَ إسماعيل تتحاشاه. ابتسم:

- لا تبتئس، يمكنك أن تنسى كل ما قلته لتعود وتعتبرني شيطان الملاجئ. لا يهم الكل يراني بهذا الشكل على أية حال.

حزن خفي في طيات صوته، مسَّ إسماعيل فاستقرت نظرته الحيرى على الوجه المبتسم تفتش عن علامة لتكذيبه أو تصديقه.

- الآن وقد استيقظت أخيرًا يجب أن تغادر ليلة غد على أقصى تقدير. بالكاد أقنعت رشوان أن يمنع رجاله من قتلك أنت وياسين في تلك الليلة.. الغرفة هنا قريبة أكثر مما يجب

من السور، لو رآك أي من الرجال... لن أستطيع أن أحميك أو حتى أحمي نفسي. في الواقع أنا أتخذ مخاطرة كبيرة في الإبقاء عليك هاهنا، رشوان لا يعرف.

ـ ولم فعلت هذا إذن؟

تأمله حسين قليلًا ثم عاود الابتسام. ابتسامة مبتسرة هذه المرة:

ـ لا أدري.. أنا لا أخاطر أبدًا، لكني أرتكب العديد من الأخطاء مؤخرًا:أنت وبهلول رباطي الوحيد بالمزرعة القديمة، بعيدًا عن كل هذا الدم والبؤس والجوع.. لم أستطع أن أجنب بهلول مأساته، قد أستطيع أن أجنبك أنت، هناك ياسين أيضًا رغم أنه شديد الشقاوة وأنت لم تربِّه على الإطلاق إلا أنني لا أريده يتيمًا هنا، هو يستحق مصيرًا أفضل من صغار الشياطين المنتشرين في كل ركن.. تغيرت أنا فيما يبدو، تذكر ما كان يقوله لي دائمًا الشيخ الساداتي.

ـ رأسك دائمًا برأس العيال، عليَّ الطلاق أنت أعيل منهم.

قالاها في صوت واحد وهما يقلدان نبرة الساداتي الحادة العصبية المميزة.. انفجرا في الضحك لبعض الوقت. غابت عن عيونهما الجدران والأحزان، لمع في خيالهما غروب الشمس وهو يكسو بلمعانه أغصان الزيتون، والشيخ الساداتي يرفع جلبابه كي لا يكنس الأرض، يحدق فيهما غاضبًا كما هو غاضب دومًا ويديه المعروقتين تتقاطر منهما ماء الوضوء متجهين جميعًا إلى الزاوية..

ـ كانت أيامًا حلوة..

ـ بلى.. كانت.

خيم الصمت واستوطن الغرفة حتى شعرا بوزنه، تدور في رأس كلٍّ منهما أفكار مختلفة جد الاختلاف.

- عليَّ أن أذهب الآن، وأنت أيضًا عليك أن تغادر ما إن تشتد الظلمة.. سأبعث إليك بياسين ليؤنسك، وستأتي لك ابنتي بطعام. كل بقدر ما تستطيع، أرغفة الخبز احتفظ بها لأطول وقت ممكن... الأيام القادمة سيشتد فيها الجوع، لا تعد إلى مكانك القديم ولا تتحدث عن الفئران مرة أخرى أرجوك.

- لكنهم...

- لن يأتوا أبدًا لك كلمتي، هناك الكثير جدًّا مما لا تعلمه ولا يمكنني أن أخبرك به، كل ما يمكنني قوله أن هناك اتفاقًا ما بيننا وبينهم، لن يدخلوا الملاجئ أبدًا. رجال رشوان لا زالوا غاضبين، عليك النوم في العراء قرب الخلاء، لا بد من بعض الأغطية لتأخذها معك.. لا بأس، لا بأس يمكنني تدبر هذا.

- شكرًا لك.

- لا تشكرني، لم يتحسن شيء على الإطلاق، وربّما لن يتحسن.. أنت لا تدري ما هو قادم.

شرد بنظره من خصاص الشباك إلى ضوء الشمس الذي يحتضر، انقبض قلب إسماعيل.

- إن أردت نصيحتي، عليك التفكير في عرض البك الذي قدم من المدينة، على حد علمي هو صادق فيما قاله.

عقد إسماعيل حاجبيه، قال بعد تفكير:

- أستغفر الله.. هذا حرام.

عادت الابتسامة لتظهر على وجه حسين التابعي، هز رأسه كأب يرى حماقة طفله:

- أنت تختلط أكثر من اللازم بعبد الله هذا، أراهن أنك لا تعرف قصته أصلًا.
- قصته!!
- الرجل أبله تمامًا، الفئران قتلوا أهل مزرعته بأكملهم، زوجته وأبناؤه وأحفاده.. هو الناجي الوحيد، من وقتها وهو يظن أن الله اصطفاه ويوحي له.

قام من مجلسه وربت على كتف إسماعيل وتابع:

- افعل ما قلته لك، اختفِ حتى تُنسى.. أتمنى أن تكون هذه هي آخر مرة أراك فيها، وداعًا يا أبا ياسين.

غادر مسرعًا دون أن ينتظر ردًا من إسماعيل.

7

مرأى التلال كل صباح فور الاستيقاظ يبعث على الاكتئاب، الصخور المتلاحمة في سلسلة طويلة كجدار زنزانة صنعتها الصحراء خصيصا له. رغم ذلك يقبع جالسًا بالساعات معطيًا ظهره للملاجى، محملقًا في الصخور التي تتوهج صباحًا وتعتم ليلًا.

بالأمس كان يحك رأسه، هاله أن الشعيرات التي التصقت بكفه كلها بيضاء ناصعة.. لم ير وجهه منذ أن غادر المزرعة، لكنه لم يعتقد أن في أقل من عام سيغزوه الشيب بهذه الطريقة.. مات أبوه وشعره حالك كالليل لم يمسه اللون الأبيض. أقنع نفسه بأنه ورث هذا المشيب المبكر من أمه.

انتهى خبز حسين منذ أسبوع، لذا ينتظر عودة عبد الله ـ التي لا يعلم وقتها ـ ليخرس صراخ معدته. ياسين هو الآخر غير موجود، تسلل في هدوء حتى لا يوقظه. يذهب ليبحث عن طعام لهما في الأماكن القريبة، يعود خاوي الوفاض معظم الوقت، وأحيانًا يأتي بالقليل أراد إسماعيل مرة أن يسأله عن مصدر الخبز قبل أن يتراجع، إن لم يسأل ستظل فكرة أن صغيره يسرق الخبز مجرد هاجس، إن خرجت الكلمات سيصبح الهاجس واقعًا وسيتوجب عليه أن يمنعه.... بعض الأشياء من الأفضل أن لا تُعرف.

يبيتان هنا في الخرائب منذ أن تركا حسين. وجدهما عبد الله مصادفة في سعيه الهائم. رآهما بنور قلبه يتخبطان دون هدى في قلب العتمة، متدثرين بالخشية.. قال لهما.

لم يعد يرتشف كلمات عبد الله فتنفذ إلى روحه كما في السابق يشعر الرجل بهذا، قدر من الحزن يظهر في عينيه كلما رأى إسماعيل.

ـ هذه التلال العينة..

غمغم لنفسه وعينه لا تبتعد عن وهجها المرهق. ليست ذات علو مفرط، رغم ذلك كل يوم يراها أكبر فأكبر، فيضيق البراح في عينيه ويتقلص الهواء في صدره. فتش بيديه عن زلطة ملساء كان قد تركها بجوار الخرق التي يسند عليها رأسه في الليل دون نوم، وجدها دون أن ينظر، مسحها بيده لينفض أي غبار قبل أن يضعها تحت لسانه. شعر بدفئها في فمه، دقائق وسيغمر جوفه اللعاب، فيستطيع أن يحافظ على الماء القليل المتبقي لياسين.

أراح رأسه وأغمض عينيه. جسده مرهق لأقصى درجة، الأفكار المتلاحقة تستنفد جهده كأنما يكدح في المزرعة دون توقف وهو الذي

لم يغادر فرشته منذ أن أتى. يتأرجح عقله كبندول، هل أراد التابعي نجاته فعلًا، أم أن إبعاده هو وسيلة كي ينساه الناس فيرتاح رشوان؟لم يخبره أين ذهب بهلول، هل سقاه حسين نفس الخوف فاحتجب مثله؟

ياسين وعبد الله الآن هما من يسعيان للرزق، وهو يرقد مثل امرأة حبلى دون حراك. لا يمكن أن يستمر هذا للأبد، في النهاية سيفعل ما لابد من فعله، الخشية في قلبه تغريه بإطالة الأمد قليلًا، لم يعد يثق بذاته فلا يدري إن كانت خشيته هذه من الذنب أو من الموت. الرمل يتخلل شعره ويستوطنه، شعر بالحكاك، فمزقت أظافره الحادة فروة رأسه حتى آلمته أكثر من الحكة..

ـ يا رب.

فح بها قلبه، فخرجت من فمه أكثر حرارة من لهيب الظهيرة المتوحش. سمع صوت أقدام عبد الله الثقيلة وهي تحتك بالعتبة الحجرية البالية فاستدار.

ـ السلام عليكم.

صوت عبد الله هو الآخر يحمل بعضًا من إرهاق.

ـ وعليكم السلام يا مولانا.

جلس الرجل ببطء. جسده البدين على الأرجح هو الوحيد الذي لم يصبه الهزال في الملاجئ. أمسك ياقة جلبابه موسعًا لها، حتى يتيح لهواء الظل الأكثر رحمة أن يغمره. يوم قائظ في الشتاء الذي أتى أخيرًا. ابتسم براحة بعد دقائق، فشع الرضا من محياه وتمتم:

ـ الحمد لله.

حنق إسماعيل من الرضا الواضح على الوجه المتعرق، فغمغم بصوت خفيض لكنه مسموع:

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

ثبت عبد الله بصره عليه، نظرة شعر بها إسماعيل تخترق حجاب جسده لتنفذ إلى أغواره المظلمة، لم يحتملها طويلًا فأشاح وعاود النظر إلى التلال.

- هذه التلال اللعينة..

أخرج عبد الله من خرجه نصف رغيف ناشف، أسقط عليه قطرات من الماء المتبقي في زجاجته فصار أكثر طراوة، مد يده به إلى إسماعيل.

- كلِ الآن، ينبت الشبع الرضا.

أجبرت معدته الخاوية يده على الانصياع بعد أن أراد أن يرفض.. ببطء يلوك الخبز عديم الطعم.

- أين ياسين؟
- يبحث عن الطعام لأبيه الجالس كالنساء.
- لا ضير.. سنة الله في خلقه،نعنى بهم صغارًا بعض الوقت، يعنون بنا كبارًا بعض الوقت.
- ومن سنته أن يضرب الأباء أمام أبنائهم، ويصفع الأبناء أمام آباء بلاحول؟
- الوجع يعميك، لاتفلت حبل النجاة..
- لا نجاة مما نحن فيه.
- على قدر مشقة الطريق يأتي الثواب.
- طريقي شديد الصعوبة..
- لو كان الطريق سهلًا لسلكه الجميع.

ـ لم أعد أجد راحة في الكلمات.

ـ احفر في باطنك تجد ما ترتاح إليه.

ـ بداخلي خوف وغضب.

ـ قلبك يتقيح... دواؤه في ذكر الله.

صمت إسماعيل برهة ثم قال:

ـ ونعم بالله. قالها لينهي الحوار،صمت عبد الله.

أتي ياسين بعد ساعة ومعه رغيف كامل طازج. خمن إسماعيل أن حسين هو من أعطاه لولده فلم يسأل ولم يأكل. عبد الله أيضًا لم يمس الرغيف. التهم ياسين ربعه، ثم لف ما تبقى في قطعة من خيش قبل أن يضعها بين الأغطية.. ابتسم إسماعيل لأول مرة في هذا النهار وهو يرى حرصه في ياسين الصغير. ماتت ابتسامته تدريجيًا وهو يتأمل الكدمات البنية التي تشفى ببطء حول العينان اللوزيتان، والخدش الدامي الممتد بطول الرقبة الدقيقة من ظفر قاس وسخ.

وسط عتمة الليل، غرق في نوم عميق بلا أحلام. فلم يسمع عبد الله ـ الغائب هو الآخر في نوم غريب – وهو ينادي اسمه بوجل. ياسين الراقد في الظلمة غير قادر على النوم هو من رأى تشنجات الشيخ وهو ينادي باسم أبيه. انتفض عبد الله أخيرًا مذعورًا من حلمه، أغمض ياسين عينيه نصف إغماضة في توجس. بهتت رؤيته فلم يمكنه التيقن وهو يتذكر في الصباح التالي أكانت عينا عبد الله تبكيان أم لا. ما هو أكيد منه أن الرجل قام من رقاده وعلى وجهه حزن لم يره ياسين من قبل أو من بعد، مشى على أصابع قدميه حتى لا يحدث صوتًا، رقد بركبتيه جوار أبيه الغارق في النعاس ثم قبل جبينه قبلة طويلة، قبل أن ينهض ليغادر حاملًا كل حاجياته إلى الصحراء الواسعة..

8

ارتعدت الأرض تحت قدمي إسماعيل، حتى ظن أنه قد زلزل زلزالها. لثانية أعاد النظر إلى السماء ليتأكد أن الشمس تشرق من مكانها المعتاد. الصراخ الرهيب القادم من الملاجئ لا ينذر إلا بالقيامة.. عبد الله مختفٍ منذ ثلاث ليال، وياسين منذ الفجر في الملاجئ بحثًا عن رغيف.

الصراخ جماعي يحمل هلع رجال ونساء. نسي أوامر حسين، رفع ذيل جلبابه وقبض عليه بأسنانه حتى لا يتعرقل وسط العدوالذي بدأه. على أقصى حدود البصر يرتفع جدار من غبار، صاعدًا إلى السماء. ربما انهار أحد المباني.. هذا ليس مستبعدًا بالمرة مع كل التكدس الحاصل. كان يمرق من الحواف الخارجية عندما سمع صوت الرصاص. زخات بلا عدد أسقطت قلبه بين قدميه، لكنها لم توقفه. المباني التي يمر جوارها خالية على عروشها.

- أين ذهب الناس؟

بدت الفجوات الواسعة في الأبنية كتجاويف أعين فقدت مقلها، تحدق في الخواء بقلوبها السوداء المعتمة.. جماجم عملاقة مشذوهة من أسمنت. حلت لحظة من صمت مفاجئ، كأنما خرس العالم بعد زخات الرصاص الأولى. لا ريح، حتى احتكاك أقدامه الحافية بالأرض كان أبكم. مرت اللحظة وشق الهواء صراخ امرأة طويل حاد. أفلت قلبه دقة وسط نبضاته المتسارعة.. حزن جارف حملته أجنحة الصرخة، انسال من أذنيه إلى قلبه. أسرعت به خطواته أكثر وأكثر نحو الغبار الذي يملأ الجو. الصرخة الوحيدة اجتذبت آلاف الصرخات الأخرى، الدوي يصم الآذان.

وصل الميدان الأخير قبل السور، ظهور الناس جدار من لحم ... الطريق، الحلوق تصرخ واللحم يزداد انضغاطًا.. كل الناس هنا! ... من فجوة في جدار مبنى، صعد الدرجات في بضعة قفزات، دخل ... الغرفة التي تطل على الميدان ليجد ياسين راقدًا على بطنه في أحد ... أركان يراقب. رقد جواره فأحس بالماء الدافئ يبلله، الجسد الهش ... صغيره يرتعش، حين أمسك بكتفه ليوقف ارتعاده التفت له ياسين، ... وان لم يتعرف عليه الولد من فوره، عيناه طافحتان بخوف حيواني لم ... إسماعيل طوال حياته، احتضنه ونظر.

رأس الدسوقي مرفوعة على عمود معدني أسود بينما ما تبقى من ... في مخه لم يعد سوى مطر لزج، يروي الأرض الترابية.. امتدت يد ... طويلة الأصابع لتنغرس في العين اليسرى فتفقأها. فهم إسماعيل ... أخيرًا فهمس:

ـ الفئران.

القلب الصغير للميدان فارغ أو يكاد، تلاصق الناس واندمجوا ... حلقة متجمدة متماوجة تهرس أطرافها. الفئران بثيابهم الجلدية ... الكالحة على حواف الدائرة رافعين بنادقهم وسيوفهم وجنازيرهم. ما ... يقرب من خمسين جثة بلا رأس تحت الأقدام.. رجال رشوان الذين ... لم يستطيعوا أن يهربوا. السور البائس محطم في الخلف، وقد استحال ... نصفه ترابًا تلوكه الريح. الوجه الناحل ذو اللحية الشعثاء تذكره إسماعيل ... من فوره، العينان الناريتان لا يمكن نسيانهما. لولا بعض من ذهول ... لأغرق إسماعيل الأرض كولده.

منصور الفار يمشي في تؤدة، يتأمل الجمع فردًا فردًا، منجله الكبير قاني اللون يلمس الأرض فيعبث في أحشائها.

- أحضروهم.

قال منصور لتابعه الذي يقف خلف على مسافة غير بعيدة، فانطلق الرجل إلى مدخل أحد المباني.

لم يتعرف إسماعيل على رشوان في البداية.. الجسد العملاق مغبر لا يكاد أن يستره شيء، بينما تنزف جراحه المنتشرة في كل مكان. طابور من الرجال يخرجون منحنيين واحدًا تلو الآخر. مع التدقيق عرفهم إسماعيل جميعًا.. عبد الحليم، سعداوي، فضل. كل رجال رشوان المقربين، في نهاية الطابور ظهر حسين المرتجف.

- ها هم حُماتكم.

بزغ صوت منصور المنتصر قاهرًا، يحطم صداه أرضية الصمت بهيمنة..

- لم يكن هذا..

- قاطع حسين المذعور بتسرع خطبة منصور المنتظرة قبل أن يبدأها، فصفعه التابع الواقف خلفه ليسقط على وجهه يلعق الرمال.

- صمتًا.

شعر إسماعيل بأنفاس الناس تتقطع جراء الأمر الهادر.

- اخترتم لكم حماة، بنيتم لكم سورًا. قتلتم رجالي وظننتم أنكم آمنون أبدًا.

ارتفع في لمح البصر منجله الضخم من الأرض ليشق بطن عبد الحليم بسرعة خاطفة، لم تترك له الفرصة حتى ليصرخ، تدلت الأمعاء الحمراء. شهق إسماعيل والناس وعين عبدالحليم تجحظ ولسانه يتدلى من الألم.

- ها هم حماتكم.

أدار منجله ليفصل الرأس عن الجسد، تخشب الجثمان الميت لثوان فظل واقفًا دون رأس، والدماء تنبثق من بئر عنقه المقطوع. عاد منصور لحديثه عندما سقط الجسد:

- ها هو سوركم، ها هم رجالي. لا قبل لأحد بمنصور الفار.

انعكست آشعة الشمس على ذراعيه الداكنتين والتي مسدتهما الدماء، فظهرت عضلاته القوية النافرة واضحة جلية.. تقدم بخطوته الوئيدة الواثقة ليقبض على رشوان الراكع على ركبتيه. يده كلابة حديدة، قبضت على مؤخرة عنق رشوان فأجبرته على الوقوف والألم واضح على وجهه المتشنج.

- سيد الملاجئ، أليس كذلك؟

تقدم الرجلان اللذان يلازمانه كظله، بخنجرين صغيرين مزقا ثياب رشوان. صار عاريًا كما ولدته أمه بلا حياء تحت الشمس الفاضحة.. ارتجف إسماعيل في رقدته. مهما أنكرت الضغينة في قلبه أحيانًا، لم يكن يختلف عن باقي الناس، ليس السور هو ما كان يمنحهم الطمأنينه بل وجود رشوان.

- أكانت تهابك الرجال، أكانت تشتهيك النساء، أظننت نفسك سيدًا حقًا؟

الشفتان الرفيعتان أسفل غابة الشعر لا يخبران الكثير عن الابتسامة الدفينة على وجه منصور، الشهوة المبتهجة الساخرة في طيات الصوت هي ما تفعل.

ازداد ضغط أصابعه على مؤخرة عنق رشوان، أفلت التأوه الذي حاول كبته لمدة طويلة، خرج مختنقًا بيد أنه مسموع. أفلته منصور

دون مقدمات فهوى على أربع. التابعان يتحركان دون أوامر، ينفذان شيئًا متفقًا عليه كما شك إسماعيل. ركبه أطولهم كالحمار، أمسك رأسه الكبير مرجعًا إياه للخلف حتى كاد أن يحطم عموده الفقري، بينما ثبت الأقل طولًا ذراعيه في الأرض.. انتزع منصور العمود المعدني المثبت في الأرض حاملًا رأس الدسوقي الأصلع مفقوء العينين، أداره في حركة بهلوانية، عبث الهواء في الفم المفتوح فبدا حيًا، أدخل الطرف الحر في مؤخرة رشوان.

اتسعت عين رشوان التي يملؤها اللون الأحمر الآن، شهق من الصدمة ومن الألم. اختلج شارب منصور في الثانية التي سبقت حشده لقوته ليغوص بالعمود عميقًا في باطن رشوان.

صرخة رشوان تولول، تصطدم بالوجوه والآذان. نكس معظم الرجال الرؤوس، طفرت الدموع من أعين النساء. فقد منصور تحكمه في نفسه من شدة الاهتياج وهو يرى نفسه في ارتجاف الناس وفي خشية رجاله. غاص العمود عميقًا بأكثر مما أراد، نزف الدم من فم رشوان ودبره. تشنج الجسد الذي كان مهيبًا حتى أن راكبه سقط من فوق ظهره. ظل الجسد يرتعد لدقائق، حتى بعدما غادرت روحه إلى حيث ينتظرها حسابها.

- ليس هذا ما تم الاتفاق عليه، المدجنون لن يتركوك.

صاح حسين بمزيج من الرعب والذهول وهو يرى رفسات رشوان الأخيرة على الأرض الصفراء. التفت إليه منصور بعينيه الغائرتين اللتين تثيران الفزع أينما حدقتا. خرس حسين، أراد التراجع بالزحف على ركبتيه، شعر بسيف حديدي حاد يحتك بعموده الفقري فتوقف.

- ماذا تقول؟

صوت منصور يحمل صرير انغلاق باب القبر. يؤرجح منجله [illegible] وذهابًا على مقربة من الأرض. احتك المعدن القوي بحصاة [illegible]ساء فاندلعت شرارة لم ترى من وهج الشمس.

- أبي.

هذا أول صياح يخرج من الحشود المتجمدة ويفوق الهمهمة [الخ]ائفة.. لم يسمع معظم الواقفين صوت الطفلة المرتعب، لكن [من]صور الفار يمتلك أذن فأر حقًا. أدار مقبض منجله بين أصابعه ليدور [في] الهواء متراقصًا حول محوره لثوان قبل أن يقبض عليه مرة أخرى [ب]بضته الصخرية.. تفرس في الوجوه الخائفة الخرساء، حاولت امرأة [ح]سين أن تخفي ابنتها عن العينين الحارقتين بالقبض على كتفها في [تو]سل صامت. ابتسم منصور ابتسامته التي لا يراها أحد، وتقدم في [خ]طوات بطيئة نحو المرأة المفزوعة.. تراجعت هي خطوة للخلف، [د]افعة ابنتيها -الصغرى التي صرخت والكبرى- بذراعيها إلى ما خلفها.

- هذا المخنث أب... فتاتان جميلتان، زوجة ممتلئة..

تعلق بصر زوجة حسين باللحية المتقصفة والوجه الذي حرقته [ش]مس قاسية لعقود. غمز بعينيه لرجاله فاندفعوا يطوقون الإناث الثلاث المرتجفات.

عاد منصور أدراجه إلى حسين الراكع بخطوات واسعة،مال على أذنه وهمس:

- أنا أبول على الاتفاق.. وأبول على سادتك أنفسهم يا ابن العاهرة..

لف ذراعه بوحشية حول عنق حسين ليدير وجهه بقوة جبارة نحو [ع]ائلته. في نفس اللحظة قام الرجال بتمزيق ملابس المرأة والطفلتين.

- لا!!!!!!!.

- لينقذهن سادتك الآن يا عويل.

لم يستطع إسماعيل من مرقده أن يرى تفاصيل ما يحدث. فقط رأى شعر ابنة حسين الصغرى - التي تماثل ياسين عمرًا- يكنس رمال الميدان. صرخات الاغتصاب وصلت أذنيه ترافقها عويل حسين طفلتان الصغرى في السادسة والكبرى في العاشرة من عمرهما يرسمهما خياله المرتجف أسفل رجال بوجوه خنازير. على وجنتيه انزلقتا دمعتان شفافتان ما لبثتا أن اختلطتا بكل العرق والتراب فتجمدتا كالطين في منتصف وجهه دون أن يشعر.

- أبي ماذا يفعلون بنعمة؟

نظر لياسين غير فاهم.. لدقائق كان قد نسيه، نسي نفسه ومكانه، لم يعد هناك سوى الشيطان الذي حطم أصفاده وأتى للغافلين. الفزع.. الفزع أنساه الهرب، الفزع جمده كما يجمد الناس. استعاد قلبه كلمات حسين القديمة، مال برشاقة أكسبه الرعب إيّاها فرفع ابنه على كتفه كجوال صغير. نزل الدرجات في قفزتين، جرى بكل قوته ميممًا وجهه شطر التلال، سيعبرها هذه المرة..

- اهرب أو مت يا إسماعيل.. اهرب أو مت.

1

- متى تمطر هنا؟

تعلق سؤاله في الهواء وهو ينظر من زجاج نافذة مكتبه. فتحي وهاجر كانا غير متأكدين من كونه يسألهما أم يخاطب نفسه، فظلا صامتين. التفت لهما، حدق في العيون العسلية الواسعة لهاجر:

- لا إجابة؟

ارتبكت أمام نظرته للمرة الثالثة هذا اليوم. يبدو هذا واضحًا له جدًا، يتورد خداها فيتألق النمش الخفيف بشكل ساحر. يأسره الألق الطبيعي هذا، يدفعه للتحديق فيها أكثر فأكثر.

- لا يوجد فصل محدد للأمطار، قد تمضي سنوات دون مطر.. السنوات الماضية كانت مجدبة..

قال فتحي بشكل إلى غريب على الجلسة الودية التي يحظون بها:

- السنوات المجدبة تعني أمطارًا عظيمة قادمة..

- خرافات وسخف.

أشار له آدم بأصبعه فأسكته، جلس على مقعده بالقرب منها ليصغي:

- ليست خرافات، في طفولتي مرت علينا سنوات بلا مطر تبعتها سيول هائلة... ألا تذكر،سقف قسم البنات في المأوي تهاوى.

- قد كان مليئًا بالشروخ.
- أنت أحمق.. كانت السيول ولا شك.

حرارة غضبها جميلة حريفة، ارتسمت ابتسامة على وجه آدم وهو يتأملها. هز فتحي رأسه رافضاً، شمس الظهيرة تبعث نورها لينعكس على أسنانه البارزة..

- لم تتغيري لا زلتِ تصدقين الأوهام.

لا بد وأن كلمات فتحي مست شيئًا فيها، لاحظ آدم حدقتها تضيق وهي تنظر لفتحي في عينيه قبل أن تحني رأسها.

- حسنًا.. حسنًا، لا داعي للشجار. أنا لست ذاهبًا إلى أي مكان، السماء ستقرر من منكما على حق.

قاطع ما شعر بأنه ضيق على وجه هاجر. تململ قدميها أخبره بأنها على وشك أن تقوم. ضايقه هذا دون سبب.

- فتحي.. أريدك أن تذهب إلى مبيت الأطباء، أريد توقيعهم على استلام الأجهزة التي وصلت بالأمس.

قفز فتحي واقفًا في نشاط،أومأ برأسه وتوجه خارجًا تتبعه هاجر. ما إن غادر محيط الباب حتى نادى آدم بهدوء:

- هاجر.

التفتت بشعرها الكثيف، تحسست أصابعه المكتب في رقة..

- لقد سئمت من طعام الفندق، ألا توجد مطاعم جيدة هنا؟
- هناك خمسة مطاعم أجنبية للضباط يا مستر آدم، يقال أن أفضلهم هو الموجود بتقاطع النصر.. سأحجز مائدة لك.
- مائدة لشخصين.

نظرت له في عدم فهم، أبهجه انعكاسه في البؤبؤين الجميلين.

ـ ستأتي معي، إن لم يعجبني الطعام سأجعلك تدفعين الفاتورة..
ضحكت، ضغطت أصابعه المكتب وهو يقوم مبتسمًا.

2

المطعم الخامس على التوالي. اعتاد تحديق عيون الضباط وزوجاتهم في مائدته، لم تعتد هاجر هذا بعد.. لن تعتاده أبدًا على الأرجح.

اختار له ولها طبقًا فرنسيًا. أحبت الطعام الإيطالي، لم يعجبها السويسري، كيف انتهى الأمر إلى أن يذيقها كل مرة الطعم الغربي للحياة؟اطراقتها الرقيقة وهي تشعر بالعيون النسائية تجذب فستانها السماوي ذا الكمين القصيرين، يتحسسن قماشه. آدم يشعر بعيون الرجال تخلع الفستان، تشتهي ما يخفيه. مس يدها عرضًا، شعر بالإجفال تحت أصابعه.

ـ أعتقد أن طبق اليوم سينال إعجابك.

ـ أتمنى هذا، معدتي لم تتوافق مع طعام المرة السابقة..

ابتسم وهو يتذكر المرة الأولى التي تناول فيها الطعام السويسري، طالبًا في أجازة نصف العام الجامعية لا يملك شيئًا سوى بضع يوروهات وحقيبة ملابسه الصغيرة على ظهره. العمل في البارات ليلًا، مشاهدة البحيرات والجبال. الجبال.. في سويسرا تمتد جبال الألب أيضًا. ماتت ابتسامته وكان هذه المرة دوره في الإطراق. أربكها تجهمه المفاجئ، فتعلقت عيناها به.

ـ هذا هو المطعم الأخير في المدينة..

ـ هممم.

- لكنه لن يكون متاحًا بعد غد.
- لماذا؟
- عيد النصر بعد غد... كل الضباط وأسرهم سيكونون في العرض العسكري، كل المحلات مغلقة..
- أي نصر؟

تلجلجت وهي تضيق عينيها في محاولة للتذكر. لم تكن تحب دروس التاريخ قط.

- لا أذكر، فتحي.. فتحي يذكر بالتأكيد.
- لا يهم... وما الذي تفعلونه في عيد النصر؟
- نحن؟ لانفعل أي شيء. نجلس في البيوت، العيد لأهل المدينة فقط.

ظهر النادل أخيرًا وهو يحمل الأطباق. بشرته لوحتها الشمس، خطواته ثقيلة لا تحمل رشاقة النوادل التي اعتاد آدم رؤيتها. لا عجب أن الأجانب المقيمين لا يأكلون أبدًا في هذه المطاعم. تقليد أخرق لما تسمعه المدينة عن الغرب.

تناول الحساء بملعقته، طعم المحار سيئ أثار اشمئزازه، بينما ظهر الرضا على وجه هاجر وهي تأكل.

3

- إذن سيعيش الناس إلى الأبد... أهذا ما تخبرني به؟

سأل الضابط هاني وفي عينيه الضيقتين عدم تصديق هائل. وضع أحد الخدم طبقًا صغيرًا من المشهيات في نفس اللحظة أمام آدم، فتظاهر بأنه لم يسمع.

القاعة الفسيحة تقع على البحر مباشرة، فكان النسيم الذي يأتي من النوافذ العملاقة المشرعة عليلًا، على عكس الصباح الخانق. رائحة الطعام كانت شهية أيضًا، والمقعد الوثير القريب للغاية من طاولة الجنرال من المفترض أن يعطيه شعورًا بالراحة والكثير من التشريف. إلا أن المرارة انبثقت داخله لا يعرف لها سببًا. تفتش عيناه القاعة بحثًا عن شيء ما. مال الضابط هاني برأسه ليقترب منه وهو يعيد سؤاله، هذه المرة بوتيرة أبطأ، تحمل في طياتها بعض الخشونة..

- لم أخبرك شيئًا، كل ما أقوله هو أن الناس سيظلون أصحاء بلا مرض.

نظر في عيني هاني ببعض التحدي، وابتسم وهو يتابع:

- هذا لا يمنع بكل تأكيد من أن تنفجر خصياتهم مللًا فيموتون.

لم يفهم هاني التلميح، حانت منه التفاتة إلى الجنرال الذي يضحك ملء شدقيه من مزحة ما قالها رئيس أركانه الضامر.

- لكن هذا.. هذا كفر، محال أن يحدث هذا.

- لم تريد للناس أن تموت يا هاني بك؟سأله ببراءة عينيه الواسعتين. سماجة الضابط تضغط على صدره، منذ أيام وهو يلازمه بلزوجة ذباب الصحراء. فكر في أن بعض العبث قد يجعل الأمور أقل مللًا.

- ماذا؟ما الذي تعنيه؟

نقل آدم بصره بينه وبين الجنرال الذي يبرز للمدقق تحت طبقة انتشائه، إرهاق اليوم من حرارة الشمس وطول العرض العسكري. فهم هاني نظرة آدم فاحمر وجهه واربد، حينما انعكست الأضواء على أسنان آدم المثالية في ابتسامة ممتدة اندفع في الحديث بغضب.

- لا يأتي من الغرب خير أبدًا... بلاءات العالم بدأت من أرضكم. كل الشعارات التي صدرتموها، لتبتلع الحروب الناس. مؤامرة طويلة لن تنتهي حتى تحكموا العالم، والآن تريدون أن تعيشوا للأبد حتى تروا نجاحها.
- مؤامرة طويلة!! عاود آدم الابتسام وهو يتأمل الوجه المحتقن
- بالطبع أتظنني غرًا. يد الغرب خلف كل الحكومات وكل الثورات والمصائب.
- أتعلم.. غالبية الناس في كل أركان الأرض على اختلاف مشاربهم ودياناتهم وعرقهم يؤمنون بأن هناك نوعًا من المؤامرة تجري عليهم في الخفاء. حيرني هذا كثيرًا ثم أدركت أنه منطقي للغاية، ما إن تتجاوز طور الطفولة حتى تستشعر وجود خطأ ما في هذا العالم، نحن فقط نمتلك القدر الكاف من النرجسية كي نعمى عن الحقيقة الواضحة، الحقيقة أننا نحن البشر الخطأ الوحيد في هذا العالم والسبب في بلائه.

مرت لحظات وضح فيها أن هاني لا يستطيع تحديد إن كان يحادثه بجدية أم أنه يسخر منه. في النهاية أزاح مقعده للخلف وغادره دون كلمة.. أراح هذا آدم قليلًا، مشى ببصره في القاعة المكتظة وهو يجاهد الثقل الخفي على صدره. الطاولات مزدحمة بالبزات العسكرية

ات اللون البني الفاتح والنياشين اللامعة التي تعكس كل إضاءة هابطة ن السقف الجصي العالي. ظل يفتش دون هدف إلى أن استقرت ظرته على الشعر البني الكثيف الثائر في عنفوان. ابتسمت شفتاه وهو همس دون صوت:

ـ هاجر.

أصر والدعوة توجه له أن يأتي معه بكل العاملين بالشركة، امتعض الضابط هاني وأخبره بصلف أن عيد النصر السنوي لا يحضره سوى كبار الضباط، ودعوته في حد ذاتها كرم استثنائي من الجنرال. ظل آدم عنيدًا كصخرة، يعلم أهميته للمدينة وللجنرال وأنه لا مجال للمخاطرة بإغضابه من أجل حفل تافه. رضخ هاني في النهاية على أن يكون للعاملين مكان في الحفل فقط دون أن يحضر منهم أحد العرض العسكري الكبير.

ـ لا يا صديقي، هذا الشرف لي وحدي.

قالها مجاملًا لتهدئة الأجواء، عالمًا أن ساعات من الشمس المعمية للعيون والحرارة القاتلة تنتظر لتبتلعه.

دار وجه هاجر نصف دورة وهي تتراجع لتتيح للخادم وضع طبق المشهيات أمامها. في عينيها الواسعتين ارتباك وبهجة.. تأملت طبقها كقطة فضولية، مدت يدها الصغيرة لتتذوق قطعة صغيرة من الجبن المتبل بشوكة فضية لامعة، أغمضت عينيها لثانية والطعام ينشر طعمه الجديد على لسانها، ابتلعت وابتسمت.

حين ميز السعادة في عينيها ابتسم هو الآخر... ابتسامة حقيقية نادرة الظهور. التفتت هاجر لتتكلم مع فتحي الجالس جوارها، ليكتشف آدم نظرة فتحي المثبتة عليه. التقت العيون للحظة..

- ما الذي تفعله يا آدم؟

همس لنفسه دون صوت. استدار ليواجه الفرقة الموسيقية والتي تعزف لحنًا كلاسيًا غربيًا. لماذا أصر على حضور مساعديه إلى الحفل، هل أراد فعلًا أن يزداد ارتباطهم بالعمل، العمل الذي لا زال لم يبدأ بعد!!

- أم أردت إسعادها هي تحديدًا؟

هرب بفكره قدر المستطاع. عازف الكمان الطويل يأتي بنغمة تحمل شجنًا حقيقيًا تحت طيات اللحن الراقص. نغمة تذكره بظلمة عميقة وثلج غاضب وعلو شاهق موحش. السيمفونية الثالثة لإبرامز أدرك الآن سر عدم الارتياح الغامض الملازم له والضاغط على أعصابه.

قام من مقعده، اشتبك بصره بالجنرال فأحنى رأسه في كياسة قابله الوجه الغليظ بابتسامة أكثر غلظة.. تحرك برشاقة بين الطاولات، معطيًا ظهره للحفل محاولًا عدم سماع الكونترباص الذي يناديه بإغواء كي يفتح باب روحه المغلق. عبر بابًا زجاجيًا عملاقًا مشرعًا، بعد ثلاث خطوات واسعة كان غادر محيط الصخب وتجاوز الأرضية الرخامية.. شعر بالرمال الناعمة للشاطئ تحت حذائه.

القمر أبيض ساطع كمصباح فلورسنت على وشك الانفجار، بينما تتهادى مياه البحر في أمواج هادئة تمس الشاطئ برقة كأنما تقبله. الهواء العليل ينفذ من بذلة السهرة السوداء. أرخى ربطة عنقه وحل أول زرين من قميصه. أغمض عينيه، ليغسل صوت البحر رأسه من أدران الأفكار الموجعة..

استغرق فيما يفعله فلم يسمع صوت الحذاء النسائي ذي الكعب العالي على الرخام من خلفه. توقفت هاجر وهي تنظر إليه واقفًا بلا حركة كتمثال. ظهر التردد على وجهها وهي تلتفت إلى القاعة الصاخبة من خلفها. خلعت فردتي الحذاء، أمسكتهما بحرص حتى لا تمسهما الرمال. تقدمت نحو آدم الغارق في دواماته.

ـ مستر آدم.

أتى صوتها مبحوحًا قليلًا. استدار متفاجئًا فاستطاعت أن ترى الألم على محياه الوسيم لوهلة قبل أن يدفنه في سرعة وهو يبتسم، ابتسامته الساحرة المعتادة..

ـ هاجر.. الشاطئ جميل هذه الليلة، هل تستمعين بالحفل؟

هزت رأسها إيجابًا. الهواء يطير شعرها الكثيف إلى الخلف، بدا وجهها صغيرًا طفوليًا.

ـ بلى، كثيرًا. أشكرك.. نشكرك على دعوتنا.

هز كتفيه ببساطة أن لا عليك. عيناها تحت ضوء القمر جميلتان، نفاذتان، مؤلمتان. أشاح بوجهه بعيدًا عن نظراتها ليتابع العتمة السائلة التي تتهادى.

ـ هل أنت بخير يا مستر آدم.

هذه المرة كانت التفاتته نحوها مندهشة..

ـ تبدو حزينًا، وحيدًا.. هل كل شيء على ما يرام؟

مسه تيار الصدق الخارج من صوتها القلق دون أن يدري. ابتسم ساخرًا بجانب فمه:

ـ لا أحد في هذا العالم اللعين على ما يرام، لا استثناءات صدقيني.

- ماذا تعني؟

كاد فعلًا أن يستطرد، هذا أكثر ما سيذهله لاحقًا في فراشه وهو يستعيد هذه اللحظة:

- لا شيء. استدرك هو.

مست ذراعه في حركة عفوية وعيناها معلقتان بعينيه:

- احكِ.

تراجع خطوة وكأن لمستها قد آذته. تبدلت تعبيرات وجهه في سرعة بالغة، خرج صوته جافًا:

- هل اعتدتِ على التعامل مع رؤسائك بهذه الحميمية دائمًا يا آنسة هاجر؟

تجمدت في مكانها، جذبت ذراعها إلى ما خلف ظهرها.

- لا، أنا.. أنا لم أقصد. قاطعها بحسم:

- حتى إن لم تكوني تقصدين.. هناك قواعد معروفة لا يجب أبدًا أن تتجاوزيها.

أطرقت فعاد شعرها الثائر ليخفي وجهها الصغير، فستانها الأخضر قصير الكمين ظهر بشكل ما أقل لمعانًا في هذه اللحظة..

- هل تبكي؟تساءل جزء من عقله.

- أنا آسفة..

- good.

رفعت رأسها، عيناها حمراوان قليلًا دون دموع.

- لن أزعجك، سأعود للداخل.. بعد إذنك.

هز رأسه في صمت. احتاج إلى كل إرادته كي لا ينظر إليها وهي تسير داخلة إلى القاعة.. استمر في النظر إلى البحر لدقائق. عاد إلى داخل القاعة ليشير إلى فتحي الجالس بجوار هاجر يسألها دون أن تجيب.

- السائق سيوصلكما إلى حيث تسكنان.

- هناك حافلة استثنائية ستتحرك بعد الحفل، لتعيد الخدم إلى الأحياء الخلفية..

- لا... السائق سيوصلكما،أريد المشي وحيدًا إلى الفندق.

تأمله فتحي في سكون قبل أن يقول بصوته الخافت المراوغ:

- أنت الرئيس يا بك، كما تأمر.

ذهب آدم إلى الجنرال رأسًا ليستأذنه في الانصراف، أثنى على عظمة الاحتفال وتمنى سنواتٍ عديدة قادمة من الرخاء. ألقى نظرة عاطفة على هاجر التي استغرقت في سماع ثرثرة ما من فتحي. الدجوي الصغير اضطر إلى اصطحاب امرأته، المرأة النحيلة كسكين لم تفارقه ولو لحظة منذ أن حضرا، خمن آدم أنها تعرفه جيّدًا. هاجر في أمان هذه الليلة..

سار في الشوارع الخالية المظلمة، لا رفيق له سوى القمر القلق اللحوح، وصدى خطواته يتعمق على الأرصفة الأسمنتية.. في ردهة الفندق أمر بأن يأتيه الثلج مضاعفًا. جلس على فراشه بملابسه كاملة، يتابع الخدم وهم يفرغون دلوًا تلو الآخر. أغلق الباب بعد خروجهم، انتظر طويلًا أمام هاتفه المحمول.. أخيرًا حزم أمره وهمس:

- مريم.

تألقت الشاشة بالاسم دون صورة، استمر الرنين طويلًا قبل أن تعلن الشاشة أن لا رد. تحرك إلى داخل الحمام، ألقى بنفسه بكامل ملابسه في المغطس الثلجي.

4

لا زال صوت كاننينجهام بنبراته الحادة يتردد داخل تجاويف مخه ككرة طاولة تقفز من جانب إلى آخر دون توقف.

- أين النتائج يا مستر مملوك؟.. أين النتائج يا مستر مملوك؟

طلب من الضابط هاني أن يزور الملاجئ بنفسه للتقييم بدلًا من الاعتماد على تقارير المدجنين، تغير وجه الضابط هاني وهو يسأله صراحة إن كان يشكك في صدق المعلومات التي يأتيه بها. لن يخبره عن مدى ضغوط كاننينجهام، أجابه بأكثر الطرق الدبلوماسية حنكة أنه لا يجرؤ أبدًا على التشكيك في القدرة المخابراتية للمدينة. كلماته جوفاء في أذن الضابط، لا ينسى إصرار آدم على جعل فتحي هو المبعوث بينه وبين الفئران عوضًا عنه، الكثير من الامتيازات التي كانت قرب اليد طارت نتيجة لهذا، في النهاية قدر أن لا حاجة للتصعيد. وافق وأخبر آدم أن ينتظر أسبوعًا واحدًا حتى يمهد رجاله في الملاجئ الأرض لقدومه.

خرج آدم مسرعًا من الاجتماع، أمر فتحي الواقف مستظلًا بصعوبة تحت شجرة فيكس متوسطة الطول أن يذهب به حالًا إلى مقر الشركة.. ألصق وجهه بنافذة السيارة ليهرب من التساؤل على محيا فتحي المنتظر بصعوبة ليقفز على لسانه.

مع مرور الوقت تزداد الهواجس داخل عقله، ققفز من السيارة ما إن توقفت. عبر البوابة الزجاجية النظيفة كالعاصفة بينما يجاهد فتحي ليلحقه. حين وجد مكتب الاستقبال فارغًا انقبض قلبه حتى آلمه. التفت إلى فتحي وسأله بصوت لم يخف فيه غضبه:

ـ أين هاجر؟

ـ لا أعرف يا بك..

رفع عينيه إلى الطابق العلوي، وبعض من عصارته المعدية تتسلق مريئه مخلفة حريقًا في صدره. اتجه فتحي بهدوء إلى غرفة السعاة، بينما حزم آدم أمره بالصعود إلى الطابق الثاني.

كانت قدمه على الدرجة الثانية من الدرج الرخامي عندما ظهرت هاجر من الطرقة المؤدية إلى الحمام خلف مكتب الاستقبال. تفاجئت بوجوده. في أرض عينيها البنيتين حزن الليلة الماضية.. تفادت تلامس بصريهما، أحنت رأسها في حركة بدت عفوية، وقالت بصوت بارد:

ـ صباح الخير يا مستر آدم.

لم يفهم من قبل التعبير العربي الذي صادفه في كثير من قراءاته «أثلج صدره» سوى الآن ظل واقفًا على الدرجة الصاعدة دون حراك وابتسامة راحة تتفشى في محياه الوسيم.

ـ صباح الخير يا هاجر.

خرج فتحي من غرفة السعاة، تأملهما لثانية قبل أن يقطع الصمت:

ـ ها هي هاجر يا آدم بك، البك كان يريدك.

تساءلت بعينيها الواسعتين، التفت آدم إلى فتحي وهو يشعر بسماجته سميكة يمكن أن تقطع بسكين.

ـ يمكنك الذهاب الآن يا فتحي.

- إلى أين يا بك؟

- مخططات الملاجئ الجديدة، تركتها في الفندق وأريدها الآن.

أحنى فتحي رأسه، لم يغادر قبل أن ينظر نظرة طويلة إلى هاجر الصامتة..

- هل أتى الدجوي؟

- لم يأتِ بعد.. في الغالب سيأتي بعد قليل، هل تريدني أن أتصل لك به؟

- لا.. لا أريد منه شيئًا، لكن هناك قاعدة جديدة في العمل عليك تنفيذها.

- وما هي؟

كان قد وصل إلى المكتب الزجاجي المصنوع على شكل قوس، وضع يده على الزجاج متلمسًا برودته. اضطرتها وقفتها إلى النظر إلى عينيه مباشرة..

- لا يسمح لك بالمكوث في مكان منفردة مع الدجوي.

انعقد حاجباها جميلا الشكل غير فاهمة..

- أعلم أنه ذئب، يطارد الحملان الخائفة.. لكنك الحمل الذي أحميه. حينما لا أكون موجودًا هنا غادري المكان، اذهبي حيث تشائين. إن سألك قولي فقط أنها أوامري وأنني بعثتك لمهمة ما.

رأى انعكاسه في بؤبؤي عينيها المتأرجحين في فتنة حائرة..

- ولكن.. ولكني...

ـ هذه طريقتي في الاعتذار عما حدث بالأمس، لست في الغالب بهذه السماجة..

تورد خداها، مع اقترابه منها لمح شذراتِ النمش غير المكتمل علة وجنتيها وفوق أنفها.

ـ لا داعي للاعتذار، لم يحدث شيء.

الدفء في قلبه ينتشر إلى أطرافه ببطء. ربت على يدها برقة وهو قول بصوت خفيض:

ـ بل هناك.. هاجر أنا آسف.

شعر بالارتعاشة الخفيفة في أناملها، فترك يدها ببطء قبل أن أخذ نفسًا عميقًا.

ـ الآن على الذهاب مرة أخرى إلى الفندق، سيمنعون فتحي من الصعود إلى غرفتي.. لكنه دؤوب بشكل مفرط، أخشى أنهم سيبلغون عنه الأمن.

ضحكت بأكثر مما تحتمل الدعابة، في خليط عاصف من التوتر والسعادة والارتباك. غمز لها واتجه إلى الباب الزجاجي. قبل أن يخطو صوب الشمس الحارقة التفت لها:

ـ ستتذكرين القاعدة الجديدة؟

ـ بالطبع يا مستر آدم.

أعطاها أعذب ابتساماته، ابتسامة حقيقية للغاية..

1

- التلال ستحمينا.

يكررها همسًا في لهاثه عسى أن يسمعها ياسين الراقد على كتفه فيطمئن، يكررها همسًا عسى أن يصدقها قلبه فتتماسك عضلاته التي تصرخ ألمًا. لم يعد يعدو منذ برهة، يجر قدميه جرًا، والأرض التي بدأت تتغير وتصبح أكثر صلادة ترتفع تدريجيًا، فتستنفد طاقة أكثر وأكثر من جسده المنهك. الشمس تغرب من خلفه، فبدا أنه يهرب إلى جوف الظلمة.. كثبان صفراء وحمراء تلوح كشواهد قبور كلما اقترب منها.

كم مر من الوقت منذ أن هربا؟ لا يدري بالضبط. هل كانت الشمس في منتصف السماء حينما طرحت نعمة الصغيرة على ظهرها عارية أمام العالم، أم كانت قد بدأت طريق المغيب.. يحتاج هو هذه الأسئلة لتشغل رأسه عن تشنج عضلاته القريب، لكن الأسئلة حبلى بالصور، والصور شظايا من زجاج مغروسة في القلب تمزق المنياط فتنزف الروح.

حينما وصل أخيرًا إلى قاعدة التلال كان المساء قد حل. لم يغادر فراشه منذ سكن الخرائب لذا لا يعلم حال القمر. تمنى في قلبه أن يكون محاقًا فلا يتمكن أحد من رؤيتهما. خطر التعثر في هذه الأرض الصخرية عندما يعجز البصر، لن يكون أكثر هولًا من أن يتعقبه أولئك الذين يقرضون الملاجئ الآن سطع القمر بدرًا.

بالطبع سيكون بدرًا.. ما الذي يمكن أن يجلبه له قدره سوى عتمة حين يريد الضياء، وبدر حين يحتاج المحاق. أنزل ياسين من

فوق كتفه مكرهًا، لن يستطيع تسلق هذه التلال والصغير مستلق، حمله سيودي بهما مع أي تعثر. فوجئ أن ياسين مستيقظ، مع كل هذا الهدوء خمن أنه قد نام، عيناه نصف مغمضتين وأثر ظاهر لنهر جاف من دموع تحت وجنته الناعمة..

- لا بد أن نتسلق سويًا، عليك أن تتبعني كظلي.. لو افترقنا ضعنا يا ياسين.

لمح الرعشات العصبية في الذراعين والقدمين لكنه لم يتكلم، لا وقت لهذا الآن عليهما أن يكونا بعيدًا قدر المستطاع قبل أن يأتي الفجر. قد لا يكتفي الفئران بالملاجئ فيتجاوزونها، كلما كان أكثر بعدًا كلما كان أفضل.

الصخور قاسية فقدت حرارتها أسرع من الرمال، فوخزت برودتها يديه. حاذر في صعوده من القمم المدببة التي يمكنها بسهولة أن تشق باطن كفه على قسوته. الخطر الأكبر يأتي من موضع القدم كلما ازداد ارتفاعًا، شيئًا فشيئًا تصبح الأرض التي كان عليها منذ دقائق هاوية جديدة تنتظر السقوط بشغف.

مع كل متر يصعده ينظر إلى ياسين، البدر ينعكس على الشعر الأسود الذي جمدت نعومته الأوساخ والعرق. يبلي الصغير بلاءً حسنًا رغم كل شيء، فلم يتخلف عنه كثيرًا. في منتصف المسافة بين القمة والأرض الرملية الراقدة بالأسفل سمع هسيسًا تحمله الريح المتوسطة القادمة من يمينه. لم يفكر في صعوده بما قد تحويه التلال من ثعابين وعقارب، توقف من لحظته. نظر له ياسين بعينين متسائلتين وأنفاس متهدجة.. تحسس إسماعيل الصخور الناتئة بحثًا عن حجر متقلقل، وجدت يده واحدًا، فتعلق باليد الأخرى وقذف بالحجر إلى حيث

خمن مصدر الهسيس. لن يرهب هذا أي ثعبان، لكن هي الحاجة لفعل أي شيء.

أمر طفله أن يتعلق بجلبابه ليعتلي ظهره ويحيط عنقه بذراعيه شعر بالثقل الحاد يضيق أنفاسه بشدة، ليس هناك أي حل آخر في رأسه. عاود تسلقه ببطء أكثر، أنفاس ياسين الحارة التي تلفح مؤخرة عنقه، جعلته أكثر اطمئنانًا فتابع التسلق متجاهلًا الانقباض الذي بدأ يوخز مؤخرة فخذه الأيسر.

مرت ساعاتان كاملتان قبل أن يصل إلى القمة العليا من سلسلة التلال. جسده الغارق في العرق يستجدي الراحة مع كل حركة، ألقى ياسين بجسده فوق الأرض الحجرية دون أن يكترث بما يمكن أن يكون تحته. بإرادة خارقة أجبر إسماعيل ساقيه على مواصلة الانتصاب، جال في المكان الوعر والقمم المدببة للأحجار البازلتية القاسية تخمش قدميه الحافيتين. وجد أخيرًا شقًا بين الصخور واسعًا بما يكفي له ولياسين متلاصقين، قذف داخله بعض الأحجار وأصغى... لم تكن هناك أية حركة.. الأنفاس المنتظمة المرهقة لياسين منعته من أن يوقظه، طفرت دموع الوجع الجسدي من عينيه وهو يرفعه على ذراعين متصلبتين بآخر طاقاته، أراح ظهره بصعوبة داخل الشق المظلم، مال برأسه على ياسين الغافي وبكى دون صوت، وكأنما تسرب توتره مع دموعه لم يدري متى ولا كيف نام قبل شروق الشمس.

2

أيقظه عبث ياسين بالقرب، صوت الخشخشة وقلقلة الأحجار استطاع أن ينفذ إلى نومه الحالك الأسود، المصمت بلا أحلام. فتح

عينيه ليجد الليل حاكمًا قبضته على العالم. أفقده النوم كل ساعات النهار. غضب، وازداد غضبًا وظهره يتصلب من الألم وهو يحاول الوقوف. اضطر للاستناد على قبضتيه، أغمض عينيه ليتحمل زئير عظامه المعترضة.. خرج من الشق المعتم إلى قمة التل السابحة دون اكتراث في قطرات النور الأبيض الفاضح، نظر من عل فشاهد وسط ضباب المساء الذي ينتشر كذرات من قطن مندوف الملاجئ الرابضة، لا زالت غير بعيدة كفاية رغم كل ما عاناه. لعن نفسه دون صوت وهو يحسب الوقت الذي أضاعه والذي كان كافيًا للابتعاد أكثر عن الخطر.

ـ ماذا تفعل يا ياسين؟

أجابه الطفل منهمكًا دون أن ينظر إليه، ويده تعبث وتتحسس الصخور دون كلل.

ـ أبحث عن طعام.

ـ طعام!!.. أي طعام يمكن أن نجده هاهنا فوق التلال يا ذكي؟

ـ حشرات.. ديدان.

أخرسته الاجابة، لوم جديد يضاف إلى همومه، كان يجب أن يكون متجهزًا كما اعتاد دوما بالماء والطعام. تعامى عقله عن حقيقة أنه لم يكن هناك أي شيء ليتجهز به من الأساس.

قمة التل ضيقة على غير ما ظن، مساحة لا تتعدى خمسين خطوة بالكاد وتنتهي بمنحدر خطر قليلًا، يفضي إلى الصحراء مرة أخرى. جانب التل الملاصق زلق لا يمكن تسلقه. بعدما استعاد كافة حواسه وراح النعاس، انتبه لمخالب العطش التي تنشب في حلقه. يعلم أن ياسين هو الآخر عطش مثله وربما أكثر. مرارة العجز تتزايد بلا نهاية فيما يبدو ولا حيلة لديه، هذه هي الليلة الثانية دون طعام أو ماء. إن

ظلا في هذا القفر ليوم آخر فلن يمكنه التأكد إن كانا سيملكان القوة الكافية لنزول المنحدر. غض الطرف عن تحذير قلبه ورفع جلبابه ليحيط به وسطه.

- سنعود إلى الصحراء.

قالها بصوت ينقصه الحزم. هز ياسين رأسه الصغير في تفهم، هو أيضًا فكر فيما فكر فيه أبوه.

- نضج قبل أوانه بكثير يا سعاد.

شكى لها كأنها حية بجواره، مع أول خطوة لقدمه المتشككة على المنحدر نصف الرملي تساءل إن كان هذا هو أول بوادر هذيان العطش.

حاول أن يكون حريصًا أثناء النزول، القمر الكاشف في السماء الجدباء قد يظهر الغبار الناتج عن اندفاعة غير محسوبة.. نجح معظم الوقت بيد أنه انزلق في مرة بعد أن مادت به كتلة رملية خبيثة، فسقط على ظهره قاطعًا بضعة أمتار وأظافر الأرض تمزق إليتيه وظهره وكتفيه في شراسة.. ابتلع الألم ولم ينطق بينما تتوالى الجروح والسحجات، ياسين هو من صرخ صرخة واحدة مناديًا أباه.

- هششش.

أمرَ قاطعًا، الصحراء خائنة لعوب، في بعض الأحيان تبتلع الصرخات والغاضبين، في أحيان أخرى تضخم الهمسات وتفضح الهاربين. صمت ياسين مع الأمر وانحنى ليرى مصاب إسماعيل.

- لا عليك.. أنا بخير.

إن ضعت.. ضاع، مهما أهالوا عليك من رمال ستحفر طريقًا لترى الشمس.. لن تدفن الآن.

شعرت قدميه باستواء الأرض قبل أن تجده عيناه، احتمى بصخرة وهو يجذب ياسين. ضباب الليل أكثر كثافة هنا، لذا أصاخ السمع بنبهة، انتظر حتى تغلب على لهاثه وحتى تخلى ياسين عن تهدجه. أغمض عينيه ليزيد من قدرة أذنيه. صوت الريح يعزف على الأوتار الناعمة للرمال ولا شيء آخر.

رفع رأسه إلى أكثر النجوم لمعانًا في السماء، دليله إلى الشمال. احتفظ في ذاكرته بهمسات الراحلين التي تذكر أن خلف التلال توجد محطة تحمل المتبرعين إلى المدينة، محطة يحرسها المدجنون. تقع المدينة في الشمال، يراهن بيأس أن المحطة لا بد وأن تقع هي الأخرى في الشمال. سار مع ياسين في العراء الذي تسبح في هوائه حبيبات الماء الباردة، التي لا تروي ولا ترى. ملتصقين.. صامتين، أنفاسهما تتلاحق كأن كلًا منهما صدى للآخر، والنجم يتقدمهما بنوره الثابت. أنفاس الريح الباردة تتشممهما، جائعة تبحث عن أي دفء بداخلهما لتلتهمه. رتابة الخطوات تستدرج عقله لفخ الشرود، تعيد مخيلته إنتاج مشهد حسين الصارخ. عكس الواقع صار قادرًا الآن على رؤية وجهه الحليق بكل تفاصيله. ما الذي حدث له الآن، هل تركوه ليعيش... إن فعلوا كيف سيحيا مع ما حدث لابنتيه وزوجته؟

«أنا رجل ضعيف.. لم أقتل فأرًا عند محطة القطار، رقدت في الرمال مع عائلتي بلا حول.».

هل مات رشوان حقًا؟. حينما تفيض الدماء من الجوف فالموت حتمي، رأى هذا عديد المرات من قبل، أي موت هذا!! عاريًا أمام الناس وعمود خشبي في الدبر.

الفراغات بين النجوم في السماء شديدة السواد، هوة مقلوبة مخادعة تلتهم النور. اعتاد أن يرى جمالًا في التناقض بين النور والظلمة، اعتاد عبد الله على التسبيح كلما رفع رأسه إلى السماء... عبد الله! أين اختفى، ذهب دون خبر. هاتف في المنام أمره بالهروب؟كان عليه أن يخبره. كان ليسمع كلامه ويرحل معه دون نقاش. كيف هان عليه التخلي عنه.. كيف ترك ياسين لهذا الخطر. ألف كيف تعصف برأسه، تطرق جمجمته من الداخل فلم يسمع حفيف الانزلاق فوق الرمال على المقربة.. ياسين هو من توقف على أطراف أصابعه كالقط، أمسك بجلباب إسماعيل الذي لم يعد إلا خرقة بالية ممزقة من الأمام والخلف متماسكا حول جسده بأعجوبة..

- هناك.

همس ياسين بصوت مشوه من أثر الصخرة الصغيرة الملساء التي وضعها تحت لسانه، الصغير يتعلم. ربض إسماعيل جارًا ياسين خلفه بحكم العادة لا أكثر. مرت دقائق شديدة الطول على القلب، لا صوت فيها سوى غناء الريح الموجع عن الموتى والعطش والخواء. تنهد إسماعيل بصوت مسموع:

- لا شيء هناك... هي الريح.

ظل الولد ممسكًا بجلبابه،منعه من النهوض.

- هناك.. استمع جيّدًا، بكاء رضيع.

أغمض إسماعيل عينيه، بصعوبة التقط صراخًا مكتومًا يغمره صخب الريح.

- لا بد أن نرى.

هز إسماعيل رأسه رافضًا. الفئران لا يملكون صغارًا هذا حق، بيد أنه لا يعلم من حول هذا الرضيع. انبثق في رأسه تحذير من طفولته الغابرة أنساه إيَّاه ركام الأيام.

«الجن يجولون على أطراف الملاجئ والمزارع، يطوفون ليجذبوا الصغار بأنوارهم اللامعة وأصواتهم الجميلة، يستدرجونهم إلى قلب الصحراء فلا يعودون أبدًا.».

كررت أمه القصة ليلة بعد ليلة حتى نقشت داخله. تخشب جسده فلم يقم من مكانه. ياسين بلا صبر، ترك جلباب أبيه وانسل بعيدًا ناحية الصوت.

- ربما هم مثلنا.. ربما يملكون ماءً.

- ياسين..ياسين.

غامر بالنداء، تلقى أذنٌ صماء وأقدامًا مبتعدة.. نهض يعدو خلف ياسين. مجرد الظن باحتمال وجود الماء عبث برأس طفله، يتقافز في عدوه، يتفادى الكثبان المتحجرة السوداء، تحرسه قوى خفية من حواف ترابية متكلسة حادة كالخناجر. هجرت هذه القوى إسماعيل فيما يبدو، تلقى باطن قدميه عديد الطعنات، زاد من حدتها برودة الحواف.

في النهاية وقف ياسين حائرًا، الأرض منبسطة أمامه بلا حدود، والقمر الأبيض تشوبه صفرة عليلة فلم يعد منيرًا بقدر ما كان بالأمس. وصل إليه إسماعيل لاهثًا وقبض على كتفه الصغير.

- يا ابن ال...

رفع إليه ياسين رأسه، لم يكن خائفًا من غضبه، خيبة الأمل هي كل ما ظهر على الملامح الدقيقة..

- لا أحد هنا.

أشار لياسين بالصمت، وانحنى حتى لامست أذنه الأرض. حينما تقترب من الأرض وتصغي حقًا تكشف لك كل أسرارها. أحسَّ بحركة مكتومة على المقربة، لم تحملها الريح بل ذبذبات الأرض. ترك ياسين منتظرًا في مكانه وتحرك بأخف ما يستطيع إلى حيث دلته أذنه.

في كنف أحد الكثبان المتوسطة الحجم تقبع ثلاث حفر سوداء، سعال خفيض هو ما جعله يميزها. أمسك بصخرة كبيرة وهو يزداد اقترابًا دون صوت. الحفرة متوسطة العمق يخرج منها أصوات التنفس البشرية.. على بعد خطوتين من حافة الحفرة صاح بصوت وضع كل طاقته ليبدو قويًا ثابتًا.

- أنتم يا من بالداخل.. اصعدوا.

مرت دقيقة طويلة اختبر فيها القابعون في العتمة صبره.

- اخرجوا وإلا ردمنا الحفرة عليكم ودفناكم أحياءً.

دهاء الحاجة جعله يختار صيغة الجمع، أهال بقدمه الحافية الرمال ليبدو التهديد أكثر جدية..

- أرجوك.. سأخرج، سأخرج.

صوت أنثوي متعب مرتعد خرج من قلب السواد. ظهر رأس منكوش الشعر لفتاة صغيرة لم تتجاوز العشرين. ضيقت عينيها وهي تتفحص إسماعيل المتحفز، تحاول أن ترى ما وراءه والضباب يقيد قدرتها على الرؤية..

- كن رحيمًا واتركنا.

ازدادت قبضته إحكامًا حول الصخرة التي تسري فيها عروق سوداء كالشرايين. كونها امرأة لا يعني انعدام الخطر.

ـ من أيضًا في الحفرة؟

ـ أنا فقط.

لا زال باقي جسدها خفي بالداخل، رأس وحيد ينبت من قلب الظلمة.. في أوقات أخرى كان المشهد ليفزع خياله الخصب.

ـ كاذبة..

رفع يده حاملة الصخرة في تهديد جدي هذه المرة.. وتابع:

ـ لقد قلتِ اتركنا... من يختبئ في هذه الحفرة أيضًا؟

شيء ما في صوته علق بقلب المرأة فعرفت أنه على وشك الإيذاء.

ـ أنا وطفلتي فقط، أقسم بالله.

اتكأت على ذراعها الأيسر، ورفعت باقي جسدها بصعوبة محاذرة.. تأوهت بصوت مكتوم وحجر حاد لم تره ينغرس في ثديها الضامر فيجرحه. خرجت بكامل جسدها من مخبأها فرأى إسماعيل ذراعها الأيمن الذي يلتصق ببطنها ورضيعة ملفوفة بخرقة صوفية داكنة، تتلوى محركة يديها رافسة بقدميها في عدم ارتياح أخرق.

ـ أنا أعرفك!

باغتهما صوت ياسين القادم من الخلف. لم يطق صبرًا فأتى بخفة خاتلت سمع إسماعيل، والذي قال من بين أسنانه دون أن يدير رأسه.

ـ قلت لك أن تنتظر.

ـ أنا أعرفها.. هذه راضية ابنة رجب.

ـ من؟

ـ راضية.. أبوها واحد من رجال رشوان، شقيقها الأصغر سعيد.. كنا نلعب سويًا وقتما كنا نسكن جوار السور.

الأسماء تغيب دائمًا عن بال إسماعيل، مع كل ما مر به في اليومين الماضيين صارت حتى الوجوه عسيرة التذكر.

صاحت المرأة وهي ترى النجاة في صوت ياسين.

– بلى بلى، أنا راضية ابنة رجب. من أنت يا ولد اقترب فأنا لا أستطيع أن أراك.

تحرك ياسين بعفوية قبل أن يقبض إسماعيل على كتفه بقوة..

– أنا ياسين.. ألا تذكرينني؟أنا وسعيد كنا نصعد دائمًا إلى السطح لنقذف الرجال بالحجارة..

ابتسامة شاعت في وجهه، ذكرى الماضي القريب المشاغب أنعشت قلبه لثوان، لم ير إسماعيل هذه الابتسامة..

– ياسين ابن إسماعيل الكذاب؟

خرج سؤالها عفويًا، آلم هذا إسماعيل أكثر من الإهانة فانقبضت شفتاه في ابتسامة متوجعة للحظة..

– أبي ليس كذابًا.

صاح ياسين غاضبًا وقد طارت حمامات الذكرى من سماء عقله.

– أخفض صوتك يا ياسين.

أمرُ إسماعيل ألجم الطفل، حرك عقل المرأة الصغيرة الراكد فتذكرت الجسد الأعجف الواقف أمامها. عاودها الخوف وهي تدرك أنها أهانت الرجل، حررت قدميها لتهبط خطوة غير محسوسة داخل الحفرة..

– أنا.. لم أقصد أن..

– لا يهم. صوت إسماعيل قاطع.

– كيف أتيت إلى هنا؟أين أبوك وزوجك؟

ـ هل تملكين ماءً؟أضاف ياسين.

هدأت حين شعرت أن إسماعيل لم يتأذَّ من كلماتها. وجه ياسين المألوف، ونبرة إسماعيل الدافئة غير الغاضبة، ثقبا سد صمتها غير المعتاد الذي تكون من ساعات الخوف والوحدة فاندفع نهر حديثها عارمًا مبعثرًا بلا توقف:

ـ هربت.. أنا أجري منذ ليلة أمس، تركت هنية في الطريق... قالت أنها تريد أن تستريح، تركتها.. كنا قريبتان من الملاجئ لا نزال، متعبة قالت لي، وأنا أيضًا متعبة.. لكن صابرين الصغيرة لا بد أن تحيا. ظللت أعدو وأعدو وحق الله يا عم إسماعيل كاد قلبي أن يتوقف لكني لم أتوقف. لا أحد رأى ما رأيته، كنت عند السور وقت ما أتوا. هنية لم تكن هناك، كانت تنام مرتاحة على فرشتها. ثم تأتي بعد ذلك لتصرخ عندما لم أتوقف معها؟هذا لا يرضي الله يا عم إسماعيل، كل إنسان معلق من عرقوبه وصابرين معلقة في رقبتي. انظر كيف تتلاحق أنفاسها، انظر إلى وجهها الأصفر.

مال إسماعيل بجسده للأمام، وجه الصغيرة كرغيف أسمر قديم. أسفل الوشاح الصوفي الذي يحيط وجهها ويخفي ذقنها الدقيقة، مرضها واضح لأي عين. عينان راضيتان واسعتان تبتلعان وجه إسماعيل بالكامل وهو يحدق في طفلتها، تنتظر كلماته في لهفة..

ـ كنتِ على حق... لكن البنت ستكون بخير.

كذب ليهدئ من روع الأم الصغيرة وهو يحس بتوجسها.

ـ حقًا يا عم إسماعيل؟

ابتسم ابتسامة واضحة هذه المرة، جلس القرفصاء في مكانه ليقترب وجهه منها.

- اهدأي يا بنيتي.. ياسين كان رضيعًا في وقت ما، وكنت أخاف عليه مثلك تمامًا.

ارتخت أصابعها المتشبثة بالرمل الداكن.

- نحن في أمان هنا الآن، أخبريني بما رأيتِه بهدوء.. كنتِ عند السور حينما أتوا.

- هل تملكين ماءً؟سؤال ياسين خفيض، صحبه تثاؤب الريح فلم يصل لأي أذن.

- عويس زوجي كان يحرس السور في آخر الليل وتأخر في العودة.. دسوقي لعنه الله يحرق المحراش كل ليلة منذ أن قتل ذلك الفأر. ينام طوال النهار ويحرق المحراش كل ليلة، أفسد الرجال. الكل يتناوب ليقضي الليل جواره. قلت لعويس ألف مرة ألا يستنشق هذا الهباب لكنه لا يسمع لي. لما تأخر غضبت، ذهبت إلى حيث يمكن أن يكون وتركت صابرين مع أمي. أبي كان مع سي رشوان وإلا كنت قد ذهبت له، أبي لا يعجبه الحال المائل على الإطلاق كما تعلم. وصلت إلى السور وسألت الناس عن عويس فلم يدلني أحد، لكنني رأيت عيونهم الحمراء الناعسة وكلامهم البطيء.. دسوقي لعنه الله هو السبب. سمعت صوت هدير في الصحراء، صوت كصوت المولد في المزرعة عندما يبدأ الجاز في النفاد. لم يبد على الرجال الاهتمام وأنا كنت مشغولة على زوجي فتركتهم. لم أبتعد أكثر من عشرين خطوة عندما... بوووم. زلزلت الأرض

وصفير خرق أذني. جريت، لا أعلم لم جريت.. هو لطف الله فقط. يعلم الله أن صابرين ليس لها غيري فلم يسمح بأن يحدث مكروه لي. بعد ثانيتين بالظبط انفجر السور، الصخر طار في الهواء مفتتًا كأنه الماء الذي تنفثه الرشاشات كل صباح على الشجر. جثث الرجال الذين كنت أكلمهم منذ دقيقة تتناثر ممزقة في كل مكان. رؤوس، أذرع، سيقان. والغبار يا عم إسماعيل، غبار بطول الجبل يسقط ببطء فيدفن كل شيء. لم أفكر وقتها إلا في صابرين، لا زوجي ولا أبي ولا حتى أمي، كل همي كان صابرين. جريت عكس اتجاه الناس. عم عبد الله كان يعدو ناحية السور، صرخت فيه أن يرجع.. هو رجل طيب، حذرته. فنظر لي وابتسم ولم يتوقف.. حذرته والله يا عم إسماعيل لكنه لم يتوقف.

- عبد الله... رأيت عبد الله؟

- سمعت صراخهم وهم يعبرون إلى الملاجئ فتوقفت. لا أنسى أشكالهم أبدًا منذ أن هاجمونا ونحن في طريقنا إلى الملاجئ، سكنوا كوابيسي لليال عدة.. هناك شيء فيهم يجمدك في مكانك، كل من ذهبوا ليروا ماحدث للسور تجمدوا كالصخور.. هناك من بال على نفسه وهو واقف بلا حراك. عم عبد الله هو الوحيد الذي تحرك، رفع عصاه وهاجمهم، لم يتجمد.. لم ينتظر. أتظن أنه كان يعرف أن هذا سيحدث؟أنت تعرف أمثاله يرون ما لا نراه، لا حجاب بينهم وبين السماء، لهذا تجدهم..

- ماذا حدث لعبد الله يا راضية؟أخبريني.

منعها إسماعيل من استرسالاتها التي تخرج فيها توترها الذي طال حبسه.

- في البداية لم أصدق... هم أنفسهم لم يصدقوا. على بدانته وسنه الكبير كان سريعًا، ضربة واحدة على أم الرأس ويسقط من أمامه بلا حول. ضرب واحدًا وثانيًا وثالثًا، تراجعوا في ذعر.. تخيل هذا. لكنه كان وحيدًا.. ظل الرجال على تجمدهم ولم يتحركوا لنصرته. صيحته لا زالت ترن في أذني: «إليَّ يا عباد الله» قالها مرة.. لا مرتين. صوته كان مختلفًا عما اعتدته يا عم إسماعيل، ربما لو وقف خلفه الرجال لكانت لنا فرصة.. ظهر اللعين ذو المنجل واقترب، أمسك عم عبد الله بعصاته وضمها إلى صدره. هل كان يعرف ما سيحدث.. أظن هذا.

- ما.. ما الذي حدث؟في صوت إسماعيل لهفة معرفة المصير وخشية إدراك ما كان.

- وقفا للحظات متواجهين. لم يرفع اللعين منجله ولم يقدر أن يقرب رجل طاهر مثله، استل بندقيته وأفرغ الرصاصات في جسد عم عبد الله.

وحشة الوجع خرجت من فمها المرتجف.. يذكر صوت الرصاصات، يذكر كيف شعر وقت أن سمعها.. رغم العطش الطويل ذرفت عيناه قطرتين مالحتين، سالتا في بطء وسكون.

- سقط، فمزقوه بسكاكينهم.. الدم كان هائلًا، هائلًا.

غمغم ياسين.. رأى كل شيء وهو يسعى بحثا عن لقيمات جافة غير محروسة، هو أيضًا اجتذبه صوت انفجار السور كفراشة تسحرها

النار. تجمد وهو يشاهد، تجمد حتى أعماقه.. أحب عبد الله بما يقارب حبه لأبيه.. ولحيته الكثة تكنس التراب تذكر كم سقاه في عطشه، كيف كان يصوم لأيام حتى يترك فتات الطعام الذي يناله لأبيه طريح الفراش.. وقت أن تصلبت جفونه لتسكن حدقتاه في نظرة أبدية إلى السماء قرر أن لا يخبر أباه بشيء.. أبوه ورقة صفصاف متهالكة وحيدة على غصن في خريف سرمدي، عصف موت عبد الله سيسقطها لا محالة..

ـ رأيته؟سأل إسماعيل مندهشًا، هز ياسين رأسه موافقًا في بطء.

ـ يا الله.

جذبه إسماعيل برفق، فارتمى على صدره.. غرق أنفه الصغير في دوامات من روائح العرق والتعب والتراب، المزيج المألوف الذي يحمل ذكرى قصية للأمان رغم كل شيء.. احتضنه إسماعيل بقوة، يده اليمنى ضغطت بحنان على الرأس الصغير فازداد التصاقًا بصدره، ضغطة فتحت الباب المغلق لروحه منذ شهور، فارتعد ياسين وتهدج في بكاء أخرس طويل.

ـ وأبي.. قتلوا أبي أيضًا يا عم إسماعيل.

وحيدة، في مقلتيها السوداوين احتياج لأن يأسى عليها أحد.. اقترب منها ببطء دون أن يفلت ياسين. يشعر الآن بالبرد كما لم يشعر به طوال الساعات الماضية، يلفه، ينخله.. فتتساقط الذرات غير المرئية للدفء من مسام جلده.

ـ أمسكوا أبي قبل أن يستطيع الهرب، أخذوا امرأتين كانتا جواره، لكنني أعرف أنهم لن يقتلوا النساء، ليس على الفور.

كنت أسرع من الجميع انسللت داخل المبنى المهجور قبل أن يطوقوا المكان، زحفت لأنفذ للميدان التالي من فجوة الحائط بين الطابقين، قفزت إلى الأرض متجهة إلى حيث صابرين. نسيت زوجي، نسيت كل شيء. قابلت أمي أمام المدخل.. سألت عن أبي فلم أستطع أن أجيب، أشرت إلى حيث كان السور وصعدت لألتقط صابرين، حين نزلت لم أجدها.. ذهبت إليه.

جسدها يرتجف كالحشائش الخضراء الصغيرة حول أشجار الزيتون عند هبوب عواصف الرمال، تتمسك بالأرض في البدء، لكن حينما تبلغ العاصفة ذروتها تتمزق جذورها القصيرة لتدور مع الرمال في طواف أبدي مميت. تسائل إسماعيل داخله إلى متى تتماسك راضية.

- أحاطوا بالميدان قبل أن أستطيع الهرب، يصعدون المباني ليهبطوا بمن فيها. يجلبون الجميع إلى الميدان الأول. انزلقت إلى الخيام والتفت بالأغطية المتروكة لترى الشمس. وجدت هنية تلتف بالأغطية هي الأخرى. لم يرونا.. كنت أوقن أنهم لن يرونا، لن يترك الله صابرين لهم ولا شك. تمددت بالساعات وأنا أسمع صراخ الرجال والنساء. في النهاية رفعت هنية الغطاء فلم ترَ أي إنسان وسط الظلام. انطلقنا أنا وهي نخترق مبنى فارغًا تلو الآخر حتى وصلنا إلى الحواف دون أن يرانا أحد.

- التلال اللعينة.. فكر إسماعيل، تسلق التلال كان خطأ فادحًا أضاع عليهما الكثير من الوقت واستنفد طاقتهما دون داع. ضاق ياسين بثرثرتها فقال بنفاد صبر:

ـ ثم وصلتِ إلى هنا.

حدقت فيه غاضبة، وعادت تكمل حكايتها بنفس نبرتها دون تغيير:

ـ مشينا قليلًا في الصحراء، قبل أن تهب عواصف التراب من الشرق.. ظنت هنية أنها رياح عادية لكنني أنا من حدست. اختبأنا مرة أخرى لنرى، رجال آخرين على عربات معدنية أطلقوا الرصاص على الجدران الصماء واقتحموا المباني الفارغة.. ما إن دخلوها حتى انطلقنا نعدو ونعدو. قبل الفجر لم تستطع هنية أن تكمل وقالت...

ـ أخبرتنا بذلك من قبل. قال ياسين.

ـ لم أفهم لم يهاجمون المباني الخاوية يا عم إسماعيل.

ـ كانوا يظنون أننا سنقاوم عند السور، نحن أضعف كثيرًا مما قدروا. تحدث ببطء وعقله يحسب الأخطار المحدقة.. المهاجمون أكثر عددًا بكثير مما كان يظن.

ـ علينا مواصلة السير.

ـ أبي أنا متعب للغاية..

ـ لا.. لا يمكن، صابرين لن تحتمل مسيرة أخرى الآن، ولا أنا.

عضلات إسماعيل توافقهم، عظامه المرتعشة من البرد ترجوه. النذير في قلبه يصارع الضعف فظل صامتًا لهنيهة..

ـ حسنًا، سنتحرك مع الفجر.. سأذهب أنا وياسين حتى لو أردتِ الانتظار يا راضية..

ـ سأذهب معكما يا عم إسماعيل.

لا زال ممسكا بالحجر في يده لم يفلته، ألقاه في الحفرة السوداء المجاورة.. لم يسمع شيئًا.. لا ثعابين إذًا. أشار لياسين بالانتظار ليهبط هو أولًا، مصدرًا أكبر قدر ممكن من الجلبة، العقارب تصبح أكثر عصبية مع الحركات المفاجئة، فتلدغ دون انتظار. حينما استقر جسده في القاع دون أية لدغات اطمأن قلبه قليلًا فنادى من داخل الحفرة..

- هلم يا ياسين.

3

ظلت عيناه معلقتين بالسماء السوداء، كم مر من الوقت وهو مستلقٍ على ظهره محدقًا في الكسوة الداكنة التي تلتف حول العالم... لا يدري. وهل غفا بعض الوقت أم ظل مستيقظًا منذ أن ولج الحفرة، لا يدري أيضًا. مؤخرًا صارت مناماته بلا أحلام، يغمض عيونه فتبتلعه هوة أكثر عتمة مما حوله. هجرته رؤاه هي الأخرى، هجره حتى طيف سعاد الذي كان يزوره بين ليلة وأخرى.

تقلب ياسين فانغرس كوعه الحاد في جانب إسماعيل، حرك جسده قليلًا حتى لا يضايق نوم الصغير المقيد بضيق المكان. همس الهواء وأنين صابرين الرضيعة في الحفرة المجاورة اندمجا بعد هنيهة، فانزلقا إلى لا وعيه كهدير غير محسوس. يرقب بين الفينة والأخرى ذرات الرمال المتسللة من الفوهة السوداء التي تتمايز حدودها الخشنة عما فوقها. تُرى هل استلقى في هذه الحفرة أحد من قبلهم، إنسان احتمى هاهنا هربًا من الخطر، من القيظ؟المكان بلا رائحة على الإطلاق كأنه خلق طازجًا من أجلهم، أو ربما هو ككل شيء آخر يبدد آثار من سكنه ما إن يغادر. ما الذي يتبقى من المرء بعد سنوات الكبَد

على هذه الأرض، علامات على حجر تلعقها الريح عامًا تلو الآخر حتى تمحى، نسل يذكره في حكاويه حول النار في الليالي الباردة؟ما الذي سيذكره به ياسين... هل سيذكره ياسين؟أوجعه السؤال، وأوجعته إجابته التي رفض قلبه البوح بها.

- متى يأتي الفجر؟

همهم متسائلًا. البقاء وحيدًا مع أفكاره سيزيد حالته سوءًا، فقط الحركة هي ما تحجب الأفكار. الظلمة المطبقة تذكره بظهر خنفسائه القديمة ذات الأرجل الأربعة القصيرة، قشرتها الصلبة دائمًا ما كانت تعكس حدة الشمس. لم تكن الشمس بقسوتها الحالية حينما كان طفلًا. من بين كل الرفاق العابثين كان هو أول من رآها، بثنية مرنة من جذعه اختطفها وأغلق يديه. الرمال تنساب مع حركته بينما يعدو كل الأصحاب خلفه، بعد دقيقة سقطت كل الرمال ولم يبق سوى ملمس الأقدام الأربعة على بطن راحته الناعم. تنتابه قشعريرة من الاشمئزاز وكثير من الإثارة.. عيون الأطفال تطارده تمامًا كأقدامهم، دون اتفاق تساقطوا جميعًا جالسين خلف جدار الملجأ الذي يسكنونه. الظل يمنح الأعين راحة.. بأسنانه جذب خيطًا هاربًا من كُمِّ جلبابه المهترئ، ينقل الخنفساء إلى اليد الأخرى ببطء حذر، يمسكها دون قسوة ليلف الخيط حول وسطها، لفة أولى، ثم لفة أخرى. وضعها على الأرض برقة وطرف الخيط في يده لا يفلته. يتسابق الأطفال في إهالة الرمل على ظهر الخنفساء حتى تكوّن تلّ صغير. الشغف يملؤهم وهو ينظرون كل لحظة إلى الخيط الثابت في يده، هو فقط من يشعر بالاهتزازات الخفية، بالصراع المحموم أسفل تل الرمل. تمر الدقائق وهو يمنع نافدي الصبر من جذب الخيط أو نزح الرمل، في النهاية تظهر مقدمة

الخنفساء مغبرة، قدماها الأماميتان تسحبان الرمل إلى ما تحت بطنها فيبتسم. يكررون الأمر مرة ومرة ومرة، حتى تضحى الشمس ملولة من مراقبتهم وتنزلق كي تغفو. في كل مرة تنتصر خنفسائه على التراب والغبار كان يشعر بالفخر. مهما كان حجم التل، مهما كان إرهاقها دائمًا ما كانت تنتصر. في المرة الأخيرة بدت أكثر بطئًا، استغرق ظهورها وقتًا طويلًا. أحد رفاقه الأكثر طولًا أصابه الملل من طول اللعب، أو الغيرة من نشوة إسماعيل بخنفسائه، داس بكل ثقله على ظهرها القاسي، فانسكب باطنها. انفضوا جميعًا من حوله، ترك وحيدًا يتأمل المادة الدهنية اللزجة شبه البيضاء الخارجة من أسفل قشرتها، أرجلها المتشنجة والتراب العالق بها. حملها بين كفيه كما حملها أول مرة.. وسط ضجيج الناس اللامبالي تحرك بجسده النحيل القصير ليضعها وسط كومة من الأحجار. قبر صخري... لم يكن ليتركها تموت وسط الرمال كما عاشت. ظل يجهش بالبكاء جانبها معظم المساء حتى وجدته أمه، التي دارت لتبحث عنه في قلق وسط الملاجئ. قلبها الدافئ حملها على أن لا تسأله عن سبب بكائه.. بعض الألم لا تعبر عنه كلمات.. احتضنته طوال الطريق إلى حيث يسكنون في صمت.

ذكرى الحضن الدافئ المنتشلة على غير توقع من تحت ركام الأيام هي ما ثبتت في قلبه، أطلقت وهجًا سحريًا داخله فشعر بالدفء، حقيقيًا... حاضرًا. ثقل جفناه واسترخى أخيرًا.

مرت خمس دقائق هانئة، أضحى فيها على شفير النوم، الخلاص المؤقت الذي يحتاجه. انقبض قلبه دون سبب، علمته الأيام أن يثق بهذا الشعور، لذا رفع جسده قليلًا لينفض الخدر عنه وأنصت... لا شيء سوى اللغة السرية التي تهمس بها الريح للصحراء، والأنين المتوجع

صابرين التي تعاني ولا شك من حمى مؤلمة.. الخوف في صدره أكبر من أن يتجاهله. مال بجسده في هدوء حتى لا يوقظ ياسين، تشبثت أصابعه بحافة الحفرة فتفتت جزء منها، تمسك بالجزء القاس ورفع رأسه ببطء.

تطير الرمال على ارتفاع منخفض في مسيرة عبثية، تغير بها شكل الأرض والكثبان، تخفي صخورًا وتكشف أخرى تردم آبارًا وتحمي حفرًا. ضيق عينيه ليرى، ورأسه بالكاد فوق تيار الرمال الذي لا ينقطع في مد بلا نهاية.. لم ير شيئًا لكنه سمع. الآذان أعين في ليل الصحراء.

هدير عربة بعيدة خلف قدرة البصر خرس فجأة، تلته كلمات سباب غير مكتملة لرجال صاخبة، صخب من لا يخشون شيئًا. أراد التيقن فخرج بكامل جسده من الحفرة.. انهالت الرمال على جسد ياسين الذي يغط في أحلام سحرية خضراء، يلهو فيها بين أمه وأترابه تحت سماء زرقاء وشمس حنون.

زحف إسماعيل محاذرًا كسحلية، احتكت ركبته برأس حجر لم تشذبه الرياح بعد فتمزق جلده. أمسك بركبته متألمًا، قطرات من دماء دافئة لزجة شعر بها فوق يده. الأرض ليست منبسطة بالكامل، اكتشف أنه فوق نتوء عال بينما تهبط الأرض تدريجيًا في اتجاه الملاجئ. أخفاه هذا عن العيون، أخفاهم عنه. صوت الرجال أكثر وضوحًا، النخرات بين كل كلمة وأخرى هي لرعاع الصحراء سافكي الدماء. وسط السباب الضاحك زمجرة حيوانية قاسية مخيفة.. الصوت قادم في اتجاهه ببطء. انطلق على أربع بأقصى ما يستطيع. لم ير الحفر في البداية، خشي أنه قد أضاع الخط المستقيم الذي سار فيه. صوت أنين صابرين كان هاديه إلى المكان مرة أخرى، أنين صابرين هو هلاكهم.

- ياسين استيقظ.

قالها بصوت خافت لكنه آمر، اخترق الأذن الناعسة فحطم سماء الحلم الصافية وابتلع الشمس. فتح ياسين عينيه مذعورًا:

- أبي، ما..

- هشش، إنهم قادمون.

خرس ابنه في لحظة.. مال إسماعيل على الحفرة المجاورة:

- راضية.. راضية..

المرأة التي قضت أكثر من يوم في عدو متواصل كانت أثقل نومًا مما قدر. عويل الريح خائن، يصمت في لحظات غير معلومة فلم يجرؤ أن يرفع من صوته حتى لا يخدعه سكون غادر.

- راضية.. راضية..

اعتادت عيناه عتمة الحفرة فرأى العينين الصغيرتين للرضيعة المتألمة تنظران إليه في ألم وخوف بينما لا تنفك تئن دون هوادة.. مستقرة في أحضان المرأة التي أهالت شال داكن على رأسها تحتك خيوط أطرافه البالية برأس صابرين الصغير في تهويدة صامتة غير ذات جدوى.. الوجيب في قلبه يحذره من اقتراب الخطر، لا بد وأن تستيقظ راضية الآن ضرب بكفه الحافة فأهال الرمال وبضعة أحجار قزمة على رأس المرأة الغافية.. لم يدرك أنه فعل أحمق إلا بعد الإقدام عليه. ذرات الرمال الخبيثة استقرت على وجه صابرين، تسللت من أسفل أهدابها السوداء القصيرة فتجول الأنين إلى صراخ غاضب. استيقظت راضية فزعة لتحتضن صغيرتها بحركة غريزية.. لاوقت لهذا الآن.

- راضية..

رفعت رأسها في ذعر، بدا وكأنها قد نسيت من هو للحظات حينما عاد إليها كامل وعيها وانتباهها همس بصوت كالفحيح:

- إنهم هنا.

انتفضت. يشعر هو باقتراب الموت في عظامه، الشعيرات الدقيقة في مؤخرة عنقه تنتصب. انتظر ثانية أخرى ليشير إلى الطفلة الصاخبة:

- إن سمعوها انتهينا.

نزعت شالها الثقيل لتضعه على وجه الرضيعة.. اختنق الصوت الحاد وإن ظل عاليًا كفاية في ذهنه. تخشب وقد ظن أنه سمع حفيف أقدام تقترب. نظر إلى راضية نظرة أخيرة يائسة:

- لا زال صوتها مسموعًا، لا بد أن تسكتيها.

تركهما وانزلق إلى العين السوداء لحفرته. هبط فوق ياسين الذي تألم ولم ينطق. احتضن ابنه وهواجسه السوداء تفعمه. إن اكتشفوا مكانهم لن يسمح لهم بالنظر داخل الحفرة، سيخرج ليعدو.. ليجذبهم قدر المستطاع ليقتل ويقتل. مهما يحدث على ياسين أن يظل ساكنًا كالحجر، ستكون هناك فرصة لأن يظنوا إسماعيل وحيدًا فيتركوا الحفرة وشأنها... على الرضيعة أن تصمت حالًا، لا زال يسمع صراخها واضحًا فاضحًا داخل عقله.

على السطح اقتربت مجموعة من أربعة رجال، يمسك أحدهم بمقود سلعوة نحيلة ضاوية، تظهر أنيابها شديدة الحدة ولعابها يسيل دون توقف. ثياب الرجال خليط من قماش وجلد مدبوغ ودم متجلط. شعر إسماعيل في حفرته اهتزازات حركتهم فتجمد قابضًا على ياسين. نبحت السلعوة دون صوت، نزعت حنجرتها منذ كانت جروًا لتكون موتًا مفاجئًا في المعارك الليلية لأبناء الحجر. الممسك بزمام الحيوان

عملاق هائل الحجم، الامتعاض يكسو وجهه بادي القوة فلم ينتبه إلى هياج حيوانه. قال وهو ينظر إلى المدى الأسود.

- لقد ابتعدنا كثيرًا.. لن يصل أحد إلى هذه المسافة، علينا أن نرجع.

هز واحد منهم قصير القامة ذو ساقين مقوستين رأسه معترضًا:

- هذا خطأكم، لقد أتيتم متأخرين للغاية فلم تطوقوا الملاجئ.. لن نرجع إلا ونحن متأكدون أن أحدًا لم يهرب، أمر المنصور..

قاطعه العملاق بضيق بادٍ:

- منصور وليس المنصور... ولا أحد يأمر أبناء الحجر.

حجاب الظلمة منع الباقين من ملاحظة رعدة الخوف التي سرت في القامة القصيرة واسم منصور يذكر بهذه الخفة..

- هناك عهد، كل أبناء الحجر يطيعون المنصور.

أدار الرجل حيوانه ما إن سمع هذه الكلمات. الأنياب الحادة والعينين الحمراوين للسلعوة أجبرا القصير على التراجع.

- السلعوة لا تطيع منصورك.. يمكنني أن أريك.

تراجع القصير ثانية فتعثر وسقط. تعالت القهقهات من الثلاثة الباقين. أرخى العملاق الجنزير الحديدي الذي يلتف حول عنق السلعوة قليلًا فزاد الهياج في العينين الحمراوين، نهشت الأنياب البيضاء الهواء وهي تتألق رغم الضباب. قضم الرعب الرجلَ القصير:

- لا.. أرجوك.

اشتدت القبضة مرة أخرى على الجنزير فهدأت العينان قليلًا. سنوات من التدريب أتقنها أبناء الحجر في كهوفهم الجبلية الواسعة..

ـ حسنًا، الآن نحن متفقون.

وقف القصير ببطء، وبصره لا يفارق وجه السلعوة المسحوب. اعتاد الروائح العفنة منذ وعيَ فلم يستطع شم رائحة السلعوة البشعة.. تابع العملاق وهو ينظر إلى الصحراء بملل.

ـ سنعود للعربة لنحتمي داخلها من هذا الرمل اللعين المستمر، ساعة واحدة ونعود إلى منصورك.

هز القصير رأسه موافقًا في خنوع، وهو يفكر أن عليه أن ينجو الآن، سيعود إلى المنصور ليحكي ما حدث بالتفصيل.. لا شيء يخفى على المنصور. هم بالتحرك إلا أن العملاق استوقفه وهو يرى فرصة سانحة لأن يسأل ويجد إجابة صريحة..

ـ لماذا تنادونه بالمنصور؟

ـ لأنه لا يهزم.

ـ لا يوجد رجل لا يهزم.

ـ المنصور لايهزم.

شخر العملاق، وضحك أحد الاثنين بالمؤخرة بينما تابع الخر الفأر القصير باهتمام. الخوف امتزج بالفخر وهو يستطرد:

ـ هو من هزم الأعراب وحاز كل عيون الماء، هو من أباد الأسياد في الأرض الحمراء، هو من عبر القناة المنسية إليكم، هو من قهر الغرب الهالك وعاد بالأفاعي الصفراء، هو من هزم المدجنين و..

سكت فجأة حين أدرك أنه سيخوض فيما لا يجب أن يعرف، ابتلع ريقه وأغمض، حتى لو نهشته السلعوة حتى العظام لن يفوه بحرف. المنصور أكثر فزعًا من مائة ألف سلعوة وذئب.

ـ هزم المدجنين... هاه، أنت معتوه كسيدك. لا أحد يهزم المدجنين، غارتكم الصغيرة هذه على الملاجئ سيعقبها فرار غدًا أو بعد غد، أراهن أن أبناء الحجر يحزمون الغنائم من الآن فطريقنا طويل شرقًا.

ـ نحن هنا لنبقى، أبناء الحجر سيبقون أيضًا.

بصق العملاق هازئًا:

ـ الثلاثة ليسوا بهذا الحمق ليبقوا.

ـ سيبقى الجميع حين يرون قوته الحقيقية..

التصديق الحقيقي السائل من كلماته كان مخيفًا للرجال بشكل ما، فاتسعت عيونهم وهم يحدقون في الجسد القصير الذي كان يرتعش منذ دقائق وقد استطال من إيمانه. هز العملاق رأسه نافيًا -لنفسه- ما يسمعه من الفأر القصير:

ـ خراء.. أنتم لا تستنشقون المحراش بل تستنشقون خراءكم لتصدقوا هذا الكلام.

لم ينطق الفأر، قال كل ما يريد أن يقوله. تابع العملاق حينما لم يجد ردًا سوى الصمت:

ـ هيا إذن إلى العربة، إن خرست ولم تحكِ عن منصورك ربما لن أجعل السلعوة تأكل مؤخرتك.

أومأ الفأرُ واستدار معهم نحو العربة خلف الكثبان. قال العملاق لزميليه بصوت حرص أن يصل إلى مسامع الفأر:

ـ أراهن أنه يلعق لمنصور قضيبه، هو في طول الصبية الذين يحبهم.

قهقه الرجال صاخبين قبل أن تمزق الريح صدى ضحكاتهم.

لم يفهم إسماعيل معظم ما قيل، أصواتهم بالقرب كانت تأتي متقطعة غريبة كشيفرة سرية.. ظل يدق بقدمه الجانب المشترك بين حفرته وحفرة راضية.. جذب ياسين ذراعه أكثر من مرة ليوقفه، ربما كان صوت صراخ الطفلة المستمر وهمًا حقًا في عقله لكنه لم يتوقف من تنبيه راضية..

ـ رحلوا.

همس ياسين وجسده الصغير ينفصل عن جسد أبيه. ضغط إسماعيل على كتفه ليسكنه مكانه ببعض العنف. يريد أن ينتظر وقتًا أطول تحت حجاب الظلمة، قد يعود المطاردون ليدققوا أكثر، لكنه يعرف عناد ياسين.

تشبث بالحافة ورفع نفسه بصعوبة، المجهود الذي بذله طوال الأيام الماضية أثبت له أنه لم يتعافَ جيّدًا من ضربات رجال رشوان، على الأرجح هم جميعًا موتى الآن وهو الوحيد الحي. لم تأته الفكرة بأي عزاء.. تحرك زاحفًا، منزلقًا فوق الرمال والصخر. أنصت في رقدته، صوت الريح نحيب طويل لا ينقطع. هل تنعي الريح من ظلوا بالملاجئ، ربما من عام مضى أو أقل قليلًا كان قلبه ليجيبه بالإيجاب. كان ساذجًا، الناس ذرات رمال بلا عدد، تتبعثر أو تدهس لا الشمس تأبه بها في دورتها الأبدية، ولا القمر يراقبها بحرص وسط الستار الأسود السرمدي.. تجرأ فرفع رأسه.. لا أحد، مشى على أربع غير مغامر أن يرى بوضوح حتى وإن كان وحيدًا. مال على حفرة راضية..

ـ رحلوا مؤقتًا، هيا بنا.

ـ لا.. لا.. لا.

همهمت المرأة الشابة وهي تزيح الشال الصوفي من فوق وجه صابرين الرضيعة.. كانت قد طوته مرتين ليكتم صراخها الحاد. هبط إسماعيل إلى جوارها ليستحثها على الخروج. إن عادوا ووجدوهما - الأم والرضيعة- سيعرفون منها أنه وياسين كانا برفقتها دون جهد.

- هيا يا راضية لا يوجد وقت.

الشال الصوفي رمادي ذو أهداب خلقها الاهتراء، وهو يكتم فم صابرين تسللت الأهداب لتدخل طاقتي الأنف شديد الصغر فانسدتا.. صابرين مرتخية دون حراك، وراضية تهزها بقوة بلا جدوى، عقلها لم يستوعب الحقيقة بعد. خرس إسماعيل وهو يرى، الكلمات في فمه بثقل الصخر، مرة بطعم الموت الشرير الذي حضر إلى الحفرة..

- راضية..

رفعت وجهها إليه، رأت في عينيه حقيقة الفناء، رأى في عينيها فيضانًا من جنون.

- راضية..

- لا.. لا.. لا.

صوتها يتحول إلى عويل تدريجيًا، تخشبت يدها وهي تقبض على الجثمان الدقيق بعنف وتهزه دون رحمة..

- راضية.. أرجوك.

تعالت صرختها كشجرة عملاقة من الألم، انبثقت من القاع المظلم حتى حدود السماء، امتدت فروعها في جنبات الصحراء الخرساء.

- راضية، سيسمعون.

صرخات اليأس هي أعلى الصرخات على الإطلاق، شعر بأن جوانب الحفرة نفسها تهتز.

ـ أبي ماذا يحدث؟

صرخ ياسين مفزوعًا هو الآخر من الناحية الأخرى.. عين خيال إسماعيل رأت الرجال يتوقفون، ينظرون إلى الخلف وكل هذا الصراخ يفضح الهاربين.

مد يده دون تفكير ناحية فم راضية المفتوح، مس باطن يده شفتيها وهو لا زال على همسة..

ـ راضية، اسكتي.

تركت المرأة جسد صابرين ينزلق من بين يديها وأنشبت أظفارها في وجهه.

ـ أنت من أردتني أن أسكتها.. أنت من جعلني أقتلها.

الأظافر الحادة مزقت لحم وجنتيه، وأسالت دماءه غزيرة.. عيونه لا ترى سوى فمها المفتوح وصراخها الذي بدا أنه لن ينتهي أبدًا. راوغها بجسده قبل أن ينقض عليها، كمم فمها بيده اليسرى، عضت راحته بكل قوتها. صرخ وأفلتها. عويلها حاد مؤلم ممض.

لا حلول وسطى.. هي أو ياسين.. هي أو ياسين..هي أو ياسين. كرر هذا لنفسه ويديه يقبضان على عنقها الصغير الناحل بأقصى قوته.

تراخى صوتها واختنق، أظافرها تمزق ظهره وكتفه ووجهه. الألم حارق لكنه صخر لا يهتز.. جحظت عيناها وخرس صوتها تمامًا، ضرباتها خائرة القوى على ذراعيه. سالت الدموع من عينيه لتختلط بالدم على وجنتيه فتختفي، يهمس دون انقطاع:

ـ سامحيني.. سامحيني.

هل سمعت صوته الخفيض في لحظاتها الأخيرة؟سيظل يؤرقه السؤال لليال قادمة.. وجهها أحمر منتفخ، ضرباتها لم تعد إلا طرقات خافتة على يديه. أجهش بالبكاء حينما تدلى ذراعاها مرتخيين جوارها. دفن رأسه في صدرها الساكن.

- سامحيني.. سامحيني.

4

غاص بجسده على كرسي الحافلة الوثير، وعيناه ملتصقتان بالنافذة الكبيرة أمام السائق. يرى الضوء الأبيض للكشافين الكبيرين يطردان الظلمة، يفترشان الطريق الممهد. العجلات المطاطية الكبيرة تنساب بهدوء حريري فلا تصدر الحافلة سوى اهتزازات هادئة مريحة مهدهدة.. ارتاح رأس ياسين على كتفه، بينما شبك هو يديه على فخذيه. يخشى النظر إليهما كثيرًا.. كثيرًا. الليل قارس البرودة في الخارج، ترى هل ترتعد راضية وصابرين؟

بعد يوم وليلة من سيره مع ياسين وصلا إلى تبة عالية. ياسين صامت منذ غادر الحفرة، لم يسأله وعلي الأرجح لن يسأله. لا يذكر إسماعيل حتى أنه نظر إليه منذ بدآ المسير. ليلة أخرى بلا طعام جعلته يتساءل عن جدوى ما فعله.. تهالك الطفل على الأرض عندما توقفا ولم يفلح هو في جعله يعاود الوقوف. أحس بالنهاية قريبة، حلقه هو الآخر جاف أكثر من مزرعة في أقسى سنوات الجفاف السبع. جزء من عقله يغويه بالاستلقاء جوار صغيره، ساعة من الراحة لن تضر. قلبه مثقل بما كان، أنفاس راضية الأخيرة المتحشرجة يشعر بها بين عينيه، حارقة غاضبة مجنونة.. ما الذي كان سيحدث لياسين إن لم يقرر في

خلص واهٍ من اليأس أن يعتلي التبة ليرى قبل أن يستسلم. عندما أبصر الأضواء الكهربائية للحافلة المتوقفة ارتعش، للمرة الأولى في حياته شعر بالراحة وهو يرى زي المدجنين المميز ونسرهم القوي الحامي.

شرب - هو وياسين - حتى تقيئا، أعطاهم أطول المدجنون قطعة من جبن بلا مذاق التهماه في ثوان. ظن طوال الليالي السابقة أنه يسير على غير هدى في التيه، فهم الآن أن قلبه هو من استمع إلى صبحي وعثمان في جدالهما الشارح لمكان الحافلات. كأنما مرت دهور منذ استمع إلى كلماتهم، نسي عقله، لحسن الحظ أن الكلمات حفرت في قلبه.

يجلس مدجن بجوار السائق، وآخر في نهاية الحافلة.. الهدير الخافت للمحرك، مطمئن منوم. الصحراء تتحرك من النافذة الزجاجية وجسد ياسين يرتخي لحظة تلو الأخرى.

- هنا يبدأ الأمان.

قال لنفسه، وقدماه الحافيتان تتلمسان الأرضية الصلبة.. قفص آمن من حديد سيحميه هو وابنه من الرعب الذي يؤمن أنه ينتشر ويتكاثر بلا هوادة.. تنظر له الصخور على جانب الطريق في خرس، والضوء يكشفها في لحظة ثم يتركها منسية للأبد. الترحال الأخير لإسماعيل عبد الراضي.

حاول إغماض عينيه عسى أن يفتح الارهاق الثغرة السوداء لتبتلعه وتريح ذهنه المكدود.

- هل يحلم الموتى؟

أتاه صوت ياسين مفاجئًا، التفت ليجد عينيه اللوزيتين الداكنتين، مستيقظتين حائرتين.

- لا أعلم.. ربما.

عاود إلصاق وجهه بالنافذة، كل نظرة إلى وجه ابنه تذكره بما فعله. إن أطال النظر إليه سيبكي... لا أب يجب أن يبكي أمام طفله.

- بم يحلمون؟

أمسك بذراع ياسين.. كانت ترتعش، الصغير يعلم. ترى هل يخافه أم يخاف عليه. حدق إسماعيل في الظلمة البعيدة الراسخة، لا يستطيع ضوء أن يقهرها. مرت بذهنه وجوه أمه وسعاد وزهرة وراضية وصابرين، قبور معتمة بلا عدد تفغر أفواهها في الليل.

- بالشمس.

لم ينطق ياسين بعدها. استغرق في نوم عميق تمناه إسماعيل أن يكون هانئًا مرحًا. دخل إسماعيل في حالة سائلة بين النوم واليقظة يتأرجح بين عالمين جيئة وذهابًا دون أن يقدر أن يلج أحدهما. ظل في الخدر لفترة لا يعلمها، القطرة الشفافة الأولى على الزجاج هي ما نبهته. أفعمته الدهشة وهو يتابع سيرها المتعرج البطيء على النافذة، ألصق وجهه ليتأكد من كونها حقيقية، وهو يتساءل من أين أتت وسط هذا القفر. توالت القطرات تباعًا تهبط على الزجاج وتسيل في مساراتها المدهشة، تتجمع وتلتصق لتصنع نهيرات صغيرة تمر أمامه مسرعة قبل أن تذهب إلى حيث لا يدري.

- مطر!!

نسي نفسه وهو يتأمل المعجزة الحية التي تتكاثف. أمام مصباحي الحافلة الكبيرين تكشفت القطرات المتتابعة كخيوط شفافة تصل بين السماء والأرض. وضع راحته على زجاج النافذة فشعر بالطرقات الرقيقة لرقصة الماء.

هدأ السائق من سرعة الحافلة تدريجيًا، وهو يدور ليواجه جدارًا يض عاليًا ضخمًا كالتلال متوهجًا بالنور، تتألق فوقه قباب معدنية رغة ينعكس الضوء عليها فتضيء كأقمار سحرية.. عبرت الحافلة ن بوابة معدنية عملاقة يتناثر حولها المدجنون بأسلحتهم السوداء. شوارع الواسعة الفسيحة تحمل في كل جانب أشجارًا حية.. رغم ونه داخل الحافلة المعدنية ولا يمكن للشذى من العبور، إلا أن أنفه ستعاد عبق الورود وأريج الزهور، المزيج المدوخ الذي غمره أمام بيت ملاحظين. البيوت المبهجة النظيفة تستحم تحت القطرات الرائقة.. وقفت الحافلة أخيرًا، أشار له المدجن الأطول بالنزول. ضربات قلبه دوت كالطبول والرعشة في ساقيه تكاد أن تمنعه من الوقوف. هز ياسين النائم.

ـ لقد وصلنا.

الدهشة كانت عارمة في رأس ياسين حتى أنه صمت ولم يسأل، والمطر يغمر شعره الأسود وجسده النحيف. لم يشعر بيد إسماعيل المرتجفة الممسكة بيده وهما يسيران متلاصقين على الأرض الصلبة المبتلة.. المياه التي تدغدغ ما بين أصابع قدميه لفته بقشعريرة ممتعة.. وقفا أمام مبنى من زجاج.. الظلمة من خلفهما، وأنوار زرقاء وحمراء مبهرة تتماوج وتتمازج في دوامة خطفت أنفاسهما. رفع ياسين ذراعه الأيمن ليسمح للمطر بالتسلل إلى أبطه الساخن، وجه إسماعيل كان غارقًا تمامًا، اغرورقت عيناه فصارت الرؤية مشوشة ضبابية.. لا أحد كان يستطيع أن يفصل ما بين المطر وبين دموعه.

1

الهوفركرافت الفضية التي تخترق الصحراء بأقصى سرعة لها تصدر طنينًا خفيضًا تحت العتبة الدنيا للسمع، يثير الضيق كلما طالت المدة داخلها. يجلس الضابط هاني وعلامات الفخر والعزة على وجهه خلاف السائق عديم الانفعالات جواره. فكر آدم أن يخبره أن كل الهوفركرافت من هذا النوع قد اختفت من كل الجيوش كبرى وصغرى، وأن اللون الأسود الفاضح الذي يمثل التحدي المتفاخر هو دعوة مبهرجة لكل قاذف EMP لا يتجاوز ثمن السنغافوري منه ١٥٠ يورو، يحمله كل فرد في عصابات البلوجرانا الباسكية.. عدم وجود العواكس الخادعة التي تمنع العيون وأجهزة الرصد من الرؤية تجعلهم بضغطة زر واحدة، ثلاثة مساجين في تابوت حديدي ترتفع حرارته كل ثانية دون أمل في الخروج.

إخباره بهذا كان حريًا بقتل هذا الاعتزاز السمج على وجهه الصغير، لولا أنه سيتبعه عند العودة إلى المدينة اجتماع عاجل مع الجنرال يطلب فيه الهوفركرافت الحديثة التي لا يمكن لآدم جلبها. هو في غنى عن هذا الآن.

كانتينجهام لم يساعده في الوصول إلى موردي السلاح المستقلين. اللعين يضغط عليه كل يوم تقريبًا ولا يفعل شيئًا لمساعدته. اضطر تحت ضغط الحاجة إلى الشراء بضعف الثمن الطبيعي لمثل هذه الأسلحة، دفع مبلغًا إضافيًا للمهربين اليونانيين لإيصال الأسلحة إلى شواطئ المدينة.. فقد ما يقرب من نصف الميزانية للعملية كلها

قبل حتى بدء الإنتاج. شهوة الجنرال للسلاح تفوق الوصف، لحسن حظه أن قرار حظر الطيران الحربي لا زال ساريًا وإلا كانوا قد طالبوه بقاذفات فائقة السرعة.. لا... الاجتماعات مع هيئة الأركان حفرة سوداء بلا قرار تبتلع المال ولا تورثه إلا حرق الأعصاب، لذا سيظل هادئًا ويترك الضابط هاني ينعم باعتداده، ومدى الصحراء القاحلة ينفتح أمامه كيلومترًا تلو الآخر.

- لن ترى شيئًا حيًا هنا، حتى الزواحف والقوارض تعلمت أن تخشانا.

صاح الضابط هاني بصوت عالٍ متأثرًا بسماعات الأذن السوداء الكبيرة على جانبي رأسه. ابتسم آدم وهو يومئ مانعًا شفتيه من أن تمتطا. تداعى إلى ذهنه السوبرهوكترون الذي تم تصنيعه في أعقاب التوتر بين الاتحادين الروسي والأمريكي. ذكاء اصطناعي متطور، بدن كامل من التيتانيوم المعالج، قوة نار تعادل مائتي ألف ميجا طن مع عواكس كاملة للاختفاء. وحش معدني بحجم نصف مدينة صغيرة، قادر على خلق المبادرة وتغيير التكتيكات. اندلعت الاحتجاجات عندما سربت الصحافة الكلفة الكاملة للوحدة الأولى، ستمائة مليار يورو. أغلق المشروع بعد المرحلة الأولى فقط، أسهم شركات التسليح هبطت هبوطًا ساحقًا.. شكرًا للسماء على وجود البيع على المكشوف، كسب عملاؤه ثروة طائلة.. هناك ربح دائم وسط أي معاناة..

تخيل النظرة على وجه هاني عندما يواجه بقواته الفخورة سوبرهوكترون. الدمى التي لا تتحرك سوى بأمره عبر سماعات الأذن لن تملك حتى ربع فرصة أمام ذكاء اصطناعي يفكر ويقرر وينفذ في واحد على تريليون من الثانية.. الروبوتات أكثر دقة مما يتخيل، لهذا

استغنت الاتحادات الثلاثة عن معظم قواتهم المسلحة البشرية من سبعين عامًا على الأقل.

- ها هي ذي.

صاح هاني دون أن يلتفت هذه المرة، وهو يشير إلى ما خلف التلال. الشمس ساطعة فلم يستطع آدم أن يرى شيئًا من انعكاسها البارق على الرمال الصفراء. ضيق عينيه دون جدوى.

- القوات وصلت بالفعل، يجهزون مكانًا آمنًا لنا.

مرت دقيقة كاملة قبل أن يستطيع أن يرى. إن كان ظن من قبل أن الأحياء الخلفية هي أكثر الأماكن تعاسة فهو كان مخطئًا بكل تأكيد.. الأبنية الكالحة تتبدى أمامهم كشواهد قبور عتيقة تآكلت قممها. ازداد هذا التشبيه في رأسه رسوخًا مع اقتراب الهوفركرافت الحثيث. تتكشف الفجوات الغائرة في هيكل الأبنية..

عبروا محيط الملاجئ المخططة ببساطة بدائية.. ميادين ضيقة تحوطها المباني، دوائر صغيرة داخل الدائرة الأكبر التي تكون المدينة التي كانت.

لم ير أي بشري، فهم أن المدجنين قاموا بحشر الناس حشرًا إلى المكان الذي سيجلس فيه. كل هذه المخلوقات في انتظاره هو، أصابه إدراك القوة التي يمتلكها ببعض الخوف. توقفت الهوفركرافت بهدوء وهو يتمالك نفسه تدريجيًا. الشمس أكثر سطوعًا هنا، في اللحظات الأولى لترجله كان أعمى تقريبًا. حذره فتحي قبل أن يودعه من الرائحة التي ستستقبله:

- أبشع ما ستقابله في حياتك يا آدم بك.

كما اعتاد استهان بكلماته، ليكتشف أنه كان على حق. انقبضت معدته، وأنفه يتداعى تحت روائح غائط قديم وعرق معتق. لم يظهر أي من هذا على وجهه المتماسك وهو يتقدم خلف الضابط هاني. نصبوا له قبل الوصول مظلة قماشية وكرسيًا، اتجه إليهما من فوره.

كوب عصير البرتقال البارد فوق المنضدة ظهر له كطوق نجاة سحري، تمنى أن يكون الطعم لاذعًا للغاية ليطرد الرائحة التي بدأت في التكلس لتصبح طعمًا في حلقه. ابتلع نصف الكوب في رشفة واحدة قبل أن يلحظ الناس.

المدجنون يقفون في نصف دائرة متباعدة، يمكنهم وضعهم بسهولة من تكوين جدار حام إن دعت الضرورة، فكرة هاني ولا شك. سلعة -كما اعتاد أن يطلق عليهم- عجفاء، مسفوعة بارزة عظام الخد، عيونهم واسعة جاحظة غير بشرية.. انعكاسه مستنسخ في مئات الأعين. الأجساد ترتدي خرقًا متفاوتة صارت كلها عديمة اللون، حولها العرق المستمر إلى حالة أكثر صلابة..

- كانت أوكسانا لتفخر بك كثيرًا.

همست روحه بازدراء وهو يطعن الأمل في القلوب مرة ومرة ومرة.. تتناسخ الوجوه في عينيه، وغروب الشمس المنتظر يكسوها جميعًا بظلال كئيبة.. بدوا كالموتى الأحياء في أفلام الظهيرة بمدرسته. يشعر بخشيتهم، وارتباكهم، ورفضهم الحاسم. الغريب أن ما يقبضه ليس هذا كله، ما أقبضه هو يقينه برضوخهم القادم.

الغرض الأساسي للجينات هو حفظ النوع، لهذا يمرر الـDNA الصفات إلى الأبناء، لهذا تلصق الأزهار حبوب اللقاح ببطون النحل، لهذا تنقسم الأميبا، لهذا سيقبلون بعد الرفض.

2

- أنت شيطان يا رجل.

قالها هاني مريحًا ظهره في الهوفركرافت الصغيرة، مادًا قدميه أمامه وقد خلع عويناته السوداء، فظهر الإعجاب حقيقيًا في عينيه الصغيرتين الحادتين.

آدم يعاني من صداع هائل، من طول الدعاية في الملاجئ. هناك ثقل رهيب يشعر به في صدره من المرارة والإرهاق ووجوه الناس. كان مغمضًا تائهًا في أفكاره يحلم بحمامه المثلج والضوء البرتقالي المنذر بموت الشمس يزداد دكنة.. ابتسم مجاملًا بجانب شفتيه كي يرضي هاني ويمنعه من الاسترسال.

- لقد أقنعتني أنا نفسي، مع أني لا أفهم لم نتجشم كل هذا العناء كي يأتوا.. مائتا مدجن وأجيء لك بهم جميعًا لتأخذ من أجسادهم ما تريده.
- الاتحاد لن يقبل سوى التبرع التطوعي، إنه القانون.
- أي قانون، أنتم تريدون شق بطونهم لتأخذوا ما فيها فما الفارق بين سرعة القوة أو بطء الجوع. الأوروبيين مخنثون في رأيي.
- يبدو هذا.

وافقه حتى يخرس. لكن عقل هاني يعمل بطريقة مختلفة، الاقتضاب يشجعه على الحديث.

- علي أية حال، لقد فاجئتني حينما راقبتك اليوم، ما إن تهاجمهم العصابات حتى يأتوا إليك حبوا.

- لن يهاجمهم الفئران.

- ماذا؟

- سيقتربون من الملاجئ فقط، هذا أكثر من كافٍ لتحريكهم.

- لا طبعًا.. أنت لا تعرفهم على الإطلاق، إنهم بلداء كسولين لا بد من استعراض واضح للقوة ليتحركوا.

- أنا لا أريد حمام دم، المعركة معركة أمل لا أكثر.. هم يأملون في غد أفضل وأنا بالفعل أحمل لهم غدًا أفضل لكن ببعض التضحيات.

- أي غد أفضل؟

تساءل هاني في دهشةٍ ضايقتْ آدم.

- لا تحتاج الشركة سوى نسبة صغيرة من المتبرعين تبرعًا نهائيًا، يمكن أن يتبرع أي منهم بكلية أو كبد أو رئة ويحيا في الأماكن الجديدة حياة أفضل كثيرًا.

- أية أماكن جديدة.. لا توجد أماكن جديدة..

- ماذا؟

- هذا معروف، نحن لا نملك الإمكانات على الإطلاق... لا يمكننا إطعام كل هؤلاء.

اتسعت عينا آدم، اتفاقه الأول مع الجنرال وأركانه ينص على إيجاد أماكن فعلية للمتبرعين.. نسبة المدينة من ربح المشروع والدفعة المقدمة التي دفعها آدم تفوق بمراحل كلفة الإطعام والإسكان.

- هناك اتفاق.

خرس هاني. عيناه تشي بالقلق وهو يخشى بأنه باح بأكثر مما يجب. هل خدعك الجنرال يا آدم؟تقلصت قبضته فوق فخذه، جلده يسيل مع عرقه فيما يبدو، الجو خانق مشتعل.

- ألا يوجد مبرد للحرارة هنا؟أنا أحترق.

خلع سؤال آدم عباءة الارتباك التي تلف هاني، فتحرك بسرعة ليضغط على زر صغير في لوحة القيادة.. بزغ صوت هسيس خفيض من داخل الجدران المعدنية.. ما لبث آدم أن شعر بالهواء البارد يتلمسه في هدوء، فتنهد في ارتياح:

- شكرًا لك.

- حينما تحدثت مع ذلك البشع الأول في الملاجئ، هل كنت تعني حقًا ما تقوله؟

- أي جزء تحديدًا؟

- ذلك الجزء عن الله... اعذرني لصراحتي، كلماتك كانت صادمة حقًا. أفترض أن هذا كله جزء من خطتك غير المفهومة لكن نبراتك كانت أكثر صدقًا مما يمكن تجاهله.

تنحنح وعيون آدم الواسعة تتامله متسائلة، تابع بصراحة وهو يحدق في شك:

- هل أنت ملحد؟

ظل آدم صامت لدقيقة قبل أن يضحك. بخفوت في البداية قبل أن يفقد السيطرة على نفسه فارتج جسده في عنف. عقد هاني حاجبيه في غضب منتظرًا زوال الضحكة المستمرة..

- لا أفهم ما المضحك في سؤالي؟

- لا شيء.. أعتذر لك، هي فقط مفارقة أبدية.. الفقراء الجوعى يدعون الرب، الأثرياء المتخمون يخافون الرب، المسحوقون في الصحراوات يخشون الرب، الجلادون خلف المقصلة يؤمنون بالرب... نفس الرب!! تخيل هذا. لا أعلم كيف يمكنه إرضاء كل هذه الصلوات المتعارضة، ربما أصابه التشوش والارتباك لهذا صار العالم على ما هو عليه الآن، ألا ترى ذلك؟

ميز هاني السخرية في نبراته فابتعد مقدار ذراع في حركة عفوية، ذكرت آدم بتراجع أقرانه من الأطفال كلما ظهر وسطهم، يتحاشونه كالمجذوم، ميكروب الدعارة الخفي لا بد وأنه يدور في دوامات حول جسده الضئيل.

أراح جبهته على قبضتيه وهو يتأمل الأرضية بعينين خاويتين. لا يعرف أحد كم كان مؤمنًا في طفولته، دعواته الساذجة ناجت كل الآلهة الممكنة.. أن تعامله أمه جيدًا، أن يجد صديقًا حقيقيًا، أن يكف أبوه عن الشراب. في الليلة الأولى لمجيء إيروشكا سمع تمتماتها الخفيضة وهو على فراشه الصغير عبر الجدران. تسلل بخفة، قدماه العاريتان تكادان لا تمسان البساط الأورجواني، كالقطط ألصق أذنه بالباب الذي كان كبيرًا في عينيه وقتذاك، طلاؤه الأبيض الحديث التهم الطلاء البني القديم حتى لم يعد ممكنًا رؤية بقاياه. لم يسمع سوى حفيف أقدام هادئة، انفتح الباب فجأة فانزلق. كان ليصطدم بالأرض لولا ذراعي إيروشكا اللذين لم يمتلئا بعد، كانت في التاسعة عشر.. تلقفته دون أسئلة، أركعته بجوارها والشموع التي جلبتها معها من موطنها

تصدر رائحة خانقة ممتعة حريفة.. نكست رأسها أمام أيقونة رسم فوقها بسذاجة امرأة ذات غطاء رأس منحسر قليلًا.

ـ المجدلية..

قالت له، الزانية التي غفر لها الرب. كل فجر عندما تنتهي من مضاجعة كل من يملك مالًا، تصعد لتستحم ثم تركع أمام المجدلية.. كانت تؤمن حقًا بالجحيم وتخشاه، تؤمن بكل قلبها أن هناك خلاصًا لروحها رغم كل شيء. كانت عيناها تشعان بفرحة لم ير مثلها كلما ناداها مازحًا بمجدلية المقاطعة الحمراء. لم يستطع عندما كبر أن يخبرها بأن المجدلية لم تكن زانية، تركها تؤمن بما تحب.

رأى هاني باستغراب ركن شفتي آدم يبتسم دون سبب وهو مطرق ينظر إلى أرضية الهوفركرافت. طال الصمت فأدار ظهره وغمغم بصوت أراد ولم يرد أن يسمعه آدم:

ـ أنت مخبول بلا شك.

لم يسمع آدم شيئًا، كان في حفرة ذكرياته يضحك بنزق مع إيروشكا.

3

كان آدم غارقًا في شروده وأفكاره المتصادمة حتى أن هاجر وقفت لدقيقة أو أكثر على باب مكتبه دون أن يشعر بها. عيناه تحدقان في الحائط المواجه.. بدا القلق على وجهها، ترددت قليلًا قبل أن تقرر في النهاية الطرق على الباب الخشبي العاري من أية نقوش. انتبه مع طرقاتها، رفع عينيه إليها وابتسم. تقدمت في قليل من الوجل، فأشار لها بالجلوس.

ـ هل ذهب فتحي؟

ـ منذ أكثر من ساعة مستر آدم.

تعجب داخله، ساعة كاملة مرت دون أن يشعر بها. أرخى ربطة عنقه، الجو بارد في الغرفة، ربما شديد البرودة نظرًا لارتعاشة ذراع هاجر إلا أنه يشعر بالاحتراق تحت جلده حتى أنه يكاد أن يعرق.

أعصابه لا زالت متهيجة من مقابلتة العاصفة مع الجنرال في الصباح، لم يحصل على ما كان يريده، وعصبيته تركت شرخًا أكثر عمقًا مما يحسب في علاقته مع القائد.. أخطاء بالجملة ارتكبها هذا الصباح ولا يشعر بالندم.

ـ أترغبين في شرب أي شيء؟

سألها وهو يتأملها ببطء، حتى أن وجهها احمر قليلًا قبل أن تطرق.

ـ شكرًا لك.

لم يعلم لم ابتسم، يوم مجنون بالكامل. فقد أعصابه صباحًا والآن يفقد السيطرة على شفتيه. الخجل زادها جمالًا، تعلقت عيناه بشعرها الثائر لمدة تخالف قواعد اللياقة.. لم يلحظ الصراع على ملامحها، زمت شفتيها للحظات قبل أن تستسلم لفضولها وتسأل:

ـ هل أنت بخير يا مستر آدم؟

خرج السؤال من فمها، وانغرس ظفر سبابتها في لحم إبهامها تأهبًا لرد قاس منه. لم يلحظ آدم هذا أيضًا، تنهد تنهيدة طويلة تحمل إرهاقه، قبل أن يلتفت لها مشاكسًا:

ـ صرت خبيرة بي، يمكنك معرفة متى لا أكون بخير.. أليس كذلك؟

طفرت بهجة دافئة على وجهها لثانية، قبل أن تسبر بذكاء ما خلف الكلمات:

- إذن أنت لست بخير.

- بلى لست بخير، ارتكبت العديد من الأخطاء اليوم فيما يبدو، مشاجرة لطيفة مع الجنرال.

فزع هائل دثرها ما إن سمعت لفظة الجنرال مصحوبة بكلمة صدام. خوفها الطفولي أثار ضحكة بداخله لم يكتمها، فصدحت تتحدى طنين مكيف الهواء المستمر.

- لا تخافي إلى هذا الحد، ما هو إلا رجل مسن في النهاية.

- مستر آدم أرجوك، لا تتحدث هكذا.

تلفتت حولها بصورة لا إرادية خوفًا من آذان خفية:

- ناديني آدم، هذا أكثر يسرًا. وأنا سأتحدث كما أحب عمن أريد.. ياللسماء إنك ترتعدين.

- إنه الجنرال.. سيد كل شيء يمكنه.. يمكنه..

- لا يمكنه سوى الجعجعة صدقيني، أنت لا تعلمين بعد كيف يسير العالم الحقيقي، يومًا ما سأعلمك.

- أولست في خطر؟

- خطر!! على الإطلاق، لكن هناك صعوبات قادمة في العمل ولا شك.

قالها وعاد إلى شروده مرة أخرى. رفعت نفسها قليلًا من كرسيها، مست يده لينتبه.

- هل تريدني أن أغادر؟

سألت بقلق خشية مقاطعة أفكاره.

ـ لا.. أنا أحتاج للكلام.

أثار حيرته الجذل في عينيها، أحس باهتمامها حقيقي.. صادق، مع كل ما ينتابه منذ زيارته للملاجئ الأسبوع الماضي لم يشعر بالحماسة، اشمئزاز عارم من ذاته هو ما غمره.

ـ أنت تعلمين ما تقوم هذه الشركة بفعله، أليس كذلك؟

ـ إلى حد ما.. فتحي أخبرني أن العمل يتعلق بأهل الملاجئ في الجنوب، نظام تشغيل جديد أو ما شابه يختلف عن مزارع الشركات الأخرى.

ـ نظام تشغيل جديد أو ما شابه... هذه طريقة لطيفة من فتحي لوصف العمل، لكن لا. في أوروبا يحتاجون إلى الأعضاء الداخلية للبشر، يدفعون مقابلها أسعارًا باهظة، أهل الملاجئ بلا ثمن على الإطلاق.. الجنرال يغض البصر عنا ونحن نستأصل هذه الأعضاء وننقلها إلى الأوروبيين، من المفترض أن يكون العائد مجزيًا فوق الوصف.

جمدت في مكانها دون أن تتحرك، لم تكن تعرف بالفعل.

ـ هل.. هل تقتلونهم؟

ـ هل نقتلهم.. تكلمي بصيغة الجمع الآن أنت موظفة في هذه الشركة، راتبك يأتي من أرباح ما يتم.

ظهر الخوف على ملامحها. اللعنة عليها وعلى ملامحها، دائمًا ما تجرده تعبيراتها من قناع الفظاظة ما إن يرتديه.

ـ إجابة سؤالك هي لا، نحن لا نقتلهم.. حتى الآن على الأقل. لا داعي للقتل من الأساس، الجسد البشري يمكنه الاستغناء عن الكثير مما بداخله دون أن يتأثر. لن يضيرهم ما سنأخذه،

على العكس من المفترض أن نكافئهم بتسكينهم في أماكن أكثر راحة مع وجبات أكثر. حتى أن مكافأتهم تشمل إدخال أطفالهم في سلك المدجنين حيث يحق لهم سكنى المدينة إلى الأبد.

أغفل لسانه الحديث عن الشرط. هل تريد أن تكون جميلًا في عينيها يا آدم؟ولماذا؟ما الذي يجري لك هنا بحق السماء.

- هذه مكافأة سخية..
- هكذا كنت أظن حتى علمت أن جنرالكم اللعين يخدعني.
- يخدعك؟
- بلى، يجب عليه تجهيز أماكن للمتبرعين لكنني عرفت أنه لا ينوي تسكينهم ثانية على الإطلاق بل ترحيلهم إلى مدن منسية نصف مدفونة أكثر سوءًا حيث يتركوا ليموتوا.
- ربما سيزودهم بما يحتاجونه كالملاجئ القديمة..
- بما يحتاجونه كالملاجئ القديمة!!

ردد كلماتها مستنكرًا، جمرة دفينة من غضب هبت عليها رياح كلماتها فأذكتها دون قصد.

- على الأرجح أنت لم تري كيف يعيشون، الحيوانات نفسها لا تترك كي تغرق في القذارة إلى هذا الحد. الرائحة وحدها كفيلة بأن يقتل المرء نفسه، والحرارة... تلك الحرارة الوثنية القاسية التي لا ترحم، تحرق الأبنية وتنهش الأطفال، وعواصف الرمال والهزال والخوف.. لا يا هاجر إنهم بالقطع لا يجدون ما يحتاجونه في الملاجئ.

تأملته في تركيز مندهش وهو يتكلم بسرعة وانفعال، انتظرت ياسمين بعدما أنهى حديثه لتقول ببطء:

ـ إنك تتألم من أجلهم.

ـ ماذا؟

ـ لم أر عينيك بمثل هذا السطوع من قبل وأنت تتحدث.

ابتسم بعصبية وهو يهرب من وجهها الجميل:

ـ لا تكوني ساذجة.. أنا فقط رأيت ما يقاسونه، لهذا عرضي عادل تمامًا. أنا لا أؤمن بالخداع في العمل.. المخادعون تكسد بضاعتهم دائمًا، ما يفعله الجنرال هو بيزنس سيئ، وأنا لا أقوم ببيزنس سيئ.

لم يبد عليها تصديق ما يقول حتى وهي تهز رأسها موافقة، تنهد وقال لها بخفوت:

ـ أنا لست شخصًا جيّدًا يا هاجر... هذا أول ما يجب أن تعلميه عني، تحت جميع الأقنعة أحمل نفسًا أكثر قبحًا مما يمكنك تخيله.

صمت بعد أن أتم جملته. لو بادرت بالكلام الآن سيتوقف، سيجد مبررًا لمنع فيضان الاعترافات الذي يحفره يريد أن يغادر شفتيه. تعلق بفمها، الجزء القاسي من ذاته دفاعه الأخير في أن تتكلم هي لتعارضه، لتجامله. لم تنطق ببنت شفة، ظلت منتبهة منتظرة صامتة..

ـ العالم شديد البشاعة، تعلمت هذا منذ سنوات طوال، كنت مهمشًا مثلك أقصى ما أفعله هو أن أتفادى ضربات العالم قدر المستطاع، أهرب إلى أماكن خفية حيث أحلم أن لا يستطيع شيء أن ينالني.. أنت تفهمين ما أعنيه، لقد رأيت

كيف تتصرفين حينما يحوم الدجوي حولك، كم دجو
قابلت في حياتك هنا؟عشرة، عشرون.. مائة.. العالم كا
نسخ مكررة من الدجوي، نسخ أكبر وأقوى وأقذر، هم م
يرثون الأرض، هم الخالدون.. الآلهة الحقيقية.. الطيو
والحالمون والودعاء دود في قبضة من طين، يجاهدو
لينالوا نفسًا آخر.. أتفهمين ما أعنيه؟

سأل بيأس وهو يشعر أنها لن تفهم:

- المهمش إن استطاع أن يجمع قوة كافية يمكنه الوصو
إلى المركز، كل كتب التاريخ تذكر هذا. وأنا كنت أقر
كثيرًا، كثيرًا جدًا. نابليون، هتلر، جنكيز خان وغيرهم
وغيرهم قطعوا الرحلة من الهامش حتى صاروا هم المركز
يولد الإنسان بخيارين، أن يتلقى الضربات أو يكيلها، وأنا
اكتفيت من تلقي الركلات، الطريق إلى الأعلى درجاته هي
رؤوس الناس، أنا فقط لا أدوس على رأس لدرجة إزهاق
الروح، هل يجعلني هذا شخصًا جيدًا؟. لا أعتقد.

ارتجفت عضلة فكها، ستنطق لمخالفته... هذا آخر ما يريده
الآن، السذاجة العفوية العنيدة.. أنقذته طرقات الدجوي البطيئة الثقيلة
على الباب المفتوح:

- مساء الخير آدم بك، عرفت أنك هنا عندما لم أجد عزيزتنا
هاجر في مكتب الاستقبال.

فهم آدم ما يرمي إليه فابتسم ببرود:

- مساء الخير... أخشى أنني سأسرق عزيزتنا هاجر لوقت أطول،
هي على وشك أن تذهب إلى رئاسة الأركان في عمل هام.

ـ حسنًا، أرجوك ألا ترهقها كثيرًا في العمل، إنها لا تكاد تحضر إلى الشركة..

عاود آدم الابتسام البارد دون أن يرد. تحرك الدجوي ببطء ستفز، ما إن غادر مجال الرؤية حتى قال آدم وهو يغمض عينيه كي لا تح هاجر نقاشًا جديدًا:

ـ اذهبي إلى منزلك، باقي اليوم راحة لك.

4

الطرقات على الباب تحولت في حلمه إلى طبول وثنية محمومة، و المقيد على الطوطم الذي لا يحمل سوى عينين مشتعلتين، يراها وهو بالأسفل تحدق فيه، تسخر منه، تشتهيه. الطبول تتعالى فتساءل وسط الحلم ماذا سيحدث عندما تتوقف. هو على قمة تل صخري، السهل بالأسفل مكسو بحشائش صفراء بلون الرمال.. أم هي رمال حية؟لا يمكنه الجزم. يتشقق خشب الطوطم من تحت العينين الثابتتين، فيتشكل فم دائري صغير. الشفاة الخشبية تخيفه أكثر من كل شيء، خرج صوت الطوطم... عويل صارخ طوييييييل ارتج له مخه داخل جمجمته، خيوط الحلم صارت أعقد من قدرة عقله الباطن على النسج فاستيقظ آدم.

انكمش دوي الطبول إلى دق قبضات نافذة الصبر على باب الغرفة.. انقبض قلبه لكنه تمالك نفسه بحزم، نهض عاري الجذع ليفتح الباب. العيون الخاوية للمدجنين تحدق فيه، الضابط هاني يقف بشعر أشعث قليلًا وعينين منتفختين كعينيه.

ـ ماذا هنالك؟

- ارتد ملابسك بأسرع ما يمكنك، الجنرال يريدك حالًا.

- ألا يمكن...

- لا يمكن.

آدم ذكي بشكل كاف ليدرك فشل أية مناقشة الآن، استدار متجهًا للحمام، بعد أن أغلق الباب في وجه هاني.

سمع صفارة الإنذار الثانية وحذاؤه يلامس الأسفلت الساخن. الجانب الآخر من الطريق ممتلئ بهوفركرافت متتابعة في طريقها إلى بوابة المدينة.. يضغط كل مدجن على خوذته ليستمع إلى الأوامر المتلاحقة.. ما إن استقر داخل العربة حتى سأل هاني.

- ما الذي يحدث؟

نظر إليه هاني دون أن يجيب.. على الأرجح لا زال يحمل ضغينة آخر محادثة مع آدم وما جره عليه لسانه الطلق من متاعب، نظرة الجنرال الغاضبة انصبت على هاني ذي الفم الكبير وآدم يخبره بأنه قد اكتشف غشه.

الطريق إلى مقر الجنرال يستغرق خمس عشرة دقيقة في المتوسط، مع كل هذه الفوضى المسلحة خمن أنه سيستغرق وقتًا أطول كثيرًا. حاول استغلال الوقت للاسترخاء، هو لم ينم أكثر من ثلاث ساعات. أول بشائر المتبرعين وصلت منذ يومين، ثلاثة رجال وعائلاتهم. كان على الهاتف في بداية وصلة توبيخ تتحول تدريجيًا إلى مشاجرة، الشعر الأبيض والعيون الضيقة لكانتينجهام يثيران ألمًا بداخله، ألم يتحول إلى حنق كلما أطال النظر إليهما، قاطعه اتصال هاجر به لتعلمه، ما الذي كان يمكن أن يفعله دون هاجر؟عرف أن القادمين كادوا أن يموتوا فزعًا حينما شرع فتحي في العمل دون انتظار لحضوره.

ـ حيوانات متوحشة..

الوصف الذي خرج من فتحي وهو يشكو هجومهم عليه وهو يحاول فصل الرجال عن عائلاتهم. هاجر كانت الحل، أوقفتهم، تكلمت بطريقتها الساحرة المهدئة، طلبت من فتحي الانتظار حتى وصول آدم، أطعمت النساء، لعبت مع الأطفال حتى وصل هو.

هوفركرافت تجمدت في وضع الاستعداد، النفاثات السفلية تشوي الطريق حتى أن آدم رأى الأسفلت وقد بدأ في أن يلين. ضابط يلوح بيديه للسائق المدجن في غضب.. قصور في آلية الدفع؟تعطل الرتل الفضي المثير للعمى، بدأ الضباط في النزول من الهوفركرافت المتأخرة لمعرفة ما يعيقهم. بنادق الليزر التي دفع ثمنها من حسابه البنكي تتألق تحت نور الشمس. أنابيب معدنية بمقابض من النيكل المطعم تبدو كألعاب الأطفال لكنها مميتة بشكل مخيف. حتى وإن كانت بنصف جودة البنادق البلجيكية إلا أنها لا زالت قادرة على إصابة هدف على بعد نصف كيلومتر بدقة مبهرة، دفع ثلاثة أضعاف ثمنها الحقيقي ليجلبها لهذه الأكتاف.

جسد الإنسان هش جدًا، طفرات الطبيعة تركته دون قرون طويلة أو أنياب حادة.. منحته ما هو أشد فتكًا بكثير. سأله البروفيسور براندون في الجامعة عما يظنه أول شيء فعله الإنسان حينما تعلم استخدام يديه، أجاب دون تفكير أن أول فعل للإنسان كان الإمساك بحجر وتجربة قذفه على من يبغضهم.

الاستعراض العسكري المتوقف ببؤس على الجانب الاخر من الطريق، أجبر البعض على الارتجال. تراجعت عربتهم وهوفركرافت تنحرف لتستولي على مكانهم لتتجاوز أختها المعطلة.. أبطل السائق

العربة تمامًا كما أمره هاني. سيضطرون إلى انتظار عشرين هوفركراف أخرى حتى يخلو الطريق.

الصداع يدق هو الآخر طرق رأسه المزدحمة لم ترد مريم على أي من مكالماته، أجبر على الاتصال بالمدرسة الداخليه ليكتشف أن مريم تركت الفصل الدراسي دون مقدمات:

– هي طالبة غير مجتهدة على الإطلاق، لا تكون أية أصدقاء، تعيش داخل قوقعتها الخاصة.. انعزالية للغاية مستر مملوك.. اشتبكت أكثر من مرة مع الأخصائية النفسية للمدرسة..

سأل غاضبًا عن سبب عدم معرفته بكل هذا، أجابته مديرة المدرسة في برود أنها بعثت بكل الإخطارات إلى العنوان الذي تركه بنفسه عند إدراجها في المدرسة . في هذا الوقت كان متعجلًا فلم يترك سوى عنوان البيت الأحمر اعتذر، اتفق على دفع تبرع كبير للمدرسة حتى لا يتم فصل مريم مع وعده بعودتها الفصل الدراسي القادم وتغيير شامل في أسلوبها ولأن العقبات دائمًا ما تأتي في حلقات متشابكة، كان اتصاله التالي بأوكسانا أمه

لعب البوكر يحتاج إلى الصبر والهدوء، وهو لم يملك أيهما هذه الليلة.. ألاعيبها المعتادة في المراوغة وهو يسأل عن إيروشكا دفعته في النهاية إلى الغضب.

جزء كبير من روحه القديمة شكلته إيروشكا بأصابعها البيضاء الطويلة، نحتت شبقه. كانت تكبره بثلاثة عشر عامًا، كانت أمه الفعلية.. وامرأته الأولى التي نالها، سرهما الدفين الذي لا يبوحان به أبدًا، فترك أثره الغامض على ضحكاتهما وأحاديثهما الهامسة..

فزعت أوكسانا من غضبه، المرة الأولى التي تراه على هذه الحالة، شذرات من المقت الذي طالما كبته مستها هذه اللحظة..

أتت إيروشكا بشعرها الأشقر وعينيها الروسيتين الزرقاوين الطيبتين، أتت إيروشكا فارتد طفلًا في السابعة يرتعد من تنمر زملائه، ارتد مراهقًا على مشارف الانتحار بعد أن هجرته إيزابيل. أتت إيروشكا فخرس.

للحظة تمنى أن يكون وجودها فعليًا، ليرتمي برفق في صدرها العامر، لتلعب في خصلات شعره الأسود وتمس فروة رأسه، ليشتم عبير روحها ودفء لمستها. لكنه بالغ الآن وعليه تحمل أخطائه.

طلب منها الذهاب لبروكسل إلى عنوان مريم لتطمئن عليها. أخافتها الأنباء هي الأخرى، فهي تحفظ تفاصيل الفتاة اليتيمة الرقيقة عن ظهر قلب. سألته إن كان يعرف سبب تغير مريم. في عمر سابق كانت إيروشكا صندوقه الأسود، تحفظ كل أسراره حتى التافه منها، الآن لم يجرؤ أن يخبرها بما فعل، وطأة الاحساس بكونه وحيدًا للغاية، وبشع بما لا يمكن تصوره دهسته.. حتى أمك لم تبعك رغم كل ما تعتقده فيها.

وعدته في النهاية أن تسافر في نهاية الأسبوع، ربما تقضي يومًا أو يومين مع مريم. ارتاح قلبه قليلًا وعيونها تخبره أن كل شيء سيكون على ما يرام. ودعها وأنهى الاتصال، وهو يسمع صوت أمه يطالبه ألا ينهي المكالمة.. تمدد على فراشه وتساءل ماذا لو حكت مريم لإيروشكا؟ارتجف قلبه داخل زنزانة صدره والاحتمال القريب يباغته. تقلب لساعات بدت له لا نهائية، ظلمة السماء خارج النوافذ سرمدية

لن يهزمها نهار أبدًا. قبل غفوته ـ التي تمنعت كثيرًا ـ كان جانب وسادته مبللًا.

أدار السائق محرك السيارة مرة أخرى بعد أن عبرت آخر هوفركرافت نحو بوابات المدينة إلى حيث لا يعلم. لم يمر وقت طويل قبل أن يتوقفوا أمام مبنى رئاسة الأركان. كان هذا مفاجئًا له، منذ أن وصل إلى المدينة والجنرال إما في قصره أو في مبنى القيادة الخامل. مبنى رئاسة الأركان يبدو ككل المباني العسكرية، مستطيل الشكل كالح ترفرف فوقه الأعلام، تتحرك الضباط جيئة وذهابًا من مدخله الكبير. مدجنان في نوبة حراستهما يرفعان يدهما في تحية عسكرية خاطفة كل عشر ثوان لكل عابر ترقد النجوم على أكتافه. الضباط غارقون في مشاغلهم فلا يرد أحد منهم التحية..

رأى آدم المشهد شديد الطرافة فضحك حتى أيقظ صداعه الذي غفا لدقائق. حدجه هاني بنظرة غاضبة، فاكتفى بالابتسام. داخل خلية النحل الكاكي أوصلوه إلى قاعة مربعة واسعة تستقر في منتصفها منضدة عملاقة، تظهر هولوجرامًا أزرق اللون لطبوغرافية الصحراء. دخل مع هاني. الجنرال يحدق في الهولوجرام بتمعن بجوار هيئة أركانه كاملة، أحدهم يشرح شيئًا فقرر هاني عدم مقاطعته.

ـ هذا مدق العرقوبة، واسع بما يكفي لتسير اثنتان من الهوفركرافت متجاورتين فيه. يغوص المدق عميقًا في الأرض كوادٍ صغير.. سيحمي هذا الجانبين أثناء المسير، وسيمكننا من القيام بحركة التفاف غير متوقعة..

ـ لكن في نفس الوقت العبور من العرقوبة سيأخذ وقتًا أطول من الهجوم المباشر، فتتحطم طليعتنا قبل وصول القوة الرئيسية..

عارض شاب نحيل ذو شعر دهني لامع.

ـ لن تتحطم الطليعة، نحن نمتلك أفضل ضباط وكفاءة مدجنينا لا تقاس، مع الاستخدام الصحيح للأرض سيتمكنون من تثبيت العدو.

قال الأول مع بعض الغضب، هو يقارب الجنرال سنًا وإن كان دون كرشه العظيم، وصلعته دائرية كالطبق.

ـ لقد حطم العدو قوات الصدام الأسبوع الماضي يا سيدي.

احمر وجه الرجل، شك آدم انه لولا وجود الجنرال والتقاليد العسكرية لصفع الشاب بكل تأكيد.

ـ لا زلنا لا نعلم بعد كيفية حدوث هذا، لا ناجين على الإطلاق.. الاحتمال الأكبر هو حادث ما أصاب مقر التعبئة..

لا يفهم آدم كلمة واحدة، ما استغرقه هو الصدام الخفي بين الضباط.. لو كان الضابط الصغير ذكيًا بما يكفي لصمت في هذه اللحظة، الاعتداد في عينيه جعل آدم يراهن على أنه سيرد لا محالة..

ـ حادث لم يخلف أي هوفركرافت ولا أي ضابط ومهندس.. حادث ترك مقر التعبئة خاليًا على عروشه بلا آلات أو بشر،حادث اختفاء.

كسب آدم رهانه. تكورت قبضة الأعلى رتبة في اهتياج، قبل أن يفتح فمه رفع الجنرال رأسه عن الهولوجرام لثانية فرأى آدم.

- ستتحرك القوة الرئيسية وتعبر مدق العرقوبة، أريد سبع محطات رصد مختلفة.. أوامر القوة الرئيسية هي إفناء مراكز التعبئة بكل ما ومن فيها، على الطليعة الثبات مهما كان الثمن.. لا تخلٍ عن شبر من الأرض.

هز الأصلع رأسه موافقًا مزهوًا، جاهد الضابط الصغير كي يبتلع اعتراضه.

- تحركوا الآن.

صفق بيديه فغادر الجميع دون نقاش، تعلقت عيناه الصغيرتان كزرين باللوحة الهولوجرامية.. صمت حتى خشي آدم أن يكون قد نسيه، تحرك في تململ فرفع الجنرال وجهه وابتسم ابتسامة زائفة..

- آدم بك.

- فخامة الجنرال.

مع الوقت فهم أخيرًا أهمية الألقاب هنا، الألقاب تحميهم من أن يكونوا بشرًا عاديين، الألقاب حذاء عالٍ يرفعهم فوق الباقين. أشار له الجنرال بالجلوس، وتحرك بتثاقل ليجلس في مواجهته. كان يرتدي زيًا عسكريًا مموهًا دون نياشين. رواسب مقابلتهما الأخيرة كانت محسوسة، المقابلة التي انتهت بصعوبة على تسكين المتبرعين في الأحياء الخلفية على أن تشرع المدينة في بناء أماكن خاصة بهم العام القادم مع تجديد عقد المزارع. التوتر المشحون به الهواء جعل آدم يقرر أن يكون كيّسًا قدر الامكان.

انتظر عبارات المجاملة المعتادة المنفرة قليلًا من العجوز الذي حان ميعاد صبغ شاربه، فجذور الشعر البيضاء فاضحة فوق شفته العليا.

- الأمر شديد الخطورة يا آدم بك.

افتتاحية غير متوقعة تنبه بعدها آدم.

- أنت تدري معاناتنا مع المدن الأخرى، ومحاولتهم المستمرة لتقليص مزارعنا والاستيلاء على الأرض الجيدة.. الأمر لا يعدو ضربات مدفعية ليزر من آن إلى آخر كتهديد حين اكتشاف رتل معاد في أرضنا، أو صدام بين بعض الهوفركرافت على المدي الحدودي. هناك اتفاق عقلاني صامت بعدم التمادي في حرب مفتوحة حقيقية لا يحتمل الجميع كلفتها. منذ أن بدأ الروس في تغذية المدينة الغربية بالسلاح وتعديات قواتها على أرضنا الملاصقة تزداد جرأة، أنا شخص هادئ ولا أميل إلى التهور، قبل وصولك إلى هنا هاتفت جنرال المدينة الغربية للتفاهم، أعطيت الكثير من التنازلات وتراجعت بالشريط الحدودي لأنهي الصدام. حتى بعد جلبك لشحنة الأسلحة الخفيفة ظللت ملتزمًا بالاتفاق، لم أجهز سوى قوة صدام رابضت بالضبط على الشريط الحدودي الجديد لحراسته، أمس الأول قامت اشتباكات على الحدود، اشتباكات عنيفة، أعلى حتى من أكثر لحظاتهم عدوانًا. خلف كل قوة صدام يوجد مركز تعبئة يحمي الهوفركرافت الاحتياطية ويحوي قطع الغيار والمهندسين العسكريين المستعدين لإصلاح الاضرار الناجمة عن الاشتباك. خسرت قواتنا الاشتباك فانسحبت، قامت القوات المعادية بانتهاك مركز التعبئة، استولوا على الهوفركرافت المعطوبة والآليات الأخرى. الأخطر من هذا كله أنهم اختطفوا المهندسين العسكريين.

ضيق آدم عينيه، ليس ممن تستهويهم التكتيكات الحربية فلم يفهم المغزى.

- ولماذا يخطفونهم؟

- المهندسون العسكريون هم أهم وأغلى رقم في معادلة القوة، بدونهم أية إصابة لآلية مهما كانت طفيفة هي خصم كامل من حجم التسلح. عدد المهندسين دائمًا غير كاف، المدينة لا تستطيع سوى إيفاد عشرين مهندسًا إلى الخارج للتعلم كل سنة، نحن فقدنا مائة مهندس على الأقل في هذا الانتهاك الأخير.

- هذا باعث على أقصى درجات الأسف ولكنني - مع احترامي الكامل- لا أفهم ما دوري في كل هذا، أنا لا أمتلك مهندسين عسكريين.

- أعرف هذا. لكنك جزء من المدينة الآن، مصالحنا واحدة بكل تأكيد. إن خسرنا الحرب لا أظن أن جنرال المدينة الغربية سيحترم اتفاقية العمل بيننا.

عقد آدم حاجبيه في حذر، الابتزاز يبدو جليًا في الجو حتى يمكنه لمسه إن أراد.

- في هذه اللحظات الحرجة تجد المدينة نفسها مضطرة إلى طلب المزيد منك، ونحن على ثقة أنك قادر على تفهم الظروف.

- وماذا تريد المدينة تحديدًا؟

- ثلاثون هوفركرافت مبدئيًا.

- مبدئيًا!!

- نحن لا نعلم ما الذي سيسفر عنه هجومنا المضاد. أنا على ثقة من الانتصار واستعادة مهندسينا المختطفين. الهوفركرافت التي نطلبها منك هي خط دفاع أخير قد لا نحتاجه على الإطلاق، إن سار كل شيء على ما يرام.
- هل تعلم فخامتك ثمن الهوفركرافت الحربية الحديثة، هل تعلم كلفة نقلها إلى هنا مع حظر توريد الأسلحة الساري في أوروبا المتحدة والأمريكتين.
- اجلبها من الاتحاد الآسيوي إذن.
- من يمولون أعداءكم!! الآليات الحربية الثقيلة لم تكن أبدًا جزءًا من الاتفاق، لقد كنت واضحًا جدًا في تأكيد هذه النقطة..
- لأكن صريحًا أنا لا أهتم بسعرها أو بمشاكل النقل اللوجيستية، ستجلب لنا الهوفركرافت أو سيتم الغاء الاتفاق.

رغب آدم بشدة في صفعه على وجنتيه الممتلئتين. انطلق عقله في العمل بسرعة الليزر، بينما تراجع الجنرال في مقعده ليرخي ظهره المشدود منذ الفجر. تبنى الخطط وتتهاوى في أجزاء من الثانية داخل جمجمة آدم، انتظار الرد تشكل على ملامح الجنرال، والتحفز على ملامح هاني. تنهد آدم بعد دقائق، هز رأسه موافقًا وقال بهدوء:

- سأفعل كل ما بوسعي.

5

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

سأل نفسه وهو يتأمل البيوت الكالحة والطرقات الخاوية. جسده ينضح العرق بكثافة غير معهودة، والحرارة يشعر بها في قدميه داخل الحذاء الغارق في الأتربة.. المدجنون في شرفاتهم يحملقون في اللاشيء، لم يتحصل منهم حتى على نظرة فضولية واحدة.. يسير منذ الصباح الباكر، جو الانتظار والهلع داخل المدينة يطبق على روحه. كل ضباط الأركان وهم يعبرون الشارع مصادفة ينظرون له في ترقب. الآمال التي خلقها الجنرال خلقًا تتلولب وتتمازج، شبكة عنكبوت لزجة وهو الذبابة التي يحلم بها الجميع. ترى كم من الوقت يمكنك التملص قبل أن يدركوا أنك لن تجلب سوى الخواء؟

سار في البداية بمحاذاة الشاطئ الرملي، خطواته تفوق الجغرافيا فيما يبدو.. انتهى الشاطئ دون أن ينتهي المسير. دار مع المنحنيات ووهج الشمس يذيب جليد مخه دون أن يخرج بأية أفكار طازجة.. توقف أمام الحاجز الذي يفصل المدينة العسكرية عن الأحياء الخلفية، لوهلة فكر في الرجوع لكن قدميه عاندتا. انطبع وجهه في ذاكرة المدجنين ملتصقًا بعبارة مسموح الدخول فلم يعترضوه.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

حتى السؤال في رأسه تبعثره صدى خطواته،فيفقد ارتباطه بالمكان، يتعلق بجمجمته جامعًا كل ما فات وما هو قادم.

أرخص هوفركرافت يمكن للمهربين على الانترنت توفيرها تتجاوز المليون يورو، مليون يورو!!.. هذا كل ما كان يملكه قبل

المجيء إلى هنا. بنادق الليزر تكلفت وحدها ٦٠٠ ألف يورو، ناهيك من الهدايا والمبالغ السرية لسكرتير الجنرال في بروكسل.

هناك حصاة صغيرة تقبع في منتصف الطريق تمامًا. تحرك -دون أن يعي- بخطوات شبه راقصة، مال بجذعه ليتفادى خصمًا وهميًا قبل أن يسد الحصاة باطن قدمه. طارت فوق الأرض بسنتيمترات لمسافة طويلة قبل أن ترتطم بالقطع الحجرية العملاقة التي تكون جانب الرصيف. تخيل الشرفات والنوافذ الخالية ممتلئة بالجمهور الذي يهتف باسمه.

- آدم.. آدم.

ابتسم بجانب فمه. لفترة طويلة في طفولته اعتاد وضع الوسائد فوق رأسه قبل الخلود للنوم، نسج هذا الحلم بعقله الصغير قطعة قطعة.. الركلة المثالية، التشجيع الجنوني والحب.. الحب غير المشروط الذي يحيط به للأبد. لم يشعر مخلوق بركلته، لا زال هناك بعض من الوقت قبل ميعاد عودة عاملي الأحياء الخلفية إلى بيوتهم. اقتربت به خطواته مرة أخرى من الحصاة الساكنة، عبرها هذه المرة دون أن يمسها، مرت الذكرى وعادت الأفكار.

ترك هاتفه في الفندق مغلقًا. بالأمس كاد أن يتصل بكاننينجهام ليطلب المساعدة، في منتصف المسافة بين أصبعه وزر الاتصال أتته عينا مريم... مريم! غاب صوت البحر عن أذنيه تدريجيًا، تسوقه قدماه عميقًا في قلب الأحياء الخلفية.. تزداد واجهات المباني قذارة، هناك طبقية حتى بين البائسين. تعبير الازدراء على وجه فتحي قبل سفره عندما عرف بتوطين المتبرعين هنا، قابله آدم بنظرة متهكمة دون رد. لن يشعر الإنسان بالعلوان لم يكن هناك من هم بالأسفل هذه حقيقة

دائمة، هاجر هي استثناؤها. يستطيع أن يرى كيف عانت عندما تشرد النظرة الموجعة الموجعة وهي تتفلت أخيرًا من أسار الابتسامة الدافئة الودود النشطة.. يبزغ ألم أبدي، سافر عاصف وكأنه انعكاس لوجهه هو منذ سنين لكن دون الحقد المشتعل الذي كان يلفه. لا عجب أن الأطفال الصغار تعلقوا بها مذ رأوها.

الأطفال الصغار.. تنبه الآن إلى شكل الأرض ذات التربة الداكنة، أراه هاني صورًا لهذا المكان.. هنا يتم توطين المتبرعين وأسرهم. لم يجهد نفسه بالسؤال إن كان هذا هو المكان الذي يبحث عنه قلبه وهو يضرب في المسير بلا هدى. خبرته المكتسبة هنا تخبره أن يكون أذكى من أن يسأل نفسه أسئلة تفتح إجاباتها أبوابًا من الأفضل أن تظل موصدة..

وصل إلى ألواح معدنية صدئة تقف كحائل بدائي بين نهاية الطريق حيث يسكن المتبرعون وبين باقي الأحياء. لمح ثغرة تكفي جسده فعبر. في البداية لم تنتبه له النساء أمام مدخل مبناهن، يجلسن حول طسوت صغيرة الحجم، يفركن ملابس عائلاتهن القذرة فيما يبدو. التماع أعينهن والابتسامة التي تشيع في وجوههن مع تطاير رذاذ الماء في كل الاتجاهات بعشوائية بهيجة دافئة..

وقف وحيدًا لوقت لا يعلمه يرقب الفتيات الصغيرات وهن يمددن أيديهن خلسة إلى الطسوت الممتلئة في ادعاء كاذب بالمساعدة، التذاذهم السري يأتي من مجرد لمس الماء. كان ليقف في مكانه حتى المساء، إن لم ترتطم بجانب ساقه كرة جلدية صغيرة..

كان الأطفال اللاهون يتقدمون في نزق لجلب كرتهم قبل أن يتجمدوا في خشية عندما رأوه. استقرت الكرة على بعد سنتيمترات من قدمه تاركة أثرًا من غبار على جانب بنطاله الأزرق الداكن.

خشية الأطفال إشارات لاسلكية انبعثت من أدمغتهم لتستقبلها قلوب أمهاتهم، التفتن في نفس اللحظة.. ارتبك وهو يرى أثر ظهوره على الوجوه التي كانت هانئة منذ لحظات. كاد أن يتراجع لولا أن تقدم طفل لا يتجاوز الثالثة، يتحرك مسرعًا متأرجحًا على قدمين عرفتا السير مؤخرًا سائرًا دون اهتمام بآدم نحو الكرة.. انقض الصغير على الكرة بشكل يوحي أنه طاردها طويلًا دون جدوى، الأكبر منه سنًا لم يمكنوه منها منذ مدة.. احتضن الكرة بذراعيه في قوة وهو منحنٍ، فبدا ككرة حول أخرى. ضحك آدم بصوت عال فرفع الطفل عينين متسائلتين، انحنى آدم ورفعه -دون أن يتخلى الصغير عن الكرة- من الأرض عاليًا تجاه السماء. تقلصت أصابع أم الطفل دون أن يراها آدم وفتحت فمها في صرخة خرساء. لدهشتها البالغة أمال آدم رأسه ليقبل وجنة الصغير المغبرة.. تقبل الصغير القبلة في صمت وهو يتلوى بجسده راغبًا في النزول للعب، تركه آدم مضطرًا.

انتظر منه أن يعدو عائدًا إلى باقي الأطفال المتجمدين لكنه وازن الكرة بين يديه بصعوبة وقذفها نحو ساق آدم مرة أخرى وانتظر. ابتسم ما إن ضربت الكرة ساق آدم، الذي ادعى أن الضربة آلمته، قذف إليه الكرة مدعيًا استخدام كل قوته. انفجر الطفل في قهقهة نديّة رد عليها آدم بضحكة أكثر صخبًا.

استمر ضرب الكرة حتى استأنس به الأطفال، وهدأت النساء اللواتي لا زلن يذكرنه قليلًا. لاحقًا.. والشمس تبدأ في النعاس تمهيدًا

لانزلاقها خلف الأفق أتت هاجر. عبرت من نفس الثغرة وسط جدار الجيتو البدائي بانسيابية، أوضحت أنها ليست مرتها الأولى هنا.

انتبه إلى قدومها حين لاحظ انفضاض الأطفال من حوله، حتى الصغير الذي لا يعرف اسمه بعد تخلى عن هوسه الذي لا ينتهي بالكرة وتركها أمام قدم آدم. انطلق بطريقته الخرقاء غير المتوازنة نحوها. شعرها البني تألق تحت أشعة الشمس المتلاشية، بما يكافئ بصعوبة وهج ابتسامتها الصافية..

تسمر في مكانه يتأملها، الدهشة في عينيها الجميلتين كانت خالصة.. انحنت لتعانق الصغير الذي وصل لها بلهفة، لثمته على وجنته المتعرقة، داعبته لدقيقة قبل أن تنزله برفق وتذهب ل'دم.

- مستر آدم، الجميع يبحث عنك منذ الصباح.

هز كتفيه دون أن يرد. التفت إلى النسوة الجالسات، واللاتي لم يبدين أية دهشة من وجود هاجر.

- أنت تأتين إلى هنا كثيرًا.

نظرت للأسفل حينما عاد الصغير للتمسح بساقيها من الخلف هذه المرة..

- كل يوم منذ أن أتوا.. أطمئن عليهم فقط، الناس غير مرحبين بوجودهم هنا.

تجمع الأطفال حولهم في صخب، فهمت هي ما يريدونه فتحت حقيبتها الصغيرة التي تتدلى على كتفها لتخرج حباتٍ من الشيكولاتة.. الغلاف الأحمر الناري دله على أن هذه القطع آتية من الوعاء الكبير الموضوع في منتصف بهو الشركة.. افتر ثغر الصغير عن ضحكة شديدة

العذوبة وهو يتلقى قطعته، تنحى بالشيكولاتة جانبًا قبل أن يقعي وهو ممسك بها كالجوهرة..

ـ هذه الشيكولاتة من الشركة.. قال ببطء.

فاجأتها الجملة فتلجلجت، اندفع الدم إلى أذنيها محتشدًا فأجابت بارتباك:

ـ اه.. بلى، لكني.. لكن يمكن خصم ثمنها من راتبي.

ابتسم لارتباكها، أمسك كفها في نعومة، التقت عيناه الواسعتين بعينيها:

ـ لا تكوني سخيفة، سأجعل فتحي يجلب المزيد ويضعه تحت تصرفك. من الآن عليك إعلامي بكل ما يمكنني فعله لجعل حياتهم هنا أفضل.. هذا عملك الحقيقي.. هدأت بعد كلماته، استقرت يدها صغيرة ناعمة في كفه حتى شعرت بالخجل. أحست بنظرات النساء تتابعها فأرادت أن تسحب كفها. تمسك بها آدم فلم تقاوم كثيرًا. تيار من الدفء يسري في الاتجاهين.

ـ إن لك قلبًا من ذهب، من أين لك هذا القلب يا هاجر؟

ابتسمت ابتسامة متوهجة.. قارعت نور الشمس وهزمته.

6

ـ أيها القذر...

السقف ذو الطلاء الأبيض الناصع تلوث بعلامات أصابعها الصغيرة، لا بد وأن يدها كانت متعرقة للغاية.. تخيل خوفها، استمع لضربات قلبها الهادرة قبل النهاية..

- اللعين...

السلك المعدني يدور بخراقة حول الحلقة البارزة عدة مرات، ترى من أين أتت به؟بم كانت تفكر وهي تلفه مرة ومرة مرة؟

- الغبي...

الشعر الأسود الحريري ينسدل كشلال متجمد ليخفي كل الملامح، هذا أقسى ما يكون، يفتح الباب لخياله ليراها بألف شكل.. ليتخيل ملايين النظرات، ليتجرع الموت.

- ليلعنك الرب...

الرقبة الرقيقة الرفيعة منثنية في استسلام موجع، على الأقل لم تختنق.. لم تختنق!! أنت مثلما تقول إيروشكا وأكثر.

- لتحترق في قاعِ الجحيم..

ملابسها القديمة، الألوان القاتمة المرة.. عند النهاية لم ترض بأن يلمس جسدها شيء ابتعته أنت لها.

- أكرهك، أمقتك.. أيها القذر أيها القذر...

فردة حذاء واحدة، القدم الأخرى عارية، قدمها الدقيقة الرقيقة.. الكرسي ملقى للوراء بعد أن تخلت عنه.. بعد أن تخليت أنت عنها. الصورة الفوتوغرافية الصغيرة على الأرض.. الصورة الفوتوغرافية الوحيدة لكما معًا. كان آخر ما رأته هو وجهك أيها اللعين، أيها اللعين.

- لا أريد أن أراك أبدًا.. أبدًا.

أبهذا شعر الشيطان وهو يطرد من رحمة الرب؟

انتهت مكالمة إيروشكا، هذه هي المرة المائة التي يستمع لها. تقلص أصبعه وهو يعيد تشغيلها.. عيناه دامعتان، تقرير الشرطة البلجيكية تضيع منه فقرات كاملة في عينيه.

- مريم المملوك، عثر عليها في السابع والعشرين
من...... مملوكة لشقيقها آدم المملوك. علامات
الانتحار كاملة.......... أية شبهة جنائية.. تركت الراحلة
خطابًا......... وتتهم أخيها غير الشقيق باخضاعها لابتزاز
جنسي........... وأفادت أن المذكورة كانت مضطربة
نفسيًا........... بيتا لعاملات الجنس............. قيد
التحقيق الجاري.

الطرقات الخفيفة على نافذته أجبرته على أن يرفع عينيه. قطرات صغيرة من المطر تحملها الريح لتموت على نافذته الموصدة... دمع السماء!

تألقت شاشة الهاتف مرة خامسة لهذا اليوم، اسم هاجر يظهر مناديًا له، نظر إلى الشاشة بعينين فارغتين قبل أن يمنع الاتصال. في شرنقته يجلس منذ ثلاث ليالٍ، صرخ صباحًا في الهاتف الداخلي للفندق وهم يعلمونه أن فتحي تجاوزهم صاعدًا إلى غرفته، طرقاته اللحوحة اللزجة كادت أن تجبره أن يفتح الباب ويلف السلك الذي انتزعه منذ ساعة من ستائر الحمام حول عنقه ليخنقه هو قبل أن يشنق نفسه. في النهاية غادر فتحي يائسًا والسلك يتدلى من السقف دون أن يضع عنقه بداخله. الحقيقة أنك أجبن من أن تقتل نفسك يا آدم.

يغمض عينيه فيرى جسدها المتأرجح، تزيح الشعر المنسدل وتحدق فيه بعينين سوداوين كالعدم وتصرخ. ينتفض فزعًا باكيًا، يغرق رأسه بالماء لدقائق... يعود ليستمع إلى مكالمة إيروشكا.

أبدية هي الساعات.. يحدق في الجدران وتحدق فيه. عندما اقتحم هاني الحجرة دون طرقات لم يشعر. لم ينتبه فعلًا إلا والضابط ذو الوجه المغبر والزي المتسخ يجذبه بخشونة ليقابل الجنرال.

7

تضيق الحياة حتى لا تستطيع أن تتنفس، تسقط خياراتك واحدة تلو الأخرى حتى تكاد أن تنعدم. ظهرك لحائط صلب والهوة أمامك تتسع، تأكل كل لحظة قضمة جديدة من الأرض التي تقف عليها، لا يمكنك التملص أكثر من هذا. القبضة السوداء العملاقة تفتش عنك بجنون وأنت أسفلها تمامًا.. تمامًا. أكثر من الجميع كان يجب ألا تثق بحظك.

فتح زجاج الشرفة المطلة على البحر على اتساعه، في الشرق غيمة رمادية ثقيلة منذرة.. الهواء القادم من البحر يحمل رائحة العاصفة، الأخبار القادمة من الغرب أكثر دكنة من السحب، مهددة بجلب الإعصار ذاته.

فطن جيش المدينة الغربية لحركة التطويق. الخسائر فادحة للغاية، يقول الجنرال أن الروس كسروا القانون واستخدموا أقمار البحث الاصطناعية فوق الصحراء في اكتشاف الهوفركرافت المتسللة.. نبرات الجنرال تشي بتحميله ضمنيًا المسؤولية.. عيناه التائهتان أشعلتا غضب العجوز وهو يخبره أنه قرر نقل المدافع الموجودة فوق أسوار المدينة إلى الغرب، لتغطية الانسحاب التكتيكي للهوفركرافت الناجية.. سيترك هذا المدينة دون دفاع سوى بنادق الليزر التي جلبها هو لهم. لكن لا تهديد يمكن أن يأتي قدر الزحف الغربي المنتصر.

التوتر على وجوه كل من حولهم في المكتب، ينذره قلبه بالخطر المحدق.. لن يهتم أحد بما فعله موت مريم بروحه، سيقبضون روحه في غمرة هلعهم المكبوت تحت الجمود العسكري.

فاجأ ذاته وهو يرتدي قناعًا متماسكًا باسمًا، طمأنهم بأن تعاقده على الهوفركرافت الحديثة يسير بشكل جيد للغاية.. أعماهم بخبر وصول شحنة من الألغام الحديثة مساء الغد قادرة بشكل عجائبي على تقوية الدفاعات حتى وصول الهوفركرافت الجديدة.. ابتسامته كانت مقنعة لدرجة أن لهيب الشك قد خمد في عيني الجنرال، بعد لحظات انتقل مرح آدم الزائف إلى أجسادهم فاستراحوا. في لحظات اليأس المطبق تتقبل حتى أذكى العقول أسخف الآمال وتضخمها، انصرف بعد الأخبار السعيدة..

توقف أمام مدخل الفندق طويلًا، قبل أن يتصل بفتحي. هذا ليس وقت الحزن، عليه أن يكون حاد الذكاء في الأيام القادمة.. لن يبتلعوا أكاذيبه طويلًا. يحتاج إلى إفراغ مخزن الأعضاء، دون مال كافٍ اضطر للاتفاق مع تجار السلاح اليونانيين بالمبادلة مقابل الألغام اللعينة.. الخطر الأول هو كاننينجهام... شعر بالغثيان ما إن بزغت صورته في رأسه، حارب الشعور في نفس اللحظة.. سيطالب قريبًا بالشحنة الأولى، الأطباء الذين يقومون بالاستخراج يبعثون أولًا بأول تقاريرهم إلى سكرتيرة..

كاننينجهام خطر يمكن تأجيله، إن أتم ما يريد في الوقت المحدد... سيتعامل معه هناك في أوروبا.

ـ ما هي خياراتك يا آدم؟

علي الأرجح سيكسر جيش الغرب خط الدفاع الأخير، هل سيكملون حربهم للنهاية؟هل سيدخلون المدينة؟هل سيتركه الجنرال الموقن بالهزيمة دون انتقام؟إن نجا من رد فعل انتقامي ما الذي سيجلبه السادة الجدد معهم؟الدائرة تضيق وتضيق.

سرعة الريح الباردة تشتد معلنة عن قرب الطقس المحتوم. المدجنان على الناحية الأخرى من الطريق يقفان دون حراك، ما الذي يحرسانه هنا؟تساقطت القطرات الأولى صغيرة قزمة يعبث بها الهواء فتفترق عن بعضها لتنتهي وحيدة.. حملت الريح المثقلة برائحة اليود قطرة باردة لتلصقها أسفل عينه اليمنى. التقطها فوق أصبعه ليتأملها، نظيفة نقية..

دمع السماء، توهج اللفظ مرة أخرى في رأسه ثم انطفأ. مريم.. إيروشكا.. هاجر، أمطار العالم لا يمكنها غسل الدماء من يديك، مريم.. إيروشكا.. هاجر.

- المهمش إن استطاع السيطرة على قوة كافية، يمكنه الوصول إلى المركز.

هذه كلماته التي قالها لهاجر، هذه كلماته التي أخبرها لنفسه في ليالي وحدته في بروكسل.. لكن ماذا لو كان المركز قاسيًا مصمتًا لا يمكن الوصول إليه، هل فكرت في هذا من قبل؟للمرة الأولى منذ سنوات لا يستطيع عدها ارتعد جسده من البرودة، دفئه ينسحب منه تدريجيًا. كاننينجهام كان محقًا رغم كل شيء، هذه أرض خراب ابتلعت روح أبيه من قبل والآن تبتلع ما تبقى من روحه.

ومض البرق كسوط فضي متعرج أنار العالم لثوان. تراجع للخلف وصوت الرعد المزلزل يصله كضربة مطرقة عملاقة تحطم حائط السماء.

تحول المدجنان في الظلمة إلى شبحين أسودين لا يهتزان، وجههما ناحية المدخل.. ناحيته. ماذا يفعلان؟يراقبان!! النزلاء الآخرين قليلو الأهمية أو لا أهمية لهم على الإطلاق، محاسبون لشركات زراعية، فنيو تعليب الزيتون، أنت المعني ولا شك. للخطر جسد حقيقي الآن، للخطر رأس وذيل.

ربما هذا هو المصير الذي يستحقه، كل الحيوات التي حطمها. ما الداعي إلى الفرار والهرب.. كيف ستواجه إيروشكا، كيف ستلتقي عينك بعينيها الواسعتين.. بماذا ستجيب حينما تسألك لماذا. لماذا أيها القذر البائس لماذا؟فليبتلعك الموت بخزيك فتنسى. ينساك الجنرال وكانينجهام وإيروشكا.. وهاجر. ماذا عن هاجر؟صفع وجهها الأفكار المضطربة كشمس في منتصف الليل. أتتركها هنا للخطر، الجنود المنتصرة يغتصبون نساء المهزومين منذ فجر التاريخ، والدجوي.. في الثانية التي سيعرف فيها أنك قد مت ستزحف يديه على جسدها كثعابين جائعة، بلا رادع. مريم أخرى تحرق في محراب خوفه هذه المرة..

تقلصت قبضتاه والمطر يمضغه على الرصيف الأسمنتي. تألق مصباحي سيارة قادمة من بعيد فغمغم:

ـ فتحي..أخيرًا.

والسيارة تقترب على الطريق المبلل، رسم طريقا آخر في عقله. المهربون اليونانيون يمكنهم البقاء لبضع ليال أخرى، بضعة آلاف زائدة من اليورهات ويسمحون له ولهاجر بالهرب داخل طوافتهم الصغيرة.. الطوافة ستربض بالمطار المهجور قرب الشاطئ لتفادي حظر الطيران الدولي، سيكون عليه التفكير في حيلة للعبور من المدجنين بالقرب من

المطار.. لن يكون هذا صعبًا فهم مميزون بطاعتهم لا بذكائهم على أي حال. توقفت السيارة أمامه مباشرة.. فتح الباب ليدلف، سمع صوت فتحي خلف المقود وهو يعتذر:

- آسف جدًا على التأخير آدم بك، القيادة خطرة تحت الأمطار.

- ستوصلني إلى مقر الشركة، بعدها ستذهب إلى حيث يعمل الأطباء لتعلنهم... ستتوقف كل عمليات التبرع النهائي.

- أمرك يا بك.

البحر هائج بالخارج، والقب هائج بالداخل، والبرد يسري دون حواجز يلف كل شيء.

8

الأرض التي يسكنها المتبرعون منخفضة عما حولها، لذا انزلقت مياه الأمطار وتجمعت طوال الليل محولة العراء إلى طين هائل الحجم. كل خطوة للقدم تغرس، تغطس لمنتصف الساق. أخبرته هاجر على الهاتف أن هذه هي المرة الأولى التي يشهد فيها المتبرعون الأمطار... في ملاجئهم ومزارعهم لا تمطر السماء أبدًا. صرخت النساء وارتعدت طوال الليلة الفائتة، بينما أثقلت الرطوبة المصاحبة على الرجال الذين فقدوا حيويتهم. فقط الأطفال هم من ابتهجوا بماء السماء المنهمر. اللطخ الطينية على الوجوه الصغيرة السعيدة لرؤيته كانت دليلًا على هذا.

وقف غائصًا وسط الأرض السوداء التي أهاج الماء أحشاءها، فأخرج الرائحة المدفونة لنفايات عفنة.. ينتظر بفارغ الصبر انتهاء هاجر من الإشراف على توزيع الأغطية الجديدة والمعلبات. طعنته

الأعين الكارهة للنساء مرة أخرى حينما رأينه. لا يمكنه أن يلومهم، رخيص هو اعتذاره الصامت لكنه كل ما يمكنه. يقول الأطباء أن الرجال سيبدأون في التعافي بعد شهر على الأكثر.. من يعرف أين سيكون كل منهم بعد شهر.

قطرات المطر العالقة في السماء رسمت قوس قزح ألوانه شديدة البهاء. أسفل كل ما هو سيئ هناك جمال دفين إن بحث المرء بجد، فكر في هذا وهو يرى هاجر تخرج من المبنى، تحاول بلطف أن تمنع أحد الصبية من أن يتبعها حتى يلتصق به الطين الطري. التفتت فرأت آدم الواقف وحيدًا دون حراك كشجرة يتيمة فابتسمت. حتى قوس قزح يبدو باهتًا أمام هذه الابتسامة.. خطا ناحيتها دون تردد ليمسك بيدها كي لا تنزلق في مسيرها.

وحدهما الآن في هذا العراء، العربات توقفت على البعد خوفًا من أن تعلق وسط الأرض المراوغة.. تصاعدت نبضات قلبه ما إن مسَّ كف يدها الرقيق الذي سلمته له طواعية.. قبضت على يده القوية في امتنان. اللحظة التي ينتظرها منذ الصباح.

- هناك مخاطر كثيرة تحوط هذا المكان، لا نعلم مصير الدفاع عن المدينة.. أعتقد أن شحنة الطعام هذه ستكفي الناس هنا لثلاثة شهور على الأقل، فتحي سيتواصل مع الأطباء عند قدوم متبرعين جدد، عند الانتهاء سيأتي بهم إلى هنا.

هزت رأسها موافقة، تبدوالترتيبات جيدة..

- لن يحدث شيء، ستنتهي المعارك بالسلم كما يحدث دائمًا.. أنا واثقة..

- هاجر...

توقف وهو ينطق اسمها فتوقفت، عيناها البنيتان تتأملانه بتساؤل.. خشية هائلة بداخلها تلتهمها منذ ليال عندما اختفى ولم يرد على اتصالاتها المتكررة، هدأت قليلًا بعد مكالمة الصباح... توحشت الآن وهي تري ذقنه غير الحليق والتوتر في صوته.

- أنا سأرحل من هنا في خلال أيام.

تقلصت يدها في كفه قليلًا، ملامحه جامدة لا تستطيع أن تستشف ما خلفها.

- إلى أوروبا؟كم ستغيب؟

- على الأرجح لن أعود.

- ماذا؟. هل لهذا علاقة باختفائك الأيام الماضية؟ماذا حدث أخبرني.

- دعينا لا نتحدث في هذا الأمر.

سحبت يدها من كفه، شعر بقسوته وهو يرى اللمعان الذي بدأ التألق في المقلتين.

- لتصحبك السلامة إذن.

شاعت في وجهه ابتسامة كسيرة، ارتشفت اذناه المذاق المر في حروفها.

- هاجر...

رفعت رأسها إليه فتابع.

- أريدك أن تأتي معي.

- ماذا؟كيف، آدم..

قاطعها وهو يقترب منها أكثر،اشتم عبيرها السحري المهدئ لروحه.

- لقد رتبت كل شيء، هناك بطاقة هوية زائفة لك ستمكنك من العبور إلى داخل الاتحاد، عليّ الذهاب إلى أمستردام لطلب المغفرة، سنتزوج ما إن نصل. بعدها يمكن استخراج واحدة صحيحة.. لا زلت أملك بعضًا من المال وشقة يمكن بيعها. من هناك يمكننا الذهاب إلى أي مكان، مكان على الشاطئ في أمريكا الجنوبية ربما.. لا أعرف، سنرتجل سويًا وسننسى، سننسى كل هذا ونترك الجحيم وشياطينه للأبد.

- مغفرة! ممن؟آدم لا أفهم.

لم يسمعها.. عيونه لامعة وطوفانه من الكلمات يفيض ليغمره ويغمرها:

- يوجد الكثير مما لا تعرفينه عني، سأخبرك بكل شيء حينما نكون بأمان، أعدك بهذا. سأريك كل خطاياي، كل أوجاعي، رغم كل قبحي إلا أنني أؤمن بشدة أننا نتشابه كثيرًا.. بلا جذور. لا شيء يربطنا بأي مكان سوى السكون المؤقت للقدر. تأتي أعاصير المصير فنترنح، نتمسك بأي ما نجده، ننحني حتى مشارف الانكسار، نتقلص حتى حدود التلاشي، نحتضن أكثر ما نبغضه لننجو، ننشب أظافرنا حتى تتمزق أيدينا بشقوق العالم الذي يرفضنا، تتقوس ظهورنا لنحاكي الصخور التي نتعلق بها، والحقيقة أننا لن نصبح صخورًا أبدًا. تضربنا ريح تلو الأخرى، نعلم داخلنا أننا ننزلق لكننا نستمر في التمسك، في الأمل المستحيل بأن هذه العاصفة هي الأخيرة.. وأنا تعبت يا هاجر، تعبت من أن أكون ما يريده لي العالم أن أكونه، لذا أحتاجك جدًا، أحتاجك حقًا.

أنا قاسٍ، مذنب، ضرير... أنا نصف غير مكتمل معطوب، لا أملَ لي في أن أكون حقًا سوى بك.. أنت نصفي الآخر يا هاجر. لا أستطيع أن أعرض عليك السماوات ولا أضمن لك ما هو قادم، كل ما أستطيع أن أقدمه هو غربة ضبابية بلا وعود، وقلب ممزق هو لك للأبد.

ظل يتكلم ويتكلم دون أن يعني أنه يبكي بلا توقف، دون أن يلحظ أنها ضمت يديه المرتجفتين إلى صدرها الخافق.

9

فتح عينيه ما إن سمع الطرقات الخافتة على باب غرفته. الساعة جاوزت منتصف الليل، يعرف هذا فمنذ قليل ميز التكة الخفيضة لتغيير رقم اليوم في الساعة قديمة الطراز جوار فراشه. ظل ثابتًا، البرق المتكرر في الخارج يسطع كل بضع ثوان فينير العتمة، ويكشف ظلال عملاقة مقبضة لكل الموجودات. تكررت الطرقات مرة أخرى بنفس درجة الخفوت. هواء الغرفة ثقيل والكهرباء الاستاتيكية يشعر بها في كل ما حوله.

نزل من فراشه، توجه حافيًا ليفتح الباب. كانت هاجر على حق.

- السنوات المجدبة تعني أمطارًا عظيمة قادمة.. تضررت بعض الأجزاء في الأدوار العليا للفندق، عمال الصيانة كانوا هنا في التاسعة ليتأكدوا من أن الماء الذي يغرق المدينة في الخارج لا يتسرب هنا. الصداع المتوحش الذي يلتهم دماغه سيجبره على طرد عمال الصيانة دون تفكير إن كانت

هذه هي طرقاتهم. لا يمانع في النوم بالعراء تحت هذه السيول، كل ما يشتهيه هو أن يترك وحيدًا الآن.

طالعه وجه فتحي عندما فتح الباب. غمرته الدهشة حتى أنه لم يرد على التحية المهذبة التي خرجت من الفم الذي لا تستطيع شفاهه احتواء الأسنان العلوية..

ـ آسف إن كنت أيقظتك يا بك.

تمالك آدم نفسه، والاهتمام يتغلب على الدهشة داخله:

ـ فتحي! هل كل شيء على ما يرام؟

انقبض قلبه، والصور تتداعى إلى عقله مرة أخرى، تابع دون توقف:

ـ هاجر.. هل هاجر بخير؟

للمحة سريعة للغاية ـحتى إنه لم يعد متأكدًا إن كان حقيقيًا ـ ظهر جمود غريب في عيني فتحي وهو يسمع اسم هاجر.. أفزعه هذا.

ـ هاجر!! مخزن الأعضاء الرابع اشتعلت فيه النيران، لا بد وأن البرق صعق أنابيب التجميد.

المخزن الرابع هو الوحيد الذي توجد به أعضاء مخزنة، بعد إفراغ المخزن الأول والثاني لصالح اليونانيين هذا كل ما تبقى ليقايض به كاننينجهام إن دعت الضرورة.. صدفة غريبة للغاية، إن قام الأطباء بجرد المخازن الباقية سينكشف كل شيء. بذل جهدًا خارقًا كي يبدو ثابتًا أمام فتحي، قال بهدوء مثير للإعجاب:

ـ سأرتدي ملابسي حالًا.

السماء معتمة بشكل مخيف، دوي البرق يصل أذنيه حادًا رغم نوافذ السيارة المغلقة، المطرقة الهائلة غاضبة تهوي على الأحشاء

الثلجية للسحب فتهرسها، تنزف غيثًا مدرارًا. الصوت مفزع مقبض، لا غرابة أن البدائيين كانوا يبتهلون لكل الآلهة التي خلقتها مخيلتهم في هذه الأوقات.

فتحي صامت لا ينطق، عيناه مثبتتان على الطريق الزلق. صداع آدم يجعل عقله زلقًا كالطريق، مخه يتأرجح داخل جمجمته فتنقطع أفكاره وتتصل. يرى أحداثًا لم تكن، يستشرف نهاياتٍ لم تولد بعد.

العمدان ذات المصابيح الأيونية على جانبي الطريق تتراقص، الماء يغمرها.. يفتش بجشع عن مدخل بين الغطاء الشفاف والمعدن، ينسل بنجاح لينطفئ بعضها مطلقًا شرارات عدة.. يسطع البرق من جديد فيبعث ظلالًا عصيبة.. موتى سود في العتمة معلقين على مشانقهم، ينظرون إليه بعيون من عدم. حدقتا مريم تستنسخان إلى عشرات وعشرات وهو يمر بهم جميعًا، يلومونه.. يدينونه.

تنعطف السيارة إلى الداخل العسكري، من تحت الكوبري العلوي الموصل للمخازن. انتبه آدم لهذا وهو يرى صفوف المدجنين المنتصبة دون تراخ، كتماثيل الأوشابتي الفرعونية التي تخدم السادة حتى في العالم الآخر.

- هذا ليس الطريق إلى المخازن. قال وهو ينظر إلى فتحي ذي الوجه الجامد.

- الطريق إلى المخازن مغمور كلية بالماء، نحتاج إلى هوفركرافت لنصل إلى هناك، لم يبق في المدينة سوى هوفركرافت واحدة... هنا.

هدأ فتحي السرعة تدريجيًا حتى توقف تماما أمام مبنى صغير من ثلاث طوابق. مبنى مفتوح المدخل يقف فيه الضابط هاني محتميًا

من الأمطار. قال شيئًا ما لكن الأمطار هتكت الصوت فتمزق، الإشارة كانت كافية على أية حال. ترجل آدم من السيارة في خطوات مسرعة متقافزة، حتى وصل إلى مدخل المبنى الذي يحوي الكثير من الدفء. مد هاني يدًا ليصافحه، القبضة قوية بها بعض التوتر، هو الآخر يحمل توترًا يكفي العالم بأسره.. أعطى ظهره لعمدان الإضاءة التي ترقبه.

- ما رأيك في كوب من القهوة الساخنة، الهوفركرافت تحتاج بعض الوقت لتعمل في هذا الجو.

هز آدم رأسه موافقًا، وهو يقدر في عقله النسبة المحتملة للضرر في المخزن، وتأثيرها على قدرته على المناورة هناك في أوروبا. تقدمه هاني صاعدًا الدرج، تأخر فتحي خلفه بنفس خفوت خطواته المعتاد المثير للتوجس. الأضواء البرتقالية تضفي شعورًا خفيفًا بعدم الارتياح. الدرجات المستطيلة صغيرة مخادعة، جعلت آدم يتساءل عن ماهية المبنى الصغير ومن يعملون فيه.

توقف هاني أمام الباب الأسود الذي لم تفلح الإضاءة سوى في تأكيد دكنته. وقف فتحي خلفه تمامًا، ابتسم هاني بود غريب عليه:

- هناك مفاجأة صغيرة في انتظارك، هدية من الجنرال على إخلاصك.

- ماذا؟

انعقد حاجباه في تساؤل، صوت هاني كان عميقًا يحمل الكثير من المعاني وهو يضغط على حروف كلمة إخلاصك.

علق السؤال في الهواء دون إجابة، وهاني يفتح الباب بيمناه، وكفه اليسرى تقبض على كتف آدم. نور مصباح ساطع فاجأ عينيه عند فتح الباب فأعماه لثوانٍ. اندفع للأمام وقد اختل توازنه، شعر بيدي

فتحي تدفعان ظهره بقوة كريهة.. ما إن سقط داخل الحجرة حتى انغلق الباب من خلفه.

- اها... مستر مملوك.

ثقب الصوت الكريه أذنيه. رفع رأسه وهو لا زال على الأرض، ليجد كاننينجهام جالسًا واضعًا ساقًا فوق الأخرى، بنفس الطريقة شديدة الرقي التي تمنع ولو تجعيدة وحيدة من أن تصيب بنطاله.

- كاننينجهام!

- ومن غيري يا صديقي الصغير، الفأر اللعوب ظن أنه بمأمن من العقاب الطائر.

ارتسمت ابتسامة كريهة على وجهه، ازدادت لها عينيه ضيقًا فصارتا كزرين لامعين.

- ما الذي يحدث هنا.. ما معنى هذا!

صاح آدم وهو يغالب نفوره الصارخ من الرجل، ومحاولًا تمالك هدوئه وهو يميز رجلين هائلي الحجم يقفان على جانبي الحجرة في بذلتين سوداوين كالليل.

- اوه يا عزيزي، لا تتظاهر بالسذاجة فلا وقت لدي. نظر إلى ساعته الفضية المتألقة تحت المصابيح الساطعة وتابع:

- عليّ أن أرحل في خلال ساعة، لدي موعد بلايبزج في الصباح.

- لا أفهم.

- في الحقيقة كان أكثر عملية إلا آتي بنفسي،لكنني - أعترف- لم أستطع مقاومة إغراء رؤية وجهك للمرة الأخيرة يا عزيزي.. ضعف أصيل فيّ.

نظر كاننينجهام إلى رجليه فتحركا بخفة القطط، انقضا على آدم بسرعة تجاوزت أي ردة فعل. لف أحدهما ذراعه المفتولة حول رأس آدم ضاغطًا جمجمته بين عضلته الثنائية الصلبة كالحجر وبين ساعده العريض. مال الرجل للأمام فأجبر آدم على الانحناء، سمع خبطة مكتومة قبل أن ينفجر الألم في ركبته اليسرى عارمًا كاسحًا.

صرخ، فابتسم كاننينجهام وأراح ظهره على المقعد ذي البطانة الذهبية.. خبطة أخرى وتحطم المرفق الأيمن. مد الألم أسطوري، موجة بطول كيلومترات انبثقت مشتعلة من أعصابه لتلتهم الأخضر واليابس.

ـ ربما بعض أصابعه أيضًا، تذكرا سيارته انقلبت على الطريق عدة مرات.

صرخ كما لو أنه يحرق حيًّا، ما لن يعرفه هو أن كل غرف هذا المبنى مبطنة بالكامل فلا يخرج أي صوت من قبضتها المحكمة..

ظل العملاق قابضًا على رأسه لعدة دقائق بحنكة تترك مجالًا ضئيلًا من الحركة يمنعه من فقدان الوعي. سال العرق من كل مسامه، سالت الدموع من عينيه، المخاط من أنفه. هذه هي العتبة القصوى الحقيقية وأنت تعبرها الآن يا آدم. رأسه خاوية بلا أفكار، احتل الألم كل خلية رمادية في مخه، العتمة في عينيه المغمضتين صارت وهجًا مشتعلًا.

ـ حسنًا.. يكفي هذا.

عشر دقائق مرت كعشرة قرون وهو يتقلب في الجحيم قبل أن ينطق كاننينجهام. منذ ما حدث لمريم وصورة كاننينجهام مرت برأسه مرات لا تحصى، في خيالاته صفعه مرات وقتله مرات، تختلف

النهايات لكنه في كل نسخة كان قويًا شجاعًا.. الآن لا يجد في قلبه سوى الخوف ولا شيء سواه.

علق الرجل هراوته في حزامه بحركة واحدة سريعة.. أخرج من جيبه محقنًا فضيًا ممتلئًا حتى ثلثيه بمادة صفراء داكنة.. أخرج الهواء منه قبل أن يغرسه في عنق آدم المكشوف. وسط عاصفة الألم الهائجة لم يلحظ الوخزة.. أراحوه على كرسي بمواجهة كاننينجهام الذي ينظر إلى ساعته في تعجل.

من قلب فوضى الأحاسيس الموجعة بزغ تنميل في أطرافه، رفع رأسه بصعوبة.. جاهد ليخرج صوته من الحنجرة التي اهترأت أحبالها، عثر أخيرًا على بعض القوة في ذاته.

- يا ابن العاهرة..

افتر ثغر كاننينجهام عن ابتسامة جذلة..

- أخشى أنك تخلط بين أمي وأمك يا مستر مملوك، لكن أتعلم ماذا.. هذا كان رد فعل أختك بالضبط عندما انتهيت منها، لا بد وأن هذا الخلط يسري في دماء العائلة.. كيف حالها الآن؟لا بد وأنها تشتاق لي كثيرًا، أعدك أن أجد الوقت لزيارتها في المستقبل، لا تخشَ شيئًا إرثك سيستمر.

المادة الصفراء تعبث بعقله الثمل بالألم، تهتز الجدران أمامه، يترنح كرسيه، تخفت الإضاءة وتشتد.. بينما ابتسامة كاننينجهام هي الثابت الوحيد. انسكب اسم مريم كالحامض داخل أذنيه مذيبًا روحه، قلص عضلات ظهره لينتصب فانفجرت الآلام من كل مكان.

ركبته مهشمة تمامًا، أسفل سرواله الأسود اختفى التكوير المميز لها ليتحول إلى شكل منبعج شائه. الصراخ يتجمد في حلقه، لسانه ثقيل للغاية..

ـ أرى أن كلامي أغضبك، هذا غريب. أنت غريب للغاية يا مستر مملوك، ضعيف ورخو.. هذا معدنك الحقيقي لديك الذكاء الذي يمكنك من أن تبدأ، لكنك لن تكمل الطريق، لا يمكن الاعتماد على أمثالك أبدًا. اختيار زملائي لك خطأ فادح، خطأ يمكن الاستفادة منه. أنا على اتصال بالجنرال منذ مدة وأراقب كل تصرفاتك.

رفع يده اليمنى المشعرة النحيلة، وبدأ في العد عليها بأسف مصطنع وهو ينظر إلى آدم.

ـ لا حالة انتحار واحدة، تأخر شديد في تسليم الدفعات، تخصيص مبالغ زائدة لتسكين الفائض البشري.

قرب أصابعه الأربعة المفرودة من عيني آدم الزائغتين وتابع بنفس نبرة الصوت:

ـ هذا بيزنس سيئ، لا يمكن إدارة مشروع ناجح بهذه الطريقة..

فرد أصبعه الصغير:

ـ والطامة الكبرى، أن تسرق ما وجب عليك تسليمه، هذا غباء استثنائي منك يا مستر مملوك، لا أحد يسرق مني. ثم تخطط للهرب! أين يمكن أن تهرب مني؟لم تترك لك حلفاء في أي مكان.. ما إن وصلت ثرثرة سكرتيرتك إلى الجنرال حتى صار الاتفاق معه أسهل.

صفاء نادر يشعر به آدم في عقله الآن، ماتت كل سيطرة له على جسده، واختفى الألم المريع.. شعر به يسقط مع باقي جسده، بينما يبدأ هو في التحليق ببطء.

- هل كنت تظن أنني لن أستطيع المساس بك في أوروبا؟أنت أحمق بشكل يثير الشفقة.. لماذا أضعت فرصتك لن أفهم أبدًا.. ليس هناك أغبى من وطواط يحلم أن يكون عصفورًا.

صفق كانينجهام بيديه، فرفع العملاقان آدم من إبطيه دون جهد. ساقاه متدليتان أسفل منه كخيطين مبتلين. هناك نزيف داخلي لكنه لا يشعر به.

- اوه كدت أن أنسى. قال كانينجهام فتوقف العملاقان. أخرج من جيب سترته مستطيلًا زجاجيًا شفافًا، قربه من آدم وضغط أحد أضلاعه فتألق بلون فضي خاطف.

- صورة أخيرة، ترجاني نيلسن أن ألتقط صورة لوجهك قبل أن تموت. أنت لم تعبث مع مارجريت زوجته فقط، أنت عبثت بأسرار عمله أيضًا ونيلسن رجل يحتفظ بالضغينة طويلًا.

بدأت رئة آدم تكافح للحصول على الهواء، كل نفس بمثابة رفع صخرة تزن طنًا فوق صدره.

- يؤسفني أن هذه هي النهاية، يشل المخدر جهازك العصبي تدريجيًا.. في النهاية ستموت مختنقًا. سيعلنون هنا اختفاءك غدًا، بعد أسبوعين سيجدون جثتك داخل سيارة محطمة تحت انهيار رملي مفاجئ من أثر العاصفة، لم يكن عليك أن تقود السيارة في جو كهذا يا مستر مملوك. لا تقلق ترخيص

شركتك سينتقل إلى مساعدك هنا وسيستمر العمل كما خطط له من قبل.. وداعًا مستر مملوك.

أشار بيده، فسحبه العملاقان خارجًا. الدنيا تزداد إعتامًا في عينيه كل لحظة، لم ير فتحي وهاني الواقفين على جانبي الدرج. تتمزق رئتاه طلبًا للهواء، لم يعد العالم سوى نقطة ضوء ضئيلة على بعد سحيق. ارتعد خوفًا وهو يشعر بروحه تغادر العالم، البرد الخالص الأول يلفه، وحيد لا يتدثر سوى بخطيئته. عند مدخل المبنى مال أحد العملاقين بفضول على وجهه ليسمع تمتمه الأخيرة التي يكررها، لكنه لم يفهم ما يخرج من الشفتين المشلولتين. على لسانه المحتضر اندمج اسما هاجر ومريم فلم يقدر مهما جاهد حتى على النداء على أي منهما.

هاجر

ذلك أن اعظم خطايا الإنسان

أنه قد ولد

من قصيدة الحياة حلمًا

كالديرون

1

تؤمن منذ طفولتها بالعلامات التي لا يهتم بها غيرها، شروق أكثر سطوعًا يبشر بأن يتجاوزها المدرس عند اختيار من سينظفن الفناء القذر بعد انتهاء اليوم، نجم يتوهج في المساء إرهاص بوعد أن تنجو شقيقتها الكبرى من الاختبار الطبي المخيف، فتستمران في العيش سويًا في الحجرة الضيقة في الطرف الأقصى للحي. رسائل خفية يبعثها ساكن السماء المستتر الذي تحبه، وتؤمن بكل قلبها الصغير أنه يحبها أيضًا.

أكثر البشارات كانت زائفة، فالفتيات ذوات البشرة الأكثر بياضًا هن فقط من لا يقع عليهن الاختيار. سمرة بشرتها وشعرها الثائر كانا مغناطيسًا يجذب كل الأعمال المرهقة في المدرسة.. شقيقتها لم تجتز الاختبار الطبي قط، فقدت وظيفتها في المطابخ. أتى المدجنون اليهما في ليلة معتمة ليقتادوا الأخت الناحلة المرتجفة، بثياب النوم الخفيفة البالية إلى حيث لم تعد قط. اقتادوها هي إلى مأوى الأيتام ذي الجدران الحمراء القذرة التي لا زالت تشعر بها تطبق على روحها كلما مرت جوارها حتى بعد مرور السنين.

كبرت هي وصغر العالم. تعلمت الدرس الأول.. لا أحد ينجو.. البيضاوات في المدرسة يدخلن إلى غرفة المدرسين بعد الدوام، يخرجن من الباب الخشبي العملاق بثياب مشعثة وأرواح تم كيُّها. حينما وضح التكور الأول لثدييها رأت اختلاف النظرات في العيون التي اعتادت ألا تراها.

الدرس التالي تعلمته سريعًا، العالم ما هو إلا أيادٍ عملاقة لزجة تتحسس وتعصر وتدنس. لا أحد يعرف طعم الحياة العفن قدر فتاة فقيرة ذات جسد جميل. لكنها برغم كل شيء تؤمن.. لا زالت تؤمن.

ينفجر البرق فيطغى على كل الأضواء التي اهتزت في الاستقبال، يليه سوط الرعد فتشعر بالذبذبة على سطح المكتب الزجاجي. تمتم عم منسي الساعي بكلمات خافتة لم تسمعها. عيناها متعلقتان بالستار الأسود الذي يزمجر قلبه بلا انقطاع. في المرة الثانية أدركت أن الرجل المسن يحادثها. التفتت وعلى وجهها ابتسامة اعتذار لطيفة..

ـ تأخر الاستاذ فتحي للغاية..

صوته مرتعد متعب، حاول في الصباح إنقاذ أصص النباتات عندما خمنوا أن النوة المفاجئة ستستمر لأيام أخرى. فاجأه السيل وهو في منتصف العمل فلم يستطع التوقف. نظرت إلى الساعة الفضية حول معصمها الرقيق، تلمستها بأصابعها في حنان لثانية.. شعرت بدفء يد آدم القوية لا زالت متعلقة بها، تحيط معصمها، تحميها.

ـ ربما عطلته الأمطار، سيأتي حتمًا لن يتركنا هنا.

ـ أخشى أن يفعل يا بنتي، لقد أصبح غريبًا في الأيام الماضية..

غريب!! تعبير مخفف يستخدمه عم منسي أمامها لوصف تصرفات فتحي القاسية مؤخرًا. أمه ترقد في غرفة هاجر منذ أسبوعين مريضة تعاني وفتحي لا يعود من قلب المدينة تقريبًا، هاجر من تطعمها وتعطيها دواءها الذي يعلم الله وحده من أين أتى به فتحي. ظلت ساهرة طوال الليل تفكر وتستمع إلى الأنفاس المتلاحقة بصعوبة للمرأة العجوز الطيبة التي لا تملك سواها الآن يوم أعطت وعدها لآدم لم تخطر المرأة على بالها. ما الذي سيحدث لها حين يكتشفون هروب

هاجر مع آدم. انقبض قلبها وهي تتخيل توقف هذه الأنفاس الضعيفة بسببها هي. لا تستحق منها هذا، فتحي الذي ساعدها طوال حياتها لا يستحق منها هذا. طلبت منه في الصباح التالي أن يجد شخصًا آخر ليرعى أمه، كاذبة فاشلة هي، وفتحي يعرفها كما يعرف نفسه. لم يكن هناك من مفر إلا أن تعترف. شعرت بغضبه يسري في دمائه، أحست حنقه المشتعل وهي تبكي أمامه. وعدها ألا يخبر أحدًا لكنه لم يعدها ألا يتألم. الانكسار في عينيه الضيقتين أوجعها حقًا. شعرت بكلماتها سكينًا ينغرس في قلبه حتى المقبض.

في صباح يومها الأول بمأوى الأيتام وهي لا تتجاوز الثامنة من العمر كان هناك. خطواتها المتعثرة الخجول، والخوف البادي على وجهها، دعوة كتبت على جبهتها الطفلة بأنها فريسة سهلة.. الركل من وراء المشرفات الضجرات في طابور الصباح، جذب شعرها أثناء صعود الدرج، البصاق الذي أضطرت للجلوس فوقه على دكتها الصغيرة في بداية الحصص، إعلانات تشويقية صغيرة لما ينتظرها في الفسحة..

لم تعلم أنه راقبها منذ اللحظة الأولى سوى بعد هذا بأعوام وهو يصارحها بكل شيء. لم يتشاجر من قبل قط، لذا ظهوره المفاجئ وضرباته القاسية من الخلف، لم يتوقعه الأطفال الذين يحكمون حلقتهم حولها. كانت مغمضة العينين تبكي بهلع، يداها الصغيرتان متعلقتان بالحاجز الحديدي الذي يلتف حول نوافذ الدور الأرضي لحمايتها من عبث الأطفال، جسدها متشنج ينتظر برعب الضربة الأولى. على العكس تلقت تربيتة حانية، فتحت عيناها لتجده غارقًا في العرق، واللهاث يزيد من بروز أسنانه البارزة بالأساس. لم يتغير

وجهه منذ كان طفلًا. لم تعبث يد الأيام سوى بالشعر على مقدمة رأسه. منذ هذه اللحظة لم يحتك بها أحد في المأوى.

حتى وهي طفلة أدركت أنه غارق في حبها، قلبها أيضًا عرف أنه قاس عنيف حين يملك قوة.. في ليالي المراهقة الطويلة حيث الثرثرة الهامسة الضاحكة بين رفيقاتها ليلًا، حيث تنبت أحلام العشق المدوخة، أغمضت عينيها كثيرًا محاولة أن تحبه. يوجعها كثيرًا الهيام البادي في عينيه، انتظاره العطش لأي لفتة منها تزيد عما يمكنها فعلًا أن تعطيه. كل ما استطاعت فعله كان العناية بأمه بسيطة العقل، التي تبتسم دائمًا كلما ترى هاجر وشعرها البني الكثيف. عاملتها كأمها وهي تخبر نفسها أنها ترد دينه الذي يحوطها كشباك العنكبوت.

التمع ضوء كشافين لسيارة قادمة، اصطدم بالزجاج المبتل فتشظى.

ـ ها هو قد حضر. قالت مفتعلة الابتسام، جزء منها صار يخشى لقاءه.

ـ لا.. هذا ليس هو.

قال عم منسي وهو يقوم من المقعد الصغير بجوار الباب. يزيح بصره المتعب ستار المطر بصعوبة، تابع وهو يتنهد:

ـ هذه حافلة المدجنين.

فاجأها هذا. ظنت أن الضباط شحنوا كل المدجنين إلى حيث الجبهة الغربية.. عدلت هندامها بحركة غريزية، تقدمت بخطوات سريعة نحو الباب وهي تفكر أن كل شيء يجب أن يسير حسب المعتاد كما طلب منها آدم.

الأمطار تصفع كل شيء، القطرات الغاضبة تجري بسرعة خاطفة أمام الكشافين الكبيرين لحافلة المدجنين والتي لا زال محركها دائرًا. المدجنان الواقفان بصلابة التماثيل بديا متناقضين تمامًا مع من جلبوهما.. رجل وطفلة..

تزأر العاصفة وتطلق بروقها وكأن السماء ذاتها على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى. الأضواء الحمراء والزرقاء التي تعلن اسم Taking Lives.ltd استعبدت عيني الرجل ذي القامة المتوسطة والجسد النحيل المكشوف بشكل شبه كامل من خرقته، التي كانت جلبابًا منذ عصور. الطفل الصغير انسدل شعره المبتل الطويل حتى كاد أن يغطي عينيه. الابتهاج على ملامحه الجميلة، لسانه يلعق القطرات العذبة من فوق شفتيه، يمد يده الحرة -التي لا يمسك بها الرجل- على امتدادها وتورد خديه يشي باستمتاعه بتخلل الهواء لصدره وإبطيه.. كان سعيدًا.

منظر الطفل جذب هاجر حتى أنها لم تنتظر أن يأتي بهما المدجنان إلى مدخل الشركة الزجاجي، وجدت نفسها تتقدم ناحيتهما. غرق شعرها في ثوان، تبرجها الذي قضت ساعة كاملة في ضبطه قبل أن تأتي إلى العمل بدأ يسيل على وجهها. انتبهت للتفاصيل الصغيرة وهي تقترب. تخشب قبضة الأب الممسكة بطفله، ارتعادة جسده اللاإرادية وهو ينظر إلى الحروف الأجنبية دون فهم. انحنت على الطفل مبتسمة فتراجع بشكل غريزي خلف أبيه، التقت نظراتها مع نظرة الأب، هذه أكثر عينين حزينتين رأتهما في حياتها، هي التي رأت الكثير من الحزن.

أحنى المدجنان رأسيهما المحاطتين بخوذتين معدنيتين تتحطم عليهما المياه، وتراجعا. عم منسي يصيح بصوت تبتلعه العاصفة، يشير

لها بالعودة.. أحست بوصول الماء إلى بطنها وقد عبر من فتحة قميصها البني، باحثا عن أماكن أكثر سرية لغزوها.

- يجب أن ندخل.

قالت للرجل الناحل المرتعب. لم تفهم لماذا نظر لها بعينيه المؤلمتين هذه النظرة الطويلة.. للحظة أحست أنه لن يطيع. المدجنان كما أمرا لم يركبا الحافلة بعد، بصرهما متعلق بما سيكون. كأنما يحمل أطنانًا من حجارة خطا الرجل الخطوة الأولى. ظل طفله خلفه، وإن كانت نظراته الفضولية تنبئ أن خشيته قابلة للتبدد.

في الداخل الجاف طلبت من عم منسي إحضار مشروبات دافئة.. مع الارتشاف أتى الاسترخاء. سكن جسد الرجل تدريجيًا إلا من انتفاضات مفاجئة كلما سطع البرق في السماء السوداء. أخبرها آدم من قبل أن لها قدرة غير اعتيادية على جعل الناس يتحدثون، اختبرت نفسها، ابتسمت عندما انحل اللسان المعقود للطفل أولًا وهو يخبرها باسمه.. ياسين. انفرجت أساريره والتصق بها وهي تخرج من حقيبتها الصغيرة قطعتين من الشيكولاتة، مع القضمة الأولى صارا صديقين.

عندما انحل لسان الأب ماتت الابتسامة على شفتيها.

ما رواه كان مفزعًا، خوفه الذي لم يختفِ بعد عبر الهواء مع صوته ليستقر في قلبها. عم منسي توقف عن ملاعبة الصغير وهو يستمع إلى القصص غير المترابطة التي يرويها الرجل. أول ما تبادر إلى ذهنها هو آدم. هل هذا ما كان يخطط له آدم من قبل؟

كلمات فتحي القاسية وهي تخبره بسفرها مع آدم انزلقت من ذاكرتها لتقبض على قلبها.

- لم تتغيري قط. حمقاء في طفولتك، حمقاء في شبابك. أتعتقدين أنه يحبك حقًّا، هل تؤمنين أنه يقضي الليل ساهرًا يحلم بشعرك البني أو عينيك الجميلتين؟إنه بك، البكوات لا يحبوننا.. نحن لسنا بشرًا في عيونهم، ما نحن إلا خدمهم يا هاجر، أذرع لتحمل أكوابهم، سيقان لتمشي طرقاتهم.

تذكر حتى تنفسه الثقيل وهو ينظر إليها نظرة ذات معنى أرجفتها قبل أن يتابع:

- ثقوب جميلة ليفرغوا فيها شهوتهم. نحن هذه الأعضاء التي يخزنونها في الثلاجات.. لا أرواح لنا. لا تظنيه مختلفًا، تحت القشرة المسكرة الرقيقة التي يطالعك بها لا يوجد شيء مختلف عن أي بك يدهسنا منذ ولدنا.

انسابت الكلمات من فمها، دون يقين حقيقي في البداية، ما إن صارت في الهواء حتى اكتسبت زخمًا من ذكرى تصرفات آدم الأخيرة، من حسم كلماته الذي لا زال يسكن قلبها.

- مستر آدم لا يعرف ما حدث لكم، ما إن يعلم حتى يوقف كل هذا.. سينقذكم جميعًا.

نظر لها الرجل بعينيه المتعبتين في تعجب:

- آدم... أليس هو من قدم إلى الملاجئ ليأتي بنا هنا؟

أسقط في يدها. تناست هذا، للقلب ألاعيب عجيبة يضفي بها كمالًا غير موجود على المحبوب.

- بلى ولكن.. ولكن..

أنقذها من لجلجتها صوت أقدام مكتومة مفاجئ. ظهر فتحي أمام المدخل، والماء يبلل رأسه نصف الأصلع. قفز ياسين الصغير من جوار

منسي الراكع ليلتصق بأبيه. لم تستطع هي التحديد إن كانت عينا فتحي حمراوين بالفعل أم هو انعكاس الأنوار الساطعة في الردهة..

ـ ما هذا؟

وقفت دون وعي كحائل بين فتحي والرجل المبتل، لخصت في سرعة قصص الرجل غير المترابطة لتسرد البشاعة التي بلغتها. المفاجأة وضحت على وجه فتحي الجامد، مسح بيده على رأسه لتسقط قطرات المياه الثخينة على الأرض اللامعة..

ـ هذا.. خطير.

تمتم بصوت خفيض، يحادث به نفسه. اندفعت هاجر تطلب منه الاتصال بآدم في الحال. بعض من تشبثها بالاتصال بآدم يكمن في اشتياقها له، قال لها في المرة الأخيرة أنه سيكون مشغولًا للغاية في يومي ما قبل السفر، وحدتها فظيعة دونه.. نظر لها فتحي نظرة طويلة أثارت قشعريرة باردة في ظهرها.

ـ سأخبره.. بالطبع، هو الآن في اجتماع مهم مع الجنرال، يجب علينا الاهتمام بالرجل وابنه.

ـ الرجل سينتظر آدم.

ـ الرجل لن ينتظر أحدًا، هذا عمل ويجب تنفيذه.

ـ آدم سيريد السماع منه.

ـ آدم لن يسمع أي شيء.

ـ ماذا تعني؟

تجاوزها بخطوة وهو ينظر إلى الرجل الجالس على الأرض.

ـ ما اسمك يا هذا؟

ـ إسماعيل.

- لقد تغير العرض منذ بضعة أيامٍ لم يتسنَ لنا إبلاغكم بعد، لن يأتي إلى هنا سوى من يريد التبرع النهائي.

خرج صوت الرجل مرتعدًا:

- كيف؟

نفاد صبر فتحي ظهر في نبرات صوته:

- يااللغباء، لم يعد هناك تبرع جزئي. لا يقبل سوى التبرع النهائي. أنت هنا من أجل حياة طفلك، أليس كذلك؟

هز إسماعيل رأسه مواقفًا في صمت.

- حسنًا.. التبرع النهائي فقط هو ما يجعل المدينة تتبنى طفلك، إما هذا أو نعيدكما إلى الصحراء مرة أخرى.

- لكن الرجل قال...

- أعرف ما قاله، وأنا أقول لك أن هذا العرض تغير.

القسوة ونفاد الصبر هذين لا يظهران إلا حينما يشعر بالقوة، ما الذي يعطيه هذه القوة؟انقبض قلبها لسبب مجهول. أطرق إسماعيل رأسه للحظات. دق فتحي الأرض بقدمه في الانتظار. حين رفع إسماعيل رأسه كانت على شفتيه ابتسامة مستسلمة، ظلت تتذكرها هاجر حتى نهاية أيامها، الابتسامة التي تحمل كل أوجاع العالم حتى أن عينيها اغرورقتا وكأن شفتيه ترسلان موجات الأسى إلى كل الأنحاء.

- بالطبع.. ماذا يمكن أن يحدث سوى هذا.

لم تعرف إن كان يكلم فتحي أو نفسه. استدار بجسده كله ليواجه ياسين، الذي رغم ذكاء عينيه لم يستطع فهم ما يدور أمامه.

- كل ما أفعله وفعلته كان من أجلك.. تذكر هذا حينما تكبر، لا تنسني.

قالها بصوت خفيض حنون وهوي قرص الأذن الصغيرة بأصبعيه في خفة..

ـ لا.. لا، يجب الانتظار حتى يأتي آدم.

حدجها فتحي بنظرة نارية، غضبه كان محسوسًا كالنور والهواء.

ـ لن يأتي.. يكفي تعطيلًا للعمل.

وقف إسماعيل فأخرس اعتراضاتها. هز رأسه مرة أخرى في استسلام، في اللحظة التي فهم فيها صغيره ما هو على وشك الحدوث. صرخ ياسين وتعلق بجلباب إسماعيل المهترئ للغاية فكاد أن يجعله عاريًا تمامًا. هم فتحي بالخروج ليجلب المدجنين للإمساك بالولد وعلى وجهه امتعاض كبير.

ـ لا. صرخت هاجر وهي تنحني لتحتضن ياسين الغاضب. تلقت لكمتين حادتين، تحملتهما ببسالة.. وشوشت في أذنه بكل ما استطاعت شحذه من الكذب، عن الغد الأجمل، عن العالم الذي سيكون على ما يرام. لاحقًا ستذكر أنها استنسخت كل ما قالته أختها الكبرى لها ليلة أخذها المدجنون. أحست بالدمع الدافئ على صدرها فأحكمت ذراعيها.. رفعت رأسها لتنظر إلى إسماعيل الذي يتأهب إلى الذهاب في مسيرته الأخيرة..

ـ لماذا تفعل هذا، انتظر سيأتي آدم.

التمعت الدهشة عميقة في العينين الغائرتين. كانت تصدق فعلًا ما تقوله. أجابها بصوته المرتعد من برد المطر والطريق والموت:

ـ صدقيني ليس هناك فارق في هذه الدنيا... في النهاية الموتى لا يشتهون الشيكولاتة..

استمرت البروق والرعود لعدة ساعات بعد ذلك، لكنها ظلت ترى جسده المنحني ورأسه المطأطئ في ظلام السماء.

2

«- لا ينسى العقل شيئًا، هذه لعنته الأبدية، النار السرمدية التي يحترق فيها للأبد. الزمن لا يمحو الذكرى، هو فقط يحطمها إلى عشرات الشظايا الحادة الكامنة، تنتظر بجشع أي حافز ضئيل لتنغرس في لحم الأحلام فتدميها.».

قرأت هذه الجملة بخط آدم الصغير ربما للمرة الألف على امتداد أعوامها المتشابهة هنا. الشمس الباهتة على وشك الغروب ملطخة السحب البيضاء بدمائها القانية.. الصمت يخيم فلا يصل إلى حجرتها أية أصوات.

استيقظت قبل الجميع مرة أخرى.. تكره هذا. إيروشكا صارت أكثر ميلًا للنوم أكثر فأكثر. ساعة على الأقل ستقضيها وحدها في غرفتها، هي التي تخشى الوحدة خشية الموت. مع الوحدة تتجلى الأوقات الغابرة، تشف الغمامات عن الأحلام المقموعة.. في الوحدة ترى ذاتها التي لا تريد أن تراها. تحسست مفكرة آدم بيديها، هنا ترك بعضًا من ألمه على الورق، ترك جزءًا من روحه، لكنه لم يترك دفئه.

بدأت ندف الثلج في التساقط على زجاج النافذة الكبيرة لغرفتها، فلملمت جسده وتكورت. الشتاء هنا طويل أبدي، حتى أن شمس منتصف الظهيرة لا تبدو إلا كتقليد ركيك لشمسها هي الحقيقية التي تركتها وراءها.. تركت الكثير وراءها. السؤال الدائم على وشك طعن رأسها من جديد.

ـ أترك يدها أم تركت هي يده؟!

يجلب السؤال موسيقاه فترتعد، حتى الآن لا زالت قادرة على سماع صوت الانفجارات والصفير المكتوم. تستطيع الاحساس باهتزاز الأرض الرملية في موجات تلو الأخرى. يد ياسين الصغيرة الخشنة تقبض على كفها بعنف وخوف. كان شروقًا داميًا كهذا الغروب. ربما هذا ما يسحب الستار عن الذكرى. أغمضت عينيها لتتفادى اللون الأحمر. إغماضة العين كسرت الدرجة الأخيرة في الارتباط باللحظة، فسقطت في هوة ما كان.

كم كانت واثقة هذا الصباح، وقفت أمام المرآة لأكثر من ساعة لتعالج الدوائر الداكنة أسفل عينيها من الأرق. أفرغت كل حكاويها في أذن ياسين ليغفو، انتصارها الوحيد على فتحي في هذه الليلة كان احتفاظها بياسين إلى الغد.. استسلم لها على مضض.

طوال طريق العودة إلى الأحياء الخلفية، ظل الطفل ساكنًا سكون الموتى بينما تمنى هي نفسها أن يستنقذه لها آدم في الغد. صدرها يضيق ومصيره كمدجن يجول بخاطرها. تخشى الموت كثيرًا كثيرًا، يظل الموت مصيرًا أكثر رأفة من مصير المدجنين. ترعرعت على خشيتهم، كبرت وعملت مع سادتهم فبدأت في الأسى عليهم. تماثيل من لحم ودم يطيعون ويطيعون. الطرفة التي تحكيها النساء لبعضهن حول أن ذكورهم لا تنتصب إلا إذا أمروا كانت مضحكة لفترة، النادرة التي تهمس عن المدجن السابق الذي نسيته زوجته ممددًا على الشاطئ وعادت في الصباح لتجد أن المد قد ابتلعه مؤلمة على الدوام. لا بد أن ينقذه، لا بد.

أخبرها أنها ستشعر بالوحدة في البداية في البلاد الباردة، ياسين قد يجعل الوحدة أكثر احتمالًا أليس كذلك؟وهي تحتضنه في طريق العودة في سيارة فتحي شك جزء من عقلها أن آدم قد يعترض، قلبها كان موقنًا أن آدم لن يرفض أبدًا. أحاطته بالبطانية الأثيرة ذات الزهور الزرقاء، البطانية قديمة بقدم طفولتها. كانت تؤمن أن الأشياء تحتفظ بصفات أصحابها، أختها كانت تملك هذه البطانية، مهما أضحى الجو قارسًا ما إن تلتف بها حتى تبعث الدفء بأوصالها. دعت أن تعطيه ولو قليلًا من الحنان الذي يستحقه.

فتحت إيروشكا الباب برقة.. أطلت بوجهها المستدير الأبيض لترى إن كانت هاجر قد استيقظت بعد. ابتسمت حينما تلاقت أعينهما. خطواتها رشيقة رغم بدانتها التي تزداد مع الأيام. تهمس الفتيات بأنها كانت الفراشة رقم واحد دائمًا. شيء ما طيب في وجهها ينشر سحره في صورتها الهولوجرامية التي تظهر في إعلانات الملكة الحمراء. حتى في عمرها هذا حنان عينيها حقيقي أموي. زبائنها الآن مراهقين بالكاد تجاوزوا السن القانونية، يتكتلون في طلبها ليلة بعد أخرى.

التباعد بينها وبين الملكة جلي واضح، زاده الرحيل الحزين لآدم ومريم. السنوات التي تجاهلتهم أوكسانا فيها أضيفت إلى إيروشكا، تشعر الملكة بعمق أنها قد سرقت، هي من كانت تستحق الحب غير المشروط الذي كنه آدم للروسية الشقراء. تحقد الملكة كثيرًا، تحقد دائمًا. إيروشكا لا زالت مرغوبة ولا زالت استثمارا ناجحًا، ابتلعت أوكسانا لسانها منتظرة غروب عصر إيروشكا في تعجل. إيروشكا التي تعلم هذا لا تلق بالًا.

جلست على حافة فراشها، اختفت ابتسامتها وهي ترى مفكرة آدم بين يدي هاجر، جذبتها من يد هاجر في بحزم مكسو برقة، أحنت هاجر رأسها. الظلام بدأ في الانتشار، لذا بعد تبادل بعض العبارات توجهت هاجر إلى الحمام لاستحمام جيد. نظرت خلفها قبل أن تدخل لتجد إيروشكا تنحني على صورة آدم المراهق ذي الابتسامة الخجول، الصورة الوحيدة له في المنزل. أهدتها لها إيروشكا عن طيب خاطر في خضم السنة الأولى شديدة السواد لها هنا، والتي بدأت فيها بيع ما حاربت عمرها كله لتحفظه.

على عكس آدم لا تستحم هاجر سوى بالماء الساخن. القطرات التي تمس جلدها الناعم تحملها دومًا في رحلات متوقعة المكان وغير متوقعة الزمن.. أحيانًا إلى الطريق المترب بعد دوام المدرسة وهي تتسابق عدوًا مع صديقاتها. كانت وقتها تغمض عينيها وتتصور مدير المدرسة خلفها بعصاه الرفيعة التي تشق الهواء لتهبط على الجسد دون إنذار، أو تتصور جارهم في الطابق العلوي الذي يجلس دائمًا في شرفته عند الغروب بعينيه الماجنتين ليلتهم مشية شقيقتها. ما إن تسكن الصورة رأسها حتى تعدو.. تعدو أسرع من رفيقاتها، أسرع من ريح الشرق الساخنة.. تمس قدماها الصغيرتان الأرض بالكاد فتخال أنها ستكون قادرة في يوم ما على العدو فوق البحر نفسه... ما أحمق الأحلام.

هذه المرة تعرف أين سيحط بها ركب الذكرى، لذا تهيبت فتح الماء. وقفت عارية متجمدة، حتى تلمسها البرد بفظاظة فأصدرت الأمر مجبرة..

ـ ماء ساخن.

تندفع القطرات من كل مكان لتلفها وهي في المنتصف، إعصار ساخن مدوخ. ثانية تلو الأخرى وهي تنتظر حتى تصل الحرارة إلى باطنها المتجمد، فتسيل أفكارها.

- تمسك بيدي جيدًا.

قالت لياسين قبل الانفجار. لا زالا في حيز المدينة، على الشاطئ المهجور. اليونانيون بشعورهم الناعمة يجهزون طوافتهم القادرة على التسلل دون أن تكشفها الرادارات. تلقت أكثر من نظرة معجبة، بدلًا من أن يملأها هذا ثقة بجمالها، بث فيها قدرًا غامضًا من التوجس. نظرت إلى ساعتها التي أهداها آدم لها كوعد سري بخاتم زفاف مستقبلي. الساعة تجاوزت العاشرة بالفعل.. تأخر آدم. كأنما غيابه المتفق عليه في الأيام الماضية ليس بكاف، يثير قلقها أكثر بتأخره. سبب آخر لأرق الأمس لم تدركه سوى الآن داعبت شعر ياسين الناعم، والذي نال استحمامًا جيدًا لم ينله على الأرجح منذ أن ولد. رفع رأسه إليها صامتها، عيناه الواسعتين تخبراها أنه لم يتعلم هذا الخرس سوى مؤخرًا. في حدقتيه انعكاس تعرفه جيدًا، انعكاس من نضج قبل أوانه بكثير. سمعت الهدير المصحوب بالحرارة لدوران محركات الطوافة.. دفقة الهواء المفاجئ رفعت تنورتها إلى ما فوق الركبتين. أوقفت تطاير التنورة بيد واحدة.. حينما سمعت الضحكات المكتومة لليونانيين التفتت بغضب. غمغمت بانفعال:

- الرجال!!

تصلب ياسين هو من أعاد بصرها إلى حيث كان. ظهرت سيارة مثيرة الكثير من الغبار فتنهدت براحة.. هذه الثوان الخمس من الأمل.. الثوان الخمس من الانعتاق، خمسة خناجر من الذكرى تنغرس في

قلبها حتى المقابض.خمس ثوان قبل أن تدرك أن من يقود السيارة هو فتحي وليس آدم. كورت قبضتيها تحت إعصار المياه الساخنة الآن، تمامًا كما فعلتها منذ سنوات حينما اقترب فتحي منها بمقدمة رأسه الصلعاء، وأسنانه التي تبرز مهما حاول حبسها. اختبأ ياسين خلفها، قلوب الأطفال تدرك قبل عقول الكبار، لم تنفصل بعد عن السماء لم تغمر بتراب الأرض وكذب الناس.

- لن يأتي يا هاجر.

في عينيه رأت النار تشب في حلمها الصغير وتلتهمه.

- أين هو؟

- لن يأتي.

قبضت بيدها الحرة على كتفه، شعرت بالنتوء الحاد لعظمة كتفه.. سألت مجددًا:

- أين هو؟

لأول مرة منذ عرفته صغيرًا قاسيًا، تراجعت عيناه أمام نظرتها. ارتجف النتوء العظمي، غمغم بصوت خفيض لكنها لا تزال تذكر كل اهتزازة مسمومة فيه.

- مات.

تركته وتراجعت للخلف. طوفان مختلط من المشاعر أغرقها.. تجمدت شفتيها فلم يمكنها سوى أن تشهق. خطوة أخرى للخلف مبتعدة عنه، تخلص هو من رجفته. اقترب منها وهو يتكلم بسرعة حتى أن قطرات من لعابه تناثرت حتى بلغت قميصها.

- لا تزيدي في الحمق، لم يكونوا ليتركوه يخدعهم، لم يكونوا ليتركوه يهرب. لا يعلم أحد حتى الآن بعلاقتك به. عليك أن

تأتي معي، لنتظاهر بأن كل شيء على ما يرام وستكونين في أمان. هناك فرص كبيرة في العمل لي الآن يا هاجر، قليل من الصبر وسنستطيع أن نسكن المدينة ونبتعد عن الأحياء الخلفية للأبد.. أليس هذا حلمك منذ الصغر؟أستطيع الآن أن أحققه لك، هيا بنا لا بد لنا من العودة.. لن يمضي وقت طويل قبل أن يأتوا إلى هؤلاء اليونانيين.

ارتجفت كلهيب شمعة على مشارف الانطفاء. كل كلمة قالها تحفظها الآن، للغرابة وقتها لم تفهم نصف ما قاله. العقل يعمل بأعجب الصور أحيانًا. مد يده حينما لم تجبه، ما إن مسها حتى شعرت بجلدها كله يقشعر. أطاحت بيده المتلهفة.. لن تعلم أبدًا كيف بزغ السؤال من عقلها لتقذفه شفتاها.

- كيف عرفوا أنه سيرحل؟

كان يمكنه أن يكذب بسهولة، كانت لتصدقه. ما الذي أجبره على النطق بالحقيقة؟

- أنا أخبرتهم.

كلما استرجعت هذه اللحظة في عقلها، امتلأ مخها بالصراخ، بالسب.. بملايين الكلمات التي كان يجب أن تقال. الحقيقة المخزية أنها خرست، لم تنطق بكلمة واحدة.. الطعم المر للخيانة يحرق فمها، يصيبها بالشلل.

- لن تكوني لأحد سواي يا هاجر.

كشف وجهه الحقيقي. لم تره قبيحًا قط قدر ما رأته عند النهاية.. لم تعلم ما تفعل وهو يقترب منها ببطء، وياسين يزداد التصاقًا بها. في هذه اللحظة دوى الانفجار الأول.

ترددت طرقات إيروشكا الرقيقة على باب الحمام، فأجفلت. لثانية بدا كصدى حقيقي لهجوم الفئران المميت.

- enough.

قالتها بالإنجليزية، فتوقفت المياه على الفور. تجعد الجلد على أصابع يدها دليل على طول الوقت الذي استغرقته الذكريات والمياه الساخنة.. تنشفت بدقة وآلية.. ارتدت رداءً قطنيًا أبيض ناعمًا. خرجت لتبدأ المرحلة الثانية من الاستعداد للعمل.

- الوحدة دوامة مهلكة، لا تستسلمي لها.

قالت إيروشكا وهي تنظر إلى المرآة حتى لا تتلاقى الأبصار فتنكأ المزيد من الجراحات. ابتسمت هاجر بجانب فمها وهي تجلس على الفراش، وتبدأ في طلاء أظافر يديها. بعد دقيقة شعرت بيدي إيروشكا على أظافر قدميها.

في كل وقت ممكن تلازمها إيروشكا. منذ البداية الأولى، عندما وصلت إلى هنا مرتجفة مذعورة يائسة.. بإنجليزيتها السقيمة كانت معجزة أن تعبر كل الطريق عبر القطار فائق السرعة من اليونان إلى أمستردام. جلبت معها خبر آدم الأسود كذلك. توقعت أن تطردها أوكسانا لتموت وحيدة وسط البرودة التي لم تر مثلها من قبل... لولا إيروشكا.

«مرفأ المعطوبين الأشقر» هي بلا شك المقصودة في شذرات آدم الصغيرة والتي تركتها لها بجوار سريرها بعد ليلتين من وصولها إلى هنا، قبل شهرين من طرح أوكسانا للأختيار الذي ظلت طوال عمرها تهرب منه.

- ساعتان قبل بداية الليلة، عليك أن تتناولي شيئًا من الطعام الآن قبل أن نبدأ بالماكياج.

الخبرات هنا مهمة للغاية، الإفراط في الأكل بينما يعتليك رجل تلو الآخر باعث خطير على القيء.. أوكسانا لا تتهاون مع أخطاء كهذه. عدم الأكل من ناحية أخرى تبدو آثاره المرهقة على الوجه الذي يجب دائمًا أن يكون متألقًا، مستمتعًا حتى لا يفسد الخيال الذي دفع ثمنه مسبقًا.

في ليلتها الأولى بكت كما لم تبك في حياتها قط. بكت شرفها، وآدم، وياسين، والمدينة وكل الذين رأتهم ولا تعرف أسماءهم، أحبتهم من كل قلبها رغم ذلك.

الرجل الأصلع الذي يلهث وهو راقد على بطنها، ويمطرها بعرقه الثخين.. كان مستغرقًا في نشوته حتى أنه لم يعرف أنها تبكي إلا قبيل الانتهاء. ازداد إيلاجه عنفًا فعبر صراخها المتألم الحوائط إلى مكتب أوكسانا. غاضبة جلست بجوارها وأظافرها القرمزية تحتك ببعضها مصدرة صوتًا لا يحتمل. حذرتها من تكرار نوبة البكاء الحمقاء هذه. لن تعني المرة القادمة سوى الطرد إلى الشوارع المدفونة تحت الثلوج دون أوراق تحميها. أخبرتها أنها كادت أن تقوم بهذا بالفعل لولا أن الزبون -لحسن حظها- قد أعجبه الأمر.

- بعد كل شيء أنت عذراء في الثالثة والعشرين من العمر بحق السماء. الفتيات لا يحتفظن بعذريتهن بعد الخامسة عشر، أنت محظوظة لتجدي من يدفع هذا المبلغ لفض بكارتك.

- محظوظة!!

ابتلعت الكلمات في صبر صارت خبيرة فيه. لاحقًا أتت ايروشكا متسللة على أطراف أصابعها لتواسيها. ظنت هاجر أنها ستذيب عيناها من فرط البكاء. لكنها لم تستطع ذرف ولا حتى دمعة واحدة.. هناك جزء من روحها تم التهامه، وما تبقى بدأ في التيبس ليلة بعد ليلة..

ـ أترك يدها أم تركت هي يده؟

الهواء الساخن يتخلل شعرها شاقًا طريقه إلى فروة رأسها حتى الجذور. أمع السخونة يأتي السؤال؟

تغلق أخيرًا مجفف الشعر وقد استطالت كل شعرة في رأسها. ضاع شكلها القديم مع كل شيء آخر.

ـ دعيه ينسدل كجمة وحشية، لبؤة قادمة من الصحراء.. هذا ما يرغبون فيه.

قالت أوكسانا وكانت محقة.. يتهافت الزبائن على صورتها الهولجرامية في الألواح الدعائية التي تتفن فيها أوكسانا. لم تلبث أكثر من ثلاثة شهور وقد صار لها زبائن دائمون، يتذوقون عرقها الساخن، يرجونها أن تشتمهم بلغتها الشرقية التي لا يفهمونها، وهم ينهشون حلماتها بأسنانهم ذات البياض الناصع الاصطناعي. كانت تسب وتلعن بكل قواها وهي تشعر بكل لمسة على بشرتها، حبر سري من دنس هي فقط من تراه، ولا يمكن محوه مهما تحممت.

سرير استباحتها دائري من أبنوس، وثير حتى أنها تشعر بالغرق كلما استلقت عليه. من الجدران تأتي موسيقا لطبول زاعقة، وشموع معطرة مشتعلة بلا عدد، تتماوج شعلاتها لترسم ألف ظل على الجدران. هكذا يرون الشرق في مخيلتهم، هكذا تجعلهم أوكسانا يدفعون ويدفعون. بعض الرجال يدفنون رأسها في الوسائد، معظم الرجال يشتهون وجهها

المتعرق وشعرها الكثيف. هذه لحظات خطرة.. السقف العالي يترافص الوهج البرتقالي المنعكس عليه، فيزل عقلها ويسقط. تبحث اللحظة الفارقة من جديد.

أوكسانا تراقب، لا تعلم كيف تفعلها، لكنها تراقب كل فراشة أثناء العمل. إن لاحظت شرودها، إن شكاها العميل ستجعلها أوكسانا تعاني، أوكسانا تعرف كيف تجعل الفراشات تعاني. تحاول القبض على حواف الفراش حتى لا تسقط في بئر الذكرى، يداها لا تمسك سوى القطن الحريري المخادع الذي ينزلق، تحاول تفادي النظر إلى السقف المتوهج بلا جدوى. كل الفراشات تطير صوب اللهب في النهاية..

ارتجت الأرض واستعلت نيران هائلة، حتى وهي على هذا البعد من بوابة المدينة المحطمة استطاعت أن تراها. صرخ ياسين وفزع فتحي. دوى انفجار آخر وآخر. شعرت داخلها أن هذه ليست ضربات عسكرية عادية، هذه ضربات كراهية، انفجارات من مقت أسود متقيح. الذهول في عيني فتحي كان واضحًا، وهو يهمس لنفسه بصوت مسموع:

- هذا لا يمكن.. لا زال أمامهم أسابيع.

انفجار آخر احسوا به أقرب مما سبقوه. لا مكان لتخمين سوى أن المهاجمين قد عبروا بوابات المدينة.. الصفير الحاد يملأ السماء، يكاد أن يمزق طبلة الأذن. رأت القذيفة الحمراء تكاد أن تمس السحب، راسمة نصف قوس من لهب. تجاوزت القذيفة وسط المدينة قبل أن تهوي وتنفجر بعيدًا.. في الأحياء الخلفية..

صرخ فتحي:

- أمي...

تخيلت هي الناس التي تعرفهم - التي تسللت مع ياسين بعد الشروق حتى لا يرونهما- وهم يحترقون. التفت إليها فتحي برعب،صرخ فيها:

- هيا يا هاجر.

رغم الفزع الذي يلتهم أحشاءها، بصقت في وجهه وهي تصرخ:

- اذهب إلى الجحيم.

تجمد لثانية أوثانيتين في عدم تصديق، في انكسار. الانفجار التالي أخرجه من جموده. انطلق ناحية السيارة بأقصى سرعة له. هل لمحت دمعة ساكنة في حدقته.. لم تهتم. هي الأخرى عليها أن تتصرف. سحبت ياسين خلفها غير آبهة بصرخة الألم الصغيرة التي خرجت منه. اندفعت إلى حيث اليونانيين الذين تجاوزوا مفاجأة الهجوم وبدأوا في تحميل الطوافة.. استوقفها عملاق ذو شعر أسود ثائر، كفه المفرود في وجهها لا يحتاج إلى ترجمة.. كلمته بالإنجليزية في البداية، دون أن تبدو على ملامحه الغليظة أي بوادر فهم. مع الانفجار الجديد الذي أتى على مقربة فقدت رباطة جأشها. تحول حديثها إلى صراخ بالعربية مما زاد الطين بلة.. حاولت العبور من جانبه لكنه أحاطها بذراعين هائلين، رفعها من مكانها دون جهد كأنها رضيعة، أعادها بالضبط إلى حيث كانت. اختل توازنها فسقطت صارخة على الأرض. التقط ياسين حجرًا صغيرًا، صوب بمهارة فائقة إلى رأس العملاق. انفتح جرح خفي في فروة رأسه. الدم الغزير الذي أطلقه كان مرئيًا.

ما الذي يفعله الخطر الموشك بعقول البشر؟اشتعل الغضب في عين اليوناني الضخم وهو يندفع ليقبض بقسوة على عنق ياسين الذي لم يستطع مراوغته. هذه المرة هي من قفزت لتغرس أسنانها في العضلة

النافرة للرجل.. عوى بشدة واضطر لإفلات ياسين. يده التي صارت حرة هوى بها في صفعة هائلة نزلت على وجنتها كانهيار صخري فغامت. انتبه أخيرًا باقي الطاقم المشغول بتحميل الطوافة.. ظهر رجل قصير تمتلك عيناه الخضراوان تأثيرًا قياديًا.. كان هوقبطان الطوافة..

خرج الكلام من فمه متتابعا لكنه لم يصل أبدًا إلى أذني هاجر، بالاضافة إلى عقلها المرتج من إثر الصفعة تعالت أصوات معركة حامية من قلب المدينة.. مد القبطان يده فساعدها على الوقوف، أمر رجله بالتراجع، حدق فيها الضخم في غيظ قبل أن يتراجع فعلًا.

- اعتذاري يا آنستي.

قال بعربية مفككة، تابع:

- إيفانجلوس هو.. هوبسيط العقل كما ترين.

- مستر آدم قد دفع لكم لنقلنا من هنا.

- بلى آنستي بالطبع هو فعل.

- لترحل بنا إذن.

- وأين مستر ادم؟

- لقد.. هو.. هناك بعض الأعمال التي عليه تنفيذها، لذا لن يأتي.

نظر لها القائد بشك. عيناها الواسعتان لا تستطيعان الكذب، سالت الحقيقة منها مع دمعها الصامت.

- حسنًا.. يمكنك الركوب معنا، فقط عليك أن تسرعي.

قال وهو يشير إلى حيث النيران التي بدأت في الانتشار في كل مكان في المدينة.أومأت برأسها موافقة، عادت لتمسك بيد ياسين الذي قبض على صخرة جديدة في تأهب.

ـ آنستي.. اتفاقنا مع مستر آدم يشمله ويشملك فقط، لا وجود لهذا الصغير.

ـ ماذا تعني؟

ـ لا يمكنه الصعود إلى الطوافة..

ـ ماذا؟

ـ آنستي ليس هناك الكثير من الوقت، سنرحل سريعًا.. يمكنك أنت الرحيل معنا إن أردت، الصغير لا يمكنه للأسف.

ـ لكنه طفل.

ـ لا توجد أوراق له، مستر آدم صنع أوراقًا لك فقط. الشرطة في اليونان لا تتساهل في جلب مهاجرين غير شرعيين.

ـ يرحبون بأعضائهم موتى، ولا يمكنهم تقبل الأحياء؟

ـ هكذا يسير العالم، آسف آنستي.. اتخذي قرارك بسرعة..

قالها وابتعد عائدًا إلى طوافته ورجاله. أشار بيده للبعض وهو يصيح بلغته التي لا تفهمها. ظهرت بنادق معدنية كبيرة، وجهها الطاقم ناحية المدينة المشتعلة والتوتر يملأ ملامحهم التي شوهها القلق. التفت اليها القبطان مرة أخيرة وصاح بأعلى صوت له ليتغلب على ضجيج القتال:

ـ احسمي أمرك بسرعة، سنغادر بعد دقائق.

وقفت لدقيقة كاملة كالبلهاء. أسقط في يدها تمامًا. كل ما فكرت فيه كان هو، بملامحه الوسيمة المتعبة، ابتسامته الواثقة الأخيرة وهو يودعها دون أن تعرف أنها المرة الأخيرة التي ستلمسه فيها، المرة الأخيرة التي ستشعر بدفء يده القوية وهي تضغط كفها الغض في حنان. خرج اسمه تلقائيًا كالدعاء من بين شفتيها:

ـ آدم.

اسمه إزميل عملاق هوى على رباطة جأشها الزجاجية فحطمها إلى ملايين القطع المتناثرة.. مات حقًا وتركها؟أحست بما يجذب تنورتها، التفتت فلم تر شيئًا وسط دموعها المنهمرة، التي انفجرت في أسوأ وقت ممكن.

ـ هاجر.

للمرة الأولى منذ التقته يناديها. عصرت بظهر كفيها عيناها لتنفض أمطارها المالحة.. واقفًا بجوارها يرتعد وأصبعه الصغير يشير إلى نقطة ما.

ـ الفئران.

لم تفهم أية فئران يعني، لا زالت غير قادرة على الرؤية، والفئران هي آخر متاعبها في هذه اللحظة.. جذبته من يده وهي تؤكد لنفسها أنها لن تتركه. سارت مبتعدة عن اليونانيين المتأهبين. الرمال تتسلل إلى داخل حذائها الذي لا يناسب الشاطئ والذي ارتدته لتبدو جميلة في هذا النهار. دون هدى تقدمت، عقلها يترنح بين عشرات الاحتمالات. جزء ضئيل من عقلها يلومها على عدم الذهاب مع فتحي، جزء خبيث يتكلم عن النجاة وعن اليونانيين. جزء ينوح على آدم، حلمها الذي أجهض قبل أن يبدأ.

مهما حاولت لا تستطيع التذكر كم من الوقت قد سارت ممسكة بياسين. بحساب المنطق لا يمكن أن يكون أكثر من خمس دقائق، بحساب ما شعرت به كانت قد سارت أعوامًا دون جدال. كلما تقدمت تسلقت أنفها روائح الدم والمعدن والنار.. النار برتقالية حارة، رأيتها بعينيها تلتهم أسفلت الطريق فتوقفت.

تنغرس أسنان العميل في نهدها الأيسر، يرتعش جسده وهو يفرغ شهوته بداخلها. في هذه اللحظة عليها التأوه، عليها أن تعض شفتيها، على عينيها أن تتوها. النهايات هي ما يعلق بالذاكرة، النهايات الجيدة تجعلهم يعودون مرة أخرى. لاهثًا رفع الرجل رأسه ليرى ما يرتسم على ملامحها من استمتاع مصطنع أتقنته تحت تدريب متكرر. الابتسامة المزهوة على ركن فمه، إعلان عن ابتلاعه الكامل لما يراه ورضاه عن العمل. خمسة آلاف يورو ستعود مرة أخرى إلى خزينة الملكة بكل تأكيد. جلس دقيقة عاريًا متأملا الوجه الشرقي الأسمر ذا النمش، شاعرًا بالفخر وقطرات العرق الساخن تنزلق على الجسد الناعم. ابتسمت له برقة تحمل رضا الاستمتاع، فاتسعت ابتسامته وهو يقف ليرتدي ملابسه.

- سأعود.

- لا أستطيع الانتظار.

بحة صوتها الطبيعية، ولكنتها الشرقية المتكسرة، سيحتلان جزءًا كبيرًا من أفكاره لليال قادمة.. سوط سحري يلهب جسده حتى يأتي للزيارة مرة أخرى، وأخرى.

سجنت شعرها تحت طاقية بلاستيكية وهي تذهب إلى الحمام للاستحمام قبل الزبون القادم.

- عليك أن تشعريهم دومًا أنك طازجة، كل منهم يجب أن يقتنع أنه أول من يمسك هذه الليلة..

العمل في البيت أكثر إرهاقًا بما لا يقاس من الأيام التي يحجزها فيها أحدهم لليلة كاملة بالخارج. لكنها تفضل إرهاق المكوث عن

اغتراب الخارج، حيث يطبق البرد والأسمنت والسماء السوداء دائمًا على روحها، فتشعر أنها وحيدة حقًا، غريبة حقًا، مخطئة حقًا.

جدار الحمام يتألق بأرقام ترقص تنازليًا، لا تعطي أوكسانا أكثر من خمس دقائق للراحة بين العميل ومن يليه. الأرقام حمراء دامية، بخار الماء المتصاعد يشوش الرؤية فتبدو لعينيها كأنها تسيل، قطرات دم على الحائط. دم.. دم.. دم.

يعقب الانفجار موجة من التضاغط، تقذف بكل شيء إلى الوراء. لم تعلم هذه الحقيقة إلا عندما دفعتها موجة غير مرئية إلى الخلف. كانت بعيدة عن الانفجار لحسن حظها. عرفت هذا عندما رأت جسد المدجن وهو يطير في الهواء دون نصفه الأسفل عابرًا من فوق رأسها تمامًا قبل أن يسقط ليتكفن بالرمال. هطلت قطرات دمه فوق رأسها كالأمطار. أمطار ثخينة دافئة لزجة.. قطرة خبيثة عبرت فمها المفتوح لتسقط فوق لسانها تمامًا. طعم الدم! ارتفعت عصارتها الهضمية إلى حلقها ما إن تذكرت الطعم المقزز. فتحت فاها ليغسل ماء الاستحمام الذكرى الصدئة..

تسقط الثواني التي تلت الانفجار من مخزن عقلها الملتهب. تذكر فقط رقودها وراء كثيب من أسفلت وركام خلق حديثًا. وعيونها ترى الأشكال الشائهة لكائنات تشبه الرجال تصرخ في ابتهاج هائج. وميض نبضات الليزر الزرقاء والحمراء تعصف بالأرض والأحجار والسماء بعشوائية مخيفة.. ثلاثة مدجنين يقفون باستسلام عجيب وسط النار والفوضى.. زفير معدني يرج الأرض رجًا، يؤذن بظهور هوفركرافت غريبة، مرقعة بعشرات القطع المعدنية مختلفة الألوان، موشومة بمئات الرسوم القبيحة البشعة، على حوافها الظاهرة تم تثبيت بضعة رؤوس،

لا زالت الخوذات الزرقاء فوقها. تقدمت الهوفركرافت وسط التهليل المشجع للكائنات المهتاجة لتصدم المدجنين المتجمدين، فتسقطهم أرضًا تحت نفاثاتها الملتهبة، فتسيل ملابسهم وجلودهم ولحومهم. لم تعرف في حياتها مثل هذا الفزع، لا هول يضاهي هذا حتى في أقسى الكوابيس. السماء حمراء بلون الدم، النار حطمت قيودها فتلتهمُ العالم بوحشية، الجحيم صار حقيقيًا.. لا قيامة ولا حساب، ولا خلاص. حين دارت الهوفركرافت لتتقدم إلى الناحية التي تراقب هي منها، بدأت تعدو بأقصلا ما يمكنها من حيث أتت.

كيف نسيته.. هل حقًا نسيته؟كانا سويًا، عندما تجسد كل هذا الهول على الأرض تراه ترك يدها،أم تركت هي يده؟

وصلت. فاقدة أنفاسها إلى اليونانيين الذين كانوا على وشك الرحيل بالفعل. ظلت تلهث طويلًا، طويلًا. لسانها في خدر يمنعها من أن ترد على أسئلتهم. أول كلمة خرجت من فمها كانوا فوق منتصف البحر بالفعل. أعطاها القبطان فستانًا جديدًا، منحها مكانًا للاستحمام.

عند الوصول، ظل القبطان واقفًا بجوارها متوترًا، كانت هي تحت تأثير الصدمة، لم تستوعب بعد ما رأته، ما فعلته. بطاقة الهوية المزورة التي جلبها بناءً على رغبة آدم استقرت في الماكينة الآلية لثوان عشر، تأهب خلالهما للأسوأ قبل أن يعلن الضوء الأخضر للماكينة جودة التزوير.

شاهدها وهي تخطو إلى داخل القطار الفضي فائق السرعة، المتوجه شمالًا عبر جسد أوروبا. اختفى من أمام ناظريها ما إن تطلقت دافعات القطار الهادرة.. اختفى لتبدأ ساعات بلا عدد من الذكرى والندم والخوف.

أنهت كل زبائنها قبيل الفجر. الوجع ما بين ساقيها يشتد مع الحركة.. الحبوب التي أعطتها إياها إيروشكا لتسكين مثل هذا الألم تستقر كما هي فوق الرف الطافح بأدوات الماكياج كما هي لم تمس. كلما اشتدت حدة الألم سكن ذنبها وسؤالها. ألقت بجسدها المنهك المنتهك على الفراش البارد.

فتحت أوكسانا الباب دون أن تطرقه. أطلت برأسها ذي الشعر الأحمر، وعينيها الكارهتين. أطلقت كلماتها الجافة عن عدم سعادتها بأدائها الليلة.. أومأت هي في خضوع مستسلم فغادرت المرأة دون كلمة أخرى. علمت منذ البداية أن المرأة لن تتقبلها مهما مرت السنون، في كل مرة ستراها سيذكرها وجهها الشرقي بابنها المسلوب. لولا أن غريزتها التجارية تفوق كل شيء ما سمحت لها بعبور باب المنزل، قادمة من العدم جالبة بؤسها وخبر آدم. كم مر من الزمن.. عامان، ثلاثة، سبعة، عشرة.. الموتى لا يموتون حقًا إلا بقدر ما ننساهم. ولا أحد من النسوة الثلاث تبدو قادرة على نسيان آدم، لكل منهن نسخته الخاصة منه.

انتظم تنفسها مع طول رقادها.. إيروشكا لم تنتهي من عملها بعد، دائمًا ما تأتي لتجلس معها قليلًا فور الانتهاء. فكرت للحظات في إغلاق عينيها لتنام، لكنها تخشى كثيرًا لحظات ما قبل الغفوة هذه. حينما يصبح الخيال حقيقيًا بطعمه الصدئ وحوافه المسننة المؤلمة.. مدت يدها إلى صندوقها الصغير أسفل الفراش. هنا بقايا هاجر القديمة قبل أن يمضغها الزمن وعرق الرجال.

صخرة صغيرة من الوطن اكتشفتها في حقيبتها، الهاتف القديم الذي لا يحمل سوى رقم آدم، الساعة الفضية التي تهشم غطاؤها الزجاجي، قطعة من فستان اليوناني، القصاصات الصغيرة التي

احتفظت بها من الصحف القليلة التي تكلمت عما حدث هناك في الجنوب. كلمات عن قطاع طرق صحراويين يذبحون مدينة بأكملها. صورة ملونة من الأعلى للأحياء الخلفية المحترقة.. تقرير بعنوان هجوم الروس المنتصر. صورة أخرى لوجه بشع ذي أسنان نافرة، بعين مفتوحة وأخرى مفقودة، والدم يسيل من كسر بشع في جمجمته يستلقي بجوار حذاء لامع لضابط مبتسم تحت عنوان فرعي «مقتل الغول». قرار المحكمة الاقتصادية الأوروبية بتغريم شركات التأمين خمسمائة مليون يورو للسيد ألفريد كانينجهام نتيجة نهب استثماراته في الجنوب.

توقفت عن تقليب الأوراق ما إن سمعت الطرقات الرقيقة.. دخلت إيروشكا بخطوات بطيئة وابتسامة دافئة.. اقتربت من هاجر التي لم تستطع الاعتدال في فراشها. نظرت ايروشكا إلى المسكنات على الرف، ثم على الصندوق المستقر على الفراش. أطلت نظرة لائمة من عينيها الزرقاوين.

- لم أستطع المقاومة..

قالت هاجر وهي تشم العطر الجميل، وإيروشكا تنحني عليها وتقبل جبهتها.

- النظر إلى الماضي لا يجلب سوى الألم يا صغيرتي.

- الألم جزء مني.

لم تعارضها إيروشكا كثيرًا. هاجر فاجأتها أكثر من مرة وهي تحتضن صورة مريم، أخت آدم المنتحرة، بينما تنحني باكية أمام صليبها الأثير القديم، الذي يقف متعبًا وسط عشرات الأيقونات المنمنمة الملونة..

أحبت إيروشكا مريم أكثر من أي شيء، أكثر حتى من آدم نفسه. لم تعرف هاجر الكثير عنها ولم تستطع، كلما انزلق الحوار ناحية ما جرى تصمت إيروشكا عازفة عن الكلام. لآدم يد في هذا الأمر، عتاب عميق في مقلتي إيروشكا يظهر عند السؤال عن علاقة الأخ بالأخت. ظل ما جرى سرًا غامضًا على هاجر. إيروشكا طيبة رقيقة جدًا، لكن إن قررت الاحتفاظ بسر كان عنادها أسطوريًا.

- بعد غد سنذهب للتنزه في حدائق كيونكهوف التي أعجبتك في المرة السابقة..

أومأت هاجر برأسها موافقة..

لسنوات قادمة ستكون هذه الحدائق هي ملاذها الوحيد. ستجلس على نفس الجانب الأيسر من المقعد الحجري. ستموت إيروشكا دون مرض بعد عامين، نائمة في فراشها، وسيظل الجانب الأيمن من المقعد الحجري شاغرًا في أعين الناس، مشغولًا في رأس هاجر. بعد وفاة إيروشكا بمدة ستبدأ هاجر في التحدث مع الجانب الخالي بصوت خفيض في البداية.. الزمن خبيث قاس، بدهاء يطمس الفرق بين ما هو موجود وبين غير الموجود.

ستراقبها أوكسانا وقد بلغت الشيخوخة الداخلية، وإن ظل جسدها على شبابه بعين لا تطرف. ستكون أول من يشك في التدهور البطيء لعقلها، طويلًا قبل أن يلاحظ الزبائن ارتجافات جسدها الخائف وهي تحملق في رقصة النيران المتهالكة على السقف، أو يسمعون تمتماتها الشرقية الغريبة النزعة بينما يمضغون هم جسدها ويبصقونه.

سيظل الأمر محتملًا لشهور وسنوات. جاذبية غريبة تسكن الجسد الأسمر والشعر البني الكثيف الثائر، لا زالت تملأ خزانة أوكسانا ليلة

بعد ليلة.. ربما كان الأمر سيستمر لوقت أطول لولا اليوم الذي رأت فيه هاجر الطفر الصغير ذا العينين البنيتين الواسعتين، الواقف وسط الحديقة أمام مقعدها الحجري يفتش عن أمه التي تركته لدقائق.

سيقول الطبيب في تقريره أن تمييزها بين الحاضر والماضي قد تلاشى وأمسى وجودها حرة خطرًا على نفسها وعلى الناس. لم تعلم خطورة ما هو قادم حينما وقفت في لهفة لتحتضن الطفل الذي بدأ في الصراخ، قبل أن تأتي أمه مسرعة.. اضطر أمن الحديقة ذوو الملابس الزرقاء إلى استخدام القليل من العنف حتى يتمكنوا من التفريق بين يدها المتقلصة ويد الطفل، التي استقرت عليها كدمة زرقاء من شدة الضغط..

التقرير الذي ستستلمه أوكسانا في نهايته خيارين للعلاج، مستشفى خاص بتكلفة معقولة، والمصحة الحكومية الصغيرة المجانية الواقعة في أطراف المدينة.. سرعة اختيار أوكسانا للخانة رقم اثنين كان مثيرًا للإعجاب.

من بين العلاجات الاكاديمية قليلة الجدوى، العلاج بالرسم هو أكثر ما سيجذب انتباهها والذي صار متقلصًا ضئيلًا. مئات الأوراق لن تحوي سوى رسم وحيد ليد صغيرة تمسك بأخرى كبيرة على خلفية حمراء نارية.. بعض المنمنمات بخط شديد الرقة أسفل اللوحات المريضة.. لن يهتم أحد بالتدقيق فيها طالما ظلت هاجر على هدوئها وصمتها المريح للممرضات والأطباء غير المبالين. لن يعرفوا أبدًا أن النقوش الجميلة لم تكن سوى اعتراف من العقل الباطن الذي أعطبه الذنب تمامًا. لن تكون النقوش سوى أربع كلمات تتكرر دون توقف، دون مسافات.

ـ أنا من تركت يده.

الأرض الخراب

-هل يحلم الموتى؟
أتاه صوت ياسين مفاجئاً، التفت ليجد عينيه اللوزيتين الداكنتين، مستيقظتين حائرتين.
-لا أعلم..ربما.
عاود الحاق وجهه بالنافذة، كل نظرة إلى وجه ابنه تذكره بما فعله.إن أطال النظر إليه سيبكي...لا أب يجب أن يبكي أمام طفل
-بم يحلمون؟.
أمسك بذراع ياسين..كانت ترتعش، الصغير يعلم.ترى هل يخافه أم يخاف عليه.حدق اسماعيل في الظلمة البعيدة الراسخة، لايستطيع ضوء أن يقهرها.مرت بذهنه وجوه أمه وسعاد وزهرة وراضية وصابرين، قبور معتمة بلا عدد تفغر أفواهها في الليل.
-بالشمس.